حَيـــاةٌ واحِدَةٌ لا تَكْفِي

ذِكْرَياتٌ أدبيةٌ وفُصُولٌ ثقافيةٌ عن القِراءةِ والكُتُب

حسين محمد باقفيه

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

برنامج النشر الرقمي
Digital Publishing Program

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

حَيَاةٌ واحِدَةٌ لا تَكْفِي

حسين محمَّد بافقيه

ذِكْرَيَاتٌ أدبيَّةٌ وفُصُولٌ ثقافيَّةٌ عن القِراءةِ والكُتُب

1445هـ = 2023م

الإِهْدَاء

إلى أُسرَتِي الَّتي نَبَتُّ فيها:

سِتِّ الْحَبايِبِ أُمِّي فايزة بنت أحمد الثَّقَفِيّ حَفِظَها اللهُ

وأَشِقَّائِي

إحسان وخديجة ومُحْسِن وسامِي حَفِظَهُمُ اللهُ

وإلى أُسرَتِي الَّتي كَوَّنتُها:

زَوْجَتِي سناء بِنْت عَلَوِيّ بافقيه

وأبنائي

خالِدة وهاشِم ونَوَار حَفِظَهُمُ اللهُ

أنتُمُ الشُّهَدَاءُ عَلَى حُبِّ القِرَاءَةِ وعِشْقِ الكِتابِ

لَسْتُ أَهْوَى القِرَاءَةَ لِأَكْتُبَ، ولا أَهْوَى القِرَاءَةَ لِأَزدادَ عُمْرًا في تقديرِ الحِسَابِ..

وإنَّما أَهْوَى القِرَاءَةَ لِأَنَّ عِندي حَيَاةً وَّاحِدَةً في هذهِ الدُّنْيَا، وحَيَاةٌ وَّاحِدةٌ لَّا تكفِينِي، ولا تُحَرِّكُ كُلَّ ما في ضميري مِنْ بَوَاعِثِ الحَرَكَةِ.

والقِرَاءَةُ دُونَ غَيْرِها تُعْطِينِي أَكْثَرَ مِنْ حَيَاةٍ وَّاحِدَةٍ في مَدَى عُمْرِ الإنسانِ الواحِدِ؛ لأنَّها تَزِيدُ هذهِ الحياةَ مِنْ ناحِيَةِ العُمْقِ، وإنْ كانَتْ لا تُطِيلُها بمَقادِيرِ الْحِسَابِ..

عَبّاس محمود العَقَّاد[1]

وقال [محمَّد] بْنُ الْجَهْمِ: إذا استحْسَنْتُ الكِتابَ واستجَدْتُهُ، ورَجَوْتُ مِنْهُ الفائِدَةَ ورأيْتُ ذلك فيهِ – فلَوْ تَرانِي وأنا ساعةً بَعْدَ ساعةٍ أَنْظُرُ كَمْ بَقِيَ مِنْ وَّرَقِهِ مَخَافَةَ استنفادِهِ، وانقِطاعِ المادَّةِ مِنْ قَلْبِهِ، وإنْ كان المُصْحَفُ عظيمَ الْحَجْمِ كثيرَ الوَرَقِ، كثيرَ العَدَدِ – فقَدْ تَمَّ عَيْشِي وكَمُلَ سُروري(2)

وسَمِعْتُ الْحَسَنَ اللُّؤْلُؤِيَّ يقولُ: غَبَرْتُ أربعينَ عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتَّكَأْتُ إلَّا والكِتابُ موضوعٌ عَلَى صَدْرِي(3)

وقال أبو عَمْرو بن العَلاءِ: ما دَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ قَطُّ ولا مَرَرْتُ ببابِهِ، يَنْظُرُ في دَفْتَرٍ وجَلِيسُهُ فارِغُ الْيَدِ، إلَّا اعتقدْتُ أنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وأَعْقَلُ(4)

أَذْكُرُ مَرَّةً إِذْ كُنْتُ في الخامِسةِ أنِّي دَخَلْتُ عليهِ [يَعْنِي أباهُ أحمد أمين] غُرْفَةَ المكتبةِ دُونَ أنْ أَطْرُقَ البابَ، ففاجأْتُهُ واقِفًا إلى إحدَى خِزَناتِ الكُتُبِ المُتَناهِيَةِ إلى السَّقْفِ يَطْبَعُ عَلَى غِلَافِ أَحَدِ الكُتُبِ قُبْلَةً! وإذْ وَقَفْتُ أَرْقُبُهُ مَشْدُوهًا إذا بِهِ وقدْ تَنَبَّهَ إلى وُجُودِي = يتظاهَرُ بأنَّهُ كان يَنْفُخُ عن الكِتابِ ما عَلَاهُ مِنْ غُبَارٍ، ثُمَّ يُلْقِي بِهِ جانبًا في غيرِ اكتِراثٍ

حسين أحمد أمين(5)

ودَأَبَ أبي عَلَى إثراءِ مكتبتي، مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ بتزويدِها بالكُتُبِ، وما مِنْ مَرَّةٍ سافَرَ إلى مَعرِضِ براغ دُونَ أن يُحضِرَ لِي كُتُبًا يهودِيَّةً ثمينةً. وقدْ قَصَّتْ عَلَيَّ والِدَتي، بعدَ سَنَوَاتٍ، أنَّها باغَتَتْنِي يَوْمًا – وكُنْتُ في الثَّامِنَةِ مِنْ عُمْرِي – في مُنْتَصِفِ اللَّيْلِ أَضُمُّ بعضَ الكُتُبِ الَّتي أَحْضَرْتُها معي مِنْ مدينة بست، وأُقَبِّلُها كما لوْ كانَتْ معشوقةً لِّي

المُستَشْرِق المَجَرِيّ غولدتسيهر(6)

تَمَيَّزَ شِيلَر بِنَهَمٍ عظيمٍ للفِكْرِ، فاقتحمَ كُلَّ ما يُمْكِنُ أن يُغَذِّيَهُ، وامتلَكَ طاقةً تنْقدُ إلى جوهرِ كُلِّ شيْءٍ. وثَمَّةَ قِصَّةٌ تُرْوَى عنهُ تقولُ: إنَّ قِرَاءَتَهُ كانَتْ تَسْتَبِدُّ بِهِ، لِدَرَجَةِ أنَّهُ يُمَزِّقُ صَفحَاتٍ مِّنَ الكِتابِ الَّذي يَقرَأُ، ويَدُسُّها في يَدَيْ مَن يَّرَاهُ مِنْ زُمَلائِهِ، لِيُجْبِرَهُ عَلَى مُشَارَكَتِهِ القِرَاءَةَ. ولهذا يُقَالُ: إنَّهُ استخدَمَ نُسَخًا عَدِيدَةً مِنْ كِتابِ نيكولاي هارتمان **ميتافيزيقا المعرفة**، الَّذي كان باهِظَ الثَّمَنِ(7)

دِيباجَةُ الْكِتابِ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

تِلْمِيذُ الْهِنْدَاوِيَّةِ الَّذي أَحَبَّ الكُتُبَ!

سأُحَدِّثُكُمْ في الصَّفَحَاتِ القادِمَةِ عنِ الكُتُبِ، وأَعْرِفُ أَنَّكُمْ لنْ تَلْقَوْا في حديثي نَبَأً جديدًا يُبَايِنُ ما عَرَفْتُمُوهُ عنها مِنْ قَبْلُ، وأَعْرِفُ، كذلك، أَنَّني لَمْ أُبَوِّئْ نَفْسِي مَرْتَبَةَ "الْحَكَمِ الْتَرْضَى حُكُومَتُهُ"؛ فأُتَوِّجَ كِتابًا وأُنْزِلَ بكِتابٍ، لكنَّني سأُحَدِّثُكُمْ عنْ مَّحَبَّتِي للكُتُبِ، وسأَرْوِي لَكُمْ أطرافًا مِنْ ذِكْرَياتي عنْها، وستَلْقَوْنَنِي أَقُصُّ عليكُمْ، في بعضِ الْمَوَاضِعِ، ما غارَ في عَقْلِي وانْطَبَعَ في وِجْداني عنْ كِتابٍ أَوْ مُؤَلِّفٍ، وستُلِمُّونَ، بعضَ الإلمامِ، بالأُسْلُوبِ الَّذي أَخَذْتُ بِهِ في القِراءَةِ، وليس مُهِمًّا أن يَكُونَ الأُسلوبَ الأَقْوَمَ والأَنْجَعَ = لكنَّهُ شيْءٌ مِمَّا عَلَّمَتْنِيهِ القِرَاءَةُ، ووَقَفَتْنِي عليهِ الكُتُبُ.

وأنا لا أَعْرِفُ للكُتُبِ مَعْنًى دُونَ الْحديثِ عنها، وما كُنْتُ لِآخُذَ نَفْسِي بِما يُخالِفُ طبيعتي وسَجِيَّتي، ويكفيني، مِنْ حديثِ الكُتُبِ، أنْ أستعيدَ بِهِ عُمْرًا وَلَّى وشَبَابًا هَرَبَ، وأنْ أَنْقُلَ إِلَيْكُمْ إحساسًا غارَ في نَفْسٍ لَّمْ تَعْرِفْ مِنْ صَبَوَاتِ الْحَيَاةِ إِلَّا صُحْبَةَ الكِتابِ، وما مِنْ سعادةٍ تَمْلَأُ نَفْسِي كالحديثِ عنِ الكُتُبِ والْكاتِبِينَ.

-1-

عَرَفْتُ الكِتابَ، وأنا تِلْمِيذٌ في الابتدائيَّةِ، وما كان الكِتابُ بالغريبِ عنْ بيتِنا، وما كانَ، كذلك، بالقريبِ، عَلَى أَنَّهُ، في كِلْتا الْحالَتَيْنِ، ما كان لَوْنًا مِّنْ ألوانِ التَّرَفِ، أَوْ صُورةً مِّنْ صُوَرِ اللَّبَاقَةِ الاجتماعِيَّةِ، وأَنَّى لنا، نحنُ أبناءَ جُدَّةَ القديمةِ، وبخاصَّةٍ أولئك الَّذينَ قامَتْ عَلَى بُيُوتِهِمْ

مَحلَّةُ الهِنْدَاوِيَّةِ، أن يَتَّصِلُوا بالتَّرَفِ، وأن يَستعِينُوا، بفائِضِ ما لَدَيْهِمْ – إنْ كانَ لَدَيْهِمْ شيءٌ يَّفِيضُ – على الاختلافِ إلى مكتبةٍ لابْتِيَاعِ كِتابٍ وَّاقتِنائِهِ؟!

وفي بَيْتِنا الصَّغِيرِ كُنَّا نَسْتَقِي أُصُولَ التَّهذِيبِ الفَنِّيِّ مِنْ شقيقتِي الكُبْرَى إحسان! ولْأَعْتَرِفْ أنَّني، بَعْدَ كُلِّ هذهِ السِّنِينَ، أُحِسُّ فَضْلَ إحسانَ عَلَيَّ، وعَلَى أشِقَّائِي، وإنَّني لَأُعِيدُ شَغَفِي بألوانٍ مُّعَيَّنَةٍ مِّنَ المُوسيقا، وأصواتٍ مُؤَثِّرَةٍ في الغِناءِ = إلى ذَوْقِ إحسانَ واختيارِها، ولَوْلا أُمُّ خالِدٍ – حَفِظَها اللهُ – ما عَرَفْتُ الصَّحيفةَ والمَجَلَّةَ، وكأنَّما لَمَسَتْ فِيَّ، دُونَ إخوَتي، شيئًا مَّا، حَمَلَها عَلَى أنْ تختارَ صُورةً مِّنْ صُوَرِي الشَّخْصِيَّةِ، وخَفَّتْ إلى صُنْدُوقِ البريدِ، ودَفَعَتْ بِها إلى واحِدةٍ مِّنْ صُحُفِ جُدَّةَ، وما هِيَ حتَّى سَعِدْنا – نحنُ الصِّغَارَ – بِصُورَتي منشورةً في صفحةِ القُرَّاءِ!

وإحسانُ هي الَّتي وَصَلَتْ بيتَنا الصَّغيرَ بمَجَلَّةِ **آخِر ساعة**، و"مُغامَرَاتِ تَخْتَخ"[(8)]!

ولمْ نَكُنْ، ونحنُ نَتَبَادَلُ تلك القِصَصَ الطَّريفةَ، لِنَرْجُوَ مِنَها إلَّا لَذَّةَ القِراءةِ، وعَيْشًا "مُفْتَرَضًا" يَصِلُنا بأحياءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ في القاهرةِ، ولا سِيَّما حَيُّ المَعَادِي الشَّهِيرُ فيها، حيثُ تَدُورُ حَوَادِثُ القِصَصِ البُولِيسِيَّةِ الشَّائِقَةِ الماتِعَةِ. كُنَّا نَقرأُها لا لِنَكُونَ "مُثَقَّفِينَ"! ولَمْ تَكُنْ لِّكَلِمَةِ "ثقافةٍ" وأخواتِها مَحَلٌّ في مُعْجَمِ الهِنداوِيَّةِ المُتَقَشِّفِ، وسأَنْتَظِرُ سَنَوَاتٍ حتَّى تُخَايِلَنِي كَلِمَةُ "ثقافةٍ" وما اشْتُقَّ مِنْها، لكنَّنا، وإنْ رَجَوْنا الإمتاعَ والمُؤَانَسَةَ في قِصَصِ "تَخْتَخ" وأصحابِهِ = كُنَّا، مِنْ حيثُ لا نَدْرِي، إنَّما نَتَّخِذُ "الكِتابَ"، مهما كان ساذَجًا بريئًا، عِوَضًا عنْ حياةٍ صَعْبَةٍ لَّا مَحَلَّ فيها لِمُفْرَدَةِ "التَّرَفِ"، وأنَّ ذلك المَيْلَ السَّاذَجَ البَرِيءَ إلى "القِرَاءَةِ" = ما انطوى عَلَى شيْءٍ مَّوهومٍ نَرْفَعُ فيهِ القِرَاءَةَ عنْ أنْ تَكُونَ "لَذَّةً وَّمَتَاعًا"، وكأنَّما أَرَادَتِ "الثَّقافةُ" البارِدةُ – تلك الَّتي اتَّصَلْتُ بها فيما بَعْدُ - أنْ تَقْطَعَ السَّبيلَ بينَ القِراءَةِ والكِتابِ والإمتاعِ والمُؤَانَسَةِ، وأنْ نَبْرَأَ مِنْ "وَّصْمَةِ" القِرَاءَةِ الَّتي لا نَرْجُو مِنْ وَّرائِها شيئًا إلَّا أنْ نَقْرَأَ، وإلَّا أنْ نَجِدَ فيما نقرأُ السَّعادةَ والْحُبُورَا!

ما عَرَفَ بَيْتُنا الصَّغيرُ في مَحلَّةِ الهِنداويَّةِ مَكانًا أوْ رُكْنًا للكُتُبِ، وحيثُما استقرَّتْ كُتُبُنا المَدْرَسِيَّةُ اطْمَأَنَّتْ مُغامَراتُ تَخْتَخ ورِفاقِهِ، ولَمْ أَعْرِفِ "المكتبةَ" إلَّا حِينَ أصابَ حياتَنا شيْءٌ مِّنَ "التَّرَفِ"، بعدَ أنْ تَحَوَّلْنا مِنْ حارَتِنا الحبيبةِ إلى ناحِيَةٍ شَعْبِيَّةٍ في حَيِّ عُنَيْكِش، وإلَّا بَعْدَ أنْ صِرْتُ طالِبًا في الثَّانويَّةِ التِّجارِيَّةِ، تُصْرَفُ لِي ولشقيقِي مُحْسِنٍ مُكافَأَةٌ شهريَّةٌ قَرَّرَتْها الدَّوْلةُ لطُلَّابِ ذلك المَعْهَدِ الثَّانويِّ، أمَّا كُتُبي الَّتي استجلَبْتُها مِنَ الهِنداويَّةِ واطْمَأَنَّ بِها المُقَامُ في عُنَيْكِش، فكانَتْ تُشارِكُني فِرَاشِي، وأراها تَنْمُو حِينًا بَعْدَ حِينٍ، ثُمَّ بَدَا لِي، بَعْدَ أنْ ثَقِفْتُ شيئًا مِّنْ أحوالِ الكُتُبِ، أنْ أَقْتَنِيَ "مكتبةً"، فابْتَعْتُ واحِدةً مِّنْها صغيرةً لَّطِيفةً، مَّلأَتْ حياتي بَهْجَةً وَّسُرُورًا!

لكنَّني رَجَوْتُ، في ذلك العَهْدِ، أنْ تَكُونَ لِي خِزَانةُ كُتُبٍ كبيرةٌ، وأنْ أُهَيِّئَ لها، في مستقبَلِ الأيَّامِ، حُجْرَةً، وَّأنْ تَكُونَ الْخِزَانةُ أنيقةً فخمةً، كتلك المكتبةِ الَّتي كانَتْ تَظْهَرُ لِي مِنْ نافِذَةِ دارَةٍ واسِعةٍ أنيقةٍ، في ناحِيَةٍ رَّاقِيَةٍ مِّنْ طريقِ المَلِكِ فهدٍ، وعليكُما – أيُّها القارِئُ الكريمُ وأيَّتُها القارِئَةُ الكريمةُ – أنْ تَعرِفا أنَّني أَرْجِعُ بِكُمَا إلى خواتِيمِ القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الْهِجْرِيِّ ومَطْلَعِ الْخامِسَ عَشَرَ (1400-1401هـ)!

وكُلَّما اجتازَتْ بِنا السَّيَّارةُ تلك النَّاحِيَةَ أَفْرَحُ متَى كانَتْ إشارَةُ المُرُورِ حَمْرَاءَ! إنَّها تَهَبُنِي نِصْفَ دقيقةٍ أنقطِعُ فيها عَمَّا حَوْلِي، فتُحَلِّقُ رُوحِي حَوْلَ الكُتُبِ الَّتي أُطَالِعُها وتُطَالِعُنِي، فيَزْدَادُ أَسَايَ لأنَّ مكتبتي فقيرةٌ بريئةٌ مِّنْ ألوانِ التَّرَفِ الَّذي أُتِيحَ لِصَاحِبِ تلك الدَّارةِ الأنِيقةِ، وقَدَّرْتُ أنَّهُ "مُثَقَّفٌ" وَّاسِعُ الاطِّلاعِ، ولَعَلَّهُ كان أديبًا ذائِعَ الصِّيتِ، ولا رَيْبَ في أنَّهُ كانَ "مُحِبًّا" للكُتُبِ! وزَيَّنَ لِي خَيَالِي الْحُلْوُ اللَّذِيذُ أنْ أتخيَّلَهُ يَنْعَمُ، في تلك اللَّحْظَةِ، بِقِرَاءَةِ ألوانٍ مِّنَ الكُتُبِ الفَخْمَةِ الَّتي لا سبيلَ إلى امتلاكِها!

-3-

صارَتْ لِي، بَعْدَ سِنِينَ، خِزَانةُ كُتُبٍ وَّاسِعَةٌ – لكنَّها لا تُشْبِهُ، حتَّى اليوم، خِزَانةَ تلك الدَّارَةِ الأنيقةِ! وتَنَعَّمْتُ بِنَفَحاتِ الكِتابِ، وانقطَعْتُ إليهِ، وذُقْتُ لَذَّةَ القِراءَةِ، وإذا بِي، بَعْدَ حِينٍ،

أَكْتُبُ، وأَلْبَسُ عَبَاءَةَ الكاتِبِ، ومَضَيْتُ أَكْتُبُ وأُذِيعُ في الصِّحافةِ فُصولًا مِمَّا أَنْشَأْتُ، وما كُنْتُ لِأَعْرِفَ إلى مَ ستنتهي بِي رِحْلَةُ الكِتابةِ، حتَّى شاءَ القَدَرُ أنْ أَخْطُوَ خُطْوَةً فإذا بِي أَصِيرُ "مُؤَلِّفًا" يُؤَلِّفُ كُتُبًا ويَدْفَعُ بها إلى المطبعةِ، وأنالُ، مِنْ وَّرائِها، أَثْمَنَ ما يرجُوهُ مُؤَلِّفٌ ويَحْلُمُ بِهِ كاتِبٌ: أن يَرْضَى القُرَّاءُ بِمَا أَكْتُبُ، وأن يَلْقَوْا في ما أَخُطُّه لَذَّةً وَّمَتاعًا، وكان ذلك يكفيني، وكان ذلك يُفْرِحُني، لكنَّني، وأنا أَتَرَشَّفُ مُتَعَ الكتابةِ والتَّأليفِ = لا أَزَالُ مَسْكُونًا بِتِلْمِيذِ الهِنداويَّةِ الَّذي أَحَبَّ، في يومٍ مَّا، الكِتابَ، وتَعَشَّقَ القِرَاءَةَ، وقالَ، بَعْدَ ذلك العَهْدِ بسِنِينَ: "لَقَدْ أَفْسَدَتِ الكتابةُ القِراءَةَ"[9]! وكان كُلَّما اختلَفَ إلى مكتبةٍ، أوْ أَمَّ مَعْرِضَ كِتابٍ = يُسْعِدُهُ مَنْظَرُ القُرَّاءِ الَّذين ما خَرَجُوا مِنْ بُيُوتِهِم، وما اختلفُوا إلى هذهِ المكتبةِ أوْ تلك، وما أَمُّوا مَعْرِضَ كِتابٍ في مدينتِهِمْ، ولا قَطَعُوا المَسَافاتِ الطَّوِيلَةَ إليهِ = إلَّا لِيَقْرَأُوا – لا لِيَكْتُبُوا ولا لِيُصْبِحُوا مُؤَلِّفِينَ! – وإلَّا لِيَتَنَعَّمُوا بِمَبَاهِجِ القِرَاءَةِ والكِتابِ، لا يَرْجُونَ مِنهما إلَّا أن تَمْتُنَ صِلَاتُهُمْ بِهِما، أمَّا ذلك "القارِئُ القديمُ"؛ ذلك القارِئُ الَّذي كانَ، في يَوْمٍ مِّنَ الأَيَّامِ مِثْلَهُمْ، يَقْرَأُ لِأَنَّهُ يُحِبُّ القِراءَةَ، وكان، كذلك مِثْلَهُمْ، لا يرجو مِنْ وَّرَائِها مَنْفَعَةً إلَّا ما اتَّصَلَ بِعَقْلِهِ ونَفْسِهِ ووِجْدانِهِ! = فقدْ أَسِيَ لِحالِهِ بَعْدَ أنِ بُتَّتْ – أوْ كادَتْ – صِلَتُهُ بالقِرَاءَةِ الْحُرَّةِ الحبيبةِ اللَّذيذةِ، وصارَ يَقْرَأُ ويَقْرَأُ لأنَّهُ يُؤَلِّفُ كِتابًا، فإذا خَلَا مِنْهُ وسَعِدَ بِهِ = رَجَعَ، عَوْدَهُ عَلَى بَدْئِهِ، يَقْرَأُ ويَقْرَأُ، ويستعينُ بالكُتُبِ الَّتي يَقْرَأُها عَلَى تأليفِ كِتابٍ آخَرَ جديدٍ..!

لَكِنَّ "تِلْمِيذَ الابتدائيَّةِ" الَّذي أَدْهَشَهُ مَنْظَرُ الكُتُبِ فوَقَعَ في سِحْرِها = لا يستقِيدُ لِغَوَايَةِ التَّأليفِ، مهما أَحَبَّهُ، وأراهُ يَثُورُ كُلَّما فارَقَ طبيعتَهُ الأُولَى؛ أن يَقْرَأَ لأنَّهُ يُحِبُّ القِرَاءَةَ والكُتُبَ، فيَسْتَكِينَ إلى طبيعتِهِ، وينتَصِرَ، بآخِرَةٍ، للقارِئِ القديمِ، ويُصْلِحَ ما بينَ القِرَاءَةِ والكِتابةِ، ويَلُوذَ بمنهجٍ في التَّأليفِ يَتَوَسَّطُ بين هذهِ وتلك؛ يَقْرَأُ لأنَّهُ يُحِبُّ القِرَاءَةَ، ويَكْتُبُ لأنَّهُ يُحِبُّ أن يَكْتُبَ، ويَقُصَّ عَلَى صديقِهِ القارِئِ ما قَرَأَهُ، وما غارَ في عَقْلِهِ، وعادَ أخيرًا عَلَى شَبَاةِ قَلَمِهِ، فإذا هو يَكْتُبُ وكأنَّهُ يُحَدِّثُ قارِئَهُ، لا يَتَكَلَّفُ ذلك ولا يَتَعَمَّدُهُ، وصارَ هذا النَّهْجُ يُرْضِيهِ ويُسْعِدُهُ، ويأمُلُ أن يُرْضِيَ قارِئَهُ ويُسْعِدَهُ!

وفي هذا الكِتابِ أنتصِرُ للقِراءَةِ، وأَلُوذُ بالقارِئِ، أَبُثُّ كلامًا ما استطعْتُ كِتْمانَهُ، عَلَى أنَّني لنْ أَنْقُلَ إليكمْ "حِكْمةَ السِّنِين"، وإنَّما أَبُوحُ بِـ "عِشْقٍ" عالَنْتُ بِهِ كُلَّ مَنِ اتَّصَلْتُ بِهِم، أوْ جَمَعَتْنِي وإيَّاهُم آصِرَةٌ، وهلْ مِنْ حديثٍ يَفُوقُ حديثَ العُشَّاقِ؟ وإنَّكَ لَنْ تَفُوزَ مِنْ أحاديثِهِمْ بِحِكْمَةٍ وَّلا تَجْرِبَةٍ، وحَسْبِي أنْ أَكُونَ "عاشِقًا" للكُتُبِ، مَشْغُوفًا بِها، ويكفيني أنْ أَنْقُلَ إليكَ قِصَّتي، مهما كانَتْ ساذَجَةً بريئَةً، فعَسَاكَ تُحِبُّها كما أَحْبَبْتُها، وتَحْنُو عليها، مَعِي، فلِلْكُتُبِ حياةٌ وقَلْبٌ ومَشَاعِرُ!

-5-

سافَرَتْ أُمِّي الْغالِيَةُ – حَفِظَها اللهُ – إلى القاهِرةِ، سَنَةَ 1405هـ = 1985م، ورَجَوْتُها أنْ تَكُونَ هَدِيَّتِي كِتابَ **البَيَان والتَّبْيِين** لإمام البيانِ العربيِّ الْجاحِظِ! عَيَّنَتْ لها اسْمَ الدَّارِ "مكتبة الْخانجيّ"، فلمَّا عادَتْ قَصَّتْ عَلَيَّ مُكابَدَتَها في البَحْثِ والتَّفتيشِ، حتَّى ظَفِرَتْ بِنَشْرةٍ فَخْمَةٍ مُزْدانَةٍ بتحقيقِ العَلَّامةِ عبد السَّلام هارون! وما كان يُبارِحُنِي شُعُورٌ، كُلَّما أَمْسَكْتُ بهذهِ الطَّبعةِ الحبيبةِ، أنَّ فيها شيئًا مِّنْ أُمِّي، وعَلَى أنَّ لَدَيَّ طَبْعَةً أحدَثَ مِنْها = فلا يزالُ لتلك النُّسْخَةِ مَحَلٌّ في القَلْبِ لا تَحْتَلُّهُ نُسْخَةٌ سِوَاها!

وكُنْتُ متَّى مَرَرْتُ بفَرْعِ وِزارةِ الخارِجيَّةِ بِجُدَّةٍ، أستعيدُ ذِكْرى مَشْهَدٍ بعيدٍ، رافقْتُ فيهِ محمَّدًا الثَّقفِيَّ – الابْنَ الأكبرَ لِخالِي جَزَاء بن أحمد الثَّقفِيِّ رَحِمَهُ الله – كانَ محمَّدٌ في الْجامِعةِ، وأنا تِلْميذٌ في الابتدائيَّةِ، وكُنْتُ أَعُدُّهُ، ولا أزالُ، الأخَ الأكبرَ والقُدْوَةَ والمِثَالَ.

أَوْقَفَ محمَّدٌ سيَّارَتَهُ واستمْهَلَني حتَّى يَجْتَلِبَ كِتابًا مِّنْ مكتبةِ دارِ الشُّرُوقِ – مِنْ مكانِها الْمُجاوِرِ لِفَرْعِ الْخارِجِيَّةِ – ولَمْ يَلْبَثْ إلَّا قليلًا حتَّى عادَ وفي يَدِهِ كُتُبٌ عَرَفْتُ أنَّها لكاتِبٍ اسْمُهُ مصطفَى صادِق الرَّافِعِيّ، وأقربُ الظَّنِّ أنَّها **أوراقُ الوَرْدِ**، و**كِتابُ المَساكِين**، و**السَّحَابُ الأحمرُ**، و**رسائلُ الأحزان**.

وعَلَى أنَّ هذهِ الذِّكْرَى ضارِبَةٌ في القِدَمِ، فإنَّها لَمْ تُمْحَ، وأدْرَكَ تِلْمِيذُ الابتدائيَّةِ أنَّ صِلَةً مَّا وَصَلَتْ محمَّدًا الطَّالِبَ الْجامِعِيَّ بالمكتبةِ والكِتابِ، ولَسْتُ أستبعِدُ أنَّهُ أَحَسَّ أنَّ مِنْ كَمَالِ شخصيَّةِ الطَّالِبِ الْجامِعِيِّ أن يَكُونَ "مُثَقَّفًا"، وأن يَظْهَرَ عَلَى ألوانٍ مِّنَ الأدبِ والثَّقافةِ، مهما اختارَ في دُرُوسِهِ في الْجامِعةِ اختصاصًا لا يَمُتُّ إلى الآدابِ بِوَشِيجةٍ، لكنَّني ما أَقْبَلْتُ عَلَى كُتُبِ الرَّافِعِيِّ إلَّا استعدْتُ صُورةَ محمَّدٍ، ومكتبةَ دارِ الشُّرُوقِ، وتِلْميذَ الابتدائيَّةِ!

-6-

فلَمَّا أَظَلَّنا عامُ 1399هـ = 1979م كُنْتُ تلميذًا في متوسِّطَةِ البحرِ الأحمرِ بِمَحَلَّةِ الثَّعالِبَةِ، وكانَ التَّحَوُّلُ عنِ الابتدائيَّةِ إلى المتوسِّطةِ تَحَوُّلًا في السِّنِّ والإدراكِ والمعرفةِ. أَلَا يَكْفِي أنْ نَدْرُسَ مادَّةَ "اللُّغَةِ الإنكليزيَّةِ" لِنَعْرِفَ المرتبةَ الَّتي ارتقيْنا إليها في الدِّراسةِ؟! وأن يَكُونَ في مدرستِنا الْجديدةِ مكتبةٌ!

احتلَّتِ المكتبةُ مكانًا وَّاسِعًا في مبنًى مُسْتَقِلٍّ يشتمِلُ عَلَى مَرَافِقَ عِدَّةٍ، ولَعَلَّهُ كانَ مِنْ آثارِ العِنايةِ بالثَّقافةِ إلمامُ التَّلامِذَةِ بالكِتابِ والقِرَاءَةِ وما يَتَّصِلُ بِهِما، واعتدْنا أنْ نختلِفَ إليها، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، ويَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أنَّ حِصَّةَ النَّشاطِ كانَتْ أَدْنَى إلى "الاستراحةِ" مِنْها إلى النَّشاطِ الثَّقافيِّ، يَعُدُّها المُدَرِّسُ فُرْصَةً للتَّخَفُّفِ مِنْ عِبْءِ الدُّرُوسِ، فإذا اختلَفْنا إلى المكتبةِ جَعَلَ يُزَيِّنُ لنا خِيارَاتٍ مِّنْها: حَلُّ الواجِبِ المَدْرَسِيِّ، أوْ قِرَاءَةُ ما نشاءُ، أوِ التَّحَاوُرُ، ومَرَّتِ الأيَّامُ وقُضِيَتِ الدِّراسةُ في سَنَواتِها الثَّلاثِ دُونَ أنْ تَقْوَى صِلَتُنا بالمكتبةِ أوِ القِرَاءَةِ، ولا لَوْمَ عَلَى المُدَرِّسِ المغلوبِ عَلَى أَمْرِهِ، ولا عَلَى إدارةِ المدرسةِ؛ فما لَها وللثَّقافةِ والكِتابِ، لكنَّني لَنْ أنسَى مكتبةَ المدرسةِ؛ لا لِنَشَاطٍ لَهُ شأْنُهُ، ولا لِمُدَرِّسٍ ذِي أَثَرٍ في التَّلاميذِ = ولكنْ لِصُورةِ الكُتُبِ الفَخْمَةِ الضَّخْمةِ الَّتي طُبِعَتْ خِصِّيصَى لوزارةِ المَعارِفِ، آنَئِذٍ، وكانَ لها عِنايةٌ بِنَفَائِسِ الكُتُبِ في الدِّينِ، واللُّغَةِ العربيَّةِ وآدابِها، والتَّاريخِ، والبُلْدَانِيَّاتِ، ولا يزالُ كِتابُ **البِدَايَةِ والنِّهايَةِ** للحافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ يُخَايِلُنِي، ولا تَزَالُ نَشْرَتُهُ الفاخِرَةُ تَعْتادُنِي كُلَّ حِينٍ، ولا أَزَالُ

أُقدِّمُ رِجْلًا وأُؤَخِّرُ أُخرَى كُلَّما رَأَيتُ نَشَرَاتٍ للكِتاب تُبَايِنُها، فأَصُدُّ عنها وأَمْتَنِعُ؛ لأنَّ عَيْنِيَ لَمْ تَرَ، بَعْدُ، أُخْتًا لتلك النُّسْخَةِ العزيزةِ النَّادِرةِ، الَّتي لا أَعْرِفُ ما الَّذي فَعَلَتْهُ الأَيَّامُ بِها!

-7-

عَلَى أنَّ مُتَوَسِّطَةَ البحرِ الأحمرِ بَثَّتْ فِيَّ إحساسًا جديدًا، وأَوْقَعَتْ في رُوْعِي أَنَّني أديبٌ وَشاعِرٌ ما دُمْتُ مشغوفًا بالأدبِ والشِّعْرِ والكِتابِ، ولَمَّا رَقِيتُ إلى هذهِ المَرْتَبَةِ، ساغَ لِمُدَرِّسِ اللُّغةِ الإنكليزيَّةِ أن يُلَقِّبَني بِـ "عُمَر أبو رِيْشَة"! فازدادَ مَيْلِي إلى الأدبِ وإلى القِرَاءَةِ وإلى الكِتابِ، وكأنَّما داخَلَني شُعُورٌ أنَّ بيني وبينَ مُقَرَّرَاتِ العُلُومِ الإنسانيَّةِ آصِرَةً وقَرَابَةً، وما كُنْتُ لِأَمِيلَ إلى دُرُوسِ "الْحِسَابِ" و"الْجَبْرِ" – وما كُنَّا نَعْرِفُ الرِّياضِيَّاتِ – ولا إلى دُرُوسِ "العُلُومِ"، فإذا كانَ دَرْسُ "الْجُغْرَافِيَةِ" قُلْتُ سأَصِيرُ جُغْرَافِيًّا، فإذا اشتغلْنا بِدَرْسِ "التَّاريخِ" قَوِيَ لَدَيَّ أنْ سأَصِيرُ مُؤَرِّخًا، فلَمَّا تَحَوَّلْنا إلى الصَّفِّ الثَّالِثِ المُتَوَسِّطِ، وخُضْنا في تاريخ الدَّوْلةِ الأُمَويَّةِ والدَّوْلةِ العَبَّاسِيَّةِ = رَجَوْتُ مُدَرِّسَ المادَّةِ الأستاذَ جميل ناضِرين أن يُسَمِّيَ لِي كِتابًا في تاريخِ الدَّوْلَتَيْنِ لِأَقرأَهُ؛ فأشارَ عَلَيَّ بكِتابِ **تاريخِ الإسلامِ السِّياسيِّ والدِّينيِّ والثَّقافِيِّ والاجتماعيِّ** للعَلَّامةِ الدُّكتور حسن إبراهيم حسن – رَحِمَهُ اللهُ – وهو مَعْلَمَةٌ فاخِرَةٌ في تاريخِ الإسلامِ، فقَصَدْتُ، مِنْ فَوْرِي، مكتبتي الَّتي اعتدْتُ ابتياعَ الكُتُبِ مِنْها، وابتعْتُ الكِتابَ الكبيرَ ذا المُجَلَّداتِ الأربعةِ! ولَسْتُ أَشُكُّ، اليومَ، أنَّ أُسْتاذَنا – حَفِظَهُ اللهُ – لَعَلَّهُ بُوغِتَ بتِلْمِيذٍ في الصَّفِّ الثَّالِثِ المُتَوَسِّطِ يرجوهُ أن يُسَمِّيَ لهُ كِتابًا في التَّاريخِ الإسلاميِّ، فما كان مِنْهُ إلَّا أنْ أشارَ عليهِ بكِتابٍ قُرِّرَ عليهم في دُرُوسِ التَّاريخِ، إبَّانَ الطَّلَبِ في الْجامِعةِ! لكنَّ الكِتابَ – الفَخْمَ الضَّخْمَ – صَيَّرَنِي عارِفًا بِحَوَادِثِ التَّارِيخِ، عَلَى ما فيها مِنْ أَلَمٍ، وأَشْرَفَ بِي عَلَى فُصُولٍ مِنَ الحوادِثِ الدِّينيَّةِ والثَّقافِيَّةِ والاجتماعيَّةِ، ما كان لِي أنْ أَعْرِفَها لَوْلا نصيحةُ أُستاذِي جميل ناضِرِين.

-8-

غَيْرَ أنَّني – أيُّها القارِئُ الكريمُ وأيَّتُها القارِئَةُ الكريمةُ – أَحْبَبْتُ الكُتُبَ ورَأَيْتُ في تَمَلُّكِها وقِرَاءَتِها العِوَضَ والعَزَاءَ، ورُبَّما مَرَّ بِي زمانٌ صَنَّفْتُ نَفْسِيَ فيهِ "مَرِيضًا بالكُتُبِ"، مُتَيَّمًا بِها، ولا أزالُ "مَرِيضًا" بِها حتَّى اليَوْمِ، لكنَّني، مهما بَلَغَ بِي العِشْقُ والمَرَضُ، لَمْ أَرْقَ إلى مَرْتَبَةِ "العُشَّاقِ الكِبَارِ" في تاريخِنا وحَضَارَتِنا، وكأنَّما قُدِّرَ لنا أنْ تَقْصُرَ قاماتُنا عنهم في العِلْمِ والفَهْمِ، وفي القِرَاءَةِ وعِشْقِ الكِتابِ والمَرَضِ بِهِما!

نَعَمْ، أنا أقرأُ الكِتابَ في الطَّائِرَةِ، وفي البَيْتِ، وفي المكتبِ، وفي القَهْوَةِ. وأَجَلْ، أنا أستبسِلُ في قِرَاءَةِ الكِتابِ المطبُوعِ، فإنْ لَمْ يُتَحِ ابتعْتُهُ، فإنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ قَصَدْتُ المكتبةَ المَرْكَزِيَّةَ في الْجامِعَةِ، فلَمَّا أَظَلَّنا عَصْرُ الهواتِفِ والأجهِزَةِ الذَّكِيَّةِ = قَرَأْتُ الكِتابَ في اللَّوْحِ وفي الهاتِفِ = لكنَّني لَمْ أَبْلُغْ، في القِرَاءَةِ والهُيَامِ بالكُتُبِ، مَرْتَبَةَ أبي عُثْمانَ الْجاحِظِ، ولا الخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ، ولا الْحَسَنِ بن أحمد الهَمَذَانِيِّ ولا ابنِ الْخَشَّابِ، ولا خَلَفِ بْنِ يُوسُفَ البَلَنْسِيِّ... لَمْ أَكْتَرِ دَكاكِينَ الوَرَّاقِينَ، ولَمْ أَبِتْ فيها للنَّظَرِ، وما سِرْتُ في الطَّرِيقِ وفي يدي كِتابٌ أُطالِعُهُ، ولَمْ أُنَادِ عَلَى بَيْتِي، ولَمْ أَبِعْهُ لِأَشْتَرِيَ كُتُبًا(10)!

-9-

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ،،،

ففي هذا الكِتابِ ذِكرياتٌ أدبيَّةٌ وفُصُولٌ ثقافِيَّةٌ عنِ القِرَاءَةِ والكُتُبِ والمُؤَلِّفِينَ، صَوَّرْتُ فيهِنَّ ما غارَ في عَقْلي واسْتَكَنَّ في وِجْدانِي؛ فيهِ حديثُ العَقْلِ ووَجِيبُ الفُؤَادِ، وعساكَ تَلْمَسُ فيهِنَّ أطرافًا مِنْ سِيرةِ إنسانٍ أَحَبَّ القِرَاءَةَ وتَعَشَّقَ الكِتابَ، وأَحَبَّ أن يَبُوحَ لكَ بِحَدِيثِهِ عنْهُما.

أَرْجُو أنْ أَكُونَ قدْ وُفِّقْتُ إلى الغايَةِ الَّتي أردْتُ، سائِلًا اللهَ – تَبَارَكَ وتَعَالَى – أن يُجَنِّبَني اللَّغْوَ والخَطَل، وأن يَنْفَعَ بِهِ.

والحَمْدُ للهِ في الأُولَى والآخِرَةِ.

حسين محمَّد بافقيه

جُدَّة – ضاحِيَة أبْحُر الشَّمالِيَّة

في 5 مِنْ شهر صَفَر سنة 1445هـ

أَوَّلُ مكتبةٍ في حَيَاتِي..
مكتبةٌ في بابِ شَرِيف

- ١ -

أنا الآنَ في مكتبتي، مُوَاجَهٌ بِخَزَائِنَ مِلْؤُها كُتُبٌ، يَرْجِعُ أَقْدَمُها وأَلْصَقُها بِقَلْبِي ووِجداني إلى سَنَةِ ١٣٩٨هـ = 1978م.

ومكتبتي أثيرةٌ لَّدَيَّ، أَلْقَى فيها هُدُوءًا وسَكِينَةً واطمئنانًا، نَمَتْ كِتابًا كِتابًا، رَعَيْتُها تِلميذًا صغيرًا في الابتدائيَّةِ، لا يَعْرِفُ بِمَ اختلَفَ كِتابٌ عنْ كِتابٍ؟ وامتازَ مُؤَلِّفٌ مِنْ مُؤَلِّفٍ؟ وعُنِيتُ بِها وأنا تِلميذٌ في المُتَوَسِّطَةِ، وطالِبًا في الثَّانويَّةِ، وأَخَذَتْ تَنْمُو وتَكْبُرُ وأنا أَتَعَهَّدُها بالجديدِ إبَّانَ الطَّلَبِ في الْجامِعةِ، وحِينَ تَقَلَّبَتْ بِي الأيَّامُ صُعُودًا وهُبُوطًا، وتَصَرَّفَتْ بِي عَوَادِي الدَّهْرِ، إذا بمكتبتي تُزْهِرُ وتُثْمِرُ وتُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ، أَبْذُل لَها عَطْفِي، وأُوْثِرُها بحديثي، أَقِفُ قُبَالَةَ هذهِ الخِزَانَةِ أوْ تلك، وأُمْسِكُ بهذا الكِتابِ أوْ ذاك، أُجَدِّدُ الْعَهْدَ بِهِ، أَمْسَحُ ما عَلَا غِلَافَهُ مِنْ غُبَارٍ، وأَشُمّ رائِحةَ وَرَقِهِ القديمِ، فيَسْرَحُ بِي الزَّمَنُ بعيدًا بعيدًا، حِينَ كان القَلْبُ غَضًّا، والزَّمانُ وَرْدِيًّا، والرُّوحُ سَمْحًا، وأكادُ أُحِسُّ صُورَتِي مُنْطَبِعَةً عَلَى غِلافِ كِتابٍ ابْتَعْتُهُ في ذلك الزَّمانِ البعيدِ، أُمْسِكُهُ بِرِفْقٍ، وأَضُمُّهُ إلى صَدْرِي، وكأنِّي أَسْمَعُ حَنِينَهُ وأَنِينَهُ، وأَمِيلُ إليهِ مُرْخِيًا قامَتِي لِأُقبِّلَهُ، وأسألُ نَفْسِي: ما الَّذي بَقِيَ مِنْ ذلك الفَتَى؟ اسْمُهُ اسْمِي، وسَمْتُهُ يُشْبِهُ سَمْتِي، وفي عَيْنَيْهِ شيْءٌ مِّنْ عَيْنَيَّ، وذاكرتي تَغُورُ في ذاكِرَتِهِ، ولَكِنَّ الزَّمانَ تَبَدَّلَ، والْجَسَدَ ذَوَى، والرُّوحَ ضَوَى.

- ٢ -

أَغُوصُ في ذاكِرةٍ لا تَخُصُّ أَحَدًا سِوَايَ، تَعْبُرُ بِي إلى زَمَنٍ قديمٍ، وشارِعٍ عَتِيقٍ، ووُجُوهٍ حانِيَةٍ.. أَسِيرُ في شارِعٍ مُّسْتَقِيمٍ[11]، أَقْطَعُهُ مِنْ بَيْتِنا، لا يَبْلُغُ طُولُهُ كِيلًا، ولكنَّني كُنْتُ أَحْسَبُهُ طَوِيلًا طَوِيلًا، أُيَمِّمُ وَجْهِي حَيْثُ ضالَّتِي، لا أَعْبَأُ بالمَارَّةِ، ولَمْ تُهِمَّنِي عَرَبَاتُ الباعةِ الْجَائِلِينَ، هذا يُزَيِّنُ للأطفالِ أن يبتاعوا مِنهُ حَلْوَى "طُبْطَابِ الْجَنَّةِ"، وذلكَ يَنْفَحُ الأرضَ مِنْ حَوْلِهِ بقليلٍ مِّنَ الماءِ، يَدْفَعُ عنْ نَّفْسِهِ لَفْحَةً مِّنْ لَّهِيبِ الجَوِّ، وفي يَمْنَةِ الشَّارِعِ فِئَيَةٌ يَقْطَعُونَ أوقاتَهُمْ بِلَعِبِ "الفُرْفَيْرَةِ"، وأَشْيَاخٌ إنْ طالَعْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ حُكَماءَ، يَلْتَفُّونَ عَلَى مائِدَةٍ صغيرةٍ، تَرَى أَيْدِيَهُمْ طالِعَةً نَّازِلَةً يَخْبِطُونَ بِقِطْعةِ "الضُّومَنَةِ" السَّطْحَ الخَشَبِيَّ للمائِدَةِ، وغَيْرَ بعيدٍ مِنْهُمْ شَيْخٌ طَعَنَ في السِّنِّ في يَدِهِ إبريقٌ مُّمْتَلِئٌ مَّاءً، يُجَدِّدُ وُضُوءَهُ، ويَسْتَعِدُّ لصلاةٍ لَّمْ يَحِنْ، بَعْدُ، وَقْتُها، وفَجْأَةً تَقْتَحِمُ هُدُوئِي وسَكِينَتِي جَلَبَةٌ، ويَنْطَلِقُ شابٌّ مِّنْ شُبَّانِ الْحَارَةِ بقذيفةٍ مِّنْ سِبَابٍ لا أستطيعُ لهُ تصويرًا! حتَّى إذا انْتَهَيْتُ إلى مُفْتَرَقِ الطَّرِيقِ؛ حَيْثُ يتَّصِلُ شارِعُ طارِقِ بْنِ زِيَادٍ بشارِعِ السَّبِيلِ (طريقِ المَلِك فَهْدٍ الآنَ) = كُنْتُ كأنَّنِي بَلَغْتُ عالَمًا آخَرَ لا تنتمِي إليهِ حارَتِي.. أَتَلَمَّسُ الدَّرْبَ، فثَمَّ سَيَّاراتٌ تَعْبُرُ الطَّرِيقَ، وينبغي لِي أنْ أَعْرِفَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ؛ فالدَّرْبُ زَلِقٌ، والْحُفَرُ تَنْتَشِرُ أينما صَوَّبْتُ عَيْنَيَّ.. فإذا جُزْتُ الشَّارِعَ العامَّ، وَقَفْتُ قليلًا أتأَمَّلُ "مَعْصَرةً للسِّمْسِمِ" وجَمَلًا هَزِيلًا مَعْصُوبَ العَيْنَيْنِ، يَدُورُ بِها طُولَ اليَوْمِ، لا يَرَى مِمَّا حَوْلَهُ شيئًا، فعَجِبْتُ لِمَنْظَرِهِ، وأَشْفَقْتُ لِحَالِهِ، ثُمَّ صَعَّدْتُّ في شارِعِ "سُوقِ بابِ شَرِيف"، واخْتَرْتُ الدَّرْبَ الأَيْمَنَ مِنْهُ، حَيْثُ مَحَلٌّ يَبِيعُ شَرَائِطَ الأغاني، طالما ابْتَعْتُ مِنْهُ شَرَائِطَ لِطَلَال مَدَّاح ومُحَمَّد عبده وعَبَادِي الْجَوْهَر ومحمَّد عُمَر.

- ٣ -

وعِنْدَ خاصِرَةِ "سُوقِ بابِ شَرِيف"، لِمَن يَّقْصِدُهُ مِنْ ناحِيَتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ = تَتَرَاصُّ مَحَالُّ وحَوانِيتُ لِبَيْعِ الْحُوْتِ النَّاشِفِ، ذِي الرَّائِحَةِ النَّفَّاذَةِ، يَصُفُّهُ الباعَةُ جَنْبًا إلى جَنْبٍ، ويُرْبَطُ مجموعةً مَّجموعةً بِسِلْكٍ، ويُعَلَّقُ في مِصْرَاعَيْ بابِ المَحَلِّ، حتَّى إذا جُزْتُ باعَةَ الحُوْتِ النَّاشِفِ، أُحِسُّ خَيَاشِيمِي مُثَارَةً، ورَغْبَةً لَّذِيذَةً في العُطَاسِ تَنْتَابُنِي، فأَعْطِسُ، ويَنْتَهِي إِلَيَّ عُطَاسُ المَارَّةِ، فأَلْتَفِتُ ناحِيَةَ اليَمِينِ فأَعْرِفُ أنَّنِي حاذَيْتُ حَوَانِيتَ بَيْعِ "النُّشُوقِ"

و"التُّنْبَاكِ" و"الْبَهَارَاتِ"، وأَحُثُّ خَطْوِيَ حَتَّى أنتهِيَ إلى غايَتِي الَّتي أَرَدْتُّ؛ أنْ أَبْلُغَ مكتبةً صغيرةً اِحْتَلَّتْ مَوْضِعًا صغيرًا، في زاوِيَةٍ صغيرةٍ، في عَطْفَةٍ صغيرةٍ مِّنْ عَطْفَاتِ "سُوقِ بابِ شَرِيف"، وفي ناحِيَةٍ تَكْتَظُّ بِحَوَانِيتِ حاكَةِ الثِّيَابِ والسَّراوِيلِ، فإذا بَلَغْتُ المكتبةَ كأنَّما عادَ بِي الزَّمانُ إلى الوَرَاءِ قُرُونًا، وبِتُّ كأنَّني في دَرْبٍ مِّنْ دُرُوبِ بَغْدَادَ أوِ الكُوفَةِ أوِ البَصْرَةِ في القَرْنِ الثَّالِثِ للهِجْرَةِ؛ فكلُّ ما تَقَعُ عليهِ عَيْنِي مِنْ كُتُبٍ قديمٌ عَتِيقٌ، وأسماءُ المُؤَلِّفِينَ فَخْمَةٌ ضَخْمَةٌ، حتَّى إنَّني لَتَمَنَّيْتُ أنْ أُصْبِحَ مُؤَلِّفًا مِثْلَهُمْ، وأَحَطْتُ اسْمِي بألقابِ أَهْلِ العِلْمِ قديمًا؛ تلك الَّتي تَسْبِقُ أسماءَ جمهرةٍ مِّنَ المُؤَلِّفِينَ، في تلكَ المكتبةِ الصَّغيرةِ المَدْسُوسَةِ بَيْنَ حَوَانِيتِ الْحَاكَةِ والْخَيَّاطِينَ! وحَلَا لِي، آنَئِذٍ، أنْ أَخُطَّ في دَفْتَرٍ لِّي قديمٍ، لا زِلْتُ أحتفِظُ بِهِ، هذه العِبَارَةَ الْحَبيبةَ: "الإمَام الحافِظ حُسَيْن بْن محمَّدِ بْنِ عَلَوِيّ بافقيه"! وما حَمَلَنِي عَلَى ذلكَ إلَّا أنَّ أَوَائِلَ المُؤَلِّفِينَ الَّذينَ عَرَفْتُهُمْ، في ذلكَ العَهْدِ، هُمْ مِّنْ أصحابِ الألقابِ الضَّخْمَةِ الفَخْمَةِ – طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُمْ ورَحِمَهُمْ أَجْمَعِينَ - فهذا الإمامُ الحافِظُ أبو الْفِدَاءِ عِمَادُ الدِّينِ إسماعيلُ بْنُ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ القُرَشِيُّ، وهذا الإمامُ الحافِظُ ابْنُ حَجَرٍ العَسْقَلَانِيُّ، وذلك هو الإمامُ الحافِظُ الْمُنْذِرِيُّ. وأَعْجَبَتْنِي ومَلَأَتْ عَلَيَّ وِجْدانِي - وأنا التِّلميذُ الصَّغيرُ – عِنْوَاناتُ التَّآلِيفِ، وألوانُ الكُتُبِ، وأَحْبَبْتُ العِنْوَاناتِ المَسْجُوعَةَ وخَلَبَتْنِي: **التَّقريبُ والتَّهذِيبُ**.. **البِدَايَةُ والنِّهَايَةُ**.. **وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ وأَنْبَاءُ أَبْنَاءِ الزَّمَانِ**.. **الْمُسْتَطْرَف مِنْ كُلِّ فَنٍّ مُّسْتَظْرَف**... إلخ، وكُنْتُ أُمَنِّي النَّفْسَ بأنْ أُصْدِرَ كِتابًا ذا عِنْوَانٍ مَّسْجُوعٍ متَى صِرْتُ مُؤَلِّفًا!

- ٤ -

اِبْتَعْتُ مِنْ تلك المكتبةِ جُمْلَةً مِّنَ الكُتُبِ؛ مِنْها **دِيوانُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ**. والَّذي أغرانِي بابتيَاعِهِ أنَّني اعْتَدْتُّ أنْ أَسْمَعَ أخي مُحْسِنًا - الَّذي يَكْبُرُنِي بِسَنَتَيْنِ - يُرَدِّدُ أبياتًا مُقَرَّرَةً عليهِ في الكِتابِ الْمَدْرَسِيِّ لشاعِرٍ اسْمُهُ النَّابِغَةُ الذُّبيانِيُّ، مِنْها [البسيط]:

يَا دَارَ مَيَّةَ، بِالْعَلْيَاءِ، فَالسَّنَدِ أَقْوَتْ، وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ

فلَمَّا وَقعَتْ عَيْنِي عَلَى الدِّيوانِ خُيِّلَ إِلَيَّ أنَّ بَيْنِي وبَيْنَهُ معرفةً، ولِمَ لا تَكُونُ بَيْنَنا معرفةٌ وأخي مُحْسِنٌ، يُرَدِّدُ، في الذَّهَابِ والإِيَابِ، طَرَفًا مِّنْ شِعْرِهِ!

لَمْ تَكُنِ المكتبةُ لِتُعْنَى بغيرِ الكُتُبِ التُّراثيَّةِ، إلَّا شيئًا قليلًا، ولَمْ يَكُنْ لِّي مِنْ مُّرْشِدٍ، يَّأْخُذُ بِيَدِي إلى ما أَقْرَأُ، وإنِّي لَأَحْمَدُ اللهَ – تَبَارَكَ وتَعَالَى - أنْ لَمْ يَكُنْ لِّي مِنْ مُّرْشِدٍ سِوَى ذَوْقِي وخَبْطِي في غابَةِ الكُتُبِ. نَعَمْ أَشْعُرُ، اليَوْمَ، أَنَّنِي تَوَرَّطْتُ، كثيرًا، فابْتَعْتُ كُتُبًا تَكْبُرُ سِنِّي وفَهْمِي، ولكنَّني أَحْمَدُ لتلكَ السِّنِّ ولتلكَ المكتبةِ أنْ عَرَفْتُ، مُبَكِّرًا، أسماءَ المُؤَلِّفِينَ في الثَّقافةِ العربيَّةِ القديمةِ، وأنَّني اِخْتَصَرْتُ أزمنةً طويلةً، حِينَ اختزنَتْ ذاكِرتي أسماءَهُمْ وألقابَهُمْ، ولا بَأْسَ في أنْ أَذْكُرَ أنَّ قَدْرًا كبيرًا مِّنْ تلكَ المعرفةِ، إنَّما أساسُهُ ما تَقَعُ عليهِ عَيْنِي مِنْ أسماءِ المُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ تَصْطَفُّ كُتُبُهُمْ عَلَى رُفُوفِ المكتبةِ العَتِيقَةِ الَّتي لا أَعْرِف لَها، حتَّى اليَوْمِ، اسْمًا! وأنا أَحْمَدُ لتلكَ السِّيَاحَةِ البَصَرِيَّةِ أنْ جَعلَتْنِي، في سِنٍّ مُّبَكِّرَةٍ، مُّحِبًّا لتُراثِ ثقافةٍ أَنْتَمِي إليها، وأنَّ بَيْنِي وبَيْنَها ذِكْرَيَاتِ طُفُولَةٍ وَلَّتْ وشَبَابٍ هَرَب!

- ٥ -

ضَمَّتْ مكتبتي الولِيدةُ جَمْهَرَةً مِّنَ الكُتُبِ في الأدبِ واللُّغَةِ والدِّينِ والتَّاريخِ والأخبارِ؛ مِنْها: **تَفْسِيرُ القُرآنِ العَظِيمِ** للإمامِ الحافِظِ أبي الْفِداءِ عِمَادِ الدِّينِ إسماعيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدِّمَشْقِيِّ المُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٧٤هـ، رَحِمَهُ اللهُ. وأنا أَسُوقُ سَنَةَ وَفَاتِهِ مِنْ ذاكِرتِي؛ فهو مُؤَلِّف أَثِيرٌ لَدَيَّ = و**العِقْدُ الفَرِيدُ** لِابْنِ عبدِ رَبِّهِ الأندلُسِيِّ، و**فِقْهُ اللُّغَة وأسرارُ العربيَّةِ** لأبي منصورٍ الثَّعالِبِيِّ، و**رِيَاضُ الصَّالِحِينَ** للإمامِ يَحْيَى بْنِ شَرَفٍ النَّوَوِيِّ، و**جَوَاهِرُ الأدبِ في أدبيَّاتِ وإنشاءِ لُغَةِ العَرَبِ** للسَّيِّدِ أحمدَ الهاشِمِيِّ.

لا أَعْرِفُ، اليَوْمَ، سَبَبًا لابْتِيَاعِ **تَفْسِيرِ القُرآنِ العَظِيمِ** للحافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ. وهو كِتابٌ جليلٌ جِدًّا، ولَكِنَّهُ، عَلَى جَلَالَتِهِ، ليس بالكِتابِ الَّذي يَقْرَأُهُ قارِئٌ ناشِئٌ. وهو كِتابٌ ضَخْمٌ، مِّنَ القَطْعِ الكبيرِ = ذُو مُجَلَّدَاتٍ أربعةٍ، مَّحْشُوَّةٍ سُطُورُها حَشْوًا، ووَرَقُهُ أَصْفَرُ فاقِعٌ لَوْنُهُ، ثُمَّ إنَّ الأَمْرَ أَمْرُ تفسيرٍ، ومِنْ أينَ لِي قُوَّةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ؟ ولَكِنْ هذا ما كان!

قَرَأْتُ طَرَفًا مِّنْ **تفسيرِ ابنِ كثِيرٍ**، وما أَشَقَّ تلكَ القِرَاءَةَ وما أَصْعَبَها! قُلْتُ: لا بَأْسَ! فعَسَى أنْ أُزَيِّنَ بِهِ مكتبتي؛ فمُجَلَّدَاتُهُ مُذَهَّبَةٌ كُعُوبُها، تُوْحِي بالْجَمَالِ وبالْجَلَالِ، وما أَحْلَى أن يَشِيَ مَنْظَرُها بأنَّ مَنِ ابتاعَها مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، عَلَى أنَّنِي أَحْبَبْتُ، مُنْذُ ذلكَ الزَّمَنِ، ابْنَ كَثِيرٍ الإمامَ الفقيهَ المُفسِّرَ المُحدِّثَ المُؤَرِّخَ، وكانَ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ أنْ أُمْضِيَ الفَصْلَ الأَخِيرَ مِنْ دِراستِي المُتَوَسِّطَةِ في مدرسةِ ابْنِ كَثِيرٍ، في حَيٍّ مُشْرِفَةَ بِجُدَّةَ، فعَدَدْتُ ذلكَ فَأْلًا حَسَنًا!

وفَعَلْتُ الأَمْرَ نَفْسَهُ لَمَّا ابتعْتُ كِتابَ **العِقْدِ الفَرِيدِ** لِابْنِ عبدِ رَبِّهِ الأندلُسِيِّ. الكِتابُ في أربعةِ مُجَلَّدَاتٍ مِّنَ القَطْعِ الكبيرِ، حَقَّقَهُ محمَّد سَعيد العَرْيَان، وهو كِتابٌ قريبٌ حبيبٌ، مهما كانَ ضَخْمًا كبيرًا، وأَعْجَبَنِي فيهِ بِنَاؤُهُ عَلَى أبوابٍ؛ كُلُّ بابٍ اتَّخَذَ لهُ اسْمًا مِّنْ أسماءِ الْجَوَاهِرِ، وفيهِ أشعارٌ، وقِصَصٌ، وأخبارٌ، ونَوَادِرُ. ومِمَّا حَبَّبَهُ إِلَيَّ وزَيَّنَهُ في عَيْنِي، أنَّ التِّلْفزيونَ السُّعُودِيَّ كان يَبُثُّ "تَمْثِيلِيَّةً" اسْمُها "العِقْدُ الفَرِيدُ"، بَطَلُها المُمَثِّلُ اللُّبنانِيُّ الكبيرُ رَشِيد عَلَامة، وهو مُمَثِّلٌ يُحْسِنُ التَّكَلُّمَ بالفُصْحَى، وكانَ مِنْ شِدَّةِ تصويرِهِ لِسَمْتِ ابْنِ عبدِ رَبِّهِ وهَيْئَتِهِ = أنَّني، حتَّى يَوْمِ النَّاسِ هذا، لا أَتَخَيَّلُ ابْنَ عبدِ رَبِّهِ الأندلُسِيَّ إلَّا في صُورةِ رَشِيد عَلَامة! وأنا أُعِيدُ جانِبًا مِّنْ شَغَفِي بالتُّراثِ القديمِ إلى فَنَّانِينَ كِبَارٍ، هَدَوْنِي إلى كيفَ يَكُونُ الْجَمَالُ، وكيفَ يَكُونُ الذَّوْقُ؛ مِنْهُمْ رَشِيد عَلَامة، وعبدُ الْمَجِيدِ مَجْذُوب؛ هذا الفنَّانُ البارِعُ الَّذي حَبَّبَ لِي أداؤُهُ وصَوْتُهُ شِعْرَ أبي تَمَّامٍ والمُتَنَبِّي.

- ٦ -

كان كِتابُ **فِقْهِ اللُّغةِ وأسرارِ العربيَّةِ** لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ حبيبًا قريبًا، وكانَتْ كَلِماتُهُ وأساليبُهُ تَرُوقُني، ويَلَذُّ لِي أنْ أستعيرَ شيئًا مِّنْها، ولكَ أنْ تَعْرِفَ الأَثَرَ الَّذي انْطَبَعَ في قلبي وعَقْلِي، وأنا أقرأُ الفَصْلَ البديعَ الَّذي استهلَّ بِهِ كِتابَهُ:

كُلُّ ما عَلَاكَ فأَظَلَّكَ فهو: سَمَاءٌ. كُلُّ أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ فهي: صَعِيدٌ. كُلُّ حاجِزٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فهو: مَوْبِقٌ. كُلُّ بِنَاءٍ مُرَبَّعٍ فهو: كَعْبَةٌ. كُلُّ بِنَاءٍ عَالٍ فهو: صَرْحٌ. كُلُّ شيْءٍ دَبَّ عَلَى وَجْهِ الأرضِ

فهو: دَابَّةٌ. كُلُّ ما غابَ عنِ العُيُونِ وكانَ مُحَصَّلًا في القُلُوبِ فهو: غَيْبٌ. كُلُّ ما يُسْتَحْيَا مِنْ كَشْفِهِ مِنْ أعضاءِ الإنسانِ فهو: عَوْرَةٌ

وفيهِ:

لا يُقَالُ كَأْسٌ: إلَّا إذا كانَ فيها شَرَابٌ وإلَّا فهي زُجَاجَةٌ. ولا يُقَالُ مائِدَةٌ: إلَّا إذا كانَ عليها طَعَامٌ وإلَّا فهي خُـِوَانٌ. ولا يُقَالُ كُوزٌ: إلَّا إذا كانَتْ لهُ عُرْوَةٌ وإلَّا فهو كُوبٌ

واليومَ، وأنا أَقِفُ عَلَى جَمْهَرةٍ مِّنْ كُتُبِ أبي منصورٍ الثَّعالِبِيِّ، في خِزَانَةِ كُتُبي = أستعيدُ ذِكْرَيَاتٍ حُلْوةً جَعَلَتِ الثَّعالِبِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ - مُؤَلِّفًا أثيرًا لَّدَيَّ، لا تَقَعُ عيني عَلَى نَشْرةٍ جَدِيدةٍ لِوَاحِدٍ مِّنْ كُتُبِهِ حتَّى أَبتاعَها، ويُعَاوِدُني الحنينُ، حِينًا فَحِينًا، إلى عالِمٍ وأديبٍ عَرَفْتُهُ في ذلك الزَّمانِ البَعِيدِ.

- ٧ -

كِتابٌ وَاحِدٌ أَخَذَ بِيَدِي دُفْعَةً وَّاحِدةً إلى الأدبِ العربيِّ، مِنَ الْجاهِلِيَّةِ إلى العُقودِ الأُولَى مِنَ القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ. إنَّهُ الكِتابُ الذَّائِعُ البديعُ **جَوَاهِرُ الأَدَبِ في أَدَبِيَّاتِ وإنْشَاءِ لُغَةِ العَرَبِ**، لِمُؤلِّفِهِ السَّيِّدِ أحمد الهاشميِّ.

ولا أَظُنُّ أديبًا أَوْ مُتأَدِّبًا، في ذلك الزَّمَنِ، بَدَأَ حَيَاتَهُ في القِرَاءَةِ دُونَ الرُّجُوعِ إليهِ، وهو، بِحَقٍّ، مَّعْلَمَةٌ ضَخْمَةٌ اِنْطَوَتْ عَلَى مَعَارِفَ واسِعةٍ في الإنشاءِ وصِناعةِ الكتابةِ، والخُطَبِ، والمُنَاظَرَاتِ، والأخبارِ، والنَّوادِرِ، والأشعارِ؛ قديمِها وحديثِها، منذُ سَحْبانَ وائِلٍ وقُسِّ بْنِ ساعِدَةَ الإِيَادِيِّ حتَّى زَمَنِ المُؤَلِّفِ في عَصْرِنا الحاضِرِ.

اِنْتَفَعْتُ بالكِتابِ كثيرًا، عَرَفْتُ أطوارَ الأدبِ العربيِّ في تاريخِهِ الطَّويلِ. وأستطيعُ الجَزْمَ أنَّني اكتشفْتُ بِهِ طائِفةً وَّاسِعةً مِّنَ الأُدباءِ والشُّعراءِ والخُطَباءِ والمُؤَرِّخِينَ، ما كان بِوُسْعِي استيعابُهُمْ لَوْلا هذا الكِتابُ الطَّريفُ، ثُمَّ إنَّني اسْتَظْهَرْتُ طَرَفًا مِّنْ أشعارِهِ، ولا أزالُ أستعِيدُ

شيئًا مِّنْها، عَلَى بُعْدِ العَهْدِ، ورَاعَنِي فيهِ جَلَالُ المُعَلَّقاتِ، ولَذَّ لِي شِعْرُ ابْنِ الوَرْدِيِّ، وصَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّيِّ، والطُّغْرَائيِّ، وإسماعيل صَبْرِي، وشوقيّ، وحافِظٍ، وخليل مَطْرَانَ، وأَلِفَ عقلي النَّاشِئُ أسماءَ الْجاحِظِ، والمُبَرِّدِ، وأبي حَيَّانَ التَّوحيديِّ، وابْنِ خَلْدُونَ، والسُّيُوطِيِّ، ورِفَاعَةَ الطَّهطاوِيِّ، وعبدِ اللهِ النَّديمِ، ومحمَّد عبده، وسَعْد زغلول وآخَرِينَ.

كَيْفَ أَقْرَأُ؟

أقرأُ في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فالمُهِمُّ أنْ أَقْرَأَ! ولا يَعْنِيني عَدَدُ الصَّفَحَاتِ الَّتي أقرأُها كُلَّ يَوْمٍ، وطريقتي في القِراءَةِ تُشْبِهُ مَن يَتَلَذَّذُ، مُتَمَهِّلًا مُسْتَأْنِيًا، بِأَكْلِ الآيسكريم؛ يَتَذَوَّقُهُ، في أَنَاةٍ ورِفْقٍ، ولا يَوَدُّ انتهاءَهُ، ولا أُحِبُّ القِرَاءَةَ المُتَعَجِّلَةَ، كَمَن يَأْكُلُ "الفِصْفِصَ"!

ويُهِمُّني، متَى أَقْبَلْتُ عَلَى كِتابٍ تُرَاثِيٍّ، أنْ أَذُوقَ كَلِماتِهِ، وأتأمَّلَ عِبَاراتِهِ، ويَكْثُرُ أنْ أُعاوِدَ قِرَاءَةَ الفِقْرَةِ أوِ الصَّفحةِ مَرَّتَيْنِ وثلاثًا؛ يَحْمِلُنِي عَلَى ذلك أنْ أَعْرِفَ كَيْفَ يُفَكِّرُ المُؤلِّفُ؟ وكَيْفَ يُؤَدِّي ثَمَرَةَ تفكيرِهِ، عَلَى هذا النَّحْوِ أوْ ذاك مِنَ الكلامِ.

ومِنْ عادتي أنْ أقرأَ في البَيْتِ؛ في مكتبتي، وفي الرَّدْهَةِ، واعتدْتُّ، منذُ أَمَدٍ بعيدٍ، أنْ أقرأَ في القَهْوَةِ، ولِي، في هذهِ القَهْوَةِ أوْ تلك، "مِرْكازٌ" أَلُوذُ بِهِ لَيْلًا، وأُغادِرُهُ فَجْرًا، أَخْلُو فيهِ بِنَفْسِي وبأصدقائي الكُتُبِ، بعيدًا عنْ صَخَبِ الحياةِ وضجيجِها.

ويَسْأَلُني بعضُ الصَّدِيقِ: كَمْ صفحةً أقرأُ كُلَّ يَوْمٍ؟!

وأُجِيبُ: مِنْ عادتي أنْ لا أَعُدَّ الصَّفحاتِ، غيرَ أنَّ ما أقرأُهُ - قِراءَةً حُرَّةً أَتَلَذَّذُ بِها - يَبْلُغُ مِئَةَ صفحةٍ، في اليَوْمِ، فإنْ بالَغْتُ فثلاثينَ ومِئَةَ صفحةٍ!

أَمَّا قِراءَةُ البَحْثِ والتَّأليفِ - وهي أَسْوَأُ ألوانِ القِراءَةِ! - فأَكْثَرُ مِنْ ذلك بكثيرٍ؛ لأنَّ عَيْنِيَ لا تَبْحَثُ عنِ المُتْعَةِ والبَهْجةِ، وإنَّما عنِ "الفائِدةِ".

وأنا لا أَغْلُو في وَصْفِ حالِي مَعَ الكِتابِ، ولا أُسْرِفُ في تَبْيَانِ صِلَتي بِهِ، لكنَّني لا أستطيعُ تَجاوُزَ كِتابٍ أَحْبَبْتُهُ إلَّا بإحساسٍ بالفَقْدِ يُداخِلُني، كُلَّما أَشْرَفَ الكِتابُ عَلَى نِهايتِهِ، وكأنَّني اطَّرَحْتُ شيئًا مِّنْ نَفْسِي، يعتادُني هذا الشُّعُورُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وما أَكْثَرَ الكُتُبَ الَّتي استهوتْني بِما انطوَى فيها مِنْ جَمَالٍ! وما أَشَدَّ حَنِينِي إليها اليَوْمَ! فإذا أَرَدْتَ مِثَالًا سُقْتُ إليكَ أمثلةً! أَلَا

يَكْفِي أنَّني كُلَّما أَقْبَلْتُ عَلَى موضِعِ كِتابٍ أُحِبُّهُ = أن يَبْعَثَ تاريخًا، ويَهِيجَ ذِكْرَى؟! وحَسْبُهُ أن يَرْجِعَ بِي سَنَوَاتٍ تَسْبِقُها سَنَوَاتٌ، إلى زَمَنٍ هو عِندي أَعْذَبُ وأَبْهَجُ، يَسْتَدِرُّ ما غارَ في النَّفْسِ واختفى، حتَّى إذا خايَلَني ذلك الكِتابُ أَنْسَى ما أنا فيهِ، وأَلْتَفِتُ إليهِ، ويُوْشِكُ الزَّمانُ أن يَعُودَ بِي إلى قارِئٍ شابٍّ يَلْتَمِسُ في الكِتابِ حياتَهُ، لا يَحْمِلُهُ عَلَى القِراءَةِ رأيٌ يأخُذُ بِهِ، ولا مَذْهَبٌ يَنْتَحِلُهُ = إلَّا مَحَبَّةَ القِراءةِ؛ فيصيحُ في داخِلِي صَوْتٌ يُؤَنِّبُنِي عَلَى أنْ تَخَلَّيْتُ عنْ "قارِئٍ" كان! عنْ قارِئٍ، ما أَحَسَّ، منذُ عَهْدٍ بعيدٍ، ذلك الشُّعُورَ ولا مَرَّ بِهِ!

وأَذْكُرُ – وكأنَّهُ أمسِ القريبُ – كَيْفَ استدلَلْتُ عَلَى كِتابِ **هذا الشِّعْر الْحديث..!**[12] للعَلَّامةِ الْجليلِ الدُّكتور عُمَرَ فَرُّوخ! كان ذلك عامَ 1406هـ = 1986م! يا أللهُ! إنَّهُ زمنٌ بعيدٌ! غَشِيْتُ مكتبةَ عالَمِ المعرفةِ بِجُدَّةَ، وإذا بالكِتابِ يُخَايِلُنِي ويُغْرِينِي بابتياعِهِ وحيازَتِهِ. كان كُلُّ شيْءٍ حَوْلِي يَدْفَعُنِي إلى ابتياعِهِ؛ فأنا طالِبٌ حديثُ العَهْدِ بالْجامِعةِ، والحياةُ الأدبيَّةُ في البِلادِ لا يكادُ يَشْغَلُها شاغِلٌ عنْ صِرَاعٍ عنيفٍ كُلَّ العُنفِ عَلَى الشِّعْرِ الْجديدِ، والنَّقْدِ الْجديدِ، والأدبِ الْجديدِ! أقرأُ صحيفةَ **عُكاظٍ** فأَمِيلُ إليها، وأُطَالِعُ صحيفةَ **النَّدوةِ** فإذا بِكُتَّابِها يَرْمُونَ عنْ قَوْسٍ واحِدةٍ، وكُلُّهُم عَلَى أنَّ الشِّعْرَ الْجديدَ والنَّقْدَ الْجديدَ والأدبَ الْجديدَ = خطرٌ يتهدَّدُ ثقافتَنا وأدبَنا ومَصِيرَنا!

حياةٌ زاهِيَةٌ بالقِراءَةِ والكُتُبِ، قاتِمةٌ بالعُنْفِ الَّذي اضْطَرَبَتْ فيهِ، وكأنَّما كان واجِبًا عَلَى طالِبِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، وكُنْتُ أنا ذلك الطَّالِبَ = أنْ يَمِيلَ إلى واحِدٍ مِّنَ الفُسْطَاطَيْنِ، فإلَّا تَكُ ذِهْ فَتِهْ! وكأنَّني كَمَنْ ضَلَّ طريقَهُ، فتَوَزَّعَتْهُ الأهواءُ والسُّبُلُ، وتاهَ، ولَمَّا تَحْمِلْهُ الطَّريقُ بَعْدُ! فلَمَّا أقبلْتُ عَلَى كِتابِ عُمَرَ فَرُّوخ كأنَّما استرددْتُّ أنفاسي، واستعدْتُّ سَكِينتي، واهْتَدَيْتُ إلى الطَّريقِ، حتَّى إذا شَرَعْتُ فيهِ أَدْرَكَنِي شيْءٌ مَّا مُبْهِجٌ مُّفرِحٌ، أَنسانِي الشِّعْرَ الْجديدَ والنَّقْدَ الْجديدَ والأدبَ الْجديدَ، وصَوَّرَ لِي الكِتابُ والكاتِبُ أنَّني كَمَن يُمْسِكُ الدُّنيا بِكِلْتا يَدَيْهِ، فلَمَّا مَضَيْتُ فيهِ، وآذَنَ بالرَّحيلِ داخَلَني حُزْنُ مَن يُفارِقُ حَبِيبًا، وأَيْقَنْتُ أنَّني فُزْتُ بكاتِبي، وكان عُمَرُ فَرُّوخ ذلك الكاتِبَ!

ولَمَّا أَظَلَّنا شَهْرُ الْمُحَرَّم مِنْ سَنَةِ 1444هـ = استولَى عَلَيَّ المَلَلُ! مَلِلْتُ القِراءَةَ، والكِتابَ، والمُؤَلِّفِينَ، وبينما أَجُولُ في خِزَانةِ كُتُبي، لِغيْرِ غايةٍ، إذا بِي أُطالِعُ كُتُبَ المَهْجَرِيِّينَ: أمين الرَّيْحَانِيّ، وجُبران خليل جُبران، وميخائيل نُعَيْمَه، وتَنَاوَلْتُ كُتُبًا لأمين الرَّيْحَانِيِّ، عَلَى غيرِ حَمَاسةٍ، وجَعَلْتُ أقرأُ مَطَالِعَ قِصَصِهِ، وإذا المَلَلُ يُبَارِحُنِي، وإذا بِـ "القارِئِ" القديمِ يُطِلُّ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الكُتُبِ، فأدركْتُ أنَّ القِرَاءَةَ أفسدَتِ القِراءَةَ! وأنَّني لنْ أَدْفَعَ القِرَاءَةَ الفاتِرةَ البارِدةَ بِسِوَى الرُّجُوعِ إلى الأدبِ الْحَيِّ والكِتابةِ الْحَيَّةِ، فانصرَفْتُ ثلاثةَ أَشْهُرٍ، بِتَمَامِها، أَصْحُو عَلَى كِتابٍ للرَّيْحَانِيِّ، وأنامُ وبَيْنَ يَدَيَّ كِتابٌ لميخائيل نُعَيْمه، وأُجَدِّدُ نشاطي بجُبران خليل جُبران، وعاوَدَني شُعُورٌ اِسْتَرْدَدْتُّ فيه ذلك القارِئَ السَّاذَجَ، الَّذي كان يقرأُ لأنَّهُ يُحِبُّ القِراءَةَ، لا يرجو مِنْها إلَّا ما يَرجوه طالِبُ البهجةِ والمُتْعةِ، وليس يَعْنِيهِ إلَّا الأدبُ الخالِصُ؛ ذلك الأدبُ المَنْذُورُ لِلْجَمَالِ، وأَدْرَكَ القارِئُ القديمُ الْجديدُ أنَّهُ، إنْ ضَلَّ الطَّريقَ، فسَرْعانَ ما سَيَهْدِيهِ كِتابٌ وَّكاتِبٌ إلى جادَّتِهِ ومِنهاجِهِ!

لا أُضِيعُ وَقْتِي في القِرَاءَةِ لِأَيٍّ أَحَدٍ!

قُلْتُ لصديقي، وقدْ خُضْنا في أحاديثِ الكُتُبِ والكُتَّابِ: لا أقرأُ – متَى أردْتُ القِرَاءَةَ الَّتي أرجو مِنْ وَّرائِها التَّثَقُّفَ والتَّعَلُّمَ والإمتاعَ والمُؤَانَسَةَ = إلَّا للمُجَوِّدِينَ المُحْسِنِينَ مِنَ المُؤلِّفِينَ، وعادتي مَعَ الكُتُبِ كعادتي مَعَ أفلامِ السِّينما؛ فأنا شديدُ العِنايةِ، مُدَقِّقٌ في الاختيارِ، متَى أردْتُ الاختلافَ إلى دارِ السِّينما، يَعنيني المُخرجُ قَبْلَ البَطَلِ، وفي أحايِينَ يَعنيني، كذلك، مُدِيرُ التَّصويرِ.

وفي الكُتُبِ يَعنيني المُؤَلِّفُ الْمُجَوِّدُ المُتْقِنُ، وأَحْرِصُ عَلَى أنْ أَسْتَقِيَ العِلْمَ مِنَ النَّبْعِ، وتَراني أَقْرَأُ **الأغاني**، وكُتُبَ الْجاحِظِ، والمُبرِّدِ، وابْنِ قُتَيْبَةَ، و**أَمَالِي** القالِيّ = وأُطالِعُ كُتُبَ التَّاريخِ، والتَّراجِمِ، والمَشْيَخاتِ؛ لِأَتذوَّقَها، وأَتدبَّرَها، وأَقِفَ عَلَى مُخَبَّآتِها = قَبْلَ أنْ أقرأَ للمُؤَلِّفِينَ المُعاصِرِينَ.

وكذلكَ شأْني في تَعَرُّفِ مَناهِجِ النَّقْدِ الْحديثِ والْحداثيِّ!

فَرْقٌ كبيرٌ بَيْنَ أنْ تَعْرِفَ البِنْيَوِيَّةَ وما بَعْدَها مِنْ كِتابِ **الخطيئةِ والتَّكفيرِ** للدُّكتور عبد الله الغذَّاميِّ! - وقِسْ عَلَى ذلك صلاح فَضْل وسِوَاهُ = وأنْ تَعرِفَها رَأْسًا مِّنْ أهلِها، إنْ كُنْتَ تَعْرِفُ اللِّسانَ الأعجميَّ، فإنْ كُنتَ مِنْ ذَوِي اللِّسانِ الواحِدِ ففَرْقٌ كبيرٌ بَيْنَ أنْ تَقْرَأَ مُتُونَ النَّقْدِ الْحَداثيِّ كما أدَّاها النَّقَلَةُ المُحْسِنُونَ، ويَحْضُرُني مِنْهُمْ إحسان عَبَّاس، ومحمَّد يوسُف نَجْم، ومحمَّد الوَلِيّ، وعبد السَّلام بنعبد العالي، وحُسام نايِل، ومحمَّد عُصْفُور، وحَسَن الطَّالِب = وأنْ تقرأَ تلك المُتُونَ بترجمةِ مُتَرْجِمٍ رَكيكِ العِبَارَةِ ضعيفِ الثَّقافةِ كمُنْذِر عيَّاشيّ وأمثالِهِ مِنْ ضَعَفَةِ المُتَرْجِمِينَ.

وطالما قُلْتُ: إنِّني أَستثنِي مُؤلِّفِينَ عَرَبًا كتبوا في النَّظريَّاتِ النَّقْدِيَّةِ الغربيَّةِ كُتُبًا فأَحْسَنُوا الكتابةَ، أذكرُ مِنْهُمْ إحسان عَبَّاس، ومحمَّد يوسُف نَجْم، ومحمَّد غنيمي هِلَال، ومحمَّد

مندور، ولويس عوض، وعبد الواحِد لُؤْلُؤة، وعبد السَّلام المَسَدِّيّ، ومحمَّد عنانيّ، وماهر شفيق فريد، وجابر عُصْفُور.

وسأقولُ لكَ شيئًا: ما الَّذي يَحْمِلُني عَلَى قِرَاءَةِ كِتابٍ موضوعُهُ "النَّظريَّةُ الأدبيَّةُ مِنَ المُحَاكاةِ إلى التَّفْكِيكِيَّةِ" لأستاذٍ عربيٍّ، جِمَاعُ ما يَسُوقُهُ إلى قارئِهِ – والأَدقُّ أنْ أقولَ: إلى طَلَبَتِهِ في الْجامِعةِ – جُذَاذَاتٌ ليس لهُ فيها إلَّا التَّلْخِيصُ والاختصارُ والرَّبْطُ؟! فإذا ظَهَرْتَ عَلَى شيْءٍ مِّمَّا أَنْشَأَ وكَتَبَ أدركْتَ كَيْفَ تَسَوَّرَ، جريئًا مِّقْدَامًا، عُلُومًا لَمْ يَدْرِ مِنْها إلَّا القليلَ القليلَ!

عادَ عَلَيَّ وُرُودُ النَّبْعِ بخيرٍ كبيرٍ – ومَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا[13]! – فلَمْ أُكَلِّفْ نَفْسِي القِراءَةَ إلَّا للكِبارِ، لا أَرْضَى بِهِمْ بَدَلًا، ولا تَحْسَبِ الوصْفَ بِـ "الكِبارِ" أُرِيدُ بِهِ مَنْ عَلَتْ سِنُّهُ مِنَ الكاتِبِينَ! لا! إنَّما أَرَدْتُ الْمُجَوِّدِينَ الْمُحْسِنِينَ المُتْقِنِينَ؛ أولئك الَّذين استَوْفَوْا معرفةَ ما نَدَبُوا أَنْفُسَهُمْ إليهِ، ولِي معهم ذكرياتٌ لَّيْسَتْ تُنْسَى!

وسأختصُّ، في هذا النِّثَارِ، خَمْسةً مِّنْ جِلَّةِ النُّقَّادِ والدَّارِسِينَ، خَرَجْتُ مِنْ تآلِيفِهِمْ شَبْعَانَ رَيَّانَ! وعَسَاكَ ستُقَدِّرُ أنَّني أَعْنِي محمَّد مندور، ولويس عوض، ومحمَّد غنيمي هِلَال، وإحسان عَبَّاس، ومحمَّد يوسُف نَجم؛ لشِدَّةِ تَعَلُّقي بآثارِهِمْ!

وإلى كُتُبِ محمَّد مندور، الصَّغيرةِ اللَّطيفةِ، أُعِيدُ معرفتي بالنَّظريَّةِ النَّقْدِيَّةِ، حتَّى عَهْدِهِ، وما كان النَّاقدُ الْجليلُ مُلَخِّصًا ومُخْتَصِرًا، وإنْ لَمْ يَدْفَعْهُما عنْ مُّؤلَّفاتِهِ = لكنَّهُ كان مُؤَلِّفًا بارِعًا عارِفًا معرفةً بعيدةَ الغَوْرِ بالموضوعِ الَّذي يأخُذُ بِهِ، نَلْقَى ذلك في كِتابِهِ الَّذي أَعُدُّهُ أَوْرَغَانُونَ النَّقْدِ الأدبيِّ، أَعْنِي **في المِيزَانِ الْجديدِ**، وفي أُطْرُوحَتِهِ الْجليلةِ **النَّقْدِ المنهجِيِّ عِنْدَ العربِ**، وفي كُتُبِهِ – وكُتَيِّباتِهِ – الَّتي أرادَ مِنْها إذاعةَ المعرفةِ الْحَقَّةِ بالأدبِ ونظريَّتِهِ؛ فإذا مِلْتَ إلى لويس عوض، وقَرَأْتَ كِتابَهُ **في الأدبِ الإنكليزيِّ الحديثِ**، وإذا ظَهَرْتَ عَلَى مُقَدِّمَتَيْهِ النَّفِيسَتَيْنِ لكِتابِ **فنّ الشِّعْر** للشَّاعِرِ والنَّاقِدِ اللَّاتِينيِّ هُوراس، وكِتابِ **برومثيوس طَلِيقًا** للشَّاعِرِ والنَّاقِدِ الإنكليزيِّ شِلِّي = أدركْتَ أنَّكَ إزاءَ ناقِدٍ عالِمٍ، تَخْرُجُ مِنْ مُّؤلَّفاتِهِ وأنتَ

أشدُّ فَهْمًا للنَّظريَّةِ النَّقْدِيَّةِ عند الغربِ! أَمَّا محمَّد غُنَيْمِي هِلال فحَسْبُكَ كِتاباهُ الفاخِرانِ **الرُّومانتيكيَّةُ** و**النَّقْدُ الأدبيُّ الحديثُ** = دَلِيلًا عَلَى شِدَّةِ اتِّصَالِهِ بالنَّظَرِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ!

فإذا أَقْبَلْتَ عَلَى إحسان عَبَّاس ومحمَّد يوسُف نَجْم فيَكْفِي أنْ نُشِيرَ، مُسْرِعِينَ، إلى **فَنِّ الشِّعْرِ** و**فَنِّ السِّيرَةِ** للأوَّلِ، و**فَنِّ القِصَّةِ** و**فَنِّ المَقَالَةِ** للآخِرِ = لِنَعْرِفَ مِقْدارَ تَضَلُّعِهِما مِنَ النَّظريَّةِ النَّقْدِيَّةِ في الغَرْبِ، وقدْ أَحْسَنا فيها ما شاءَ لَهُما الإحسانُ!

ذِكْرَيَاتٌ مُعْجَمِيَّةٌ

- ١ -

في خِزَانةِ كُتُبِي جَمْهَرةٌ طَيِّبةٌ مِّنَ المُعْجَماتِ؛ فيها الوَاسِعُ الكبيرُ، والوَسِيطُ اللَّطِيفُ، والمُوْجَزُ المُخْتَصَرُ، وما كانَتْ تلك المُعْجَماتُ ضُيُوفَ شَرَفٍ عَلَى مكتبتي؛ لكنَّني طالما لُذْتُ بِهِنَّ باحِثًا وَّمُنَقِّبًا وَّمُسْتَشِيرًا، ورُبَّما أَلْجَأَنِي إلى هذا المُعْجَمِ أوْ ذاك حُبُّ القِراءَةِ، أوِ الفَرَاغُ مِنَ القِراءَةِ الرَّاتِبَةِ المُنْتَظِمةِ، فأَقْطَعُ شَوْطًا طويلًا مِّنْ وَّقْتِي في تَتَبُّعِ مادَّةٍ لُغَوِيَّةٍ - وأحيانًا مَوادَّ - وأَتَأَمَّلُ كيفَ تُوْلَدُ الكَلِمَةُ، وتَنْمُو، شيئًا فشيئًا، ويُصْبِحُ لَها جِذْرٌ وأغصانٌ وَّفُرُوعٌ، وكيفَ تُكَوِّنُ كَلِمةٌ أُسْرَةً، وتَصِيرُ أُخْرَى عَقِيمًا، بَلْ عَسَاها تَشِيخُ وتَمُوتُ فلا تُذكَرُ عَلَى أَلْسِنَتِنا.

ولا أَذْكُرُ أَنَّني طَوَّفْتُ في مُعْجَمٍ إلَّا وخَرَجْتُ مِنْهُ بفوائِدَ في الكلماتِ، والمَعاني، والأساليبِ، وأَدْرَكْتُ أنَّنا إنَّما نَصْطَنِعُ كَلِماتٍ مَّا في مَعَانٍ ضَيِّقةٍ مَّحْدُودةٍ، وآسَى لِفَقْرِنا في الألفاظِ والأساليبِ؛ فالمُعْجَمُ ليسَ شهادةً لِّمِيلادِ الكَلِمةِ أوْ وفَاتِها، إنَّهُ - وبِخَاصَّةٍ القديمُ - حياةٌ، وسِيَرٌ، وأشعارٌ، وأقوالٌ، وأمثالٌ، وحِكَمٌ.

- ٢ -

أَوَّلُ عهدي بالمُعجَمِ في الصَّفِّ الثَّالِثِ المُتَوسِّطِ (١٤٠١هـ = ١٩٨١). كانَ مُقرَّرًا علينا أنْ نَسْتَعِينَ بِمُعْجَمٍ، وكُنَّا ندعوهُ قامُوسًا، ولِلكَلِمةِ وَجْهٌ = وكان اسْمُ المُعْجَمِ المُقَرَّرِ **مُخْتارَ الصِّحَاحِ** لمحمَّد بن أبي بكرٍ بن عبد القادِرِ الرَّازِيِّ المُتَوَفَّى سَنَةَ 666هـ. وأَذْكُرُ أنَّني ابْتَعْتُهُ مِنْ مَّكتبتي الأثيرةِ في سُوقِ بابِ شَرِيف، ولا زِلْتُ أحتفِظُ بِهِ: كِتابٌ وَّسَطٌ في القَطْعِ وعَدَدِ الصَّفَحاتِ، ذُو غِلافٍ أسودَ ساذَجٍ، لا يَتَخَلَّلُهُ تَذْهِيبٌ ولا ما يُشبِهُهُ.

كانَتِ الغايةُ مِنَ المُعْجَمِ أن يَعْرِفَ الطَّالِبُ أُصُولَ استعمالِهِ، عَلَى وَفْقِ ما هو مُقَرَّرٌ في هذا الفَنِّ.

أَحْبَبْتُ مُعْجَمَ **مُخْتارِ الصِّحَاحِ**، الَّذي لَمْ أَعْرِفْهُ إلَّا في دُرُوسِ اللُّغَةِ العربيَّةِ، مَعَ أنَّ عهدي بالكُتُبِ وابتياعِها يَسْبِقُ ذلك العامَ، ويَرْقَى إلى سَنَواتِ التَّلْمَذَةِ في المدرسةِ الابتدائيَّةِ، لكنَّني، وإنْ لَمْ أَعْرِفِ المُعْجَمَ العربيَّ إلَّا في تلك السَّنةِ = استعَنْتُ، قَبْلَئِذٍ، بقاموسِ **المَوْرِدِ** الصَّغِير للتَّدَرُّبِ عَلَى مُفْرَداتِ اللُّغةِ الإنكليزيَّةِ وتَفَهُّمِها.

لَمْ أَرْجِعْ إلى **مُخْتارِ الصِّحَاحِ**، بَعْدَ أنِ اهْتَدَيْنا إلى بعضِ ما فِيهِ، وزَهَّدَنِي في الرُّجُوعِ إليهِ أنَّهُ يُوْشِكُ أن يَكُونَ كِتابًا مَّدْرَسِيًّا، ما دامَ مفروضًا علينا، وفي العادةِ يَجْفُو التَّلامِذةُ والطُّلَّابُ هذا اللَّوْنَ مِنَ الكُتُبِ!

- ٣ -

عَلَى أنَّني عَرَفْتُ شيئًا أَوْسَعَ مِنْ ذلك المُعْجَمِ وأَرْحَبَ مَدًى! ذلك أنَّ شقيقتي الكُبْرَى إحسان - حَفِظَها اللهُ - رَأَتْ في ناحِيَةٍ مِّنْ سُوقِ شارِعِ قابِلٍ عَرَبَةً يَبِيعُ صاحِبُها أَسْقاطًا - والأَسْقَاطُ هي الخُرْدَوَاتُ والعَادِيَّاتُ القديمةُ - واسْتَجْلَبَ نَظَرَها كِتابٌ فريدٌ في نَوْعِهِ وتأليفِهِ وطَبْعِهِ، وهو **الصِّحَاحُ ومَدَارِسُ المُعْجَماتِ العربيَّةِ** للعَلَّامةِ الجليلِ الأُستاذِ أحمد عبدِ الغَفُور عَطَّار! ولا زِلْتُ أَحْتَفِظُ بِنُسْخَتِهِ الفريدةِ، في موضوعِها، وطِبَاعَتِها القديمةِ (١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م)، ووَرَقِها الصَّقِيلِ.

أَعْجَبَنِي الكِتابُ، وأَقْبَلْتُ عليهِ، وشَرَعْتُ أقرأُ فُصُولًا مِّنْهُ، وراعَنِي، في ذلك العَهْدِ، اتِّسَاعُ المُعْجَماتِ العربيَّةِ، وتَنَوُّعُها، وفُنُونُها، وأشكالُها، وأحجامُها.

كان الكِتابُ آيةً في الإمتاعِ، ولَوْلا ما فيهِ مِنْ إمتاعٍ مَّا قَطَعْتُ شَوْطًا طويلًا في قِراءَتِهِ، ويَكْفِينِي مِنْهُ أنْ أَخَذَ بِيَدِي، أنا التِّلْمِيذ في المرحلةِ المُتَوَسِّطَةِ، إلى أطرافٍ لَّا زِلْتُ أُحِسُّ

حَلَاوَتَها، عنْ نَشْأَةِ هذا اللَّوْنِ مِنْ عُلُومِ اللُّغةِ، ونُمُوِّهِ، وتَحَوُّلِهِ إلى أُسَرٍ = وحَسْبُهُ أنْ وَصَلَنِي بأسماءِ الأئمَّةِ الكِبارِ مِنْ أصحابِ المُعْجَماتِ: الجَوْهَرِيِّ صاحِبِ **الصِّحَاحِ**، والفَيْرُوزباديِّ صاحِبِ **القامُوسِ المُحِيطِ**، وابْنِ مَنْظُورٍ صاحِبِ **لِسَانِ العربِ**!

كان ذلك شيئًا كثيرًا بالقِيَاسِ إلى تِلْمِيذٍ في المَرْحلَةِ المُتَوَسِّطَةِ، ولكنَّهُ كان شيئًا مُفِيدًا وَلذيذًا، تلك اللَّذَّةَ الَّتي عَسَاها قَوَّتْ صِلَتي باللُّغةِ وعُلُومِها وأعلامِها، ولَعَلَّها عَمِلَتْ عَمَلَها في عَقْلي ووِجداني، ووَجَّهَتْنِي – بمَشِيئَةِ اللهِ - نَحْوَ مُسْتَقبَلٍ كان، حِينَئِذٍ، في عِلْمِ الغَيْبِ!

- ٤ -

وفي مكتبتي، اليَوْمَ، أنواعٌ مِّنْ مُّعْجَماتِ اللُّغةِ العربيَّةِ، كما يَرْجُوهُ أصحابُ هذا الفَنِّ، بَلْ إنَّني أُصَنِّفُ مكتبتي مكتبةَ باحِثٍ مُّتَّصِلٍ لَيْلَهُ ونَهَارَهُ بالمُعْجَمِ والمُعْجَماتِ، وإنْ كُنْتُ هاوِيًا، مُحِبًّا، عاشِقًا لهذا اللَّوْنِ مِنَ التَّأليفِ، أستعِينُ بِهِ كثيرًا، ولا أَنْقَطِعُ عنهُ، حِينًا، حتَّى أَعُودَ إليهِ حِينًا آخَرَ، ورُبَّما قَصَدْتُ هذا المُعْجَمَ أوْ ذاك بَحْثًا عنْ كَلِمةٍ، أوِ لِلتَّثَبُّتِ مِنْ مَعْنًى، فأغرَقُ في صَفَحَاتِهِ الطِّوالِ العِرَاضِ، وأَنْسَى غايَتِي مِنْهُ، حتَّى إذا تَذَكَّرْتُ كان قدْ مَضَى عَلَيَّ في صُحْبَةِ المُعْجَمِ وَقْتٌ طويلٌ كُلُّهُ إمتاعٌ وَّمُؤَانَسَةٌ!

- ٥ -

وأَعْظَمُ المُعْجَماتِ وأَجْمَلُها ما كان قديمًا، عَلَى أنَّني أَحْبَبْتُ مِنْهُنَّ - وكُلُّهُنَّ حَبِيبٌ قريبٌ - المُعْجَمَ الَّذي صَنَعَهُ مَجْمَعُ اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرةِ، وسَمَّاهُ **المُعْجَمَ الوَسِيطَ**.

هو مُعْجَمٌ وَسِيطٌ، لأنَّ المَجْمَعَ أَخْرَجَ **المُعْجَمَ الوَجِيزَ**، ولأنَّهُ أَصْدَرَ، تِبَاعًا، **المُعْجَمَ الكبيرَ**، وخَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطُ.

أَحبَبْتُ **المُعْجَمَ الوَسِيطَ**، بِطَبْعَتِهِ ذاتِ الْمُجَلَّدِ الوَاحِدِ، ولَمْ أَرْتَحْ إلى طَبْعَتِهِ الْجديدةِ ذاتِ المُجَلَّدَيْن! وصارَ أَنِيسِي ورَفِيقِي في البَيْتِ، وفي العَمَلِ، وحَيْثُ أَقْرَأُ. أَسْتَعِينُ بِهِ في كُلِّ شُؤُونِ الكتابةِ، حتَّى باتَ عَلَى طَرَفِ الثُّمَامِ، وعِنْدِي مِنْهُ عِدَّةُ نُسَخٍ؛ فنُسْخةٌ في خِزانةِ كُتُبي، وثانيةٌ في مكتبي في البَيْتِ، وثالِثةٌ حيثُ أَجْلِسُ مَعَ أُسْرَتِي، ورَابِعَةٌ في مكتبي بوِزارةِ الإعلامِ قَبْلَ أنْ أَتَقَاعَدَ، وأُحِبُّ الحديثَ عَنْهُ حديثَ العاشِقِ، وأَطْمَئِنُّ إليهِ، ولَمْ يُقَصِّرْ معي، وكان وَفِيًّا أَمِينًا مُؤَازِرًا.

ومِمَّا أَذْكُرُهُ أنَّني تَحَدَّثْتُ إلى الأديبِ العَلَّامةِ الشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ حَسَن العَبَّادِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وخُضْنا في شُؤونٍ مُخْتَلِفاتٍ، فلَمَّا جاءَ ذِكْرُ **المُعْجَمِ الوَسِيطِ** واستِعانَتِي بِهِ = زَكَّى الشَّيْخُ العَلَّامةُ فِعْلِي، وزادَ فقالَ: إنَّهُ يُحِبُّ مِنَ المُعْجَماتِ **المُنْجِدَ** للأَبِ لويس مَعْلُوف اليَسُوعِيِّ اللُّبْنَانِيِّ! وأَفْرَحَنِي كلامُهُ عنِ **المُنْجِدِ**، وعَدَدْتُ رَأْيَ الشَّيْخِ الجليلِ إنصافًا لِمُعْجَمٍ كَثُرَ شانِئُوهُ؛ مَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ ومَنْ لَمْ يَقْرَأْ، وذلك حديثٌ آخَرُ!

مَجَلَّاتٌ أَحْبَبْتُها

أَقَمْتُ في الرِّياضِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، هي، عِندي، مِنْ أَطْيَبِ أيَّامِ العُمْرِ. قَصَدْتُها دارِسًا، فنِلْتُ مِنْ مَّباهِجِ الثَّقافةِ فيها، حتَّى تَضَلَّعْتُ، ولا تكادُ تَرَانِي إلَّا مُصْبِحًا مُمْسِيًا، في هذهِ المكتبةِ أوْ تلك، ما بَيْنَ كِتابٍ جديدٍ عليهِ أثرٌ مِّنَ المطبعةِ، وكِتابٍ قديمٍ طَيَّبَهُ مَرُّ الزَّمانِ. وكان يَلَذُّ لِي أنْ أختلِفَ إلى خزائِنِ الكُتُبِ القديمةِ والنَّادِرَةِ والمُسْتَعْمَلةِ، ولَها مُحِبُّوها الهائِمُونَ بِها، ولَمْ أَكُنْ أَقَلَّ مِنْهُمْ هُيَامًا، وإنْ كُنْتُ أَقَلَّهُمْ مالًا! لكنَّني أَصَبْتُ مِنْهُنَّ خيرًا كثيرًا، فلمَّا أُبْتُ إلى جُدَّةَ، مَسَّنِي فَرَاغٌ؛ فلا مكتبةٌ تَحْتَفِلُ بالكِتابِ النَّادِرِ، وما فيها مِنْ مَّكتباتٍ لِّلكِتابِ المُستعمَل، لا تَجُوزُ الكُتُبَ الَّتي يَفْرِضُها الأساتذةُ عَلَى طُلَّابِهِمْ في الْجامِعةِ، وأينَ مِنْها عَشَرَاتُ المكتباتِ الَّتي عَرَفْتُها في الرِّياضِ، قديمًا؛ تلك الَّتي انتخبْتُ مِنْهُنَّ القديمَ النَّادِرَ النَّفِيسَ.

وما كانَتِ الكُتُبُ وَحْدَها هِيَ الَّتي تستهوِيني، فلِلْمَجَلَّاتِ الأدبيَّةِ والثَّقافيَّةِ مَقَامُها، وهي، في الْحَقِّ، مِمَّا تَسَاوَتْ فيهِ المَدِينتانِ الكُبْرَيَانِ!

كان يستهوِيني، في الرِّياضِ، جَنَاحُ الصُّحُفِ والمَجَلَّاتِ والكُتُبِ في أسواقِ التَّمِيميِّ، بِطَرِيقِ المَلِك فَهْد. كُنْتُ أَقْصِدُها كُلَّ أُسبوعٍ ثلاثَ مَرَّاتٍ وَّأربعًا، أُقْبِلُ عليها لِأَقْضِيَ شأنًا مِّنْ شُؤونِ البَيْتِ، فلا أَخْرُجُ مِنْها إلَّا بنصيبٍ وَّافِرٍ مِّنَ المَجَلَّاتِ الأدبيَّةِ والثَّقافيَّةِ والْكُتُبِ الشَّهريَّةِ.

وسَكَنْتُ في جُدَّةَ في أحياءَ مُتقارِبةٍ (العَزِيزيَّةِ - الرِّحَابِ - الصَّفَا)، وكان مَرْكَزُ تسويقِ الرَّايةِ في طَرِيقِ الأميرِ ماجِد مَحَجِّي ومَقْصَدِي، وكُنْتُ أُراوِحُ بَيْنَهُ وبَيْنَ فَرْعِهِ الآخَرِ في شارِعِ صارِي؛ أَقْصِدُهُما، حِينًا، في الصَّباحِ، وحِينًا آخَرَ في اللَّيْلِ، وأَخْرُجُ مِنْهُما بالصُّحُفِ اليوميَّةِ، والمَجَلَّاتِ الأدبيَّةِ والثَّقافيَّةِ، وطائفةٍ مِّنَ الكُتُبِ الثَّقافيَّةِ الشَّهريَّةِ.

كُنْتُ أَحْرِصُ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى مَجلَّتَي **الفَيْصَلِ** و**المَجَلَّةِ العربيَّةِ** - رفيقَتَي الفُتُوَّةِ والشَّبابِ، ومَجَلَّةِ **العربيِّ** الكُوَيْتِيَّةِ، و**البيانِ** الكُوَيْتِيَّة، و**الْهِلَالِ**، و**الأزهرِ** - نَعَمْ كُنْتُ أُحِبُّ - ولا أزالُ -

مَجلَّةَ **الأزهرِ** = وكُنْتُ أَحْرِصُ، كذلِكَ، عَلَى مَجلَّةِ **المَجلَّةِ**، و**اليمامةِ**، و**الباحِثِ** - وهي مَجلَّةٌ حبيبةٌ إلى قلبي؛ أَلَا يَكْفِي أنَّ رئيسَ تحريرِها وكاتِبَها الرَّئيسَ هو العَلَّامةُ عُمَرُ فَرُّوخ؟! = وعَلَى **المُؤَرِّخِ العربيِّ**؛ المَجلَّةِ الرَّصِينةِ الَّتي أَدْمَنْتُ قِراءَتَها، لكنَّها اختفَتْ، ولَمْ أَرَها منذُ عهدٍ بعيدٍ = ومَجلَّاتٍ أُخْرَى عَزِيزةٍ أَهَمُّهُنَّ **الْيَمَنُ الْجديدُ**، و**الْيَوْمُ السَّابِعُ**، و**الْمُسْتَقْبَلُ العربيُّ**.

ثُمَّ صِرْتُ أَقْصِدُ رُكْنَ الصُّحُفِ والمَجلَّاتِ في مركزِ تسويقِ الدَّانُوبِ - وكان رُكنًا جَيِّدًا – قَبْلَ أنْ تَضْمَحِلَّ الصِّحافةُ الوَرَقِيَّةُ فتَهْوِي أماكِنُ تسويقِها، ويُسْتَبْدَلُ بأمكنتِها شُؤونٌ جديدةٌ غيرُ ذاتِ آصِرَةٍ بالكِتابِ، والصُّحُفِ والمَجلَّاتِ!

أَحْبَبْتُ في **الْهِلَالِ** الفُصُولَ الَّتي يُذِيعُها محمود محمَّد الطَّناحيُّ، وشُكْرِي عَيَّاد، وجَلَال أمين، وحُسَيْن أمين، وكُنْتُ أُلِمُّ بمقالاتِ مصطفَى سُوَيْف، وعبد العظيم أَنِيس.

أَمَّا مَجلَّةُ **العربيِّ**، فأَشَدُّ ما أُحِبُّهُ فيها الفُصُولُ البديعةُ الَّتي يَنْشُرُها الدُّكتور جابر عُصْفُور – ولا أزالُ، إلى اليومِ، أشتاقُ إلى فُصُولِهِ النَّقْدِيَّةِ الرَّصِينةِ!

وكُنْتُ أبحثُ في **الفَيْصَلِ** عنْ أيِّ مَقالٍ للنَّاقِدِ الكبيرِ الدُّكتور أحمد كمال زكيٍّ، هذا النَّاقِدِ العظيمِ والدَّارِسِ الكبيرِ الَّذي يكاد يَكُونُ اليومَ مجهولًا!

وفي **الأزهرِ** أقرأُ للأديبِ الكبيرِ الدُّكتور محمَّد رجب البَيُّوميِّ، وأُطالِعُ فُصُولًا قديمةً تَنْشُرُها المَجلَّةُ لشُيُوخِ الْجامِعِ العريقِ.

اِسْتَمْرَرْتُ عَلَى ذلك حتَّى تَحَوَّلْتُ عنْ أحياءِ شماليِّ جُدَّةَ إلى ضاحِيَةِ أبحُر الشَّمَالِيَّةِ - ومَن يَعْرِفُ جُدَّة يُدْرِكُ مَوْقِعَ هذه الضَّاحِيَةِ وبُعْدَ المَسَافةِ إليها = وصِرْتُ لا أَغْشَى تلك المكتباتِ إلَّا قليلًا، ثُمَّ انقطعْتُ عنها مَرَّةً وَّاحِدةً، حتَّى إذا قَصَدْتُ هذا المَرْكَزَ أوْ ذاك جَعَلْتُ أَبْحَثُ عنْ رُكنٍ كان فيها للصُّحُفِ والمَجلَّاتِ والكُتُبِ = فإذا بِعَوَادِي الزَّمانِ عَدَتْ عليها جميعِها! ولا شَكَّ في أنَّ **العربيَّ** - بعد جابر عُصْفُور - ليستْ تُغْرِيني، ولمْ أَرَ **الهِلَالَ** منذُ سِنِينَ، وما أَظُنُّني

أترقَّبُ صُدُورَها، مَطْلَعَ كُلِّ شَهْرٍ، وما كُنْتُ لِأَقرأَها بَعْدَ رحيلِ محمود الطَّناحيِّ، وشُكْرِي عَيَّاد، وابنَيْ أحمد أمين!

طائِرٌ عَلَى سِنْدِيانَة!

-١-

لا أستطيعُ، اليومَ، وَصْفَ الفَرَحِ الَّذي تَمَلَّكَني، بَعْدَ أنِ انتهيْتُ مِنْ إنشاءِ مَقَالٍ مُّطَوَّلٍ عنْ مُذَكِّراتِ المُؤَرِّخِ اللُّبنانيِّ الكبيرِ كمال الصَّليبيّ **طائِرٌ عَلَى سِنْدِيانَة**(14)!

كُنْتُ أُقَدِّرُ في نَفْسِي أنْ سأنشُرُ المَقالَ في صحيفةٍ دَوْلِيَّةٍ، ولْتَكُنِ **الحياة** أوِ **الشَّرق الأوسط**، فلا مُكافأةَ لِتَعَبِي في إنشائِهِ إلَّا أن يَقْرَأَ كمال الصَّليبيُّ - وأنا مُحِبٌّ لَّهُ - الفَصْلَ الَّذي كَتَبْتُهُ عنْ مُذَكِّراتِهِ البديعةِ تلك!

أَوَيْتُ إلى فِرَاشِي، مُبْتَهِجًا سعيدًا، وهذه عادةٌ فِيَّ كُلَّما أنشأْتُ فصلًا مِّنْ كِتابٍ، أوْ أَتْمَمْتُ مَقالًا = فلَمَّا انتبهْتُ مِنْ نَّوْمِي صباحًا، كان لا تزالُ حلاوةُ المَقَالِ عالِقةً بِي. كان يومًا بهيجًا لا أشُكُّ في ذلك قَطُّ!

قُلْتُ: لا بأسَ في أنْ أُلْقِيَ عَلَى المَقالِ نظرةَ مُوَدِّعٍ، قَبْلَ أنْ أدْفَعَ بِهِ إلى هذهِ الصَّحيفةِ أوْ تلك؛ أُصْلِحُ كلمةً، وأُجَوِّدُ عِبارَةً، وأتذوَّقُ حلاوَتَهُ، فأنا أُحِبُّ أنْ أتَذَوَّقَ ما أكتُبُهُ!

وَصَلْتُ الْحاسُوبَ بالتَّيَّارِ، وانتظرْتُ اللَّحْظةَ الَّتي أُطالِعُ فيها مولوديَ الْجديدَ..!

أَنْهَى الْحاسُوبُ إعداداتِهِ، واحتشدْتُ للقادِمِ الْحبيبِ، الَّذي سيُطِلُّ عَلَيَّ بإطلالتِهِ البهيجةِ.. لَكِنَّ في الْحاسُوبِ شيئًا مَّا لا أَعْرِفُهُ! شيئًا غريبًا.. يُوْشِكُ أن يَكُونَ تَصَلُّبًا.. إنَّهُ لا يستجيبُ! وسَرْعانَ ما تَحَوَّلَ الفَرَحُ إلى فَزَعٍ! أَخَذْتُ أُكَلِّمُ الْحاسُوبَ، وكأنَّه إنسانٌ مِّنْ لَّحْمٍ وَّدَمٍ، أرجوهُ أن يستجِيبَ.. أن يَعْطِفَ عَلَيَّ.. أنْ لا يَخْذُلَنِي! لقدْ قَرَأْتُ مُذَكِّراتِ كمال، وأحببْتُها، وتَذَوَّقْتُ كُلَّ كلمةٍ في بُنيانِها.. فلا تَحْرِمْني أيُّها الْحاسُوبُ! كُنْتَ وَفِيًّا مَّعِي كُلَّ السَّنَوَاتِ الَّتي مَضَتْ.. عَدَدْتُك صديقيَ الشَّهْمَ النَّبيلَ، فلا تَقْسُ عَلَيَّ..!

بَلَغَ الهَلَعُ بِي مَبْلَغًا عظيمًا، وَّأَوْشَكْتُ عَلَى البُكاءِ وأنا أَرْوِي لِزَوْجَتِي ما حَدَثَ..! لَمْ تكُنِ المِسْكِينةُ تَعْرِفُ ما تَفْعَلُ، وانتقَلَ فَزَعِي إليها، وأدركْتُ، آنَئِذٍ، أنَّ الهَلَعَ كالزُّكامِ يُعْدِي..!

كانَتْ صامِتةً، لكنَّها أشارَتْ عَلَيَّ، بَعْدَ حِينٍ، أنْ أَحْمِلَ الْحاسُوبَ إلى مُخْتَصٍّ بِصِيانَتِهِ وإصلاحِهِ، فعَدَوْتُ، هَلِعًا عَجِلًا، إلى الْحاسُوب، وحِرْتُ في تَعَقُّدِ أسلاكِهِ، واحتضنْتُهُ، وجَعَلْتُ أَجْرِي بِهِ إلى سيَّارتي، لا أكادُ أهتدي إلى الطَّريقِ، ولا أَعْرِفُ أيَّ ناحِيةٍ أَسْلُكُ، حتَّى بَلَغْتُ مَحَلًّا لإصلاحِ الْحَوَاسِيبِ، وكأنَّما الزَّمانُ يُعَاكِسُني، فلَمْ أَظْفَرْ بِمَوْقِفٍ لسيَّارتي إلَّا بِمَشقَّةٍ.

أوقفْتُ سيَّارتي، واحْتَضَنْتُ حاسُوبي، فَزِعًا هَلِعًا، ولَسْتُ أَشُكُّ في أنَّ هَيئتي دَلَّتْ عَلَى ما نَزَلَ بِي، وأنا مُوْقِنٌ أنَّ وَجْهِيَ إنْ لَمْ يَحْمِلْ سِيماءَ الباكِي، فيُوْشِكُ أن يَدُلَّ عليهِ.

لَمْ يَكُنْ في المَحَلِّ إلَّا عَمِيلٌ واحِدٌ.. ما أَسْعَدَهُ! كان يسألُ عنْ تحميلِ بَرْنامِجٍ جديدٍ! لَيْتَنِي كُنْتُ مِثْلَهُ! كُنْتُ مرعُوبًا مُرْتَبِكًا، ولِساني لا يكادُ يُبِينُ، وما إنِ التفَتَ العامِلُ إلَيَّ حتَّى قَصَصْتُ عليهِ ما كانَ!

لَمْ يتأثَّرْ لكلامي كثيرًا، بَلِ الْحَقُّ أنَّهُ هَوَّنَ عَلَيَّ ما بِي مِنْ فَزَعٍ، ورجَانِي، بِهُدُوءٍ، أنْ أعودَ إليهِ بَعْدَ ساعتينِ، وما أشَقَّ تَيْنِكَ السَّاعتينِ، وما أَثْقَلَهُما!

- ٢ -

وقَبْلَ أنْ تَتِمَّ السَّاعتانِ كُنْتُ أَقِفُ أمامَ العامِلِ، أَنْظُرُ إليهِ نَظْرَةَ مِسكينٍ، أوْ عابِرِ سبيلٍ سُلِبَ المالَ والزَّادَ والرَّاحِلةَ! وقَبْلَ أنْ أَفُوهَ بكلمةٍ.. قالَ لِي: آسِف! حاوَلْتُ أنْ أفعلَ أيَّ شيْءٍ لحاسُوبِكَ، ولكنْ دُونَ جَدْوَى! آسِف! لَقَدْ فَقَدْتَ كُلَّ أشيائِكَ!

- ٣ -

الحمدُ للهِ عَلَى كُلِّ حالٍ!

لَمْ أستطِعْ، بَعْدَ ذلكَ، أنْ أكتُبَ شيئًا جديدًا عنْ **طائِرٍ عَلَى سِنديانة**! وماتَ كمال الصَّليبيّ ولَمْ يَرَ مَقالي الَّذي اغتالَهُ الحاسُوبُ!

فلَمَّا أَصْدَرْتُ كِتابي **عَبَرُوا النَّهرَ مَرَّتَيْنِ** = كُنْتُ أُحِسُّ أنَّ فيهِ مَوْقِعًا "مُفْتَرَضًا" لمُذكِّراتِ كمال الصَّليبيِّ!

تعرف إِيه عَنِ المَنْطِقِ؟!

أَوَّلَ ما سَمِعْتُ بِشَيْءٍ اسْمُهُ عِلْمُ المَنْطِقِ كان في مسرحِيَّةِ "مَدْرَسَةِ المُشَاغِبِين"، في مَشْهَدٍ مِنْ أَجْمَلِ مَشَاهِدِ المَسْرَحِ العربِيِّ، ثُمَّ أُنْسِيتُ المَنْطِقَ وإنْ لَمْ أَنْسَ هذهِ العِبَارَةَ الَّتي صارَتْ مِنَ العِبَارَاتِ الشَّائِعَةِ في الشَّارِعِ العربيِّ كُلِّهِ مِنْ مَّشرِقِهِ إلى مَغْرِبِهِ!

عَلَى أنَّ اسْمَ "المَنْطِقِ" صارَ، بَعْدَ ذلك بِسَنَوَاتٍ، يَمُرُّ بي كثيرًا لَمَّا اتَّصَلَتْ أسبابي بالدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ والنَّحْوِيِّ والبلاغِيِّ. كان نَفَرٌ مِّنَ الدَّارِسِينَ يُلْمِحُونَ إليهِ، في مَبَاحِثِ الرَّأْيِ والقِيَاسِ والاستدلالِ في أُصُولِ النَّحْوِ واللُّغَةِ، وكان نَفَرٌ آخَرُونَ قدْ ثارُوا بالبلاغةِ المُتَأَخِّرَةِ عِنْدَ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِيِّ والسَّكَّاكِيِّ و**شُرُوحِ التَّلْخِيصِ** بِسَبَبِهِ، فإذا جُزْتُ تلك المُشْكِلاتِ وعَدَدْتُها مَسائِلَ في فلسفةِ العِلْمِ ومَنْهَجِهِ = لَقِيْتُنِي غَيْرَ مُسْتَطِيعٍ تَفَهُّمَ آحادٍ مِّنَ المَسائِلِ في دُرُوسِ النَّحْوِ واللُّغَةِ والبلاغةِ؛ فالْحَدُّ، والْجِنْسُ، والنَّوْعُ، والفَصْلُ، مِنَ الكَلِمِ الشَّائِعِ، في النَّحْوِ، واللَّازِمِ والمَلْزُومِ أَصْلٌ في بابِ الكِنَايَةِ، لكنَّني لا أكادُ أَتَبَيَّنُ لَهُمَا مَعْنًى إلَّا بالتَّقديرِ والظَّنِّ.

نَعَمْ كُنْتُ أَجِدُ لَذَّةً في دُرُوسِ فِقْهِ اللُّغةِ، وكان يستهوينِي عِلْمُ اللُّغةِ المُقَارَنُ، لكنَّني كُنْتُ أَقِفُ حائِرًا كُلَّما رُمْتُ معرفةً أَمْتَنَ بِما يَكْتُبُهُ الدُّكتور تَمَّام حَسَّان؛ كان كِتابُهُ **الأُصُول** يستجلِبُ نَظَرِي، وكُنْتُ أَعْرِفُ أنَّ تَفَهُّم مَقَاصِدِهِ يَجْلُو لِي شيئًا كبيرًا في الأُصُولِ العِلْمِيَّةِ والفلسفيَّةِ الَّتي عليها قِوَامُ النَّحْوِ وفِقْهِ اللُّغَةِ والبلاغةِ، وكُنْتُ أَعْجِزُ عنْ تَبَيُّنِ مَقاصِدِ فُصُولِهِ الَّتي أَدارَها عَلَى الرَّأْيِ والْقِيَاسِ والاستدلالِ... وتَقُومُ بيني وبينها عَقَبَاتٌ لَّيس مِنْ سبيلٍ إلى تذليلِها، ولا زِلْتُ أَذْكُرُ شيئًا مِّنِ اتِّصالِ بعضِ العُلُومِ ببعضٍ، قَرَأْتُ طَرَفًا مِّنْ ذلك لَدَى ابْنِ جِنِّي في **الخَصَائِصِ**، وكان يَشُدُّ انتباهِي حديثُهُ عنْ مِقْدارِ ما بينَ النَّحْوِ والفِقْهِ والكلامِ مِنْ تَوَاشُجٍ، وكُنْتُ أَعْرِفُ أنَّ ابْنَ جِنِّي وشَيْخَهُ أبا عَلِيٍّ الفارِسِيِّ – وطائِفَةً مِّنَ اللُّغويِّينَ والنُّحَاةِ - إنَّما هُمْ مِّنَ المُعْتَزِلَةِ، وأنَّ أُصُولَهُم في الفِكْرِ والنَّظَرِ ذاتُ أَثَرٍ فيما يَرُومُونَهُ مِنْ تَفَهُّمِ أبوابِ اللُّغَةِ والنَّحْوِ، وكان أبو القاسِمِ الزَّجَّاجُ - وعَهْدِي بِكِتابِهِ **الإيضاح في عِلَلِ النَّحْوِ** قديمٌ - يستجلِبُ نَظَرِي إليهِ أنَّ كِتابَهُ يَقُومُ عَلَى أُسُسٍ مَّنْطِقِيَّةٍ - ولَيْسَ شَرْطًا أنْ تَكُونَ أَرِسْطِيَّةً

الأصل - = لكنَّني لا أستطيعُ فَكَّ غامِضِها، فإذا جُلْتُ في **المُزْهِرِ في عُلُومِ اللُّغةِ وأنواعِها** لِلْجَلَالِ السُّيُوطِيِّ - رَأَيْتُ مُشْكِلاتِ اللُّغةِ مشدودةً إلى مَسَائِلَ في المَنْطِقِ والفلسفةِ والكلامِ والْجَدَلِ، وأنَّهُ لا سبيلَ إلى إساغَةِ ما فيهِ دُونَ التَّهدِّي إلى ما اسْتَكَنَّ خَلْفَ الكَلِماتِ مِنْ مَّسائِلَ ذِهْنِيَّةٍ وعَقْلِيَّةٍ وعَقَدِيَّةٍ.

وأنا أُرُدُّ صُعُوبَةَ ذلك إلى الطَّريقةِ الَّتي أَخَذَتْ بِها دِراستُنا في الْجامِعةِ؛ لَمْ نَدْرُسِ المَنْطِقَ، ولا تَرْبِطُنا وَشِيجَةٌ بِعِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ، وكُنَّا أَخْلِيَاءَ مِنْ أيِّ معرفةٍ بِعُلُومِ العقائِدِ، أَوْ عِلْمِ الكلامِ، وما كان أساتِذتُنا لِيَشْغَلُوا أَنْفُسَهُمْ بهذهِ العُلُومِ؛ فَلَيْسَ لطُلَّابِ الإجازةِ الْجامِعِيَّةِ في اللُّغةِ العربيَّةِ أن يُلِمُّوا بهذهِ المَعَارِفِ، ولا أَذْكُرُ أنَّ أَحَدًا مِّنْ أساتذتي استوقَفَهُ نَصٌّ في النَّحْوِ أوِ اللُّغَةِ أوِ البلاغةِ انطوَى عَلَى شيْءٍ مِنْ ذلك الكَلِمِ فأَنْشَأَ يَهْدِينا إلى مَقَاصِدِهِ، وفي أساتذتِنا مَنْ كان المَنْطِقُ وعِلْمُ الكلامِ بعضَ صِنَاعاتِهِ[15]، هذا إلى أنَّ ذلك الزَّمانَ ليس شيئًا يَّسِيرًا أن يُحَدِّثَ أُستاذٌ طُلَّابَهُ في شيْءٍ مِّنْ تلك العُلُومِ، إنَّ دُوْنَ ذلك لَأَهْوَالًا! وحَسْبُهُ أن يَمُرَّ بالدُّرُوسِ سريعًا، ولْأَعْتَرِفْ أنَّنا - نحنُ الطُّلَّابَ - لَمْ يَكُنْ لِّيدُورَ في أذهانِنا أنْ نُكَلِّفَ أَنْفُسَنا مَشَقَّةً وَّعَنَتًا فنَطْلُبَ مِنَ الدُّرُوسِ فَوْقَ ما نَحْنُ فيهِ.

لَكِنَّ المَنْطِقَ والعقائِدَ والكلامَ لَيْسَتْ حِلْيَةً ولا تَرَفًا، ولَمْ أَكُنْ، يَوْمَ ظَفِرْتُ بالإجازةِ الْجامِعِيَّةِ، لِأَسْتَرِيحَ، فأَقِفَ حيثُ أُرِيدَ لِي أنْ أَقِفَ عِنْدَ ما تَقِفْناهُ مِنْ دُرُوسِ النَّحْوِ الوظيفيِّ والبلاغةِ التَّعليمِيَّةِ وفِقْهِ اللُّغةِ وعِلْمِ اللُّغةِ، وماذا أَفْعَلُ بِنَفْسٍ جَبَلَها اللهُ - تَبَارَكَ وتَعَالَى - عَلَى حُبِّ المعرفةِ؟ وكَمْ أَمْضَيْتُ العُطَلَ الصَّيْفِيَّةَ، لَمَّا كُنْتُ مُدَرِّسًا، في صُحْبَةِ عبدِ القاهِرِ الْجُرْجانِيِّ وابْنِ جِنِّي، وكَمْ حاوَلْتُ أنْ أَحِلَّ مُشْكِلًا، وأَفُكَّ غامِضًا في عِبَارَةِ الفَخْرِ الرَّازيِّ في **نِهَايَةِ الإيجازِ** مَرَدُّهُ كَلِمٌ في المَنْطِقِ = فأَصُدَّ عَنْهُ، ويَنَالَنِي الإجهادُ كُلَّما أَرَدْتُ نَفْسِي عَلَى تَفَهُّمِهِ، فأَسْتَيْئِسَ مِنْهُ، ثُمَّ لا أَلْبَثُ أنْ أُعِيدَ الكَرَّةَ مَرَّةً ومَرَّةً، في ضَرْبٍ مِّنَ المُكابَدَةِ الَّتي لا تنتهي، وطالما أَعْلَنْتُ عَجْزًا مَّشفوعًا بالألمِ: "لَيْتَنا دَرَسْنا مَبَادِئَ الْمَنطِقِ، وأُصُولَ الفِقْهِ، وعِلْمَ الكلامِ"! ثُمَّ أَفِيءُ إلى نَفْسِي وأُرَدِّدُ قَوْلَ الأَوَّلِ: إنَّ لَوًّا وإنَّ لَيْتًا عَنَاءُ[16]!

ومِمَّا أَذْكُرُهُ أنَّني قَرأْتُ كِتابَ **فلسفةِ المَجَازِ** للدُّكتور لُطْفِي عبدِ البديعِ مَرَّاتٍ لا أُحْصِيهِنَّ، وكُنْتُ، وهذهِ عادَتِي مَعَهُ، أَفْهَمُ شيئًا وتَسْتَعْصِي عَلَيَّ أشياءُ، وكُنْتُ أَسْتَعِدُّ لِكُتُبِهِ بألوانٍ مِّنَ الاستعدادِ، فلا أقرأُها إلَّا خَالِيًا مِّنَ الهُمُومِ والمَشاغِلِ، ثُمَّ أَدْرَكْتُ أنَّ صُعُوبَتَها مَرَدُّها لِياذُ مُؤلِّفِها بالمَنْطِقِ والفلسفةِ وعِلْمِ الكلامِ وأُصُولِ الفِقْهِ، وأنَّ كِتابَهُ هذا كأنَّما كان كِتابًا في الدِّفَاعِ عنْ مَّذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَكْثَرَ مِمَّا هو في فلسفةِ المَجَازِ، للنُّصُوصِ الَّتي ساقَها فيهِ.

إذنْ، عَرَفْتُ أنَّ الْجِدارَ الَّذي يَقُومُ بيني وبينَ مَسائِلَ في النَّحْوِ واللُّغةِ والبلاغةِ لا سبيلَ إلى ارْتِقائِهِ إلَّا بِتَعَرُّفِ مَبادِئِ المَنْطِقِ؛ هذا العِلْمِ الَّذي هو للعُلُومِ الإنسانِيَّةِ كجَدْوَلِ الضَّرْبِ للرِّيَاضِيَّاتِ، وإنْ كُنْتُ أَعْرِفُ جَدْوَلَ الضَّرْبِ ولا أَعْرِفُ المَنْطِقَ!

اِسْتَعَنْتُ، أَوَّلَ أمري، بِكِتابِ **خُلَاصَةِ المَنْطِقِ** لأُستاذِنا العَلَّامةِ الدُّكتور عبدِ الهادي الفَضْلِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ - وكُنْتُ أَفْهَمُ ما أنا فيهِ، فإذا تَحَوَّلْتُ إلى فَصْلٍ جديدٍ نَسِيتُ الَّذي فَهِمْتُ مِنْ قَبْلُ! ثُمَّ إنَّ كَثْرَةَ مُصْطَلَحَاتِ المَنْطِقِ وتفريعاتِها زادَتِ اللَّبْسَ والغُمُوضَ، عَلَى أنَّ تَرَاخِي الأيَّامِ واشتغالِيَ بِشُؤُونٍ أُخْرَى، كانا كفيلَيْنِ بأنْ أَنْسَى الْمَنْطِقَ مهما بَذَلْتُ فيهِ مِنْ جُهْدٍ، حتَّى إذا اعْتَرَضَنِي كلامٌ في البلاغةِ لا سبيلَ إلى إِسَاغَتِهِ إلَّا بِفَهْمِ مَبادِئِ الْمَنْطِقِ = رَجَعْتُ، عَوْدِي عَلَى بَدْئِي، أَلْتَمِسُ في كُتُبِ الْمَنْطِقِ الدَّوَاءَ، وصِرْتُ كُلَّما رَأَيْتُ كِتابًا فيهِ اقتنيْتُهُ، حَتَّى لَيَظُنُّ مَن يَّقِفُ عَلَى خِزَانَةِ كُتُبِي أنَّني مُخْتَصٌّ في هذا العِلْمِ مُنْقَطِعٌ إليهِ، أوْ أنَّهُ بعض صِنَاعاتِي!

إذنْ، لا بُدَّ مِنْ شَيْخٍ أَتَلَقَّى عليهِ المَنْطِقَ، لكنْ كَيْفَ السَّبيلُ إليهِ؟ وأنا لا أَعْرِفُ أَحَدًا في جُدَّةَ يُدَرِّسُ المَنْطِقَ، فمَضَيْتُ إلى شأني وأنا عارِفٌ النَّقْصَ الَّذي سيَعُوقُنِي، لا مَحَالَةَ، عنْ بُلُوغِ ما أُرِيدُهُ، لكنَّني اسْتَمْرَرْتُ في قِرَاءَةِ ما أُريدُ دُوْنَ أنْ أَسْتَهِينَ بِقُصُورٍ هو عِنْدِي عَيْبٌ عَلَيَّ أنْ لا أَكُونَ أَسِيرًا لَّهُ، لا سِيَّما أنَّ مِنَ العُلُومِ ما لا يَصْلُحُ إلَّا بالتَّلَقِّي عَلَى شَيْخٍ يَدُلُّكَ عَلَى اللَّطائِفِ، ويُمَرِّنُكَ عَلَى مَضَايِقِ المَسَائِلِ والمُشْكِلَاتِ، حتَّى تَيَسَّرَ لِي ذلك!

كان مَوْقِعُ التَّوَاصُلِ الاجتماعِيِّ (YouTube) سَبيلي إلى تَعَلُّمِ مَبادِئِ عِلْمِ المَنْطِقِ، وكانَتْ دُرُوسُ أُستاذي الشَّيْخِ عبدِ الهادي الفَضْلِيِّ فاتِحَةَ تلك الدُّرُوسِ الَّتي تَلَقَّيْتُها، فَفَهِمْتُ بعضَ

الْفَهْمِ، وعاقَنِي سُوْءُ الصَّوْتِ وقِدَمُ التَّسْجِيلِ عنْ مُتابَعَةِ سائِرِ مُحَاضَرَاتِهِ، فلَمَّا كان عامُ ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م وَطَّنْتُ النَّفْسَ عَلَى الاستمرارِ في تَلَقِّي المَنْطِقِ فعَسَى أن يَفْتَحَ اللهُ عَلَيَّ، وكانَتِ التَّسجيلاتُ وافِرَةً غزيرةً، وما عَلَيَّ إلَّا أنْ أختارَ شَيْخِي، فكان الإمامُ الأكبرُ أحمدُ الطَّيِّبُ، شَيْخُ الْجَامِعِ الأزهرِ، أَوَّلَ شُيُوخِي "الافتراضِيِّينَ" في عِلْمِ المَنْطِقِ، وكانَتْ دُرُوسُهُ في **شَرْحِ المَلَّوِيِّ عَلَى السُّلَّمِ المُنَوْرَقِ** بُدَاءَةَ ما تَلَقَّيْتُهُ، فلَمْ أَكَدْ أَمْضِي غَيْرَ قليلٍ حتَّى أَدْرَكْتُ أنَّ عَلَيَّ أنْ أَتَحَوَّلَ إلى شيْءٍ أَيْسَرَ وأَسْهَلَ فكان الشَّيْخُ أسامةُ الأزهريُّ شَيْخِيَ الثَّانِيَ، وقادَنِي تَصَفُّحُ التَّسجيلاتِ إلى دُرُوسِ شَيْخٍ سُوْرِيٍّ فاضِلٍ هو الشَّيْخُ أَدْهَمُ العاسِمِيُّ، فوَجَدْتُ دُرُوسَهُ أَسْلَسَ وأَسْهَلَ وأَيْسَرَ، فاتَّخَذْتُهُ شَيْخًا وأُستاذًا، وصَبَرْتُ نَفْسِي، وأَلْزَمْتُها الْجُلُوسَ إليهِ، مِنْ خَلْفِ شاشَةِ هاتِفِي الجَوَّالِ، حَلْقةً واثنتينِ وثلاثينَ! ووَجَدْتُّ عِلْمَ المَنْطِقِ - هذا الكَزَّ النَّافِرَ - أَسْلَسَ وأَقْرَبَ، وأَلْفَيْتُنِي أُسِيغُ مُشْكِلَهُ، وأَتَقَبَّلُ صَعْبَهُ، فلَمَّا أَتْمَمْتُ دُرُوسَ الشَّيْخِ الفاضِلِ عُدْتُّ إلى دُرُوسِ شَيْخِ الأزهرِ، فإذا بِي أَفْهَمُها - أَوْ أَفْهَمُ مِنْها قَدْرًا صالِحًا - ولَمْ أَحْرِمْ نَفْسِي مِنْ أنْ تُشَارِفَ دُرُوسًا أُخْرَى لِشُيُوخٍ آخَرِينَ، فإذا بالمَسائِلِ المُكَرَّرَةِ تُثَبِّتُها في الذِّهْنِ، فأَضْحَيْتُ أَتَنَقَّلُ مِنْ دَرْسٍ إلى دَرْسٍ، ومِنْ شَيْخٍ إلى آخَرَ، حتَّى إذا عُدْتُّ إلى كُتُبٍ في اللُّغةِ والنَّحْوِ والبلاغةِ كان قدِ اسْتَغْلَقَ عَلَيَّ ما فيها = إذا بِي أَفْهَمُها، وإذا بِما كان بالأمسِ صَعْبًا وَعِرَ المَسَالِكِ أَسْلَسَ وأَيْسَرَ، واختبرْتُ قُدْرَتِي فتَخَيَّرْتُ **الأُصُولَ** لِتَمَّام حَسَّان، و**الاتِّجَاهَ العَقْلِيَّ في التَّفْسِيرَ** لِنَصْر حامِد أبو زيد، و**فلسفةَ المَجَازِ** لِلُطْفِي عبدِ البديعِ = فكانَتْ لَيِّنَةً طَيِّعَةً، وكان عهدي بِها شَرِسَةً نافِرَةً، وزِدْتُّ عَلَيْهِنَّ فانْتَخَبْتُ مِنْ **شُرُوحِ التَّلْخِيصِ مُخْتَصَرَ المَعانِي** للسَّعْدِ التَّفْتَازَانِيِّ فأَدْرَكْتُ مِنْ مَّقاصِدِهِ ما تَوَهَّمْتُ أنَّهُ مِنَ المَضْنُونِ عَلَيَّ، فحَمِدْتُّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى، أن يَسَّرَ لِي شيئًا مِّمَّا أنا في حاجَةٍ إليهِ - ولَوْ كان قَدْرًا يَسِيرًا - مِنْ فُنُونٍ لا يَتِمُّ عِلْمُ طالِبِ العربيَّةِ إلَّا بِها!

الأُستاذُ.. والْحَقُّ المُرُّ!

رَحِمَ اللهُ أُستاذَ الْجِيلِ عبدَ الفتَّاحِ أبو مَدْيَن!

كانَ لا يُجَامِلُ ولا يُصَانِعُ ولا يُحَابِي!

كان مُعْجَبًا بِعَقْلِ الدُّكتور مصطفَى ناصِف، ومَلَكَتِهِ في مُحَاوَرَةِ نُصُوصِ العُلَماء، وحَظِيَ في نادي جُدَّةَ الأدبيِّ - إبَّانَ رِئاسةِ مجلسِ إدارتِهِ - بِمَا لَمْ يَحْظَ بِهِ مُؤَلِّفونَ آخَرُون؛ فنَشَرَ لهُ النَّادي خمسةَ كُتُبٍ، ورُبَّما أكثر!

نَشَرَ النَّادي كِتابَ **خِصَام مَعَ النُّقَّادِ**، عامَ ١٤١١هـ = ١٩٩١م، واختصَّهُ أبو مَدْيَن بمُقدِّمةٍ طويلةٍ بديعةٍ!

لَمْ يُخْفِ الأُستاذُ الْجَليلُ إعجابَهُ بالنَّاقدِ الكبيرِ.. أَطْنَبَ في مديحِهِ، ومِنْ عادةِ الأُستاذِ أن يَتَحفَّظَ، ويَقْتَصِدَ، لكنَّهُ يَعْرِفُ مَقامَ مصطفَى ناصِف ومَرْتَبَتَهُ، وليسَ حَسَنًا أن يَمُرَّ بِهِ مَرًّا سريعًا.

لكنَّ الأُستاذَ - وأنا أَفْتَقِدُ، اليومَ، لَذَّةَ هذهِ الكلمةِ بَعْدَ أبي مَدْيَن! - لا يُحْسِنُ مُصَانَعَةَ أَحَدٍ، مهما كانَ باحِثًا كبيرًا، بِحَقٍّ، كالدُّكتور مصطفَى ناصِف!

أَخَذَ الأُستاذُ نَفْسَهُ بالصَّبْرِ، وهو يَقْرأُ الكِتابَ، ولَسْتُ أَشُكُّ في أنَّهُ قَرَأَهُ كَلِمةً كَلِمةً، لا لأنَّهُ الرَّقيبُ! ولَكِنْ لأَنَّهُ الذَّوَّاقةُ الأديبُ، وانتهَى إلى مُجافَاتِهِ اصطناعَ مصطفَى ناصِف التَّجْريدَ، وأَخَذَ عليهِ تَصَعُّبَهُ عَلَى القارِئِ المُثقَّفِ.

قال الأُستاذُ:

والدُّكتور ناصِف، يَجْنَحُ إلى التَّجريدِ، فتَقْرَؤُهُ بصُعُوبةٍ.. مَرَّةً واثنتينِ وثلاثًا، ولا تكادُ تَفْهَمُ ٥٠٪ مِمَّا يقولُ.

ولَسْتُ قادِرًا عَلَى زحزحَتِهِ مِمَّا اعتادَ وأَلِفَ، ولكنْ ينبغي الاحتياطُ لِمَن يَقْرَأُ هذهِ البلاغةَ التَّجريديَّةَ.

إنَّنا نَقْرَأُ للقُدَماءِ.. الأساتذةِ الكِبَارِ أنَّ الأدبَ وُضُوحٌ وجَمَالٌ، لِكَيْ يُتَذَوَّقَ ويُمْتِعَ ويُغْرِيَ بالقِرَاءَةِ، وليس ألغازًا وطلاسِمَ ومُعَمَّيَاتٍ (...) ونحنُ لا نَطْبَعُ كُتُبًا لا تُقْرَأُ، ولا تُفْهَمُ.. إلَّا للخاصَّةِ وخاصَّةِ الخاصَّةِ. ولا نُرِيدُ أنْ نَمِيلَ إلى تلك المَقُولةِ.. الَّتي كان يَقُولُها القُدَماءُ، حِينَ يَمُرُّونَ بشيْءٍ لا يَفهمونَهُ.. فيقولونَ: يُونانيٌّ فلا يُقْرَأُ.

نحنُ نُرِيدُ الْجَيِّدَ المُتَمَيِّزَ، الَّذي يُكْتَبُ فيُفْهَمُ ويُقْرَأُ ويُهْضَمُ. وأَكْبَرُ الظَّنِّ أنَّ الدُّكتورَ ناصِف.. لا يستطيعُ التَّحَوُّلَ عنِ اتِّجاهِهِ.. وما انْطَبَعَ في عَقْلِهِ، بعيدًا عنْ وِجْدانِهِ. ولكنَّهُ رأيي أُسَجِّلُهُ وإنْ أَغْضَبَهُ، ولا مَفرَّ مِنْ قَوْلَةِ الْحَقِّ وإنْ كانَتْ مُرَّةً!

رَحِمَ اللهُ الأستاذَ الْجَليلَ!

ذِكْرَى كِتاب

الوَساطَة بَيْنَ المُتَنَبِّي وخُصُومِهِ

قُلْتُ لِأُستاذي الْجليلِ الدُّكتور عبدِ المُحْسِنِ القحطانيِّ: لَيْتَنِي أَقْرَأُ عليكَ كِتابَ **الوَساطَةِ بَيْنَ المُتَنَبِّي وخُصُومِهِ** للقاضي عَلِيّ بْنِ عبدِ العزيزِ الْجُرْجانيِّ!

وكُنْتُ أُذَكِّرُهُ بِمُقَرَّرٍ جامِعيٍّ نافِعٍ اسْمُهُ "كِتابٌ قديمٌ"، وكانَ مِنَ المُفْتَرَضِ أنَّ الدُّكتور عبدَ المُحْسِنِ سيُلْقِي علينا دُرُوسًا في الكِتابِ، والأَدَقُّ أنْ نَقْرَأَ عليهِ، أوْ نَقْرَأَ مَعًا، كِتابَ **الوَساطَةِ بَيْنَ المُتَنَبِّي وخُصُومِهِ** للقاضي عَلِيّ بْنِ عبدِ العزيزِ الْجُرْجانيِّ (ت ٣٩٢هـ)، لَوْلَا عارِضٌ صِحِّيٌّ أَلَمَّ بِهِ، فانقطَعَ عنِ الْجامِعةِ والدُّرُوسِ، وصارَ أَمْرُ المُقَرَّرِ إلى أُستاذِنا الدُّكتور عَلِيّ الْبَطَل - رَحِمَهُ اللهُ –

قال الدُّكتور عبدُ المُحْسِنِ للطُّلَّابِ في الدَّرْسِ الأوَّلِ: إنَّنا سَنَدْرُسُ، مَعًا، كِتابًا قديمًا مِنْ تُراثِنا الأدبيِّ والنَّقْديِّ، وأتاحَ لنا اقتراحَ كُتُبٍ، ثُمَّ اختيارَ أَحَدِها لِقِراءَتِهِ ومُدارَسَتِهِ والتَّحاوُرِ فيهِ، وأَذْكُرُ أنَّني اقترَحْتُ كِتابَ **المُوازَنةِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ** لأبي القاسِمِ الحَسَنِ بْنِ بِشْرٍ الآمِديِّ (ت 370هـ)، لكنَّ أُستاذَنا قالَ: رُبَّما كان **الوَساطَةُ** أَنْسَبَ؛ لتأخُّرِهِ عنِ **المُوازَنةِ**؛ ولاشتمالِهِ عَلَى كُلِّ مَسائِلِ النَّقْدِ حتَّى زمنِ صاحِبِهِ في القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ، وهذا حَقٌّ.

لَزِمَ أُستاذُنا البَيْتَ، وقَرَأْنا **الوَساطَةَ** عَلَى الدُّكتور عَلِيّ الْبَطَل، وكُنَّا نَقْرَأُ مِنَ الكِتاب فُصُولًا، وكان أُستاذُنا يُمِيطُ اللِّثامَ عنْ مَعانِيهِ، ويُقَرِّبُ مَقاصِدَهُ إلى أذهانِنا، ويُحاوِرُنا فيما انطوَى عليهِ مِنْ شِعْرٍ للمُتَنَبِّي أوْ سِوَاهُ مِنَ الشُّعراءِ، عَلَى وَفْقِ ما تَقتَضِيهِ دُرُوسُ الْجامِعةِ.

كانَتِ المادَّةُ جَيِّدَةً، وكانَتْ طريقةُ دِراستِها والتَّحاوُرِ في الكِتابِ مُلَائِمةً لِطَلَبَةٍ يَدْرُسُونَ اللُّغةَ العربيَّةَ وآدابَها، وكان، مِنَ المُلائِمِ أن يَقِفُوا عَلَى لُغَةِ ذلك التُّراثِ، ويَنْظُروا في أثناءِ

كِتابٍ مَعْدُودٍ في أُمَّهاتِ التُّراثِ النَّقْديِّ، ويَمْرُنُوا عَلَى أساليبِ أسلافِنا في العَرْضِ والْحِجَاجِ والمُجَادَلةِ والخُصُومةِ، حتَّى إذا أَتَمُّوا الكِتابَ، أوْ ما تَيَسَّرَ مِنْهُ، صارُوا أَدْنَى إلى أن يَعْرِفُوا التُّراثَ، إذا ما مَضَوْا فيهِ.

والْحَقُّ أنَّ أُسلُوبَ الدُّكتور عَلِيّ الْبَطَل امتازَ باليُسْرِ والسُّهُولةِ، وكانَ مُلَائِمًا قريبًا حبيبًا. ويُخَيَّلُ إلَيَّ أنَّهُ سَرَّهُ أن يُعْهَدَ إليهِ بهذا الدَّرْسِ، دُونَ أن يُخَطِّطَ لذلكَ، ولَسْتُ أستبعِدُ أنَّ تلك الدُّرُوسَ عَسَاها أوَّلَ عَهْدِهِ بالقاضي الْجُرْجانِيِّ وكِتابِهِ العظيمِ، ولَعَلَّهُ اسْتَأْنَسَ بِمَراجِعَ تُقَوِّي صِلَتَهُ بالنَّقْدِ الأدبيِّ القديمِ، فكان ذلكَ خَيْرًا لَّهُ.

لَمْ يُرِدِ الدُّكتور عَلِيّ الْبَطَل أن يَمُرَّ بِـ **الوَساطَةِ** مُرُورَ الكِرامِ، فلَمَّا نَظَّمَ نادي جُدَّةَ الأدبيُّ ندوةَ "قِراءَة جديدة لتُراثِنا النَّقديّ" (١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م)، كان البَحْثُ الَّذي شارَكَ فيهِ الدُّكتور الْبَطَلُ موضوعَهُ الكِتابُ نَفْسُهُ.

ويَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أنَّ ذلك البَحْثَ إنَّما هو، في وَجْهٍ مِّنْ وُجُوهِهِ، صُورةً لِّلقَلَقِ الَّذي يَعْتَلِجُ في صُدُورِ المُشارِكِينَ في النَّدوةِ، وصُورةً لِمَا يَعِيشُهُ الدَّرْسُ النَّقْدِيُّ مِنِ اضطرابٍ؛ فنحنُ، آنئذٍ، في عَصْرِ "المَشاريعِ الفِكْرِيَّةِ"؛ وكان "تجديدُ التُّراثِ وقِراءَتُه" عِنْوانَ تلك الحِقْبةِ، واستعارَ نَفَرٌ مِّنْ أساتذةِ النَّقْدِ في الْجامِعاتِ العربيَّةِ شيئًا مِّنْ تلك "المَشاريعِ" - أوْ لَعَلَّهُمْ اهتدَمُوها!

كان الدُّكتور عَلِيّ الْبَطَل واحِدًا مِّنْ أولئك الأساتذةِ الطَّامِحِينَ، وكان بَحْثُهُ مِثالًا لِّلقَلَقِ والاضطرابِ؛ عالَجَ فيهِ ضَرْبًا مِّنَ الدَّرس النَّقْدِيِّ لَمْ يَكُنْ - فيما أُقَدِّرُ - قدْ أَعَدَّ لهُ عُدَّتَهُ، ولَمْ يُحْكِمْ ما نَهَدَ إليهِ، يُقَوِّي ذلك أنَّ الْجُزْءَ الأَوَّلَ مِنْ بَحْثِهِ كأنَّما هو أَمْشَاجٌ مِّنَ التَّاريخِ، والسِّياسةِ، والاقتصادِ، والفلسفةِ، والفِكْرِ = يُنْبِئُ ظاهِرُها بتَبَصُّرِ صاحِبِهِ بِمَسائِلَ لها خَطَرٌ في الفلسفةِ والتَّاريخِ الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ، لكنَّكَ لا تكادُ تَمْضِي، يسيرًا، في قِراءَتِهِ، حتَّى تُدْرِكَ أنَّكَ إزاءَ باحِثٍ "هَجَمَ" عَلَى موضوعِهِ دُونَ أنْ تُسْعِفَهُ أدواتُهُ؛ فهو حديثُ عَهْدٍ بالنَّقْدِ القديمِ، وهو، كذلك، رقيقُ الصِّلَةِ بِمَسائِلِ الفِكْرِ، وتَيَّاراتِ الفلسفةِ ومَنازِعِها في تُراثِنا، لكنْ علينا أنْ نتذكَّرَ، مَرَّةً أُخْرَى، أنَّ تلك الحِقْبَةَ الَّتي اجتمَعَ فيها أولئك النُّقَّادُ والأساتذةُ =

فُتِنَ فيها القَوْمُ بأقاويلِ "قِراءةِ التُّراثِ"، و"تجديدِهِ"، و"مُساءَلَتِهِ"، وكانَتْ مَقُولاتُ محمَّد عابِد الْجابِريّ، وطَيِّب تِيزيني، وفهمي جُدْعان، وحُسَيْن مُرُوَّة = تُحْدِثُ في ضمائِرِ أساتذةِ الأدبِ "حِطَّةً" - مُرَكَّبَ نَقْصٍ - لَوْ لَمْ يُصِيبُوا شيئًا مِّنْ مائدتِهِمْ، فجاءَ بَحْثُ عَلِيّ الْبَطَل تصويرًا للاضطرابِ والْحَيْرَةِ والتَّخَبُّطِ، ومِثَالًا لِمَا فيهِ مِنْ قَسْرٍ وتخليطٍ، وضعْفٍ في الآلةِ والأداةِ. ويُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّهُ كان عليهِ أن يُشارِكَ في النَّدْوَةِ، بأيِّ وَجْهٍ، فنَظَرَ حَوالَيْهِ فأَمْسَكَ بكِتابِ القاضي الْجُرجانيِّ بِكِلْتا يَدَيهِ، لمُلاءَمَتِهِ موضوعَ النَّدوةِ، حتَّى إذا أَتَمَّ كلامَهُ في مَسائِلِهِ ومُشْكِلاتِهِ، مِمَّا هو شائعٌ مَّعروفٌ، رَجَعَ إلى نَفْسِهِ وأَخَذَها بتدبيجِ تمهيدٍ يُنْسِي طُولُهُ عُنوانَ البَحْثِ وموضوعَهُ، كان فيهِ عِيَالًا عَلَى الْجابريِّ، وتِيزينيِّ، وأحمد صادق سَعْد - وعَلَى هذينِ الأخيرَيْنِ خاصَّةً! - وشَرَعَ في حديثٍ مبتوتِ الصِّلةِ بالقاضي وكِتابِهِ، يَرُوعُنا ما فيهِ مِنْ كَلِمٍ في الاقتصادِ الزِّراعيِّ، والاستبدادِ السِّياسيِّ، وثَوْراتِ الفَلَّاحِينَ، وتَبادُلِ البضائعِ، والرَّسْمَلةِ (مِنْ رَّأسِ المالِ) = وأنساهُ تلخيصُ ما قَرَأَ تحويلَ التَّاريخِ المِيلاديِّ إلى التَّاريخِ الهِجْرِيِّ، وكأنَّنا لا نَزالُ نَقرأُ في كِتابٍ لطيِّب تِيزينيّ، أوْ لأحمد صادق سَعْد، أو لِبيري أندرسون، وثلاثَتُهُمْ مِنْ مَّراجِعِ بَحْثِهِ! فلَمَّا أَتَمَّ دِراستَهُ - أوْ تلخيصَهُ! - عادَ أُستاذُ الأدبِ العربيِّ القديمِ إلى نَفْسِهِ، ولاذَ بطبيعتِهِ، فأنشأَ بحثًا لَّا يَختلِفُ عَمَّا نقرأهُ في الْكُتُبِ الْجامِعيَّةِ الَّتي يُرادُ مِنْها تقريبُ التُّراثِ النَّقْدِيِّ إلى الطُّلَّابِ والدَّارِسِينَ، وإذا بِنا نقرأُ كلامًا غيرَ جديدٍ في ندوةٍ أُرِيدَ لها أنْ تَكُونَ "قِراءَةً جديدةً لتُراثِنا النَّقْدِيِّ"، ولَمْ نَظْهَرْ، في هذا الْجُزْءِ، عَلَى كَلِمٍ مِّنْ وادِي "نَمَطِ الإنتاجِ الآسيويِّ"، وليسَ ثَمَّ "بِنْيَةٌ اجتماعِيَّةٌ" ولا "اقتصادِيَّةٌ"، ولا "رَسْمَلَةُ الإنتاجِ"، ولا سِوَاها مِنَ العِبَارَاتِ الَّتي تَرُوعُ وتَخْلُب!

ذِكْرَى كِتاب

الصِّراعُ بَيْنَ الْقَدِيمِ والْجديدِ في الأدبِ العربيِّ الْحديثِ

-١-

هذا الكِتابُ يُغْنِي عنْ عَشَرَاتِ الكُتُبِ. يَعْبُرُ بِكَ الأزمنةَ، ويُطْلِعُكَ عَلَى التَّيَّاراتِ، مهما تَبايَنَتْ واختلفَتْ، والْمَذَاهِبِ مهما تَخالَفَتْ واحْترَبَتْ، منذُ عَصْرِ النَّهضةِ العربيَّةِ حتَّى عَصْرِ الْجُمْهُوريَّاتِ الثَّوريَّةِ في مِصْرَ، وسُوريَةَ، والعِرَاقِ.

هذا ما اعتدْتُ قَوْلَهُ كُلَّما قادَتْني مُناسَبةٌ مَّا للْحديثِ عنْ كِتابِ **الصِّراعِ بَيْنَ القديمِ والجديدِ في الأدبِ العربيِّ الحديثِ** للعَلَّامةِ المَغْرِبيِّ الْجليلِ الدُّكتور محمَّد الكتَّانيِّ[17].

أَذْهَلَنِي الكِتابُ، أَوَّلَ عَهدي بِهِ، عَقِبَ تَخَرُّجي في الْجامِعةِ رأسًا، سنةَ ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م. لَقِيتُهُ، دُونَ سابِقِ معرفةٍ، في مكتبةٍ في جُدَّةَ، فابْتَعْتُهُ، وصارَ، منذُ ذلك العَهْدِ، إلْفِي وخَدِينِي، أقرأُهُ، وأتأمَّلُهُ، وأُدِيمُ النَّظَرَ فيهِ، وأَرْجِعُ إليهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وكُنْتُ، وأنا أقرأُهُ، كَمَن يَّقْرَأُ رِوايةً، هي رِوايةُ الثَّقافةِ العربيَّةِ في العَصْرِ الحاضِرِ، عَلَى اختلافِ مَنازِعِها ومُتَّجَهاتِها، وما كُنْتُ لِأَتَهَيَّبَ مُجلَّدَيْهِ الكبيرَيْنِ، ولا صَفَحاتِهِ السِّتِّينَ بَعْدَ الثَّلاثِمِئةِ والأَلْفِ، وتَرَانِي، بَعْدَ كُلِّ هذه السِّنينَ، أَدِينُ لهُ بالفَضْلِ؛ فَضْلِ أنْ أَخَذَ بِيَدِي، وعَلَّمَنِي، وثَقَّفَنِي، وأَلْقَى بِي في قَلْبِ الأفكارِ والتَّيَّاراتِ، ووَصَلَني بِمِئَاتِ الأسماءِ مِنْ مُفَكِّرِي الأُمَّةِ العربيَّةِ ومُثَقَّفِيها وأُدبائِها وأَهْلِ القَلَمِ فيها، وكان هذا الكِتابُ المُحِيطُ، بِحَقٍّ، مُغْنِيًا عنْ عَشَرَاتِ الكُتُبِ!

-٢-

كانَ مِنْ أَبْرَزِ ما التقطَتْهُ عَيْنَايَ، ووَعَاهُ شُعُوري، يَوْمَ اختلفْتُ إلى ندوةِ نادي جُدَّةَ الأدبيِّ الثَّقافيِّ "قِراءَة جديدة لتُراثِنا النَّقْديِّ"، سَنَةَ ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م = أنَّها كالطَّائِرِ، ذاتُ جَناحَيْنِ؛ مَشْرِقِيٍّ ومَغْرِبيٍّ، وكُنْتُ، أَنَّى أَدَرْتُ بَصَرِي، أرَى مِنَ المَشارِقةِ والمَغارِبةِ نُقَّادًا وَّدارِسِينَ كِبارًا، أَلَا يَكْفِي أنْ أرى وأَسْمَعَ كمال أبو ديب، وشُكْرِي عَيَّاد، ومصطفَى ناصِف، ولُطْفِي عبد البديع، وعِزَّ الدِّين إسماعيل، وجابر عُصْفُور = مِنَ المَشارِقةِ، وعبدَ السَّلام المَسدِّيّ، وحَمَّادي صَمُّود، ومحمَّد الهادي الطَّرابلسيّ، وعبدَ المَلِك مُرْتاض، ومحمَّد بَرَّادة = مِنَ المَغارِبةِ؟!

وكان مِنْ أولئكَ المَغارِبةِ الدُّكتورُ محمَّد الكتَّانيُّ.

لمْ يَسْتَجْلِبْ نظري بشيْءٍ ذِي بالٍ، وكانَ حَرِيًّا أن يُطْوَى اسْمُهُ لَوْلَا أنِّي وَقَعْتُ عَلَى كِتابِهِ المُحِيطِ هذا؛ فعَرَفْتُ قَدْرَهُ ومَقامَهُ، وعَدَدْتُ كِتابَهُ مِنْ أَزْكَى ما تَضُمُّهُ خِزَانَةُ كُتُبي.

ليس يَسِيرًا أن يَتَصَدَّى باحِثٌ لتاريخِ "الصِّراعِ بَيْنَ القديمِ والْجديدِ في الأدبِ العربيِّ الْحديثِ"؛ فتأليفُ هذا الضَّرْبِ مِنَ الكُتُبِ يحتاجُ - بَعْدَ الاعتدالِ والتَّوَسُّطِ – إلى معرفةٍ وَّاسِعةٍ بالفِكْرِ العربيِّ الْحديثِ، في أُصُولِهِ المَطْوِيَّةِ في بُطُونِ الصُّحُفِ والمَجَلَّاتِ القديمةِ = الَّتي يَصْعُبُ الوُصُولُ إليها - في أرضٍ شاسِعةٍ وَّاسِعةٍ فسيحةٍ هي الأرضُ العربيَّةُ = واطِّلاعٍ عَلَى مَضَايِقِ الصِّرَاعِ في الكُتُبِ، مهما كانَتْ قِيمتُها، وفيها النَّادِرُ العزيزُ، والَّذي صادَرَهُ الرَّقِيبُ، والتَّالِفُ... إنَّها، لا شَكَّ في ذلك - مَشَقَّةٌ تَقْعُدُ بأصحابِها عَمَّا نَدَبُوا أنفُسَهم إليهِ. لَكِنَّ الكتَّانِيَّ كانَ باحِثًا واسِعَ المعرفةِ مُقْتَدِرًا، عالِمًا بموضوعِهِ، يَتَتَبَّعُهُ في كُلِّ ناحِيَةٍ، فلَمَّا وَضَعَ كِتابَهُ المُحِيطَ هذا، كانَ تأريخًا لِكُلِّ الأفكارِ الَّتي احْتَرَبَ حَوْلَها أَهْلُ القَلَمِ في الثَّقافةِ العربيَّةِ الحديثةِ، وكانَ الأدبُ مَيْدَانَها وساحةَ نِزَالِ فُرْسانِها!

وأنتَ مهما أَرَدْتَّ مِنْ فِكْرةٍ أوْ مَنْزَعٍ أوْ تَيَّارٍ اضْطَرَبَ بِهِ الأدبُ العربيُّ الحديثُ = فكُنْ مُّطْمَئِنًّا أنَّ لَهُ في كِتابِ الكتَّانيِّ خَبَرًا مُفَصَّلًا، وبَيَانًا شافِيًا؛ فالْجامِعةُ الإسلاميَّةُ، وإحياءُ التُّراثِ، ومَذَاهِبُ الشِّعْرِ ومَنازِعُهُ، والقوميَّةُ العربيَّةُ، والدَّعاوَى الإقليميَّةُ الضَّيِّقةُ، والدَّعوةُ إلى العامِّيَّةِ، والأَخْذُ بالْحَرْفَيْنِ اللَّاتينيِّ والإغريقيِّ، والتَّنازُعُ عَلَى الأساليبِ في الشِّعْرِ والنَّثْرِ... = كُلُّ أولئكَ وسِوَاهُ نَقْرَأُهُ، فنَعْرِفُ الدَّواعِيَ والأسبابَ، ونُلِمُّ بالنَّشأةِ والتَّاريخِ،

وكَيْفَ تَرَقَّتِ الفِكْرةُ أوِ المَنْزَعُ فصارَ تَيَّارًا، وكَيْفَ تَخاصَمَ المُثَقَّفُونَ العربُ، واشتدَّ بِهِمُ النِّزَاعُ والتَّخاصُمُ، حتَّى لَكَأنَّ القارِئَ يَعِيشُ العَصْرَ نَفْسَهُ، ويَخْتَصِمُ فيما اختصَمُوا فيهِ، ويُنازِعُهُمْ ويَشْتَدُّ في النِّزَاعِ، ويَتَعَصَّبُ لِفِكرةٍ ويَدْفَعُ أُخْرَى!

حَقًّا لَقَدْ أغنانِي هذا الكِتابُ الفَذُّ عنْ عَشَرَاتِ الكُتُبِ، ولا زِلْتُ، إلى اليَوْمِ، مَدِينًا لصاحِبِهِ بالفَضْلِ.

عُلُومُ القُرآنِ

مِنَ المُقَرَّراتِ الَّتي دَرَسْتُها في قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، بجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ، بِجُدَّةَ = مُقَرَّرُ "عُلُومِ القُرآنِ".

كان مُقَرَّرًا غريبًا؛ فمَوَادُّ القِسْمِ ودُرُوسُهُ تكادُ تَكُونُ خالِصةً لِلُّغةِ العربيَّةِ والأدبِ العربيِّ، وما كان الطَّالِبُ الَّذي يَظْفَرُ بالإجازةِ الْجامِعيَّةِ لِيَدَّعِيَ أنَّ لهُ اطِّلاعًا عَلَى عُلُومِ الشَّريعةِ، ولا أن يُعِيدَ عِلْمَهُ - إنْ تَوَفَّرَ على قليلٍ مِّنهُ - إلى المُقَرَّراتِ الَّتي دَرَسَها. رُبَّما كانَ ذلك سُنَّةً مُتَّبَعَةً في كُلِّيَّاتِ الآدابِ، ورُبَّما كان في كُلِّياتِ اللُّغةِ العربيَّةِ ودارِ العُلُومِ شيْءٌ مِّنَ الاتِّصالِ بعُلُومِ الشَّريعةِ، يُبايِنُ النَّمَطَ الَّذي أَخَذْنا بِهِ.

اِسْتَبْشَرْتُ بالمُقَرَّرِ؛ لأنَّ القائِمَ بِهِ هو أُستاذُنا العَلَّامةُ الدُّكتور محمَّد يعقوب التُّركِستانيُّ - حَفِظَهُ اللهُ - ذلك أنَّ دُرُوسَهُ في مُقَرَّرِ "فِقْهِ اللُّغةِ" تَفُوقُ في المَعْرِفةِ، والتَّبَحُّرِ، والتَّمَكُّنِ = ما يَتَلَقَّاهُ طُلَّابُ الدِّراساتِ العُلْيا في طائفةٍ مِّنَ الْجامِعاتِ!

كان أُستاذُنا محمَّد يعقوب عالِمًا وَرِعًا، مُتَضَلِّعًا مِّنَ العربيَّةِ وفِقْهِها، واسِعَ المعرفةِ، مُتَضَلِّعًا مِنْ كُلِّ ما يتَّصِلُ بموضوعِ دُرُوسِهِ. وأُشهِدُ اللَّهَ، وبيني وبينَ ذلك العَهْدِ سَبْعٌ وثلاثونَ سنةً، أنَّني لَوِ اكْتَفَيْتُ مِنْ مَّعرفةِ فِقْهِ اللُّغةِ والعِلْمِ بِهِ بتلك الدُّرُوسِ = لكان فيها كِفايةٌ وزِيَادةٌ!

كان المُقَرَّرُ غريبًا لِلَّذي سَلَفَ، وإنْ عَرَفْتُ، بَعْدَ حِينٍ، أنَّ المُقَرَّرَ الغريبَ أَدْنَى إلى ما نَدْرُسُهُ في قِسْمِنا؛ إذِ المَقصودُ هو النَّظَرُ إلى القرآنِ الكريمِ وقِراءَاتِهِ وأحكامِهِ عَلَى وَفْقِ مُقْتَضَيَاتِ اللُّغةِ. نَعَمْ، كُنَّا نُلِمُّ، شيئًا مَّا، بأبوابِ هذا العِلْمِ، كما قَرأْناها في كِتابَي الزَّرْكَشِيِّ والسُّيُوطيّ، مِنَ القُدماءِ، وصُبْحِي الصَّالِحِ ومَنَّاع خليل القَطَّان مِنَ المُحْدَثِينَ، لَكِنَّ المُقَرَّرَ - ولَكِنَّ الأُستاذَ - كان يَصِلُنا بالْكُتُبِ الَّتي اعْتَنَتْ بِدراسةِ الكِتابِ الْعزيزِ دِراسةً لُغَوِيَّةً = أوْ تلك الَّتي قارَبَتْ أحكامَهُ بِمَا يَقْتضِيهِ عِلْمُ النَّحْوِ، وما داخَلَنِي شُعُورٌ باختلافِهِ عَمَّا اعتدْتُهُ، مِنْ قَبْلُ، في مُقَرَّرِ "فِقْهِ اللُّغةِ"، ورُبَّما كان الأَقْرَبُ أنَّ ما نَتَلَقَّاهُ في "عُلُومِ القُرآنِ" هو كالْجَدْوَلِ بالْقِيَاسِ إلى

"فِقْهِ اللُّغةِ"، أوْ كالتَّطبيقِ إلى النَّظريَّةِ، حتَّى إذا خُضْنا في مَسائِلِهِ عَرَفْتُ أنَّهُ قريبٌ لَّا غريبٌ. أَوَلَا يَكْفِي أنْ نَلُوذَ بِكِتابِ **اللَّهجاتِ العربيَّةِ في القراءاتِ القُرآنيَّةِ** لِعَبْده الرَّاجِحيِّ، وكِتابِ **القِرَاءاتِ القُرْآنِيَّةِ في ضَوْءِ عِلْمِ اللُّغةِ الْحديثِ** لعبد الصَّبُور شاهين، وكِتابِ **القُرآن الكريم وأَثَرِهِ في الدِّراساتِ النَّحْوِيَّةِ** لعبدِ العال سالِم مَكْرَم = حتَّى يَقْوَى عِنْدِي قُرْبُ ما بين عُلُومِ العربيَّةِ وعُلُومِ الشَّريعةِ؟

وعَلينا أنْ لا نُبالِغَ في التَّقْسِيمِ الْمَدْرَسِيِّ فنَجْعَلَ مِنْ هؤلاءِ نُحاةً ولُغَوِيِّين، ومِنْ أولئك قُرَّاءً = متى ما عَرَفْنا أنَّ أوائلَ النُّحَاةِ كانوا قُرَّاءً، بَلْ إنَّ مِنْهم مَنْ كان مِنْ أصحابِ القِراءاتِ المشهورةِ، حتَّى إذا تَقَدَّمْنا في الزَّمانِ قَوِيَ لَدَيْنا اتِّصالُ النَّحْوِ واللُّغةِ بالقِراءَةِ، وإلَّا أين نَضَعُ مُصَنَّفاتِ أبي عَلِيٍّ الفارِسِيِّ، وابنِ جِنِّي، وابنِ مالِك، وغيرِهِم؟ وما مِنْهُمْ إلَّا مَنْ كان عالِمًا بالنَّحْوِ والقِراءَاتِ مَعًا، بَلْ إنَّ مِنْ مَآثِرِ ابْنِ مالِكٍ، صاحِبِ **الأَلْفِيَّةِ**، عِنَايَتَهُ التَّامَّةَ بِـ **الْجامِعِ الصَّحِيحِ** للإمامِ البُخارِيِّ[18] - وهو في عِلْمِ الْحديثِ - وخَبرُهُ في المُقَابَلَةِ بينَ نُسَخِهِ وتَصحيحِها مذكورٌ في كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ[19].

قُلْتُ: إنَّ أُستاذَنا الدُّكتور محمَّد يعقوب التُّرْكِستانيَّ عالِمٌ وَّرِعٌ، وهو، عِندي، مِنْ طَبَقَةِ الأساتذةِ العُلَماءِ؛ أولئك الَّذين يَحْلُمُ الطَّالِبُ أو الدَّارِسُ بالتَّلْمَذَةِ لَهُمْ، مِّنْ أمثالِ صُبْحِي الصَّالح، وعبده الرَّاجِحيِّ، وعبد الصَّبور شاهين، وإبراهيم السَّامِرَّائيِّ، وخديجةَ الحُدَيْثيِّ، وعبد العال سالِم مَكْرَم.

ومِنْ خِصَالِهِ أنَّهُ قليلُ الكلامِ في غيرِ ما يَخُصُّ الدَّرْسَ، حَيِيٌّ، مُشْرِقُ الوَجْهِ، يَمِيلُ إلى العُزْلةِ والانقباضِ، في غَيْرِ تَوَحُّشٍ، فإذا شَرَعَ في الدَّرْسِ كان ذلك العالِمَ المُحِيطَ بِمَا يَقُولُ!

وأثَرُ أُستاذي بَيِّنٌ فِيَّ مِنْ نَّاحِيَتَيْنِ؛ شَغَفِي المُلازِمِ لِي، حتَّى اليَوْمِ، بالدَّرْسِ اللُّغويِّ، وعِنايتي بِسَلامةِ اللُّغةِ، ما استطعْتُ - وهذا بعضُ ما بَثَّهُ في طُلَّابِهِ - فإذا وَجَدْتَّني أَقْرَبَ إلى منهجِ مصطفَى جَوَاد، ومحمَّد عَلِيّ النَّجَّار، ومِنْ قَبْلِهما إبراهيمُ اليازِجِيُّ = فَرُدَّهُ إلى شِدَّةِ تأثُّري بأُستاذي الْعَلَّامةِ الْجَليلِ!

ذِكْرَى كِتاب
فِقْهُ اللُّغةِ المُقَارَنُ

كان كِتابُ **فِقْهِ اللُّغةِ المُقَارَنِ** أوَّلَ ما قَرَأْتُ للعَلَّامةِ العِرَاقيِّ الْجليلِ الدُّكتور إبراهيم السَّامرَّائيِّ - رَحِمَهُ اللهُ [20] - (١٣٤١-١٤٢٢هـ = ١٩٢٣-٢٠٠١م).

اِسْتَجْلَبَتْ نَظَرِي مُفْرَدةُ "الْمُقارَن"، فابتعْتُهُ، مِنْ فَوْرِي، واتَّخذْتُهُ واحِدًا مِّنْ مَّراجِعِ مادَّةِ "فِقْهِ اللُّغةِ" في الْجامِعةِ (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م).

وعَلَى أنِّي لَمْ أُفِدْ مِنْ الكِتاب، رأسًا، في الدَّرْسِ والاختبارِ = فللكِتابِ - ولِكُتُبِ إبراهيم السَّامرَّائيِّ - مَقامٌ أثيرٌ عندي، وأنا أُعيدُ إليهِ - وإلى رمضان عبدِ التَّوَّاب ومحمود فهمي حجازيّ - شَغَفِي بِعِلْمِ اللُّغةِ التَّاريخيِّ، وعِنَايَتِي بالمُقَارَنةِ - أوِ المُقَابَلَةِ - بين "اللُّغاتِ السَّامِيَّةِ"، حتَّى كان مِنْ أَعَزِّ أَمَانِيَّ أنْ أتخصَّصَ في هذا اللَّوْنِ البديعِ مِنَ المعرفةِ اللُّغويَّةِ!

كان **فِقْهُ اللُّغةِ المُقَارَنُ** شيئًا جديدًا؛ فلأوَّلِ مَرَّةٍ أُطالِعُ فُصُولًا يُقَابِلُ فيها صاحِبُها بين اللُّغةِ العربيَّةِ واللُّغةِ السُّريانيَّةِ، ولأوَّلِ مَرَّةٍ أَظْهَرُ عَلَى بُحُوثٍ أُفرِدَتْ للتَّطَوُّرِ التَّاريخيِّ، وصِرْتُ أُوْثِرُ هذا الضَّرْبَ مِنَ الدَّرْسِ اللُّغويِّ، وكان إبراهيمُ السَّامرَّائيُّ مِنْ أئمَّةِ هذا الدَّرْسِ؛ يُقارِنُ بين اللُّغاتِ السَّامِيَّةِ، ويُفْرِدُ كُتُبًا لَّطيفةً يَستكمِلُ فِيهِنَّ مَوادَّ مُعْجَمِيَّةً لَّعَصْرٍ مَّا، أوْ لمُؤلِّفٍ بعَيْنِهِ (الْجاحِظِ، أبي العَلاءِ المَعَرِّيّ، نَهْجِ البلاغةِ...) = في عَمَلٍ مُّشبِهٍ لِمُعْجَمِ المُستشرِقِ الهُولنديِّ الكبيرِ رينهارت دُوزي، ثُمَّ إذا بِهِ يَخْتَصُّ اللُّغَةَ العربيَّةَ في بَلَدٍ عربيٍّ بتأمُّلاتِهِ اللُّغويَّةِ؛ دَرَسَ المادَّةَ الزِّراعيَّةَ "الفِلَاحِيَّةَ" في اليَمَنِ، واستوقَفَهُ المُعْجَمُ الإداريُّ في تُونُسَ، واعتنَى بالمُعْجَماتِ المُتَخَصِّصةِ، فكَتَبَ في لُغَةِ الإعلامِ، والتَّصويبِ اللُّغَوِيِّ، لكنَّ أَشَدَّ ما اعْتَنَى بِهِ هو التَّطوُّرُ اللُّغَوِيُّ والدِّلالِيُّ، ومِقدارُ تأثُّرِ العربيَّةِ المُعاصِرَةِ باللُّغاتِ الغربيَّةِ.

وكُنْتُ - ولا أزالُ - مشغوفًا بكُتُبِ إبراهيم السَّامرَّائيِّ، وأَذْكُرُ أنَّ مِمَّا رَغَّبَنِي في مَجَلَّةِ **العَرَبِ** ثلاثةَ أشياءَ؛ مَقالاتِ مُنْشِئِها العَلَّامةِ حَمد الْجاسِر، ومَقالاتِ العَلَّامةِ العِرَاقيِّ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهِر، ومَقالاتِ إبراهيمَ السَّامرَّائيِّ، وكان الشَّيْخُ الْجاسِرُ يُجِلُّ هذينِ العالِمَيْنِ!

وأنا تَستهويني كُتُبُ العِراقيِّينَ وبُحُوثُهم في اللُّغةِ، وأراهمْ تَفَنَّنُوا، كثيرًا، في فِقْهِ اللُّغةِ، واللَّهْجاتِ، ومَسائلِ اللُّغةِ ودقائقِها، وبَرَعُوا في التَّصويبِ اللُّغويِّ، وتَلَوَّنَتْ مَجلَّةُ **المَجْمَعِ العِلْمِيِّ العِرَاقيِّ**، ومَجَلَّاتٌ أُخْرَى، وأَهَمُّهُنَّ **المَوْرِدُ**، بهذا اللَّوْنِ مِنَ البَحْثِ والدَّرْسِ الَّذي كان مِنْ أعلامِهِ ورُوَّادِهِ: الأبُ أنستاس ماري الكِرْمِلِيُّ، ومصطفَى جَوَاد، ومحمَّد رِضا الشَّبيبيُّ، وداود الچلَبيُّ، وداود سلُّوم، وأحمد مَطْلُوب، ومحمَّد ضاري حماديّ، وصاحِبُنا إبراهيم السَّامرَّائيُّ.

ذِكْرَى كِتاب

القُرآنُ الكريمُ وأَثَرُهُ في الدِّراساتِ النَّحْوِيَّةِ

أحببْتُ مُقَرَّرَ "مَدارِسِ النَّحْوِ" في الْجامِعةِ حُبًّا عظيمًا، مَرَدُّهُ، فيما أُرَجِّحُ، ما فيهِ مِنْ تاريخٍ وسِيَرٍ.

وكان رأيي في أُستاذِ المادَّةِ الدُّكتور حُسَين الذَّوَّاد حَسَنًا، فجَزاهُ اللهُ خَيْرَ الْجَزاءِ.

ومِنْ عادتي، في الدُّرُوسِ الْجامِعيَّةِ، أنْ أَجْمَعَ الكُتُبَ الَّتي تَخُصُّ هذا الدَّرْسَ أوْ ذاك؛ أَقْرَأُهُنَّ في أيَّامِ الْبِطالَةِ والتَّعَطُّلِ، وأُلِمُّ بأَظْهَرِ مَنازِعِها ومُشْكِلاتِها. وجَمَعْتُ لِـ "مَدارِسِ النَّحْوِ" جمهرةً مِّنَ المَصادِرِ والمَراجِعِ للسِّيرافيِّ، والزُّبَيْديِّ الأندلسيِّ، والقِفْطيِّ، والسُّيُوطيِّ، وشوقي ضيف، ومَهْدِي المخزوميِّ.

وأَلِفْتُ غِشْيَانَ المكتبةِ المَرْكَزِيَّةِ في الْجامِعةِ، كُلَّ يومٍ، وكُنْتُ أُوْثِرُ بمَحَبَّتي رُكْنَ اللُّغةِ والنَّحْوِ والصَّرْفِ والعَرُوضِ والبلاغةِ؛ فأنا حديثُ عَهْدٍ بالْجامِعةِ، وأَوَدُّ أنْ أَغترِفَ المعرفةَ اغترافًا، وأُتِيحَ لِي، بفضلِ اللهِ، أنْ أُطالِعَ كُتُبًا جَيِّدةً في النَّحْوِ واللُّغةِ، وعَرَفْتُ أسماءَ المُؤَلِّفينَ. ولا أزالُ، إلى اليَوْمِ، أُحِسُّ قَدْرًا مِّنَ الْحَنينِ إلى تلك الأيَّامِ، كُلَّما قَرَأْتُ في ثَبَتِ المَصادِرِ والمَراجِعِ أسماءَ نَفَرٍ مِّنْ جِلَّةِ المُؤَلِّفينَ، وتَعُودُ بِي الذِّكرى إلى الْمَبنَى القديمِ للمكتبةِ المَرْكَزِيَّةِ، ويُخَايِلُني اسْمُ الدُّكتور عبد الرَّحمن السَّيِّد وعِنُوانُ كِتابِهِ **مدرسة البَصْرَةِ النَّحْوِيَّة**، أقرأُ فيهِ عَلَى قَدْرِ ما يُسَاعِدُني الوقتُ والفَهْمُ، وأَلْمَمْتُ إلمامًا طَيِّبًا بِمَذاهِبِ النَّحْوِ، وأعلامِهِ، وطابَ لِي أنْ أُتْبِعَ هذا اللَّونَ مِنَ الكُتُبِ كُتُبًا أُخْرَى في أُصُولِ النَّحْوِ، ولَقِيتُ في **الاقتراحِ في عِلْمِ أُصُولِ النَّحْوِ** لجلالِ الدِّينِ عبدِ الرَّحمنِ السُّيوطيِّ لَذَّةً ومَتَاعًا، وأَحْبَبْتُ كِتابَيِ العَلَّامةِ الْجليلِ سعيد الأفغانيِّ **مِنْ تاريخِ النَّحْوِ**، و**أُصُولِ النَّحْوِ**.

عَلَى أنَّني اعتدْتُ، كُلَّما قَصَدْتُ المكتبةَ المركزيَّةَ، أنْ أَخْلُوَ بكِتابٍ شاقَتْني مُطالَعَةُ فُصُولِهِ، وكان **القُرآنُ الكريمُ وأثرُهُ في الدِّراساتِ النَّحْوِيَّةِ** للدُّكتور عبد العال سالِم مَكْرَم هو ذلك الكِتابَ[21]، ولَمَّا استهواني ما فيهِ استعَرْتُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ أقرأُهُ قِراءَةَ عاشِقٍ لَّا طالِبٍ، فما كان الكِتابُ مَرْجِعًا في مُقَرَّرِ "مَدارِسِ النَّحْوِ"، حتَّى أَرْجِعَ إليهِ، وإنَّما هو العِشقُ والشَّغَفُ، وشَدَّنِي إليه تلك الوَشِيجَةُ الَّتي تَصِلُ الكِتابَ العزيزَ بالنَّحْوِ، وصارَ اسْمُ مُؤلِّفهِ - رَحِمَهُ اللهُ - مألوفًا عندي، وبِتُّ أُمَنِّي النَّفْسَ بِتَمَلُّكِهِ، حتَّى يَسَّرَ اللهُ - تبارَك وتعالَى - ذلك بَعْدَ تَخَرُّجِي بِسَنَوَاتٍ طِوَالٍ!

ومِنْ عادَتِي أنْ أَجْمَعَ - ما استطعْتُ - كُتُبَ المُؤلِّفينَ الَّذينَ أحببتُهم؛ أولئك الَّذينَ أَعُدُّهُمْ شُيُوخي "وِجَادةً"[22]، ومِنْ أولئك الأعلامِ الدُّكتور عبدُ العال سالِم مَكْرَم؛ فَلِي مَعَ مُؤَلَّفاتِهِ ذكرياتٌ حبيبةٌ، وطالما قَضَيْتُ ساعاتٍ قارِئًا كِتابَه التَّعليميَّ القَيِّمَ **تطبيقات نَحْوِيَّة وبلاغيَّة**، وعادَتْ عَلَيَّ تلك القِراءَةُ بالنَّفْعِ الكبيرِ، فللهِ الْحَمْدُ والمِنَّةُ، ثُمَّ أَكْرَمَنِي اللهُ فابتعْتُ كِتابَيِ **الأشباه والنَّظائر**، و**هَمْع الهوامِع**، كِلاهما للسُّيوطِيِّ وتحقيقِ علَّامَتِنا الْجليلِ، يُضافُ إلى ذلك كُتُبٌ أُخْرَى لهُ لطيفةُ الحَجْمِ عظيمةُ المحتوَى.

ولا أزالُ - وأنا خِرِّيجٌ قديمٌ - أَحلُمُ بِنُسْخةٍ مِّنْ كِتابِ **مَدْرَسةِ البَصْرةِ النَّحْوِيَّةِ** للدُّكتور عبدِ الرَّحمن السَّيِّد، يَسَّرَ اللهُ لِي تَمَلُّكَهُ!

مُدَرِّسُ نَحْوٍ وصَرْفٍ

لَمَّا تَخَرَّجْتُ في الْجامِعةِ عامَ ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، وتأَكَّدَ أنِّي سأَسْلُكُ طريقَ التَّدريسِ = وَطَّنْتُ النِّيَّةَ عَلَى قِراءَةِ النَّحْوِ والصَّرْفِ، وعَلَى تَعَلُّمِ الإعرابِ؛ فمُدَرِّسُ اللُّغةِ العربيَّةِ، كما يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ، موصُولُ العُرَى بِمُقَرَّرِ النَّحْوِ – أو القواعِدِ – وبالإعرابِ خاصَّةً!

قُلْتُ: لا بَأْسَ! سأُعِيدُ قِراءَةَ النَّحْوِ والصَّرْفِ، وسأَبْذُلُ وُسْعِي وطاقَتِي في تَعَلُّمِهما، لا سِيَّما النَّحْوُ الوظيفيُّ، وليس مِنْ مَّانِعٍ في أنْ أقرأَ مجموعةً مِّنَ الكُتُبِ مَعًا؛ القديمِ مِنْها والْحديثِ، والمَبسُوطِ والوَسِيطِ والوَجِيزِ، ولَعَلَّ التَّدريسَ يَكُونُ فُرصةً مُمْتَازةً أُجَدِّدُ فيها العَهْدَ بِما تَلَقَّيْتُهُ في الْجامِعةِ، مَعَ اختلافٍ في التَّلقِّي؛ فأنا أَدْرُسُ هُناك النَّحْوَ عَلَى أُستاذٍ، وأَدْرُسُهُ – أوْ أقرأُهُ – هُنا، عَلَى نَفْسي!

لا رَيْبَ في أنَّ الطَّريقَ إلى النَّحْوِ الوظيفيِّ ليس ممهُودًا، ولا أَعْرِفُ البَدْءَ ولا المُنتهَى، وهَدَانِي تفكيري إلى أُسْلوبٍ في القراءةِ يَكْفُلُ لِي التَّثَقُّفَ والتَّعَلُّمَ؛ فهذه فُرْصَةٌ أُتِيحَتْ يا حُسَيْن! فلا تُفَرِّطْ فيها، ولَعَلَّ ما أُتِيحَ لكَ اليَوْمَ ستَلْحَقُهُ المَشَقَّةُ غدًا!

قُلْتُ: عَلَيَّ أنْ أقرأَ الأُمَّهاتِ والمُتُونَ قِراءةً لا أرجو مِنْ وَّرائِها إلَّا التَّبَحُّرَ والتَّثَقُّفَ، وسأختارُ مِنَ الكُتُبِ المُتُونِ ما كان مُتاحًا، في القديمِ، لطلبةِ العِلْمِ، ولأَبْدأْ، كما بَدَأُوا، بِـ **الآجرُّومِيَّةِ**، فـ **المُقَدِّمةِ الأزهريَّةِ**، فـ **القَطْرِ**، ثُمَّ **مُغْنِي اللَّبِيبِ**، وسأَشْفَعُ هذه القِراءَةَ بتأمُّلِ ما في **النَّحْوِ الوافِي**.

أَمَّا النَّحْوُ الوظيفيُّ، فخَيْرُ ما أَسْتَعِينُ بِهِ هو كِتابُ **النَّحْوِ التَّطبيقيِّ** للدُّكتور عبده الرَّاجِحيِّ، ولهُ، كذلك، **التَّطبيقُ الصَّرْفيُّ**[23]؛ يُعَلِّمُني الأوَّلُ النَّحْوَ والإعرابَ، والثَّاني الصَّرْفَ، واصطَفَيْتُ كُتُبًا أُخْرَى لها مَقَامٌ في عقلي ووِجداني، أهمُّهُنَّ **مُعْجَمُ الإعرابِ** للدُّكتور إميل

يعقوب، و**مُعْجَمُ الأَدَوَاتِ النَّحْوِيَّةِ** للدُّكتور محمَّد أَلْتَونْجِي، ولهذا الكِتابِ الأخيرِ فَضْلٌ عَلَيَّ، ولولا ما فيهِ مِنْ أدواتٍ ما ذُلِّلَ لِي كثيرٌ مِّنْ مُشْكِلاتِ الإعرابِ.

لَمْ أَكُنْ نَحْوِيًا وإنْ أحببْتُ النَّحْوَ، عَلَى أنَّني إلى يَوْمِنا هذا، لا أزالُ مُتَعلِّقًا بهذا العِلْمِ الْجليلِ، وعندي رغبةٌ أكيدةٌ في الإكبابِ عَلَى قِراءَةِ أُمَّهاتِهِ، تُخَايِلُني كُتُبُهُ الأُصُولُ، وتُغْرِيني بالاتِّصالِ بِها، والمُوَاظَبةِ عليها، وعَسَانِي أُحَقِّقُ هذهِ الأُمْنِيَّةَ الغالية؛ أنْ أَقِفَ وُقُوفَ قارِئٍ دارِسٍ عَلَى مَجامِيعَ في النَّحْوِ لابْنِ مالِكٍ، وأبي حَيَّان النَّحْويِّ، وابْنِ هشامٍ، والسُّيوطيِّ، والبَغْدَادِيِّ! فالنَّحْوُ لهُ مَذاقٌ لا يَطْعَمُهُ إلَّا العاشِقُون! وأنا أَعُدُّ نَفْسِيَ مِنْهُمْ!

يَسَّرَ لِي إكبابي عَلَى كُتُبِ النَّحْوِ والصَّرْفِ والإعرابِ وظيفتي في التَّدريسِ، وكُنْتُ أَلْقَى في تدريسِ مُقَرَّرِ النَّحْوِ حَلَاوَةً، وفي الإعرابِ لَوْنًا مِّنَ المَهارةِ والذَّكاءِ، وطالما سَعَيْتُ إلى تذليلِ العَقَبَاتِ الَّتي تَعْتَرِضُ طريقَ طُلَّابي في الثَّانويَّةِ، ولا زِلْتُ أستعيدُ، بِقَدْرٍ مِّنَ الزَّهْوِ والفَرَحِ، كَيْفَ بَذَلْتُ الوُسْعَ والطَّاقةَ في تيسيرِ مَسائِلِ النَّحْوِ، وجَعْلِ إعرابِ الْجُمَلِ وأشباهِ الْجُمَلِ سائِغًا عَذْبًا، حبيبًا قريبًا، يَلْقَى الطُّلَّابُ في التَّهدِّي إلى مَسالِكِها لَذَّةً ومَتاعًا.

وأَحْسَبُ، بَعْدَ أنْ بُتَّتْ صِلَتي بالتَّدريسِ، منذُ عهدٍ بعيدٍ، أنَّني كُنْتُ مُدَرِّسًا يُحْسِنُ التَّدريسَ، وأنَّ طُلَّابي كانوا يَعْرِفون ذلك عنِّي؛ فأنا أُحِبُّ النَّحْوَ والصَّرْفَ، وأَبْذُلُ في تَعَرُّفِهِما وقتًا وجُهْدًا، ولا يكفيني الكِتابُ المدرسيُّ في تقريبِ هذا العِلْمِ إلى الطُّلَّابِ، فعسَى أن يُحِبُّوهُ، وأن يَلْقَوْا فيهِ شيئًا مِّنَ المُتْعَةِ واللَّذَّةِ.

ولَمْ يَكُنْ نَصِيبُ عِلْمِ الصَّرْفِ بالوافِرِ في الكِتابِ المُقرَّرِ، لكنَّني أخذْتُ نَفْسي بِمُدَارَسَتِهِ وتذليلِ ما في مَسائِلِهِ مِنْ صُعُوبةٍ وَّمَشَاقَّ، والْحَقُّ أنَّ كِتابًا لَمْ يَنْفَعْني في تيسيرِ عِلْمِ الصَّرْفِ، كما نَفَعَني **التَّطبيقُ الصَّرْفِيُّ**، وعِندي أنَّ هذا الكِتابَ وشقيقَهُ **التَّطبيقَ النَّحْويَّ** مِنَ الكُتُبِ الَّتي بارَكَ اللهُ فيها؛ فقَرَأَها طَلَبَةُ العِلْمِ، والمُدَرِّسونَ، وأَلْفَوْا فيهما ما لَمْ تَلْقَهُ كُتُبٌ أُخرى، وكأنَّما اللهُ – تبارَك وتعالَى – هَدَى مؤلِّفَهُما الدُّكتور عبده الرَّاجِحيَّ – رَحِمَهُ اللهُ – إلى أُسْلُوبٍ في التَّأليفِ، أَرُدُّ إليهِ ما في هذينِ الكِتابينِ مِنْ خَيْرٍ كبيرٍ، ونَفْعٍ عظيمٍ!

وما كان عِلْمُ الصَّرْفِ بالعِلْمِ الَّذي يُقْرَأُ للمُتعةِ واللَّذاذةِ! وحَسْبُهُ صُعُوبةً أنَّني دَرَسْتُ النَّحْوَ في الْجامِعةِ، وتَخَرَّجْتُ دُونَ أنْ أُصِيبَ شيئًا مِّنَ الصَّرْفِ! وفي هذا مِنَ العَجَبِ والغرابةِ ما فيهِ! لكنْ هذا ما كان!

وعَنَّ لِي أنْ أَشُدَّ عَضُدَ كِتابَ عبده الرَّاجِحيِّ، بكِتابِ **المُغْني الْجديدِ في عِلْمِ الصَّرْفِ** للدُّكتور محمَّد خَيْر الحلوانيِّ – رَحِمَهُ اللهُ [24]– وهو آيةٌ في بابِهِ، فريدٌ في منهجِهِ وأُسْلُوبِهِ. وإلى هذينِ الكِتابينِ أَرُدُّ فَهْمِي لعِلْمَ الصَّرْفِ؛ هذا العِلْمِ الكَزِّ النَّافِرِ = فإذا هو سائغٌ، لطيفٌ، حبيبٌ، قريبٌ، وهَلْ مِنْ سبيلٍ إلى تَفْهِيمِ طالِبِ الثَّانويَّةِ مِيزانَ الكَلِمَةِ وما فيها مِنْ لَّطائِفَ صَرْفِيَّةٍ = والْمُدَرِّس نَفْسُهُ في حاجةٍ إلى أن يَتَعَلَّمَ؟!

مُذَكِّراتُ قاسِم الرَّجَب

حينما وَقَعَتْ عَيْنايَ على **مُذَكِّراتِ قاسِم محمَّد الرَّجَب**[25]، صاحِبِ مكتبةِ المُثَنَّى الشَّهيرةِ في بَغْداد = سَرْعانَ ما قُلْتُ: وَجَدْتُّها! فلقدْ طالما مَنَّيْتُ نَفْسِي بِحِيازةِ هذهِ المُذَكِّراتِ المُهِمَّةِ، وما إنْ ظَفَرْتُ بِها حتَّى شَرَعْتُ في قِراءَتِها، وكُلَّما أَتْمَمْتُ فَصْلًا رَجَوْتُ أنْ لا ينتهيَ الكِتابُ؛ ففيهِ مِنَ الرَّوعةِ ما يَجْعَلُكَ تَعِيشُ كُلَّ سَطْرٍ فيهِ، وتُحِسُّ بساطةَ الرَّجُلِ الَّذي استهَلَّ حياتَهُ صغيرًا في سُوقِ "السَّرَاي"، ثُمَّ إذا بِهِ يُصْبِحُ مَقْصَدَ العربِ والمستشرقينَ، لِتَوَفُّرِ مكتبتِهِ عَلَى نوادِرِ الكُتُبِ العربيَّةِ، وبِخاصَّةٍ تلك الَّتي نَشَرَتْها المطابِعُ الغربيَّةُ، ولا سِيَّما مطبعةُ لايْدِن العريقةُ، ثُمَّ نَفِدَتْ طبعاتُها، وأضْحَى الظَّفَرُ بِها عَزيزًا؛ فتَوَلَّى الكُتُبِيُّ الذَّكِيُّ تصويرَها؛ فذاعَتْ في مَشْرِقِ العالَمِ العربيِّ ومَغْرِبِهِ.

نَقْرأُ في **مُذَكِّراتِ قاسِم محمَّد الرَّجَب**، عَلَى بَسَاطَتِها وسُهُولتِها، عالَمًا رَّحْبًا، ونَقِفُ عَلَى طبيعةِ المُجتمَعِ العِراقيِّ، مهما اختلفَتْ أعراقُهُ وأُصُولُهُ، ونَظْهَرُ في مكتبةِ المُثَنَّى عَلَى أسماءِ المُثَقَّفِينَ العِراقيِّينَ، ونكادُ نَعْرِفُ خُطُوَاتِ المُحامِي والمُؤَرِّخِ عبَّاس العَزَّاوِيِّ الَّذي اعتادَ أن يَزُورَ "سُوقَ السَّرَاي"، حيثُ المكتباتُ العريقةُ، أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أوْ أكثرَ كُلَّ يَوْمٍ!

ويُمْكِنُنا عَدُّ هذه المكتبةِ مِقياسًا نَقِيسُ بِهِ الأفكارَ الَّتي سَيْطَرَتْ، في حِقْبةٍ مِّنَ الحِقَبِ، ثُمَّ إذا بِها، بَعْدَ حِينٍ، تَضْمُرُ وتَتَوَارَى = وتَقَلُّبَ النُّخْبةِ المُثَقَّفةِ العِراقيَّةِ بَيْنَ اليَمينِ والْيَسارِ، وما اضْطَرَبَ في بِلادِ الرَّافِدَيْنِ مِنْ أفكارٍ وَّمَذَاهِبَ وتَيَّاراتٍ.

ولَسْتَ في حاجَةٍ إلى أنْ تَغُوصَ كثيرًا في أحوالِ الثَّقافةِ في العِرَاقِ؛ لِتَعْرِفَ مِقْدَارَ ما للعِراقيِّينَ مِنْ سَهْمٍ في الثَّقافةِ العربيَّةِ الحديثةِ، وحَسْبُ أَحَدِنا أن يَنْقَطِعَ يَوْمًا أوْ يَوْمَيْنِ إلى **مُذَكِّراتِ قاسِم محمَّد الرَّجَب**، لِيَقِفَ عَلَى الثَّقافةِ العظيمةِ الَّتي أَنْشَأَها المُثَقَّفونَ العِراقيُّونَ، والأفكارِ والمَذاهِبِ الَّتي تَعَمَّقُوها وانقطعُوا لها، وأنتجُوا فيها أعمالًا يَفْخَرُ بِها العِراقُ، ويَفْخَرُ بها العربُ.

وفي هذه المُذَكِّراتِ، كأمثالِها مِنْ كُتُبِ السِّيَرِ الذَّاتيَّةِ، ما يُغْرِيكَ بِتَتَبُّعِ حياةِ صاحِبِها، ومِقدارِ ما أصابَهُ مِنْ فَلَاحٍ، وما نَزَلَ بِهِ مِنْ أزماتٍ وكائناتٍ = ونستطيعُ أنْ نَتَتَبَّعَ فيها تأريخًا خَفِيًّا لِحَرَكَةِ نَشْرِ الكِتابِ والمَطابِعِ في العِراقِ وفي العالَمِ العربيِّ، وهو، لا شَكَّ في ذلك، مَرْجِعٌ نَفِيسٌ لِّمَنْ أرادَ أن يُؤَرِّخَ لحركةِ نَشْرِ التُّراثِ العربيِّ، وأعلامِ النَّاشِرِينَ، لا تَتِمُّ لنا بها معرفةٌ دُونَ الرُّجُوعِ إلى قاسِم محمَّد الرَّجَب.

أُورغانون محمَّد مندورا

لا يُشْبِهُ كِتابُ **في المِيزانِ الْجديدِ**، للدُّكتور محمَّد مندور[26]، الكُتُبَ النَّقديَّةَ الَّتي أَلَّفَها أساتذةُ الأدبِ والنَّقدِ في الْجامِعة.

أُسَمِّي **في المِيزانِ الْجديدِ** "مَتْنًا نَقْدِيًّا"، وكُتُبَ أساتذةِ الْجامِعةِ "دِرَاساتٍ" أوْ "بُحُوثًا".

مِنْ خصائِصِ "الْمَتْنِ" خُلُودُهُ في التَّاريخِ، و**في الميزانِ الْجديدِ** خالِدٌ = ومِنْ خصائِصِهِ الإيجازُ وكِتابُ مندور غَيْرُ مُتَرَهِّلٍ.

ليس محمَّد مندور دارِسًا مَتَى أَرَدْنا بالدَّرْسِ التَّقيُّدَ بالقواعدِ والمنهجِيَّاتِ. أَتَخَيَّلُهُ كأنَّهُ مُنْتَحٍ في قهوةٍ قديمةٍ في القاهرةِ، يُدَخِّنُ، ويَشْرَبُ الشَّاهِي، ويَرْمُقُ النَّاسَ مِنْ حَولِهِ ببصَرٍ كَلِيلٍ، وعَلَى المائِدةِ أوراقٌ يَخُطُّ فيها تأمُّلاتِهِ النَّقديَّةَ.

وعِنوانُ الكِتابِ فريدٌ في بابِهِ، دالٌّ، ولا أشُكُّ في أنَّ محمَّد مندور أرادَهُ إرادةً، وكأنَّهُ "الأُورغانونُ الْجديدُ"[27]، متَى أَحْسَنَ النُّقَّادُ تَمَثُّلَهُ عَرَفوا مَعْنَى النَّقْدِ، ومتَى تَدَبَّرَ الأُدباءُ المُنْشِئونَ مَعانِيَهُ أنشأُوا أدبًا صحيحًا.

اِعْتَلَّ بَصَرُ محمَّد مندور وكَلَّ وما اعتلَّتْ بصيرتُه ولا كَلَّتْ، وكان أَوْحَدَ نُقَّادِ عَصْرِهِ في معرفةِ ما الأدبُ؟ وما النَّقدُ؟ أمَّا الأدبُ فصِياغةٌ جَمَاليَّةٌ وليس "طرطشةً عاطفيَّةً" = وأمَّا النَّقْدُ فـ "فَنُّ دِرَاسةِ النُّصُوصِ الأدبيَّةِ، والتَّمييزِ بَيْنَ الأساليبِ المُخْتَلِفَةِ".

واجَهَ محمَّد مندور تَيَّارَاتِ الأدبِ والنَّقْدِ منذُ عَوْدَتِهِ إلى بِلادِهِ - دُونَ أن يَحْصُلَ عَلَى الدُّكتوراه مِنْ باريس! -؛ فالْمُيُوعةُ والطَّرْطَشةُ العاطِفيَّةُ هُما أخطرُ ما يُصِيبُ الأدبَ في مَقْتَلٍ، ولا يستقيمُ للنَّقْدِ "مِيزانٌ" إلَّا بِـ "الذَّوْقِ المُعَلَّلِ"، ولا سبيلَ نَسْلُكُهُ إلى العَمَلِ الأدبيِّ إلَّا عنْ طريقِهِ.

أَدْرَكَ مندورٌ في شبابِهِ الأَدْوَاءَ الَّتي لَحِقَتِ النَّقْدَ، وخاضَ مَعارِكَ وسِجالاتٍ ليُثْبِتَ بَدِيهةً آمَنَ بِها، وهي أنَّ النَّقْدَ الأدبيَّ ليس "عِلْمًا"، لكنَّهُ "خِبرةٌ". رأى تَسَلُّطَ العُلُومِ الأجنبيَّةِ عليهِ، فذادَ عنْ طبيعةِ الأدبِ؛ فلا مَعْنًى لِتَدَخُّلِ التَّحليلِ النَّفْسِيِّ في تفسيرِ العَمَلِ الأدبيِّ، ولا ينبغي أنْ نَغْلُوَ - كما غَلَا زكي نجيب محمود - فنتوهَّمَ النَّقْدَ عِلْمًا صحيحًا كغيرِهِ مِنَ العُلُومِ الصَّحيحةِ.

وَحَّدَ ذَوْقُ محمَّد مندور بين تُراثِ العربِ ونَقْدِ الغَرْب؛ وراقَهُ رَأْيُ غوستاف لانْسُون في النَّقدِ، ورأى أنَّ ما يَجْمَعُ النَّاقِدَ الفرنسيَّ والنَّاقِدَيْنِ العربيَّيْنِ الآمديِّ والقاضي الْجُرْجانيِّ = إنَّما هو "الذَّوقُ"، لكنَّهُ الذَّوْقُ المُدَرَّبُ الَّذي يُحْسِنُ صاحِبُهُ الاستدلالَ عليهِ.

ما أَشَدَّ حاجَةَ الْجامِعةِ اليَوْمَ إلى محمَّد مندور! عَلَى أنَّ حاجَةَ أساتذةِ النَّقْدِ إليه لا تَعْنِي استنساخَهُ وتَكْرَارَهُ، بَلِ استلهامَ رُوحِهِ، والإفادةَ مِنْ عَقْلِهِ العبقريِّ الفنَّانِ.

النَّقدُ الَّذي يَكْتُبُه مندور - والأَصَحُّ أنْ نَقُولَ: الَّذي يُمْلِيهِ؛ لاعتلالِ نظرِهِ = شَرْقِيٌّ غَرْبِيٌّ، مُجْمَعٌ عليهِ ما دامَ قائِمًا عَلَى الذَّوْقِ المُدرَّبِ، وقِرَاءَةُ الْمَتْنِ المَنْدُورِيِّ تُكْسِبُ ناقِدَ الأدبِ ذَوْقًا، وخِبْرةً، ومعرفةً، وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ تَمَثُّلَ المنهجِ "المَنْدُورِيِّ"، بالْمُدَاوَمةِ على تأمُّلِهِ وتَذَوُّقِهِ وتَدَبُّرِهِ = يَعُودُ عَلَى أُستاذِ النَّقْدِ الأدبيِّ في الْجامِعةِ بالنَّفْعِ، ولا أرانِي مُجانِبًا الصَّوَابَ حِينَ أقولُ: إنَّ المنهجَ المَنْدُورِيَّ أَحَقُّ بالتَّبنِّي والأخْذِ مِنَ المَناهِجِ الغربيَّةِ المُنْتَزَعَةِ مِنْ ثقافتِها، وتاريخِها، وسِياقِها!

التَّارِيخُ الثَّقافِيُّ للبَلَدِ الْحَرَامِ

-1-

لا أَزَالُ أَتَذَكَّرُ هذهِ القِصَّةَ الَّتي سأُؤَدِّيها إليكَ الآنَ، وكأنَّها وَقَعَتْ في الأمسِ القريبِ!

كُنْتُ، في سَنَةِ 1423هـ = 2002م، حديثَ العَهْدِ بِرِئاسةِ تحريرِ مَجَلَّةِ **الحَجِّ والعُمرةِ**، تَثُورُ في عقلي أفكارٌ كُلُّها قريبٌ مِّنْ شَعِيرةِ الْحَجِّ.. وكان أشدُّ ما يشغلُني أنْ لا أنحرِفَ بالمَجَلَّةِ عنِ الثَّقافةِ والأدبِ والفِكْرِ؛ فهي، وإنْ كانَتْ تَحمِلُ اسْمَيْ تَيْنِكَ الشَّعِيرَتَيْنِ = مَجَلَّةٌ مَّعْدُودةٌ في الْمَجلَّاتِ الثَّقافيَّةِ والأدبيَّةِ، وما اخْتِرْتُ لِتَوَلِّي تحريرِها لأَجْعَلَ مِنْها مَجَلَّةَ فِقْهٍ، وأحكامٍ، وشَرْعٍ، فذلك شأنٌ آخَرُ لا تحتمِلُهُ مَجَلَّةٌ شهريَّةٌ.

-2-

دَخَلَ صديقي الغالِي الأستاذُ محمَّد عبد الرَّحمن باوزير مكتبي، حامِلًا بِيَدِهِ كِيسًا، وقالَ لِي: جِئْتُكَ مِنْ مَّرْكَزِ **تسويقِ القافِلةِ** بِخَبَرٍ جميلٍ! وأَخْرَجَ مِنَ الكِيسِ كِتابَ **الحياةِ الثَّقافيَّةِ في مكَّةَ المُكَرَّمةِ في القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ المِيلاديِّ ١٢١٥-١٣١٧هـ**[28]، للدُّكتور يَحْيَى بْنِ محمود بن جُنَيْد! ورَفَعَ الكِتابَ إلى أَعْلَى، وجَعَلَ يُلَوِّحُ بِهِ ذاتَ اليَمِينِ وذاتَ الشِّمَالِ، ثُمَّ وَضَعَهُ، بِتُؤَدَةٍ وإجلالٍ عَلَى مكتبي!

قالَ محمَّدٌ: هذا الكِتابُ هَدِيَّةٌ لَّكَ مِنِّي، أرجو أنْ تَتَقَبَّلَها بِقَبُولٍ حَسَنٍ!

-3-

ولا زِلْتُ أَتَذَكَّرُ، بَعْدَ تلك السِّنينَ، فَرَحِي بالكِتابِ.. كان هَدِيَّةً غالِيَةً جِدًّا! أَمْسَكْتُهُ بِيَدِي، وأَنْشَأْتُ أتأمَّلُ لَوْنَ الغِلَافِ ولَوْحَتَهُ، واسْمَ المُؤَلِّفِ الْجليلِ، ورَاقَني حَجْمُهُ اللَّطيفُ؛ فذلك أَدْعَى إلى أنْ أَقْرَأَهُ في زَمَنٍ يَّسِيرٍ، دُونَ أنْ تَصُدَّنِي وظيفتي الْجديدةُ عنْ قِراءَتِهِ والتَّلَذُّذِ بِما فيهِ!

-4-

قَرَأْتُ الكِتابَ غيرَ مَرَّةٍ.. تَعَلَّمْتُ مِنْهُ ما لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ، طَوَّفَ بِي في ثقافةٍ مَّا كُنْتُ لِأَعْرِفَها، حتَّى ذلك الْحِينِ، معرفةً جَيِّدةً، واتَّخذْتُهُ دَلِيلِيَ إلى الثَّقافةِ الْحديثةِ في مكَّةَ المُكَرَّمةِ.. أَجُولُ في تَضاعيفِهِ، وأتدبَّرُ اقتصادَ عِبارَتِهِ، أَقْرَأُ المَتْنَ والْحاشِيَةَ.. كان مَتْنُهُ يَضُوعُ جِدَّةً، أَمَّا حاشِيَتُهُ فلا تَنْزِلُ عنِ المَتْنِ مكانةً ومَقامًا، حُشِيَتْ عِلْمًا غزيرًا، ونَبَّهَتْ عَلَى فَوَائِدَ جليلةٍ، وجَعَلْتُ أَقْرَأُ وأُقَيِّدُ فوائِدَ الكِتابِ، وما أَكْثَرَ فوائِدَهُ! أُقَيِّدُ الْخَبَرَ والرَّأْيَ، وأُثْبِتُ في مُفكِّرَتي عَشَرَاتِ الكُتُبِ الَّتي عليها قِوَامُ الكِتابِ، ويَسْرَحُ بِي الْخَيَالُ فإذا بالظَّفَرِ بتلك المَصَادِرِ والمَراجِعِ مِنْ أَعَزِّ ما أَدَّخِرُهُ مِنْ أَمَانِيَّ! وصِرْتُ، بهذا الكِتابِ النَّفِيسِ، وبِإِخْوَةٍ لَّهُ، مِمَّا وَضَعَهُ العَلَّامةُ الْجليلُ يَحْيَى بن محمود بن جُنَيْد = شديدَ العِنايةِ بالثَّقافةِ العالِمةِ في مكَّةَ المُكَرَّمةِ - حَرَسَها اللهُ –

-5-

لَيْسَ قليلًا أنْ أَعْرِفَ، في مُدَّةٍ يَّسِيرةٍ، رُوحَ الثَّقافةِ العالِمةِ في البَلَدِ الْحرامِ، في ماضيها القريبِ! وليس قليلًا أن تَلْقَانِي أسماءُ المُؤَلِّفِينَ والنُّسَّاخِ والْخَطَّاطِينَ والطَّابِعِينَ وبائِعِي الكُتُبِ، مِنْ أبناءِ مكَّةَ المُكَرَّمةِ والنَّازِلِينَ بِوَادِيهِم المُبَارَكِ، ولَسْتُ أَشُكُّ، اليومَ، في أَنَّهُ ما كان لِي أنْ أَتَّصِلَ بالثَّقافةِ العالِمةِ في المسجدِ الحَرَامِ، وما أَحَاطَ بِهِ مِنْ مَّدَارِسَ ومَعاهِدَ ودواوِينَ = لَوْلا ما أَنْشَأَهُ جِلَّةٌ مِّنَ الدَّارِسِينَ في ضُرُوبِ الثَّقافةِ والفِكْرِ في مكَّةَ المُكَرَّمةِ خاصَّةً والْحِجازِ عامَّةً.

فإلى يَحْيَى بن محمود بن جُنَيْد، وعبدِ الوهَّابِ إبراهيم أبو سليمان، وعبَّاس صالح طاشكنديٍّ، ومِعراج بن نَوَّاب مِرْزا = أَمُدُّ أسانيدي في العِلْمِ بالتَّاريخِ الثَّقافيِّ لِمَكَّةَ المُكَرَّمةِ، وحَسْبِي أنْ ذَلَّلَتْ لِي مُؤلَّفاتُهُم ما تَعَاصَى عَلَيَّ وغَمَّ، حتَّى إذا بَلَغْتُ مَقَامَ القُرْبِ أَدْرَكْتُ ثِقَلَ ما أَدَّوْهُ إلَيَّ وقِيمَتَهُ.

مكَّةُ والمدينةُ.. مَدِينتانِ عالِمَتانِ

كان عامُنا الهِجْرِيُّ 1440 سَخِيًّا كريمًا. كان سَخِيًّا حِينما أَخْرَجَتِ المطبعةُ خمسةَ كُتُبٍ للدُّكتور عبَّاس صالِح طاشكنديّ. وكان كريمًا لَمَّا أدارَ قَلَمَهُ في مَسائِلَ اختصَّ بها "الدِّراساتِ المَكِّيَّةَ والمَدَنِيَّةَ"، ولا سِيَّما ما اتَّصَلَ بِـ "الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ"، وتِلْكُمُ الكُتُبُ هي **الحُجْرةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفةُ**، و**خزائِنُ الكُتُبِ الخاصَّةِ في بِلَادِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ منذُ العَهْدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ حتَّى الوَقْتِ الحاضِرِ**، و**تاريخُ حَلَقاتِ العِلْمِ في الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ**، و**أعلامُ حُدُودِ حَرَمِ المدينةِ المُنَوَّرةِ**، و**إجازاتُ عُلَماءِ وعالِماتِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ لِعُلَماءِ الأمصارِ**[29]، وكان هذا الأخيرُ بِمُشاركةِ العَلَّامةِ الشَّيخ عبدِ الوهَّابِ أبو سليمان.

عُرِفَ الدَّكتورُ عبَّاس طاشكنديّ، منذُ أَمَدٍ بعيدٍ، أُستاذًا بارزًا في عِلْمِ المكتباتِ والمعلوماتِ، بجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ بِجُدَّةَ، صَرَفَ جُهْدَهُ ووَقْتَهُ – وهو مِنْ قُدَامَى الأساتذةِ – في العَمَلِ الإداريِّ؛ عَمِيدًا لِّشُؤونِ المكتباتِ، عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وعُضْوًا في لِجَانٍ مُّخْتَلِفةٍ، حتَّى إذا فَرَغَ إلى نَفْسِهِ وَضَعَ كُتُبًا وبُحُوثًا لها تَعَلُّقٌ بِتَخَصُّصِهِ العِلْمِيِّ في المكتباتِ والمعلوماتِ، وهي آثارٌ عليها مِنَ الْجامِعة أَثَرٌ، مهما كانَتْ مُفِيدةً لِّأَهْلِ الاختصاصِ، وإنْ لمْ يَخْلُ بعضُها مِنْ أَثَرِ الثَّقافةِ العامَّةِ الَّتي يُلْفِي فيها القارئُ المُثَقَّفُ ما يَجْلُو جوانِبَ هي أَلْصَقُ بالثَّقافةِ، وأبرزُها كِتابُهُ **الطِّباعةُ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُودِيَّةِ في مِئَةِ عامٍ** (1419هـ = 1999م)، وهو نافعٌ مُفِيدٌ، وتلك الَّتي عالَجَ فيها موضوعاتٍ تَمَسُّ الثَّقافةَ والطِّباعةَ في العالَمِ الإسلاميِّ، ومِنْها بَحْثُهُ الرَّصِينُ **الطِّباعةُ العربيَّةُ في الهِنْدِ؛ دائرة المَعارِف العُثْمانيَّة** (1421هـ = 2000م). حتَّى إذا صارَ إليهِ، بآخِرَةٍ، الإشرافُ على **موسوعةِ مكَّةَ المُكَرَّمةِ والمدينةِ المُنَوَّرَةِ** = صَرَفَ جُهْدَهُ كُلَّهُ لتاريخِ المدينتينِ المقدَّستينِ وثقافتِهِما، وكانَتِ **الموسوعةُ** خيرًا لَّه، وخيرًا لِّلقارئِ، وخيرًا لِّلثَّقافةِ في بِلادِنا.

ويكفي هذه الكُتُبَ الْخَمْسَةَ أن يُقالَ فيها: إنَّها كُتُبٌ جليلةٌ في موضوعِها، والغايةِ الَّتي نَهَدَتْ إليها، وأَجَلُّها، عندي، كِتابُهُ **الْحُجُراتُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفةُ**. وإذا ما عَدَوْنا هذا الكِتابَ،

وكِتابَهُ الآخَرَ **أعلام حُدُودِ حَرَمِ المدينةِ المنوّرةِ** = جازَ لنا أنْ نُصَنِّفَ الثَّلاثةَ الأُخرَى فيما أرادهُ لها، مِنَ التَّأريخ لِـ "خزائنِ الكُتُبِ"، و"حَلَقاتِ العِلْمِ"، و"إجازاتِ العُلَماءِ"، في الحَرَمَيْنِ الشَّريفينِ، فإذا مَضَيْنا فيها رَاعَنا ما انْطَوَتْ عليهِ مِنْ مِّئاتِ الأسماءِ، وخزائنِ الكُتُبِ، والإجازاتِ، وكأنَّنا نُوَاجِهُ تُراثَ أربعةَ عَشَرَ قَرْنًا انصَرَفَ أهلُوهُ إلى النَّشاطِ العِلْمِيِّ والدِّينيِّ والثَّقافيِّ، وتَدْهَشُ لأسماءِ الأعلامِ، والْخَزائِنِ، والكُتُبِ، وكأنَّ المدينتينِ المُقَدَّستينِ لمْ تَعْرِفا في تاريخِهما إلَّا التَّأليفَ، والكُتُبَ، والتَّلقِّيَ، والإجازاتِ، والقُرَّاءَ!

فإذا عَدَوْتَ ظاهِرَ الكُتُبِ الثَّلاثةِ، وأنشأْتَ تَتَأَمَّلُ ما قَرَأْتَهُ = فلَعَلَّكَ تُقَدِّرُ أنَّ مكَّةَ المُكَرَّمةَ وأُخْتَها المدينةَ المُنَوَّرَةَ، يَصْدُقُ فيهما أنَّهما "مَدِينتانِ عالِمتانِ"، منذُ زمنِ الرِّسالةِ المُحَمَّديَّةِ، وإلى وَقْتِنا الحاضِرِ؛ فالشُّيُوخُ، والعُلَماءُ، والأُدباءُ، والمُدَرِّسُونَ، والتَّلاميذُ = كأنَّما كانَتْ مَعايِشُهُمْ صلاةً في المسجدينِ الشَّريفينِ، واختلافًا إلى الأشياخِ، وِقراءَةً، وتأليفًا، وإجازاتٍ. ويَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أنَّ هذا النَّشاطَ هو مِنْ مَّآثِرِ الحضارةِ الإسلاميَّة؛ رأيْناهُ في مكَّةَ المُكرَّمةِ والمدينةِ المنوَّرةِ، وعايَنَّاهُ في عواصِمَ وأمصارٍ أُخَرَ، أَنَّى اتَّجَهْتَ في دِيَارِ الإسلام؛ فالكُوفةُ "مدينةٌ عالِمةٌ"، وَّالبَصْرَةُ "مدينةٌ عالِمةٌ"، وكذلك الفُسْطَاطُ، ودمشقُ، وبغدادُ، والقاهرةُ، وتُونُس، والقَيْرَوَانُ، وتُمْبُكْتُو، وسِوَاهُنَّ مِنْ أمصارِ الإسلامِ، فإذا مَدَدْتَّ بَصَرَكَ إلى كُتُبِ الطَّبَقاتِ والتَّرَاجِمِ والسِّيَرِ، على اختلافِ ما بَيْنَها = صَحَّ عِنْدَكَ كلامُ العَلَّامةِ إحسان عَبَّاس؛ إذْ رأى تلك الكُتُبَ خالِصةً للتَّلقِّي، والتَّأليفِ، والإجازةِ، فإذا فَتَّشْتَ في أثناءِ كُتُبِ الفهارِسِ والمَعاجِمِ والبرامجِ والأثباتِ والمَشْيَخاتِ، وهي فَنٌّ قائِمٌ بِنَفْسِهِ = عايَنْتَ أمرينِ؛ أوَّلَهُما أنَّ العِلْمَ الإسلاميَّ لَكالشَّجَرةِ، لها جِذْرٌ، وساقٌ، وأغصانٌ، لكِنَّها، مهما تَفرَّعَتْ وتَشَعَّبَتْ، يَلُوذُ كُلُّها بِأَصْلٍ وَّاحِدٍ جامِعٍ لَّها = والأَمْرَ الآخَرَ أنَّ تلك الكُتُبَ الَّتي دَلَّتْ عَلَى عِلْمِ قَوْمٍ، كأنَّما ليس لَهُمْ عِلْمٌ سِوَاهُ = تَدُلُّ، متى تَدَبَّرْناها، عَلَى اتِّصالِ العِلْمِ الإسلاميِّ في الزَّمانِ، وامتدادِهِ في المكانِ، ودُونَكَ أيَّ كِتابٍ مِّنْ كُتُبِ أسلافِنا في التَّرَاجِمِ والسِّيَرِ، ولْيَكُنْ **تاريخ بَغْدَادَ** للخطيبِ البغداديِّ (ت 463هـ)، أوْ **تاريخ دِمَشْقَ** لابْنِ عساكِر (ت 571هـ)، أوِ **العِقْد الثَّمِين في تاريخِ البَلَدِ الأمينِ** للتَّقِيِّ الفاسِيِّ المكِّيّ (ت 832هـ) – وقِسْ عَلَيْهِنَّ كُتُبًا أُخْرَى = لا رَيْبَ في أنَّها ستروي لكَ "سِيرةَ العِلْمِ الإسلاميِّ"، حتَّى إنَّنا لَنَقرَأُ للكُتُبِ "أنسابًا"، وَّ"مُشَجَّراتٍ"، يَجْمَعُها

أَبٌ أَعْلَى، ونرى، في الفُرْقَةِ والتَّشَرْذُمِ، "وَحْدةً" أساسُها الإسلامُ وثقافتُهُ ومَدِينتاهُ المُقَدَّستانِ؛ ذلك أنَّ كُلَّ عُلُومِ الإسلامِ إنَّما هي أَثَرٌ مِّنْ آثارِ الْحَرَمَيْنِ الشَّريفَيْنِ، وفُرُوعٌ لأَصْلٍ يَّعْتَزِي إليهما، وإنَّنا نُدْرِكُ شيئًا مِّنْ هذا متى اتَّصَلْنا بذلك الضَّرْبِ مِنَ الكُتُبِ، ولا شَكَّ في أنَّ كُتُبَ الأُستاذِ الْجليلِ عبَّاس صالِح طاشكنديّ تُظْهِرُنا عَلَى مِقْدارٍ صالِحٍ مِّنْها، عَلَى أنَّها، في كُلِّ أحوالِها، كانَتْ سَخِيَّةً كريمةً، وحَسْبُها، سَخَاءً وكَرَمًا، أنْ أَذْكَرَتْنا بِمَأْثَرَةٍ مِّنْ مَّآثِرِ المَدِينتينِ المُقَدَّستينِ، وأصْلٍ قارٍّ فيهما = وأنَّها دَلَّتْنا عَلَى تَتَبُّعِ المُؤلِّفِ موضوعاتِهِ، الَّتي انقطعَ إليها، في مَظَانِّ الكُتُبِ، وحُسْنِ تَهَدِّيهِ إليها، وعَسَاهُ، في سَعْيِهِ هذا، إنَّما يَرُومُ استجلابَ الأنظارِ إلى نَشاطٍ قَوِيٍّ لِّحَرَكَةِ العِلْمِ في الحرمينِ الشَّريفينِ، أوْ ما يُعَبِّرُ هو عنهُ بِاسْمِ "الدِّراساتِ المَكِّيَّةِ والمَدَنِيَّةِ".

دَرْبُ زُبَيْدَة
مَدْرَسةٌ سُعُوديَّةٌ في الآثارِ

كانَ أُدباءُ الرَّعِيلِ يَشكُونَ، في بُدَاءَةِ نهضتِنا الأدبيَّةِ، شُحَّ التَّأليفِ وضَعْفَ حَرَكَتِهِ، وكانوا يَنْعَوْنَ عَلَى ما بأيديهِمْ مِّنْ مُّؤلَّفاتٍ، أنَّها قليلةُ الحَظِّ مِنَ الإتقانِ والإحسانِ والتَّجويدِ، واتَّصَلَتْ شكواهُمْ، حتَّى صِرْنا نقرأُها فيما تَحَدَّرَ إلينا مِنْ صُحُفِهِم ومَجَلَّاتِهِم، فلَمَّا تَمَّ لَهُمْ مِّنَ التَّآليفِ ما يَبْلُغُ أَصابِعَ اليَدِ الواحِدةِ، وإنْ بالَغْنا أصابِعَ اليدينِ = داخَلَهُمْ شُعُورٌ أنَّهُمْ بَلَغُوا مِنَ التَّرَقِّي في الأدبِ والفِكْرِ مَرْتَبَةً تُدْنِيهِم مِمَّا كانَتْ عليهِ مِصْرُ، وإنْ تَوَاضَعُوا فالعِراقُ وسُوريَةُ!

كان أُدباءُ الرَّعيلِ يَشكُونَ، وكانوا يَقْتَرِحُونَ وسائلَ وسُبُلًا لِّنَهْضَةٍ يَّرتقي بها التَّأليفُ، ويَهِشُّونَ، سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، للكُتُبِ الَّتي صُنِّفَتْ، وتَراهُمْ يُحْصُونَ ما أَخْرَجَتْهُ المَطابِعُ مِنْها، ويَعْتَدُّونَ ذلك طريقَهم إلى النُّهُوضِ والتَّقَدُّمِ، لكنَّهم يلتفتونَ، بَعْدَ حِينٍ، إلى مَنْزِلَةِ أدبِهِمْ بينَ الآدابِ العربيَّةِ في مِصْرَ وغَيْرِ مِصْرَ، فتَقْعُدُ بِهِمْ هِمَمُهُم عنِ التَّطَلُّعِ إلى المَزِيدِ، ويُسَلِّمُونَ أنَّ بينهم وبين تلك الدَّرجةِ أَمَدًا بعيدًا، وليس يَقْصُرُ هذا الموضوعُ الَّذي باتَ مُؤَرِّقًا لَّهُم، عَلَى كاتِبٍ أوْ كاتِبَيْنِ أوْ ثلاثةٍ، وإنَّما يَتَّسِعُ فيَشْمَلُ جمهرةً وَّاسِعةً مِّنَ الأُدباءِ والمُتَأَدِّبينَ، وكُلُّهُم يَنْعَى عَلَى أدبِنا وثقافتِنا قِلَّةَ مُؤَلَّفاتِنا، وكُلُّهُمْ عَلَى أنَّها ضعيفةٌ لَّا تَثْبُتُ للفَحْصِ والتَّفتيشِ.

والْتَمَسَ القومُ أسبابًا لذلك، واقترحُوا حُلُولًا يَّخرُجُ بِها المُؤَلِّفُ السُّعُوديُّ عنْ أن يَكُونَ قُصَارَاهُ أن يستهلِكَ ما يُنْتِجُهُ أُدباءُ مِصْرَ والعِراقِ والشَّامِ والمَهْجَرِ، ومِنْهُمْ مَنْ رَدَّ المسألةَ إلى حداثةِ النَّشأةِ، ومِنْهُمْ مَّنْ حَمَّلَ فُشُوَّ الأُمِّيَّةِ تَبِعَةَ التَّأَخُّرِ في الثَّقافةِ والتَّأليفِ والإقبالِ عليهما، وقال آخَرُونَ: إنَّ الأديبَ أوِ الكاتِبَ أوِ المُؤَلِّفَ، تَشْغَلُ أَحَدَهُمْ لُقْمَةُ العَيْشِ والسَّعْيُ

في طِلَابِها، فأَنَّى لهُ أن يَفْرَغَ لأدبِهِ إذا كانَ أديبًا، ولثقافتِهِ إذا كان مُثَقَّفًا، واقترَحَ عبدُ القُدُّوسِ الأنصاريُّ أنْ تَسْعَى الْحُكُومةُ إلى إنشاءِ "لَجْنةٍ للتَّرجمةِ والتَّأليفِ والنَّشْرِ"، وكأنَّ صاحِبَ **المَنْهَلِ** كان يَنْظُرُ إلى اللَّجْنةِ الَّتي يَقُومُ عليها أحمد أمين وثُلَّةٌ مِّنْ أعلامِ الثَّقافةِ والفِكْرِ والأدبِ في مِصْرَ، وقَدَّرَ نَفَرٌ مِّنَ الأُدباءِ أنَّ السَّبيلَ إلى تشجيعِ حركةِ النَّشْرِ والتَّأليفِ مَنُوطٌ بإنشاءِ "جائِزةٍ أدبيَّةٍ"، فكانَتْ "جائِزةُ الشَّرْبَتْليِّ" عامَ 1368هـ، لكنَّها لَمْ تَثْبُتْ، بَعْدَ مَوْسِمِها الأوَّلِ، ولمْ نَسْمَعْ لها رِكْزًا.

والْحَقُّ أنَّ ضَعْفَ حركةِ التَّأليفِ، بَلْ ضَعْف التَّآليفِ نَفْسِها، لمْ يَكُونا خاصَّيْنِ بالثَّقافةِ والأدبِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وإنَّنا لَنَقْرأُ لطه حُسَيْن، في عَقِبِ ثورة 23 يوليو، كلامًا يَنْعَى فيهِ عَلَى الحياةِ الثَّقافيَّةِ في مِصْرَ، أنَّ المَطابِعَ لا تكادُ تُصْدِرُ كُتُبًا ذاتَ شأنٍ، وأنَّهُ يَمُرُّ علينا العامُ، دُونَ أنْ نَظْهَرَ عَلَى كِتابٍ جديرٍ بالقِراءةِ والتَّدبُّرِ!

فإذا اجتزْنا عُقُودًا مِّنَ الزَّمانِ، إذا بِنا إزاءَ حياةٍ ثقافيَّةٍ لا يُسْتَطاعُ إدراكُ ما يُنْشِئُهُ المُؤَلِّفونَ فيها، وما يَدْفعونَ بِهِ إلى المَطابعِ، وما تُذِيعُهُ دُورُ النَّشْرِ، وفي هذا القَدْرِ الكبيرِ مِنَ التَّآليفِ الغَثُّ والسَّمِينُ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، لكنَّ السَّمِينَ، وإنْ كان نَزْرًا قليلًا، هو بالقِياسِ إلى ماضي الأدبِ والثَّقافةِ في بلادِنا، وافرٌ غزيرٌ.

رُبَّما كانَتِ المُؤَلَّفاتُ الأدبيَّةُ، في فَجْرِ نهضتِنا، ليسَتْ كُلُّها عَلَى شيْءٍ مِّنَ الإحسانِ والتَّجويدِ، لكنَّ حياتَنا الثَّقافيَّةَ ليسَتْ كُلُّها أدبًا، وإنِ استأْثَرَ الأُدباءُ بالنَّصيبِ الأَوْفَى، وكأنَّهم هُمُ النَّاسُ! وعندي أنَّ الكتابةَ في شُؤونٍ أُخْرَى مِنَ المعرفةِ، ومِنْها التَّاريخُ والبُلْدانِيَّاتُ والآثارُ = أصابَها قَدْرٌ كبيرٌ مِّنَ الإحسانِ والتَّجويدِ، ويكفي، هُنا، أنْ نُلِمَّ بالفُصُولِ الَّتي كانَتْ تُذيعُها صحيفتا **أُمِّ القُرى**، و**صَوْتِ الحِجَازِ**، ومَجَلَّةُ **المَنْهَلِ** = في تلك الفُرُوعِ مِنَ المعرفةِ، وإذا أردْتَّ بيانًا بذلك، فَحَسْبِي أنْ أُشِيرَ إلى الفُصُولِ الْجليلةِ الَّتي نَشَرَها عُلَماءُ أجِلَّاءُ - ومِنْهُم مَّنْ كان شابًّا صغيرَ السِّنِّ = في التَّأريخِ لِنَوَاحٍ مُّخْتلِفةٍ مِّنْ بِلادِنا، والوُقُوفِ عَلَى المَواقِعِ والآثارِ، وتحقيقِ الأسماءِ والألفاظِ، وقِراءَةِ النُّقُوشِ والتَّثَبُّتِ مِنْها. فإذا أردْتَّ أمثلةً لِّذلك، فدُونَكَ، مِمَّا نُشِرَ في صحافتِنا، مقالاتِ رُشْدِي الصَّالِح مَلْحَس، أمَّا مِنْ شَبَابِ هذه البِلادِ فما كَتَبَهُ عبدُ

القُدُّوس الأنصاريُّ، وحمد الْجاسِر، في التَّاريخِ والآثارِ، وكأنَّما كانَتْ هذه البِلادُ، في تلك الحِقْبَةِ، يستأنِفُ أبناؤها تقاليدَ عِلْمِيَّةً قديمةً لأبناءِ الْجزيرةِ العربيَّةِ، مِنْ أَظْهَرِها مُؤَلَّفاتُ الْحَسَن بن أحمد الهَمْدانيِّ، وأبي عَلِيّ الهَجَرِيِّ، في تحقيق المَواقِعِ والمَسالِكِ، وحَسْبُنا أن يَّتِيهَ حمد الجاسر، بَعْدَ ذلك العَهْدِ، بالهَجَرِيِّ وينقطِعُ إلى تحقيقِ مُؤَلَّفٍ لَّه، فإذا تَقَدَّمْنا، في الزَّمانِ، شيئًا قليلًا، رأيْنا مُؤَلَّفاتٍ فَذَّةً في موضوعِها، مِمَّا أَخْرَجَهُ السُّعُوديُّونَ في التَّاريخِ والبُلْدَانيَّاتِ والآثارِ. ومِمَّا يرتفِعُ تاريخُهُ إلى العُقُودِ الأُولَى مِنْ تاريخِنا الثَّقافيِّ، كِتابُ عبدِ القُدُّوسِ الأنصاريِّ **آثار المدينةِ المنوَّرةِ** (1353هـ = 1935م) – فاتِحةُ البُحُوثِ الأَثَرِيَّةِ بالمملكةِ - وتَأَلَّفَ لنا مِنْ تلك التَّجارِبِ الأُولَى "مَدْرَسةٌ سُعُوديَّةٌ" في التَّاريخِ والبُلْدَانِيَّاتِ والآثارِ، شُيُوخُها المُؤَسِّسونَ هُمْ حُسَيْن بن عبد الله باسلامة، وعبدُ القُدُّوسِ الأنصاريُّ، وحمد الْجاسِر، ومحمَّد بن بُلَيْهِد، ونستطيعُ أنْ نُضِيفَ إليهم اسمَيْ عالِمَيْنِ جليلينِ هُما رُشْدي الصَّالِح مَلْحَس، وفؤاد حمزة، وإنْ عُرِفَ عنهما اشتغالُهما بالسِّياسةِ وأعمالِ الدَّوْلةِ، وإلَّا هَلْ يستطيعُ عالِمٌ في تاريخِ الْجزيرةِ العربيَّةِ وآثارِها أن يَمُرَّ بِكُتُبِ هذينِ العالِمَيْنِ الْجَليلينِ مُسْرِعًا؟ وحَسْبُكَ أنْ تَظْهَرَ على تحقيقِ مَلْحَس لأوَّل كِتابٍ في التَّواريخِ المَكِّيَّةِ، أَعْنِي **أخبارَ مكَّةَ وما جاءَ فيها مِنَ الآثارِ** للأزرقيّ (1352هـ = 1934م)، لِتَعْرِفَ مَقامَ الرَّجُلِ في تحقيقِ المَواقِعِ والتَّأريخِ لها.

الآثارُ وجِيلٌ مِّنَ الهُوَاةِ

كان عبدُ القُدُّوسِ الأنصاريُّ وأحمدُ السِّباعيُّ وحمد الْجاسِر مِنَ "الهُوَاةِ". وكان جِيلُهم إنَّما يُوْمِئُ إلى تقاليدَ عربيَّةٍ ضاربةٍ في القِدَمِ، نَقَعُ عَلَى مَشابِهَ لها فيما تَحَدَّرَ إلينا مِنْ مُّؤَلَّفاتِ البُلْدانيِّينَ، وكُتَّابِ الْخَرَاجِ، مِمَّنْ عُنُوا بتعيينِ "الدُّرُوبِ والمَسَالِكِ"؛ تلك الَّتي اتَّصَلَ شيْءٌ مِّنْها بِمَناسِكِ الحَجِّ، أوْ تلك الَّتي نَلقاها في كُتُبِ "الْخَرَاجِ". وأنا تُعْجِبُني، بِوَجْهٍ خاصٍّ، المُؤَلَّفاتُ الَّتي اختصَّتْ مَناسِكَ الحَجِّ ومَعالِمَهُ بعِنايتِها، وأَجِدُ في تلك الدُّرُوبِ والمَسَالِكِ، لا طُرُقًا إلى البيتِ العتيقِ، وحَسْبُ، وإنَّما أقرأُ فيها صُورةً مِّنْ صُوَرِ "الوَحْدةِ" بين دِيارِ المُسْلِمِينَ، وأَجِدُ فيها، عَلَى نَحْوٍ خاصٍّ، "اتِّصالًا حضارِيًّا" يَصِلُ العالَمَ الإسلاميَّ بِقَلْبِهِ، وكأنَّ تلك الدُّرُوبَ والمَسالِكَ شرايِينُ يُغَذِّيها الْحَرَمانِ الشَّريفانِ، طَوَالَ أربعةَ عَشَرَ قَرْنًا، حتَّى إذا

استُبْدِلَ بِها، في عَصْرِنا الحاضِرِ، دُرُوبٌ أُخْرَى أَحْدَثَ وأَسْلَسَ = كانَتِ المَسَالِكُ القديمةُ شاهِدًا عَلَى استبسالِ هذهِ الأُمَّةِ وذِيَادِها دُونَ اتِّصالِها ووَحْدتِها.

وأنا لا أَنْفِي أنَّ هذهِ القِراءَةَ إنَّما هي، في وَجْهٍ مِّنْ وُجُوهِها، قِراءَةٌ شِعْرِيَّةٌ أَوْ وِجدانيَّةٌ، وحَسْبِي أنَّ تلك الدُّرُوبَ الَّتي شَهِدَتْ قوافِلَ الحَجيجِ، كَمْ ذَرَفَ سالِكُوها الدُّمُوعَ، وكَمْ خَفَقَتْ قُلُوبُهُمْ، كُلَّما ارْتَقَوْا رَبْوَةً، أوِ انْحَدَرُوا في وادٍ، يُدْنِيَانِهِمْ مِّنَ البيتِ العتيقِ، ومسجدِ الرَّسولِ المُصْطَفَى – صلَّى الله عليه وسلَّم – فإذا اتَّصَلَتْ تلك الأمكنةُ بالشِّعْرِ، ساغَ ما أردْتُّهُ مِنْ هذه القِراءةِ الشِّعْرِيَّةِ.

أَحْسَسْتُ شيئًا مِّنْ ذلك في كِتابِ **صِفَةِ جزيرةِ العَرَبِ** لِلْحَسَنِ بْنِ أحمدَ الهَمْدَانِيِّ، وشاقَنِي في كِتابِهِ أُرْجُوزَةُ أحمد بن عيسى الرَّدَاعِيِّ؛ تلك الَّتي تَتَبَّعَ فيها طريقَ الْحَجِّ مِنَ الْيَمَنِ، حتَّى مكَّةَ المُكَرَّمةِ، وأَدْهَشَنِي كِتابُ **الْمَنَاسِكِ وأماكِنِ طُرُقِ الْحَجِّ ومَعَالِمِ الجزيرةِ**. كُنْتُ أُدِيمُ النَّظَرَ فيهِ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، قَرَأْتُهُ في نَشْرةٍ قديمةٍ قَدَّرَ الشَّيخُ حمد الْجاسِر أنَّ الكِتابَ لأبي إسحاقَ الْحَرْبِيّ (ت 285هـ)، وفي نَشْرةٍ جديدةٍ قالَ الدُّكتور عبدُ الله الوُهَيْبِيُّ: إنَّ الكِتاب للقاضي وكيعٍ (ت 306هـ)، وسواءٌ كانَ المُؤَلِّفُ أبا إسحاقَ الحربيَّ أوْ القاضيَ وكيعًا، فليس لِي مِنْ غايةٍ إلَّا تَتَبُّعُ تلك الدُّرُوبِ والمَسالِكِ، ويكفيني أنَّهُ لَوْلا الْحَجُّ إلى البيتِ الحرامِ، ما كانَتْ تلك الدُّرُوبُ، وما كانَتْ تلك الكُتُبُ!

لَمْ تنقطِعْ قافِلةُ كُتُبِ "الدُّرُوبِ والمَسالِكِ". نَعَمْ تَغَيَّرَتِ الأسماءُ، وتَبايَنَتِ الغاياتُ، لكنَّ طُرُقَ الْحَجِّ ومَسالِكَ الجزيرةِ العربيَّةِ، نَلْقَى شيئًا كثيرًا مِّنْها في غيرِ كِتابٍ؛ نَلقاها في كُتُبِ "البُلدانِيَّاتِ"، ونَقِفُ عليها في مُصَنَّفاتِ "الْخَرَاجِ"، ونَقَعُ عليها في أسفارِ "الرِّحلةِ إلى الْحَجِّ"، ويتساوَى، في مِقياسِ الأشياءِ، ما أنشأَهُ قُدامةُ بْنُ جعفرٍ في كِتابِهِ **الْخرَاج وصِناعة الكِتابةِ**، وما أَدَّاهُ إلينا ابنُ جُبَيْر الكِنانيُّ الأندلسيُّ في **رِحْلَتِهِ** الشَّهيرةِ، كِلَاهُما تَتَبَّعَ طَرَفًا مِّنْ طُرُقِ الْحَجِّ ومَسالِكِ الْجزيرةِ العربيَّةِ، وإنْ وَصَفَ الأخيرُ مِنهما ما عايَنَهُ، واكتفَى الأوَّلُ بِما قَرَأَ وما سَمِعَ، لكنَّ كُتُبَ "المَناسِكِ وطُرُقِ الحَجِّ" – وأنا لا أُؤَرِّخُ لها – ذابَتْ في كُتُبِ القَوْمِ؛ رأيْناها، مَرَّةً، في مُعْجَمٍ مِّنْ مَّعَاجِمِ اللُّغةِ، ومَرَّةً أُخْرَى في شَرْحٍ مِّنْ شُرُوحِ الشِّعْرِ القديمِ،

حتَّى إذا تَقَدَّمَ بِنا الزَّمانُ عادَتْ كُتُبُ "المَنَاسِكِ وطُرُقِ الحَجِّ" جديدةً فَتِيَّةً، وأَجَلُّها قَدْرًا مَعْلَمَةُ **الدُّرَرِ الفرائِدِ المُنَظَّمَةِ في أخبارِ الْحَجِّ وطريقِ مكَّةَ المعظَّمةِ** لعبد القادِرِ الْجَزِيرِيِّ الحَنْبَلِيِّ، مِنْ أهلِ القَرْنِ العاشِرِ الهِجْرِيِّ، فلَمَّا كانَ العصرُ الحديثُ تَوَلَّتْ كُتُبُ "الرِّحلةِ إلى الْحَجِّ" – والأصَحُّ بعضُها – تَقَصِّي تلك الدُّرُوبِ والمَسَالِكِ، في أثناءِ مُرُورِ قوافلِ الحَجيجِ بِها، ويَحْضُرُني مِنها **مِرْآةُ الحرمينِ** لِلِّوَاءِ إبراهيم رِفْعَتْ باشا، وكِتابُهُ هذا نافِعٌ مُفيدٌ، في غيرِ ناحِيَةٍ مِّنْ نواحِي الْحَجِّ، والمدينتينِ المُقَدَّستينِ خاصَّةً.

إذنْ، كانَتْ "طُرُقُ الْحَجِّ ومَسَالِكُها" موضِعَ عِنايةِ الفُقهاءِ، وكُتَّابِ الْخَرَاجِ، والْجُغْرافيِّينَ، والمُؤرِّخِينَ، والرَّحَّالِينَ، وشُرَّاحِ الشِّعْرِ القديمِ. كان أولئك المؤلِّفونَ، عَلَى تَبايُنِهِمْ، يُجَدِّدُونَ الإحساسَ بتلك الطُّرُقِ، كأنَّما يُصْغُونَ إليها، ويَسْمعُونَ لِنَبْضِها، كُلَّما عَفَّتِ الرِّمَالُ مَعالِمَها، وإنَّهم يُشْبِهونَ شُعَراءَ الجاهليَّةِ في وُقُوفِهم الطَّويلِ عَلَى الأطلالِ، لا يكادونَ يتركونَ أَثَرًا وَّلا حَجَرًا إلَّا أطالُوا نَجْوَاهُ، فإذا بِما كان اسْمًا بَعْدَ رَسْمٍ يَبُوحُ بِمُخَبَّآتِهِ، فَثَمَّ قبيلةٌ تَدَيَّرَتْ هذا المَوْضِعَ، وثَمَّ بَيْتُ شِعْرٍ، استنقَذَهُ راوِيَةٌ، أَلَمَّ فيهِ صاحِبُهُ بهذا المَكانِ أوْ ذاكَ، وإذا بِما كان اسْمًا مُثَبَّتًا عَلَى خريطةٍ مُصَوَّرةٍ، وكُلُّهُ حياةٌ للبَشَرِ والشَّجَرِ والسَّائِمَةِ، وكأنَّ هذه الأمكنةَ الَّتي دَرَسَتْ وامَّحَتْ لا تَدَعُ القُلُوبَ تستقِرُّ!

دَاخَلَنِي هذا الشُّعُورُ، وأنا أقرأُ **كِتابَ المَنَاسِكِ وأماكِنِ طُرُقِ الْحَجِّ ومَعالِمِ الجزيرةِ**، واتَّصَلَتْ رُوحِي بأمكنةٍ مَّضَتْ لَمَّا قرأْتُ **صِفَةَ جزيرةِ العَرَبِ** للهَمْدَانِيِّ، واستوْلَى عَلَيَّ شوقٌ كُلَّما شارفْتُ كُتُبَ ابْنِ بُلَيْهِد النَّجْدِيِّ، وعبدِ القُدُّوسِ الأنصاريِّ، وحمد الْجاسِر، وعاتِقِ بنِ غَيْثٍ البِلَادِيِّ، وكُنْتُ أَظُنُّ هذا اللَّوْنَ مِنَ التَّأليفِ الَّذي يُمازِجُ الرُّوحَ، وتكادُ تُحِسُّ وَجِيبَ مُؤَلِّفِهِ = قَدِ امَّحَى، لكنَّني اطَّرَحْتُ الظُّنُونَ الكَوَاذِبَ، لَمَّا قَضَيْتُ أيَّامًا حُلْوَةً ماتِعةً في صُحْبةِ العالِمِ الْجليلِ الدُّكتور سعد عبد العزيز الرَّاشد، وكِتابِهِ المُحِيطِ **دَرْبِ زُبَيْدَةَ؛ طريق الْحَجِّ مِنَ الكُوفةِ إلى مكَّةَ المكرَّمةِ**!

دَرْب زُبَيْدَة

كان **دَرْبُ زُبَيْدةَ** أُطروحةً جامِعيَّةً عالِيةً، وكان مَعْلَمةً جديدةً في "طُرُقِ الْحَجِّ ومَسَالِكِهِ"، وَصَلَ به سعد عبد العزيز الرَّاشد عِلْمًا ظُنَّ أنَّه عَفَا وهُجِرَ، فما الَّذي يَحمِلُ شابًّا تَخرَّجَ في الْجامِعةِ، عامَ 1389هـ = 1969م، عَلَى أن يختارَ موضوعًا شاقًّا، يَغْشَى فيهِ الصَّحراواتِ والأوديةَ، يَتَتَبَّعُ صاحِبَ **كِتابِ الْمَنَاسِكِ**، وغيرَهُ مِنَ العُلماءِ الأفذاذِ، يُنَقِّبُ، ويبحثُ، ويَستثيرُ المَعاجِمَ، ومُصَنَّفاتِ التَّاريخِ، والْجُغرافِيَةِ، والفِقْهِ، والأخبارِ، والنَّوادِرِ، فعَسَاهُ يَظْفَرُ بِخَبَرٍ يَجْلُو بِهِ طَرَفًا مِّنْ تاريخِ هذهِ الجزيرةِ العربيَّةِ، وكان ذلك الشَّابُّ، يَوْمَ تَخرَّجَ، ثُمَّ يَوْمَ اختارَ موضوعًا نَّافِرًا كهذا = يَعْتَرِضُهُ الإخفاقُ قَبْلَ النُّجْحِ، والقُعُودُ عنهُ بَدَلَ الإقبالِ عليهِ، وعساهُ كان يَحْنُو عَلَى تلك الأمكنةِ – وكثيرٌ مِّنها مُقْفِرٌ مُّوْحِشٌ – يَستعطِفُها، حتَّى يَدِرَّ دَرُّها، فتَكْشِفَ الخَبِيءَ المَرْكُوزَ في رِمالِها، فإذا عايَنَ "عَلَامَةً"، أوْ "مَنَارًا"، فَرِحَ وتَهَلَّلَ، وأنشأَ يقرأُ مَجَامِيعَ التَّاريخِ، سَطْرًا سَطْرًا، يلتمِسُ فيهنَّ الشَّاهِدَ والمَثَلَ، وهَمُّهُ أن يُنْشِئَ "سِيرةً" لتلك الطُّرُقِ والدُّرُوبِ، ويَبْعَثَ تاريخًا ساخَ في رِمالِ الصَّحراءِ.

كُنْتُ أقرأُ **دَرْبَ زُبَيْدةَ** بِعَيْنَيْنِ تُخالِفُ إحداهما الأُخْرَى؛ عَيْنٍ تقرأُ في الكِتابِ ظاهِرَهُ: الطُّرُقَ، والمَرَاحِلَ، والأمكنةَ، والصُّوَى، والعلاماتِ؛ وأُخْرَى تقرأُ شيئًا ثاوِيًا خَلْفَ الكلماتِ، والْجُمَلِ، والسُّطُورِ، وكُنْتُ أُحِسُّ في كُلِّ مكانٍ أسماءَ مَنْ نَّزَلُوا فيهِ، ومَنْ سَلَكُوهُ؛ أتخيَّلُ هارونَ الرَّشيدَ لَمَّا أَقْسَمَ لَيَحِجَّنَّ ماشِيًا، فأرادَ وزيرُهُ عمرو بْنُ مَسْعَدَةَ أن يَثْنِيَهُ عنْ عَزْمِهِ، فلَمَّا أَبَى الرَّشيدُ، استمهلَهُ وزيرُهُ عامًا حتَّى يُسَهِّلَ لهُ الطَّريقَ "فأَمَرَ عَمْرٌو بالأنهارِ فَعُرِّجَتْ عنْ مَّسِيلِها، وبالآكامِ فَسُوِّيَتْ، وبالْخَنادِقِ والأوديةِ فَرُدِمَتْ، حتَّى صارَ ما بينهُ وبين مكَّةَ كالرَّاحةِ الموزونةِ، وصارَتِ الأنهارُ والأوديةُ تُسايِرُهُ عَلَى طريقِهِ. ثُمَّ صَنَعَ لهُ مَراحِلَ، قدْ حَدَّدَ لهُ عِنْدَ كُلِّ مَرْحَلَةٍ حَدًّا، وابتنَى في كُلِّ مرحلةٍ دارًا (...) ثُمَّ أَمَرَ بالمَراحِلِ فَفُرِشَتْ بالبُسُطِ الزَّهَاوِيَّةِ، ونَصَبَ لهُ جِدارًا بالسُّورِ، وسَمَّكَها بِأَكْسِيَةِ الْخَزِّ الرَّفيعِ المُلَوَّنِ، وقدْ ضَرَبَ عِنْدَ كُلِّ فَرْسَخٍ قُبَّةً مُزَوَّقةً، قدْ أقامَ فيها الفُرُشَ المُمَهَّدةَ، وقدْ أحاطَ بِها الظِّلالَ الممدودةَ بالرِّوَاقاتِ الكثيفةِ، فيها أنواعُ الطَّعامِ والشَّرابِ وألوانِ الفاكِهةِ"! = وأَتَتَبَّعُ السَّيِّدةَ زُبَيْدةَ بِنْتَ جعفرٍ الأكبر بن أبي جعفر المنصور، زوجَ أميرِ المؤمنينَ هارونَ الرَّشيد، في كُلِّ ناحيةٍ مِنْهُ، تَشُقُّ الطُّرُقَ، مَرْحَلةً مَّرْحَلةً، وتُقِيمُ مَنازِلَ للحجيجِ، وتَحْتَفِرُ الآبارَ، وتَشِيدُ بِرَكَ الماءِ، وتَبْذُلُ،

لإرواءِ أهلِ مكَّةَ، دُونَ حِسابٍ، فلَمَّا قالَ لها وكيلُها: "يَلْزَمُكِ نفقةٌ كثيرةٌ"! قالَتْ: "أَعْمَلُها ولَوْ كانَتْ ضَرْبَةُ فأسٍ بدينارٍ"، "فبَلَغَتِ النَّفَقةُ عليها أَلْفَ أَلْفٍ وسَبْعَمِئَةِ أَلْفِ دِينارٍ"! ويَرُوعُكَ كلامُ المُؤَرِّخِينَ، يَصِفُونَ سُقْيَاها أهلَ مكَّةَ، بأنَّها "أَسالَتِ الماءَ عشرةَ أميالٍ بِحَطِّ الْجِبالِ، ونَحَتَتِ الصَّخْرَ حتَّى غَلْغَلَتْهُ مِنَ الْحِلِّ إلى الْحَرَمِ"، حتَّى صارَ مِنْ دَيْدَنِ عُلماءِ الطُّرُقِ والمَسالِكِ، أن يُكَرِّرُوا هذه الْجُمْلةَ، بِغَيْرِ وَجْهٍ مِّنْ وُجُوهِها: "وهذهِ المَصَانعُ والبِرَكُ والآبارُ والمَنازِلُ الَّتي مِنْ بَغْدادَ إلى مكَّةَ، هي آثارُ زُبَيْدَةَ بِنْتِ جعفر بن أبي جعفر المنصور؛ زوجِ هارونَ الرَّشيد وابنةِ عَمِّهِ، اِنْتُدِبَتْ لذلك مُدَّةَ حياتِها، فأَبقَتْ في هذا الطَّريقِ مَرافِقَ ومَنافِعَ تَعُمُّ وَفْدَ اللهِ تعالى كُلَّ سَنَةٍ مِّنْ لَّدُنْ وفاتِها إلى الآن، ولَوْلا آثارُها الكريمةُ في ذلك لَمَا سُلِكَتْ هذه الطَّريقُ، واللهُ كفيلٌ بِمُجَازاتِها والرِّضا عنها". وتَقْرَأُ في "مَعْلَمةِ" الرَّاشدِ حديثًا مبسوطًا عنْ رِّجَالٍ ونساءٍ بَذَلُوا الأموالَ الضَّخمةَ لتذليلِ طريقِ الْحَجِّ إلى البَيْتِ العتيقِ، مَهْمَا تَعَاقَبَتِ القُرُون.

وفي "مَعْلَمةِ" الرَّاشدِ فَوْقَ ما ذكرْتُ؛ وَقَفَ عَلَى الطُّرُقِ والمَسالِكِ، وقابَلَها بِما قالَهُ الأقدمونَ. أحصَى المَرَاحِلَ والمَحَطَّاتِ، ونَقَّبَ عن البِرَكِ والآبارِ، وفَكَّ مَعْمِيَّ النُّقُوشِ، وأَثْبَتَ العادِيَّاتِ والمُخَلَّفاتِ، وانطوَى الكِتابُ على تَقَصٍّ في الآثارِ والتَّاريخِ والحضارةِ، وأَنْطَقَ الدُّرُوبَ والمَسالِكَ، فاستعانَ بالتَّاريخِ، حتَّى أَشْرَفَ بِنا عَلَى العَصْرِ الحديثِ، تَقْوَى دولةُ الخِلافةِ فَتُؤَمِّنُ الطُّرُقُ، ويَنْعَمُ الحاجُّ بالماءِ، والطَّعَامِ، والمَنازِلِ، وتَضْعُفُ فَتُهَدَّمُ الآبارُ والبِرَكُ، ويَفْشُو الخَوْفُ والفَزَعُ، ويَعِيثُ القرامِطةُ فسادًا، فيُغِيرُونَ عَلَى قوافلِ الحجيجِ، يَقْتُلُونَ، ويأسِرُونَ، ويَنْهَبُونَ، ويَنقطِعُ الْحَجُّ عنْ بعضِ النَّواحِي أَحَدَ عَشَرَ عامًا! ويُهَجِّرُ أقوامٌ، فإذا ما اسْتَطْعَمَ النَّاسُ الأمنَ والرَّخاءَ، حِينًا مِّنَ الزَّمنِ، تَسَلَّطَ الأعرابُ عَلَى الطَّريقِ، فتَنْتَشِرُ الفَوْضَى، مَرَّةً أُخْرَى، ولمْ يُحِسَّ الْحَاجُّ أنَّه إنَّما يَسْلُكُ دَرْبًا آمِنًا إلَّا حِينَ بَسَطَتِ الدَّوْلةُ السُّعُودِيَّةُ الأُولَى سُلْطانَهَا عَلَى تلك النَّواحِي، فأَمَّنَتِ الطُّرُقَ، وجَرَّدَتِ السَّيْفَ عَلَى القبائلِ الَّتي تَقْطَعُ عَلَى الحجيجِ الطَّريقَ، فلَمَّا تأَسَّسَتِ المملكةُ العربيَّةُ السُّعُودِيَّةُ "شاعَ الأمنُ، وتَيَسَّرَتِ السُّبُلُ، وتَطَوَّرَتْ حركةُ المُواصَلاتِ البَرِّيَّةِ والبحريَّةِ والْجَوِّيَّةِ (...) وأصبحَ

الحُجَّاجُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَّصَوْبٍ يَّفِدُونَ إلى المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ، عَبْرَ كافَّةِ المَنافِذِ، لأداءِ مَنَاسِكِ الحَجِّ والعُمْرةِ آمنينَ مُطْمَئِنِّينَ".

لَمْ يَكُنْ كِتابُ **دَرْبِ زُبَيْدةَ**، بالقياسِ إلى الدُّكتور سعد عبد العزيز الرَّاشد، أُطروحةً جامِعيَّةً عالِيَةً، وَّحَسْبُ، قَطَعَ في إعدادِها سَنَوَاتٍ، فلَمَّا ظَفِرَ بالدَّرَجةِ العِلْمِيَّةِ، ودَفَعَها إلى المطبعةِ، أَعْرَضَ عنها. كان الكِتابُ رفيقَ عُمْرِهِ، كَتَبَهُ شابًّا، وجَعَلَ يُعاوِدُ النَّظَرَ فيه كَهْلًا وشَيْخًا، وكان قَلْبُ الشَّابِّ والكَهْلِ والشَّيْخِ مُعَلَّقًا بذلك "الدَّرْبِ"، منذُ وَقَفَ عليهِ، أَوَّلَ مَرَّةٍ، عامَ 1388هـ = 1968م، ثُمَّ عادَ ثانيةً فقَصَدَهُ عامَ 1404هـ = 1983م، وكانَتِ الثَّالِثةُ عامَ 1408هـ = 1987م. وأنا إنْ فاتَنِي أنْ أقرأَهُ في طَبْعَتِهِ الأُولَى عامَ 1414هـ = 1993م، فقَدِ ادَّخَرَ لِي اللهُ – تبارَكَ وتعالَى – أنْ أقرأَهُ، في طَبْعَتِهِ الثَّانيةِ عامَ 1440هـ = 2018م([30])، وليس مِنَ السَّرَفِ في شيْءٍ أنْ أَعْتَدَّ الكِتابَ مِنْ أَجَلِّ ما أَخْرَجَتْهُ المكتبةُ العربيَّةُ في جُغْرَافِيَةِ الحَجِّ وتاريخِهِ، وكأنَّما كان مُؤَلِّفُهُ سعد الرَّاشد امتدادًا لصاحِبِ **كِتابِ المَنَاسِكِ وطُرُقِ الْحَجِّ ومَعالِمِ الجزيرةِ**، لا فَرْقَ بينهما إلَّا أنَّ هذا الأخيرَ مِنْ عُلماءِ القَرْنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ، وصاحِبَنا سعد الرَّاشد مِنْ عُلماءِ القَرْنِ الخامِسَ عَشَرَ، وهذا وذاك ينتسبانِ، مَعًا، إلى شَجَرَةِ العُلُومِ الإسلاميَّةِ في أزهَى عُصُورِها.

القَوْلُ الحَصِيف في عبد الله المُنِيف

كَلِمَةٌ فِي كِتابِ صِناعةِ المخطوطاتِ في نَجْدِ

هذا كِتابٌ تَمَنَّيْتُ لوْ أنَّني كُنْتُ مُؤَلِّفَهُ[31]! وأنا أَعْرِفُ صاحِبَهُ حَقَّ المعرفةِ؛ منذُ اتِّصالِهِ، حِينًا مِّنَ الدَّهْرِ، بمكتبةِ المَلِكِ فَهْدٍ الوطنيَّةِ بالرِّياضِ، فكانَ مِنْ أولئك النَّفَرِ مِنْ كِرَامِ الباحِثِينَ الَّذينَ تَحَلَّقُوا حَوْلَ شَيْخِهِم الأستاذ الدَّكتور يَحْيَى بن جُنَيْد، إبَّانَ قِيَامِهِ بأمرِ المكتبةِ، وظَهَرَ لِي عبدُ الله بن محمَّد المُنِيفُ، وقتئذٍ، باحِثًا رَصِينًا، وعاشِقًا للمعرفةِ، وعالِمًا جليلًا، وَّما كان لِيَقَعَ في وَهْمِي أنَّه مُوَظَّفٌ كغيرِهِ مِنَ المُوَظَّفِينَ، إنَّما هو باحِثٌ كبيرٌ - مهما كان شابًّا - أَحْسَنَ القائمونَ عَلَى أَمْرِ المكتبةِ إذْ فَوَّضُوا إليهِ شأنًا مِّنْ شُؤونِها.

وكُنْتُ، لِسَنَوَاتٍ مَضَيْنَ، أَحْسَبُ عبدَ الله أَسَنَّ مِنِّي، حتَّى عَرَفْتُ، قَبْلَ مُدَّةٍ، أنَّني أَبْكَرُ مِنْهُ في سَنَةِ الميلادِ، ورَجَعْتُ ذلك إلى شيْءٍ مَّطبوعٍ في الفِطْرةِ أنَّني لَمَّا اتَّصَلَتْ أسبابي بِهِ، كان باحِثًا قديرًا، وَّمُؤرِّخًا معدودًا في المُؤَرِّخِينَ الثِّقَاتِ، وأنَّ لهُ - وأنا أتكلَّمُ عنْ زَمَنٍ مُّتَقَدِّمٍ - جُمْلةً مِّنَ المُؤَلَّفاتِ والدِّراساتِ الَّتي أَنْزَلَتْهُ مِنْ ثقافتِنا مَنْزِلةً هو جديرٌ بِها، مهما تَوَارَى عن الشُّهْرَةِ وتَحَاماها، كشَيْخِهِ ابْنِ جُنَيْدٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ.

وكان يستهويني فيهِ أَنَاتُهُ، وسَكِينتُهُ، وحُلْوُ كلامِهُ، وطِيبُ عِشْرَتِهِ، وانفساحُ قَلْبِهِ للجميعِ، لا يَصُدُّ أَحَدًا ولا يُدْنِي أَحَدًا لِّإقليمٍ أوْ بَلَدِيَّةٍ أَوْ ما يُشْبِهُهما، وعَلِمَ اللهُ أنَّ هذه الصِّفَةَ الَّتي أَعْتَدُّها مِنْ مَكَارِمِ الأخلاقِ ومِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ المُرُوءَةِ = كانَتَ تَلْقانِي - ولا تَزَالُ - كُلَّما غَشَيْتُ مكتبةَ المَلِكِ فَهْدٍ الوطنيَّةَ، ومكتبةَ جامِعةِ المَلِكِ سُعُود، ومكتبةَ معهدِ الإدارةِ العامَّةِ، خَصِيصَةً أُوتِيها أبناءُ هذه البِلَادِ المُبَارَكةِ، ينبغي أنْ نُبْرِزَها ونَعُضَّ عليها بالنَّوَاجِذِ.

وكان يستجلِبُ نظري في عبد الله المُنِيف إكبابُهُ، أَوَّلَ ما عَرَفْتُهُ، عَلَى لَوْنٍ مِّنَ المعرفةِ غريبٍ وجديدٍ؛ كان عارِفًا أشدَّ ما تَكُونُ المعرفةُ بأنواعِ الخُطُوطِ، ومُبَايَنَةِ خَطٍّ لِّآخَرَ، وكانَتْ

تُعْجِبُني فيه تأمُّلاتُهُ الَّتي أَخْلَصَها للمخطوطاتِ العربيَّةِ، يُحدِّثُكَ عنها حديثَ العالِمِ بِشُؤونِها، البصيرِ بمَضَايِقِها، وعن الأقلامِ، والأحبارِ والأَمِدَّةِ، والطُّرُوسِ والأوراقِ، والنُّسَخِ، والتَّزويقِ والزَّخرفةِ، وألوانٍ أُخْرَى مِمَّا يَمُتُّ إلى هذهِ الصَّنْعةِ الَّتي لا يُحْسِنُها كُلُّ أَحَدٍ، وكُنْتُ أَرمِي سَمْعِي إليهِ وأَلْقَى في كلامِهِ لَذَّةً ومَتَاعًا؛ فأنا يستهويني كذلك حديثُ المخطوطاتِ وما اتَّصَلَ بِها مِنْ مَّعرفةٍ، ولا تَزَالُ الكُتُبُ والبُحُوثُ الَّتي كَسَرَها أهلوها عَلَى صِناعةِ الكِتابِ، وتحقيقِهِ ونَشْرِهِ، واكْتِناهِهِ = مِنْ أَوَّلِ ما أَحْرِصُ عليهِ.

حتَّى إذا تَوَثَّقَتْ صِلَتي بعبد الله المُنِيف عَرَفْتُ أنَّ هذا الضَّرْبَ مِنَ المعرفةِ كان أَحَدَ ما اكتسبَهُ واتَّصَفَ بِهِ؛ وإذا بصديقي العالِمِ الشَّابِّ المُنْجَمِعِ عَلَى نَفْسِهِ، مَعْدُودٌ في مُؤَرِّخِي نَجْدٍ، يَرْجِعُ الباحِثونَ إلى كُتُبِهِ ودِرَاساتِهِ، ويَطْمَئِنُّونَ إلى وثيقةٍ نَّشَرَها، أَوْ مخطوطٍ حَقَّقَهُ، أَوْ كِتابٍ أذاعَهُ، وكان يستوقِفُني فيهِ أنَّهُ كان في شبابِهِ مَحَلَّ ثِقَةِ مَعاهدِ البَحْثِ ودُورِ النَّشْرِ - كان ذلك قَبْلَ أن يَظْفَرَ بدرجةِ الدُّكتوراه بِمُدَّةٍ - فإذا بالقائمِينَ عليها يَعْهَدُونَ إليهِ مُرَاجَعةَ هذا الكِتابِ المُؤَلَّفِ أوِ المُتَرجَمِ مِمَّا اتَّصلَ بتاريخِ نَجْدٍ، بخاصَّةٍ، وتاريخِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّة، بعامَّةٍ، فلَمَّا تَرَاخَتِ الأيَّامُ سَعِدْتُ بكِتابِهِ هذا الذَّي أُدِيرُ كلامي عليهِ.

والْحَقُّ أنَّني كُنْتُ آسَفُ، كثيرًا، عَلَى خُلُوِّ مكتبتِنا مِنْ هذا اللَّوْنِ مِنَ التَّأليفِ، كان ذلك قَبْلَ أَمَدٍ طويلٍ، حتَّى إذا طالَعْنا، اليَوْمَ، نِتاجَنا العِلْمِيَّ، استبشَرْنا بأنَّنا قَطَعْنا شَوْطًا نَّافِعًا في الدَّرْسِ التَّاريخيِّ، وأنَّنا جُزْنا التَّاريخَ العامَّ، وجَعَلْنا نَخُوضُ في مَسائِلَ في التَّاريخِ جديدةٍ وطريفةٍ، تُتِمُّ فيها الأجيالُ الجديدةُ ما بَنَاهُ الرُّوَّادُ، عَلَى أنَّ ما أَدَّتْهُ الأجيالُ الجديدةُ ليس بالأمرِ النَّزْرِ اليَسِيرِ، حتَّى تستوعِبَهُ كَلِمَةٌ مُوجَزَةٌ هي كَلِمَتي هذهِ، لكنَّ المكتبةَ السُّعُوديَّةَ في التَّاريخِ اشتدَّ عُودُها، ودَلَّ عَلَى أنَّ رُوَّادَ الدَّرْسِ التَّاريخيِّ في بِلَادِنا بَنَوْا فأَحْسَنُوا البِنَاءَ، وها هي ذِي ثَمَرَةُ تَعَبِهِم تُثْمِرُ وتُزْهِرُ.

أدركْتُ لَمَّا قَرَأْتُ كِتابَ **صِنَاعةِ المخطوطاتِ في نَجْدٍ ما بينَ مُنْتَصَفَي القَرْنَيْنِ العاشِرِ حتَّى الرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيَّيْنِ** ذلك الشَّغَفَ القديمَ؛ شَغَفَ عبد الله بالمخطوطِ وصَنْعةِ الكتابةِ، واطْمَأَنَنْتُ إلى سلامةِ مُتَّجَهِ صديقي لَمَّا اختارَ هذا اللَّوْنَ مِنَ البَحْثِ. أرادَ عبدُ الله أن يَصِلَ

حُبَّهُ القديمَ للمخطوطاتِ، وشَغَفَهُ الَّذي غَلَبَ عليهِ بِصناعةِ الكِتابِ والكتابةِ = بتَخَصُّصِهِ في التَّاريخِ النَّجْدِيِّ. نَظَرَ عبدُ الله إلى تُرَاثِ هذه النَّاحِيَةِ مِنْ جزيرةِ العَرَبِ، فلَمْ يَشْغَلْهُ حَدَثٌ في السِّياسةِ، ولا مَوْقِعةٌ وَّلا غَزْوَةٌ، وإنَّما تَصَوَّرَ حالَ نَجْدٍ في ذلك الأَوَانِ الَّذي اختارَهُ زَمَنًا لِّبَحْثِهِ، فإذا بِمُؤَلِّفِينَ يؤلِّفُونَ، وحَرَكَةٍ عِلْمِيَّةٍ كانَتْ تَسِيرُ سَيْرًا حَسَنًا، فلَمَّا أَظَلَّ نَجْدًا والْجزيرةَ العربيَّةَ كُلَّها زَمَنُ الحَرَكَةِ السَّلَفِيَّةِ = إذا بِصناعةِ الكِتابِ وما اتَّصَلَ بِهِ تنهضُ وتستيقِظُ، وإذا بِما كان يَنْمُو عَلَى مَهَلٍ، يُسْرِعُ فإذا بِنا وكأنَّنا إزاءَ عَصْرِ تدوينٍ جديدٍ.

والْحَقُّ أنَّ هذا الضَّرْبَ مِنَ النَّشاطِ العِلْمِيِّ في عواصِمِ الجزيرةِ العربيَّةِ = يُوْشِكُ أن يَكُونَ بَعْثًا أدبيًا وثقافيًا جديدًا. رُبَّما اختلَفَ الزَّمَنُ بَيْنَ هذه النَّاحِيَةِ وتلك في هذهِ الجزيرةِ العربيَّةِ، لكنَّها تَؤُولُ جميعُها إلى أَمْرٍ ذِي بالٍ؛ وهو أنَّ هذه النَّاحِيَةَ مِنْ بِلادِ العَرَبِ تُؤْذِنُ بِرُوحٍ جديدٍ؛ رُوحٍ قَدَّرَهُ مَن يُحْسِنُونَ قِرَاءَةَ التَّاريخِ، فأدركوا أنَّ الجزيرةَ العربيَّةَ أرادَتْ أنْ تستأنِفَ تاريخَها القديمَ بتاريخٍ جديدٍ، وأنَّها ستَقُولُ قَوْلًا مَّا، بَعْدَ أَمَدٍ مِّنَ الزَّمانِ طويلٍ، ودَعْ عنكَ كلامًا لا مَعْنَى لهُ عنْ جَهْلٍ طَمَّ، وناحِيَةٍ بِلَا ثقافةٍ، فهذا كلامُ مَنْ لا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّاريخِ.

إذنْ، وَصَلَ عبدُ الله المُنِيف بَيْنَ شَغَفِهِ بِصناعةِ الكِتابِ وحِرْفَتِهِ، فكانَتْ أُطْرُوحتُهُ الَّتي ظَفِرَ بها بدَرَجَة الدُّكتوراه في التَّاريخِ، وأَظْهَرَنا الكِتابُ عَلَى أَمْرٍ مُّهِمٍّ، مَّهْمَا صَرَفَتْنا القِراءَةُ العَجْلَى عنْ تَعَمُّقِهِ، فإذا اكتفَيْنا بِسَطْحِهِ خَرَجْنا ونحنُ أَدْرَى بالأدواتِ والوَسائلِ الَّتي اشتغَلَ بِها المُؤلِّفُ النَّجْدِيُّ، قَبْلَ أن يَتَّصِلَ بالمطبعةِ والكِتابِ المطبوعِ، وأَلْمَمْنا إلْمَامًا حَسَنًا بِكُلِّ ما اتَّصَلَ بِصِناعةِ الكِتابةِ والتَّأليفِ؛ ذلك أنَّنا لا نَعْرِفُ إلَّا الكِتابَ تامًّا مُّكْتَمِلًا، لَّكِنَّنا عَسَانا لا نَعْرِفُ كيفَ تَأَدَّى للمُؤلِّفِينَ ذلك، في عَصْرٍ سابِقٍ لِّاتِّصالِهِمْ بالطِّباعةِ؛ لا نَعْرِفُ كيفَ اسْتَجْلَبَ المُؤَلِّفُ الوَرَقَ؟ ومَنِ التَّاجِرُ الَّذي اسْتَجْلَبَهُ؟ وما نَوْعُهُ أوْ أنواعُهُ؟ وسُمْكُهُ وحَجْمُهُ ومَقاسُهُ؟ والأَمِدَّةُ، كذلك، ما نَوْعُها؟ ومِنْ أين يُصَارُ إليها؟ فإذا أَتَمَّ المُؤلِّفُ كِتابَهُ، فعَلَيْهِ أن يُفْشِيَهُ في النَّاسِ، فمَنِ النَّاسِخُونَ الَّذين فَوَّضَ إليهم نَسْخَ كِتابِهِ؟ فإذا عايَنَّاها أَحَطْنا بتاريخِ هذه الحِرْفةِ في نَجْدٍ، وعَرَفْنا أنَّ مِنْ وَّرَائِها يَرْتَزِقُ رِجَالٌ وَّأُسَرٌ، وَّأنَّها صِناعةٌ كأَتَمِّ ما تَكُونُ الصِّناعةُ، حتَّى إذا مِلْنا إلى حَوَانِيتِ الوَرَّاقِينَ إذا بِنا تُجَاهَ قَوْمٍ اخْتُصُّوا بتِجَارةِ الكِتابِ

يُشْبِهونَ النَّاشِرِينَ، بمُصْطَلَحِ عَصْرِنا الحاضِرِ. كُلُّ ذلك وسِوَاهُ نَلْقاهُ في كِتابِ عبد الله المُنِيف الماتِعِ هذا، وهو أَمْرٌ مُّهِمٌّ لا شَكَّ في ذلك، عَلَى أنَّ الكِتابَ - في أعماقِهِ - إنَّما أرادَ شيئًا آخَرَ أَهَمَّ وأبْعَدَ أَثَرًا؛ كأنَّما أرادَ أن يَقُولَ: إنَّ صِناعةَ الكِتابِ المَخْطُوطِ في نَجْدٍ الَّتي أَنْهَيْتُ إليكَ شيئًا يَّسِيرًا مِّنْ نَبَئِها، والَّتي دَلَّتْ عَلَى وُفُورِ حَرَكَةِ التَّأليفِ فيها، وأنَّها تَحَوَّلَتْ إلى صِناعةٍ اقتصاديَّةٍ، لَّهَا سُوقُها وتِجارتُها ونِزَاعاتُها = إنَّما تَدُلُّ عَلَى شَخْصِيَّةِ نَجْدٍ العالِمَةِ المُثَقَّفةِ في كُلِّ نواحيها، فإذا مِلْنا إلى جِهاتٍ أُخْرَى كالحِجَازِ، والأحساءِ، والقطيفِ، وعَسِيرَ، وجازانَ = تأَلَّفَتْ لَوْحَةٌ باهِرَةٌ مِّنَ الفُسَيْفِساءِ، تَدُلُّ عَلَى شَخْصِيَّةِ الجزيرةِ العربيَّةِ العالِمةِ المُثَقَّفةِ، في النَّوَاحِي المُخْتَلِفةِ الَّتي تَكَوَّنَتْ مِنْها المملكةُ العربيَّةُ السُّعُوديَّةُ.

كَلِمةٌ عنِ الخَطِّ في عامِ الخَطِّ

اِقْتَضَانِي اتِّقاءُ وَباءِ "كُورونا" أنْ أَلْزَمَ دارِي لا أبرحُها، لَيْلًا وَّلا نهارًا، وَّكُنْتُ أُمْضِي الأوقاتَ الطِّوَالَ في القِراءةِ المُنَظَّمةِ والكتابةِ، فإذا عِفْتُ القِراءةَ دَفَعْتُ المَلَلَ الَّذي يُداخِلُني بقِراءةٍ حُرَّةٍ غيرِ مُنَظَّمةٍ، وخَطَرَ لِي أنْ أقرأَ شيئًا عنْ تاريخِ الخَطِّ في ناحِيَةٍ مِّنْ بِلادِنا، ما دُمْنا في عامِ الخَطِّ العربيِّ، وأَذْكُرُ أنَّني كُنْتُ أقرأُ في مُذَكِّراتِ أُدباءِ الرَّعيلِ في بِلادِنا، وترجماتِهِم الشَّخصيَّةِ، كلامًا يَطُولُ أوْ يَقْصُرُ عنْ تَعَلُّمِهم الخَطَّ وتجويدِهِ، وأنَّ ذوِيهم كانوا يَرَوْنَ أنَّهُ لن يَّتِمَّ تَعَلُّمُ أبنائِهم ما لَمْ يبعثوهُمْ إلى شَيْخٍ مِّنْ شُيُوخِ الخَطِّ في مكَّةَ المكرَّمةِ أوِ المدينةِ المنوَّرةِ أوْ جُدَّةَ، وكانَتْ "دكاكِينُ الخَطِّ" - وهذا اسْمُها - معروفةً مَّشهورةً.

كان الخَطُّ حِلْيَةً، وبَرْيُ قَلَمِ "البُوصِ" ثقافةً، وآثارُ الحِبْرِ في جَيْبِ الثَّوْبِ مِنْ كمالِ التَّعليمِ! عَلَى أنَّ تَعَلُّمَ الخَطِّ لا يَخْلُو مِنْ أثرٍ اقتصاديٍّ؛ فدواوينُ الحُكُومةِ – قَبْلَ أنْ تُعْرَفَ الآلاتُ الكاتبةُ – ووكالاتُ التُّجَّارِ، وكَتَبَةُ العَرائضِ "العَرْضحَال" = كُلُّ هذه الأعمالِ يُوْجِبُ عَلَى صاحِبِها أن يَكُونَ مُجَوِّدًا لِّلْخَطِّ، إنْ لَّمْ يَكُنْ خطَّاطًا مَّاهِرًا، فإذا تَمَهَّرَ التِّلميذُ أوِ الطَّالِبُ في دَرْسِ "مَسْكِ الدَّفاتِرِ"، فَفُرَصُ عَمَلِهِ في وِكالاتِ التُّجَّارِ وحوانيتِ الباعةِ أَوْفَرُ وأَعْظَمُ.

قال أحمد السِّباعيُّ (1323-1404هـ) في ترجمتِهِ الشَّخصيَّةِ **أيَّامي**: إنَّ أباهُ قالَ لهُ، وهو لا يزالُ تِلميذًا: "يا وَادْ! تَلَاتَهْ حاجَاتْ تِخَلِّيكْ سِيد النَّاس: قَطَّةْ القَلَمْ، ولُطْعَةْ المُهْرْ (يَعْني الخَتْم)، واستقامةْ السَّطْرْ"، فإذا طَوَّفْنا في مُذَكِّراتِ الرُّوَّادِ، وفي كُتُبِ السِّيَرِ والتَّراجِمِ، أَلْمَمْنا، بَعْضَ إلمامٍ، بِطَرَفٍ مِنْ عِنايةِ هذه النَّاحِيةِ مِنْ بلادِنا بِصَنْعةِ الخَطِّ، واستطعْنا أنْ نُحْصِيَ مِنْ أسماءِ الخَطَّاطِينَ أُسَرًا وأفرادًا، نَعْرِف مِنْهُمْ: فَرَج الغَزَّاويّ – زمن الشَّريف عَوْن الرَّفيق – وابْنَهُ سُلَيْمان الَّذي امتدَّ بِهِ العُمْرُ حتَّى أدركَ عهدَ المَلِكِ عبدِ العزيز، وإبراهيمَ الخَلُوصِيَّ، وعبدَ القادر توفيق شلبيّ، وعبدَ الحَقّ رِفَاقَتْ عَلِيّ العُثمانيّ، ومحمَّد سعيد حِلْمي.

فإذا جُزْنا تلك الكُتُبَ والفُصُولَ كان مِنْ مَآثِرِ تُراثِنا الثَّقافيِّ محمَّد طاهر الكُرْدِيُّ المَكِّيُّ الخَطَّاطُ (1321-1400هـ)، وحَسْبُهُ أنَّه تَرَكَ لنا تاريخًا جليلًا، يَعْنِيني مِنْهُ، الآنَ، ثلاثةُ أُمُورٍ: أوَّلُها أنَّه حازَ درجة (الدِّبلوم) مِنْ **مَدْرَسةِ تحسينِ الخُطُوطِ العربيَّةِ المَلَكِيَّةِ** بِمِصْرَ، سنة 1344هـ = 1925م = وثانيها أنَّهُ أَصْدَرَ في عامِ 1358هـ = 1939م كِتابَ **تاريخِ الخَطِّ العربيِّ وآدابِهِ**. قالَ في وَصْفِهِ: "هو كِتابٌ تاريخيٌّ اجتماعيٌّ أدبيٌّ مُزَيَّنٌ بالصُّوَرِ الخَطِّيَّةِ والرُّسُومِ الفُتُوغْرَافِيَّةِ"، وهو مَعدودٌ، اليَوْمَ، في تُراثِ هذا الفنِّ، ليس في بِلادِنا، وحَسْبُ، بَلْ في الوطنِ العربيِّ كُلِّهِ = وثالِثُها وأَجَلُّها أنَّهُ كَتَبَ بِخَطِّ يَدِهِ "مُصْحَفَ مَكَّةَ المُكَرَّمةِ"، وكان أوَّلَ مُصْحَفٍ يَخُطُّهُ خَطَّاطٌ مِّنْ أبناءِ هذهِ البِلادِ، وطُبِعَ، عامَ 1369هـ، في مطبعةٍ أُنْشِئَتْ لهذا الغرضِ، هي شركةُ مطبعةِ مُصْحَفِ مكَّةَ، في كلامٍ مُّفَصَّلٍ وَّاسِعٍ مَّحَلُّهُ الْجُزْءُ الثَّاني مِنْ كِتابِ **أعلامِ الحِجَازِ في القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ للهِجرةِ** لمحمَّد عَلِيّ مغربيّ.

وفي كِتابِ **تاريخِ الخَطِّ العربيِّ وآدابِهِ** للشَّيخِ محمَّد طاهر الكُرْدِيِّ كلامٌ مَّبْسُوطٌ في تاريخِ الخَطِّ العربيِّ ونشأتِهِ[32]، فإذا أَتَمَّ هذا القِسْمَ أَطْنَبَ في الحديثِ عنْ "صَنْعةِ الخَطِّ"؛ أنواعِهِ، وأقسامِهِ، وأعلامِهِ. ولمْ يَخْلُ الكِتابُ، وهذا دَأْبُ الثَّقافةِ العربيَّةِ القديمةِ، مِنْ أن يُطْلِعَنا الكُرْدِيُّ عَلَى شُيُوخِهِ في هذا الفنِّ، ولَهُ في ذلك سَنَدَانِ؛ سَنَدٌ تُرْكِيٌّ، وسَنَدٌ مِّصْرِيٌّ، وكِلَا السَّنَدَيْنِ يرتفِعُ إلى الحَسَنِ البَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - فالإمامِ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ - رضي الله عنه - وزادَ فأَتْحَفَنَا فَقَرَأْنا سَنَدَ شُيُوخِهِ المِصْرِيِّينَ منظومًا في أُرْجُوزةٍ، جاءَ في مُفْتَتَحِها

فَإِنْ تَرُمْ مَّعْرِفَةَ السَّنَدِ فِي   تَلَقِّ فَنِّ الخَطِّ حَتَّى تَقْتَفِي

فَقَدْ أَخَذْتُ الْخَطَّ عَنْ أَفَاضِلِ   خِيَارِ أَهْلِ الفَنِّ والأَمَاثِلِ

بِمَكَّةَ الشَّيخُ الْجَلِيلُ الْحَاوِي   أَعْنِي سُلَيْمانَ فَرَجْ غَزَّاوِي

لَكِنْ أَخَذْتُ جُلَّ فَنِّ الْخَطِّ   كَذَلِكَ التَّذْهِيبَ أَيْ بِالضَّبْطِ

عَنْ كَاتِبِ المُصْحَفِ لِلْمَلِيكِ (فُؤَادِ) الْمَرْحُومِ مِنْ مَّلِيكِ

وأَثْبَتَ، بَعْد ذلك، جَدْولًا عامًّا، عَلَى حُرُوفِ المُعْجَمِ، لأسماءِ الخَطَّاطِينَ مُنْذُ بَدْءِ الإسلامِ حتَّى زمنِ الكِتابِ، ثُمَّ عادَ فاختصَّ خَطَّاطِي الحِجَازِ، وعَدَدُهُمْ ثلاثةٌ وثلاثون خَطَّاطًا، مِمَّنْ أَدْرَكَهُمْ أوْ عاصَرَهُمْ، بِجَدْوَلٍ آخَرَ، وأَفْرَدَ "طَبَقاتِ الخَطَّاطِينَ وتراجِمَهُم"، في تاريخِ الإسلامِ، بِفَصْلٍ، أَتْبَعَهُ بِآخَرَ بديعٍ دعاهُ "طَبَقاتِ خَطَّاطِي الحِجَازِ"، تَرْجَمَ فيهِ لِاثْنَيْ عَشَرَ خَطَّاطًا حِجَازيًّا، نَخْرُجُ مِنْهُ وقدْ أَلْمَمْنا بتاريخِ هذا الفنِّ في العَصْرِ الحديثِ، في الحِجَازِ، عامَّةً، وفي مكَّةَ المُشَرَّفةِ، خاصَّةً = فمَبْحَثٌ عنْ "طَبَقاتِ أَشْهَرِ الخَطَّاطِينَ في عَصْرِنا"، قَبْلَ أن يختتِمَهُ بِـ "فوائِدَ عامَّةٍ" في عَلَاماتِ التَّرقيمِ، وفُنُونِ الخَطِّ، وأدواتِ الكتابةِ، وآدابِ كتابةِ القُرآنِ الكريمِ.

كان كِتابُ محمَّد طاهر الكرديّ المَكِّيّ مِنْ تُراثِ هذا الفَنِّ، وكان يُدْرِكُ مَشَقَّةَ ما نُدِبَ لهُ، ويَكفيهِ أنَّهُ أَنْفَقَ فيه ثلاثَ سنواتٍ، وهو يبحثُ ويُنَقِّبُ في خزائنِ الكُتُبِ؛ كدارِ الكُتُبِ العربيَّةِ ومُتْحَفِها، ومكتبةِ الأزهرِ، ومكتبةِ البَلَدِيَّةِ بالإسكندريَّةِ، وكان، بكِتابِهِ هذا، رائدًا وَّسابِقًا، وَّيكفيهِ أنَّهُ وَصَلَ المملكةَ العربيَّةَ السُّعُوديَّةَ، وهي تَخْطُو في سَنَوَاتِ نَشْأَتِها الأُولَى = بهذا الفَنِّ العربيِّ الْجَمِيلِ وتُراثِهِ.

أحمد الضُّبَيْب وكِتاب الْعُمْر

أوَّلُ عَهْدي بِاسْمِ الدُّكتور أحمد محمَّد الضُّبَيْب، كان في الْجامِعةِ، وإنْ أردْتُ التَّعيينَ، ففي دُرُوسِ مادَّةِ فِقْهِ اللُّغةِ. كان اسْمُهُ يَبْرُزُ لِي، كُلَّ فَيْنَةٍ وأُخْرَى، في مَرَاجِعِ طائفةٍ مِّنَ الكُتُبِ الَّتي لها عِنايةٌ باللَّهَجاتِ العربيَّةِ الحديثةِ، وعَرَفْتُ، في ذلك الزَّمنِ القديمِ، أنَّهُ نَقَلَ إلى العربيَّةِ كِتابًا عِنوانُهُ **دِراساتٌ في لَهَجَاتِ شَرْقِيّ الْجزيرةِ العربيَّةِ** للمُسْتَشْرِقِ ت. م. جونستون – أستاذِ اللُّغةِ العربيَّةِ في جامِعةِ لندن – وكان يستجلِبُ نَظَري اختِصاصُ الكِتابِ المُتَرْجَمِ بِلَهْجاتِ شَرْقِيِّ الجزيرةِ العربيَّةِ، وكُنْتُ أَظُنُّهُ كِتابًا مُخْتَصًّا بِدَرْسِ لَهْجَاتِ تلك النَّاحِيَةِ، في تاريخِها القديمِ، حتَّى إذا ظَفِرْتُ بِهِ، بَعْدَ ثلاثةِ عُقُودٍ مِّنْ ذلك العَهْدِ، أَدْرَكْتُ أنَّهُ إنَّما يَدْرُسُ اللَّهَجاتِ الْحديثةَ! عَلَى أنَّني كُلَّما أُنْسِيتُ الضُّبَيْبَ وترجمتَهُ، يُعاوِدُني الكِتابُ، والمُؤَلِّفُ، والمُتَرْجِمُ السُّعُوديُّ، فيُدَاخِلُني شيْءٌ مِّنَ الزَّهْوِ أنَّ أُستاذًا سُعُودِيًّا تَكَلَّفَ تَرْجَمَةَ كِتابٍ مَّعْدُودٍ في المَرَاجِعِ اللُّغويَّةِ المُهِمَّةِ، وأنَّ باحِثِينَ عَرَبًا اعتادُوا الظُّهُورَ عَلَى تلك التَّرجمةِ.

لَمْ أَعْرِفِ الأستاذَ الضُّبَيْبَ إلَّا بآخِرَةٍ، لكنَّني اعتدْتُ، مِنْ قَبْلُ، دَوَرَانَ اسْمِهِ في الأخبارِ، يَوْمَ كان مُدِيرًا لِّجامِعةِ المَلِكِ سُعُود، وكُنْتُ أُحِسُّ، كذلك، بشيْءٍ مِّنَ الزَّهْوِ أنَّ أستاذًا مُخْتَصًّا في اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، تَبَوَّأَ ذلك المَنْصِبَ الرَّفِيعَ، حتَّى إذا تَوَثَّقَتْ صِلَتي بِكُتُبِ الدُّكتور محمَّد الشَّامِخ، والدُّكتور منصور الحازميّ = بِتُّ قريبًا مِّنْ جِيلٍ كان الدُّكتور أحمد الضُّبَيْب واحِدًا مِّنْ أبنائِهِ، ودَلَّني كلامٌ لِّمنصور الحازميّ، في غيرِ كِتابٍ مِّنْ كُتُبِهِ، عَلَى ذلك الْجِيلِ، فلمَّا اتَّصَلْتُ بِـ **مُعْجَمِ المطبوعاتِ العربيَّةِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ** للعلَّامةِ العراقيِّ الْجليلِ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهر = تَكَرَّرَتْ إشارتُهُ إلى جِيلٍ مِّنَ السُّعُوديِّينَ، نستطيعُ أنْ نَقولَ: إنَّ عَلَى أيديهم تأسَّسَ الدَّرْسُ الْجامِعيُّ في بِلادِنا، وأنَّ محمَّد الشَّامِخ، ومنصور الحازميَّ، وأحمدَ

الضُّبَيْب، وعبدَ الرَّحمن الطَّيِّب الأنصاريَّ، وعِزَّتْ خَطَّاب = هُمُ الرَّعِيلُ الأوَّلُ مِنْ أساتذةِ الْجامِعاتِ، في الآدابِ والعُلُومِ الإنسانيَّةِ.

صَنَّفَ منصور الحازميُّ أبناءَ ذلك الْجِيلِ، عَلَى وَفْقِ اهتماماتِهِم: عُنِيَ الشَّامِخُ بتاريخِ الصِّحافةِ، ودِراسةِ النَّثْرِ الأدبيِّ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، واخْتَصَّ الحازِميُّ بِـ "الرِّوايةِ التَّاريخيَّةِ"، قَبْلَ أن يُصْبِحَ أوَّلَ ناقدٍ مِّنْ أساتذةِ الْجامِعةِ، أمَّا الضُّبَيْبُ فكان، مِنْ يَّوْمِهِ، مشغوفًا باللَّهَجاتِ، والتُّراثِ الشَّعْبيِّ. لكنَّهم – جميعَهم – عَلَى غَيْرِ اتِّفاقٍ - كأنَّما أدركوا أنَّ عليهم استئنافَ القَوْلِ في ثقافةِ الْجزيرةِ العربيَّةِ، وكانَتْ بِلادُهم هي قَلْبَ تلك الْجزيرةِ، ولَمْ تَصْرِفْهُم خُطُوبُ الحياةِ وحوادِثُها، ولا ما تَقَلَّبُوا فيهِ مِنْ وَّظائفَ ومَنَاصِبَ عنْ رِّسالتِهِم الَّتي أَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِها، فقَرَأْنا لَهُمْ بُحُوثًا مُّتَفَرِّقةً في الصِّحافةِ اليَوْمِيَّةِ، والمَجَلَّاتِ المُتَخَصِّصَةِ، في أدبِ هذه البِلادِ وثقافتِها، واجتمعَ فيهم، وخاصَّةً الثَّلاثةَ المذكورينَ، الأستاذُ الْجامِعيُّ، والنَّاقِدُ، واللُّغويُّ، والوَرَّاقُ، والمُفَهْرِسُ. عَكَفَ منصور الحازميُّ على تكشيفِ الصُّحُفِ الأُولَى، فكان كِتابُهُ **مُعْجَم مَصادِرِ الفِكْرِ والأدبِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ: صحيفة أُمِّ القُرَى** (1394هـ = 1974م)، وأَخَذَ أحمد الضُّبَيْب عَلَى نَفْسِهِ، منذُ عامِ 1394هـ = 1974م، حَصْرَ التُّراثِ الثَّقافيِّ والفِكريِّ للبِلادِ الَّتي تَأَلَّفَتْ مِنْها المملكةُ العربيَّةُ السُّعُوديَّةُ، يُرِيدُ، مِنْ وَّراءِ، ذلك تَخَطِّي ثُنَائِيَّةِ "المركزِ والهامِشِ"، وليس لهُ مِنْ هَمٍّ إلَّا تَصَيُّدَ كُلِّ كِتابٍ صَنَّفَهُ، أوْ صَحَّحَهُ، عالِمٌ، أوْ أديبٌ مِّنْ أبناءِ هذه البِلادِ الواسعةِ الَّتي يَعْتَزِي إليها، في عَصْرِها الحاضِرِ، وشَرَعَ، منذُ ذلك العَهْدِ، في تأليفِ كِتابٍ عنْ **حَرَكَةِ إحياءِ التُّراثِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ**، وكان الكِتابُ، في بُدَاءَتِهِ، بَحْثًا لَّطِيفًا، استمَدَّ مَوَادَّهُ مِمَّا قَرَأَ وعايَنَ، ولَبِثَ يَنْمُو، رُوَيْدًا رُّوَيْدًا، فإذا ما كان فَصْلًا أُذِيعَ في مَجَلَّةِ **الدَّارَةِ**، سنةَ 1395هـ = 1975م، يَخْرُجُ في مكتبةِ المَلِكِ فهدٍ الوطنيَّةِ، سنةَ 1408هـ = 1987م، كُتَيِّبًا نافِعًا، دَلَّتْ موادُّهُ عَلَى أنَّ صاحِبَهُ رَعاهُ في المَهْدِ، فلَمَّا أَنْشَأَ يَحْبُو أَظْهَرَهُ للقُرَّاءِ، وعليهِ مَخَايِلُ النَّجابةِ، ثُمَّ مَضَى الضُّبَيْبُ في شُؤونٍ أُخَرَ، بَعِيدًا عنْ كِتابِهِ ذلك اللَّطيفِ، حتَّى خُيِّلَ إلينا أنَّه أُنْسِيهِ، لكنَّ الكُتَيِّبَ صارَ مَلَاذَ الباحِثِ والأُستاذِ والطَّالِبِ، وكُنْتُ أَرْقُبُ، مِنْ بَعِيدٍ، خَطْوَهُ، ونُمُوَّهُ، حتَّى شَبَّ ونَضِجَ فإذا هو، في عَهْدِهِ الجديدِ، **بواكيرُ الطِّباعةِ والمطبوعاتِ في بِلادِ المملكةِ**

العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، سنةَ 1428هـ = 2007م، فَلَمَّا أَظَلَّنا عامُ 1441هـ = 2020م استدارَ الكِتابُ واسْتَتَمَّ، وتَأَلَّفَ مِنْهُ **حَرَكَةُ إحياءِ التُّراثِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ**، في 648 صفحةً، وصَحَّ في هذا المُصَنَّفِ الَّذي شَرَعَ فيهِ صاحِبُهُ شابًّا، ورَعاهُ كَهْلًا، وأَتَمَّهُ شَيْخًا = أن يَكُونَ كِتابَ العُمْرِ!

وسَلَفَ أنَّ أحمد الضُّبَيْب مِنْ جِيلٍ أَلْزَمَ أبناؤهُ أَنْفُسَهُم بِـ "استئنافِ القَوْلِ في الْجزيرةِ العربيَّةِ"، وكأنَّما هذه الْجزيرةُ الَّتي تَحْتلُّ المملكةُ العربيَّةُ السُّعُوديَّةُ مَوْضِعَ القَلْبِ مِنْها = تَعَاهَدَ أبناؤها عَلَى بَعْثِ مآثِرِها ومَفاخِرِها، لا فَرْقَ بينَ جِيلٍ جديدٍ أفرادُهُ الحازِميُّ والشَّامِخُ والضُّبَيْبُ والأنصاريُّ، وجِيلٍ قديمٍ شَرَعَ أبناؤهُ الرُّوَّادُ في عَصْرِ تدوينٍ جديدٍ يُناظِرُ ما تَمَّ في القُرُونِ الأُولَى، فكانَ مِنْهُم اللُّغَوِيُّ، وعالِمُ الآثارِ، والمُؤَرِّخُ، والبُلْدَانِيُّ، نَلْقاهُم مَعَ البَدْوِ في الصَّحراءِ، ونُلْمِمُ بِهِمْ في السَّهْلِ، والْجَبَلِ، يَتتَبَّعونَ الأمكنةَ، ويَجْمَعُونَ الأشباهَ والنَّظائِرَ، وأَسْلَمُوا لِمَنْ جاءَ في أَثَرِهِمْ تُراثَ مدرسةٍ سُعُوديَّةٍ مِنْ أعلامِها عبدُ القُدُّوسِ الأنصاريُّ، ومحمَّد ابنُ بُلَيْهِد النَّجْدِيُّ، وحمد الْجاسِر، وعبدُ الله بن خَمِيس، ومحمَّد بن ناصِر العُبُوديُّ، ومحمَّد بن أحمد العَقِيليُّ، وعاتِق بن غَيْث البِلاديُّ، وعَلِيّ بن صالِح السَّلُّوك.

كان كِتابُ **حَرَكةِ إحياءِ التُّراثِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ**(33) وشقيقُهُ **مُعْجَم مطبوعاتِ التُّراثِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ**(34) = مِنَ الكُتُبِ الَّتي يَصِحُّ وَصْفُها بِكُتُبِ العُمْرِ، وكأنَّما أرادَ أحمد الضُّبَيْب أن يَدْفَعَ عنْ ثقافةِ هذه البِلادِ عُقُوقًا أَحَسَّهُ مِنْ قَبْلُ عبدُ القُدُّوسِ الأنصاريُّ وحمد الْجاسِر، وصَوَّرَ الكِتابُ والمُعْجَمُ، متَى أَلْمَمْنا بِهِما، مَظْهَرًا مِّنْ مَّظاهِرِ البَعْثِ العِلْمِيِّ والثَّقافيِّ، لِبلادٍ ما أرادَ أبناؤها أن يَسْتَنِيمُوا لماضيها القديمِ، ودَلَّنا التَّصنيفُ الوِراقِيُّ عَلَى أنَّ حَرَكةَ العِلْمِ في البِلادِ الَّتي تألَّفَتْ مِنْها المملكةُ العربيَّةُ السُّعُوديَّةُ = لمْ تَقِفْ، لا سِيَّما ما اتَّصَلَ بالحرمينِ الشَّريفينِ، فلَمَّا عَرَفَ العربُ الكِتابَ المطبوعَ كان لَهُمْ نَصِيبٌ فيهِ.

أَذْكَرَنِي مُعْجَمُ أحمد الضُّبَيْب وكِتابُهُ جِهَادَ العَلَّامةِ التُّونُسِيِّ حَسَن حُسْنِيّ عبد الوهَّاب - رَحِمَهُ الله - في إحياءِ تُراثِ بِلادِهِ، ولا سِيَّما مَعْلَمَتُهُ الباذِخةُ **كِتابُ العُمْرِ؛ في المُصَنَّفاتِ والمُؤَلِّفِينَ التُّونِسِيِّينَ**. اِستفرَغَ العَلَّامةُ الْجليلُ عُمْرَهُ في بَعْثِ تُرَاثِ تُونُسَ – أَوْ إفريقيةَ

بِلِسانِ أسلافِنا – ومَضَى يُطَالِعُ المخطوطَ والمطبوعَ، ويُنَقِّبُ في مُصَنَّفاتِ الأوائلِ، ويَبْحَثُ في خَزائِنَ الكُتُبِ، عنْ آثارِ أسلافِهِ التُّونُسِيِّينَ، وكان يُحَدِّثُ نُظَرَاءَهُ مِنَ العُلَماءِ، كُلَّما اتَّصَلُوا بِعَمَلِهِ المُحِيطِ هذا، أنَّ خَيْرَ اسْمٍ لَّهُ إنَّما هو **كِتابُ العُمُرِ**، وكان، بِحَقٍّ، مَعْلَمَةً تُظْهِرُنا عَلَى سَهْم ِبِلادِ إفريقيَةَ التُّونُسِيَّةِ في تُرَاثِ العربِ، وهو تُرَاثٌ يَّحْمِلُ الشَّيْخَ التُّونُسِيَّ عَلَى أن يَرَى في "المَفَاخِرِ بِمَا للتُّونُسِيِّينَ مِنْ مَّآثِر"، و"الموسوعةِ التُّونُسِيَّةِ في تاريخِ العُلُومِ العربيَّةِ بالقُطْرِ الإفريقيِّ"، عِنوانَيْنِ مُفْتَرَضَيْنِ، لَوْلا أنَّه عادَ فرأى **كِتابَ العُمُرِ** يُصَوِّرُ مُكابَدَتَهُ في بَعْثِ صُورةِ تُونُسَ المُثَقَّفةِ، فإذا أُبْنَا إلى عالِمِنا السُّعُوديِّ الْجليلِ أحمد الضُّبَيْب أَدْرَكْنا شَرَفَ الرِّسالةِ الَّتي نَدَبَ نَفْسَهُ إليها، وعَرَفْنا لِمَ كان كِتابُهُ هذا "كِتَابَ العُمْرِ"!

نَخْلَةٌ حضرميَّةٌ في غُوطَةِ دِمَشْق

حَدَّثَني الكُتْبِيُّ الْجليلُ أبو رَشِيد، محمَّد عَلِيّ باغُمَيَّان عنْ كِتابِ **حضرموت حضارةٌ لا تَمُوتُ** للكاتِبَةِ رِيم عبدِ الغَنِيّ[35]، حديثَ القارِئِ الَّذي مَلَكَ عليهِ الكِتابُ عَقْلَهُ ووِجْدانَهُ، فأَحَبَّ أن يَنْقُلَ ما أَحَسَّهُ إلى مَن يَّختلِفونَ إلى مكتبتِهِ مِنْ أصدقائِهِ ومُرِيدِيهِ، ولقدِ اعتدْتُّ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، أن يُزَيِّنَ لِي هذا الكُتْبِيُّ المُثَقَّفُ ألوانًا مِّنَ الكُتُبِ، مِمَّا يَجْلِبُهُ إلى مكتبتِهِ، والرَّجُلُ قارِئٌ وَّاسِعُ الثَّقافةِ، عالِمٌ بالكُتُبِ، وثيقُ الصِّلةِ بالمُؤَلِّفِينَ والنَّاشِرِينَ، وتُنْبِئُ اختياراتُهُ عنْ مَّعرفةٍ لَّيْسَتْ باليسيرةِ بالكُتُبِ والمُؤَلِّفِينَ.

رُبَّما حَمَلَ أبا رشيد عَلَى أن يُزَيِّنَ لِي هذا الكِتابَ = شغفي بهذا الضَّرْبِ مِنَ التَّآليفِ الَّتي تختصُّ بالبُلْدَانِ، وعساهُ اهتمَّ بهذا الكِتابِ، دُونَ سِوَاهُ، لأنَّه يَصِلُني بِأُصُولِي الحضرميَّةِ، وسواءٌ أكانَ الدَّافِعُ هذا السَّببَ أوْ ذلك، فلقدْ قَرَأْتُ في عَيْنَيِ الرَّجُلِ حَمَاسَةً بالِغةً، أغرتْني باقتنائِهِ.

ولَمْ أَكُنْ لِأَتوقَّعَ، لَمَّا ابتعْتُ الكِتابَ، أنَّني سأنقطِعُ إليهِ وأستوفِيهِ كُلَّهُ في ليلةٍ وَّاحِدةٍ! وكانَتِ النِّيَّةُ أنْ أُنْفِقَ بعضَ ساعةٍ، أُقَلِّبُ فيها صفحاتِهِ، ثُمَّ أَدَعُهُ إلى أنْ تَحِينَ ساعةُ قِراءَتِهِ، في موعدٍ لا أَعْرِفُ متى يَحِينُ، ورُبَّما طالَ عليه الأَمَدُ، فيحتلُّ رُكنًا مِّنْ خِزانةِ كُتُبي، وتَمُرُّ بِهِ السَّنوَاتُ، دُونَ أنْ أَظْهَرَ عليهِ!

لكنَّني قَرَأْتُ الكِتابَ، مِنْ أَلِفِهِ إلى يائِهِ، في ليلةٍ وَّاحِدةٍ، وكما أنشأَ أبو رَشِيد يُغرِيني بقراءَتِهِ، جَعَلْتُ أُزَيِّنُ لغيرِ صديقٍ قِراءَتَهُ والاستمتاعَ بِهِ، فليس سهلًا أنْ تظفرَ بكِتابٍ، وتأتيَ عليهِ دُفعَةً وَّاحِدةً، حتَّى إذا استوفيْتَ صفحاتِهِ، استولَى عليكَ الْحُزْنُ والأَسَى أنْ نَفَضْتَ يديكَ مِنْهُ، وأنْ حِيلَ بينكَ وبينهُ!

هذا ما أَحسسْتُهُ لحظةَ بُلُوغِ الصَّفحةِ الأخيرةِ مِنَ الكِتابِ، لكنَّني بِتُّ أَدِينُ لهُ أنْ فَسَحَ لِي قَدْرًا كبيرًا مِّنَ الْجَمَال، وأنَّه مَدَّني بِمَدَدٍ وِّجدانيٍّ عظيمٍ، وقَرَأْتُ في أثناءِ سُطُورِهِ كيفَ أَحبَّتِ المُؤَلِّفةُ حضرموتَ حُبًّا لا يُوازِيهِ حُبٌّ، وكُنْتُ، كُلَّما مَضَيْتُ في القِرَاءَةِ، أقرأُهُ عَلَى أنَّ رِيم عبدَ الغَنِيِّ كاتبةٌ حضرميَّةٌ، حتَّى عَرَفْتُ، حِينَ شارَفَ الكِتابُ تَمَامَهُ، أنَّها مُوَاطِنةٌ سُورِيَّةٌ لاذقانِيَّةٌ، ساقَها الْقَدَرُ إلى حضرموتَ، فتَخَصَّصَتْ، وهي المُهَنْدِسةُ المِعْمارةُ، بدراسةِ المساجدِ القديمةِ في حضرموتَ، وفي مدينةِ العُلماءِ والصَّالِحِينَ تَرِيم، خاصَّةً، فإذا بِها تَجُوزُ ما نَهَدَتْ إليهِ، مِنْ أمرِ العِمَارةِ والتَّخطيطِ، وإذا هي مُوَلَّهةٌ بحضرموتَ مشغوفةٌ بِها، عَلَى نَحْوٍ لا أَعْرِفُ أنَّ حضرميًّا يُنافِسُها في هذا الوَلَهِ وذاك الشَّغَفِ.

ورِيم عبد الغَنِيِّ، فوقَ ما هي أُستاذةٌ جامِعيَّةٌ في العِمَارَةِ الحضرميَّةِ القديمةِ = أديبةٌ مُنْشِئةٌ مُجِيدةٌ، مُوسيقيَّةُ الكلمةِ، أتاحَ لها غَرامُها بحضرموتَ ثقافةً مُّحِيطةً بتاريخِ ذلك الوادي المُبارَكِ، ومُجْتَمَعِهِ، وحضارتِهِ، وآثارِهِ، فإذا ما كَتَبَتْ اسْتَقَتْ مِنْ تلك الثَّقافةِ الواسِعةِ مَدَدًا زاخِرًا، وانسابَتْ تلك الثَّقافةُ في كلماتِها الَّتي سِيقَتْ في عِشْقِ حضرموتَ، وتأخُذُ بِيَدِ القارئِ أَخْذًا رَّفيقًا إلى كُلِّ ناحِيَةٍ فيها، فيقرأُ في ما سَطَّرَتْهُ أدبًا وعِلْمًا وتاريخًا وأساطيرَ، دُونَ أن يَفْصِلَ ما بينَ هذا وذاك فاصلٌ مِّنَ البحثِ أوِ المنهجِ، فهي إنَّما تُسَطِّرُ عَلَى الوَرَقِ ذَوْبَ وِجْدانِها، وما أَكَنَّتْهُ نَفْسُها مِنْ حُبٍّ للمكانِ والإنسانِ، غيرَ أنَّ ذلك الحُبَّ الَّذي بَلَغَ مَرْتبَةَ التَّصوُّفِ والعِشقِ، لَمْ يُحَوِّلْ كلماتِها إلى إنشاءٍ رُّومنطيقيٍّ، نقرأُهُ حتَّى إذا فتَّشْنا في أثنائِهِ، لَمْ نَقَعْ إلَّا عَلَى تأَوُّهاتٍ وِّجدانيَّةٍ، هي أَدْنَى إلى الخواطرِ! لا.. فكلماتُ رِيم عبد الغَنِيِّ يُداخِلُ فيها العِشقُ والوَلَهُ الرُّومنطيقيُّ الزَّمانَ والمكانَ والإنسانَ، ويُحِسُّ قارِئُ الكِتابِ في وِجْدانِهِ أنَّهُ إنَّما يَظْهَرُ عَلَى أثرٍ أدبيٍّ يُعَبِّرُ عنْ حضرموتَ، وأهلِها، وتاريخِها، وآثارِها، ومساجدِها، وبُيُوتِها الطِّينيَّةِ = ويُعَبِّرُ، كذلك، عنْ ذاتِ رِيم عبدِ الغَنِيِّ، وهي تَكْتُبُ عنْ ذلك، دُونَ أنْ تَضَعَ حُدُودًا بينَ الذَّاتِ والموضوعِ.

تَحْنُو رِيمُ عبد الغَنِيِّ عَلَى حضرموتَ، تَمْنَحُها فُؤادَها، تَشْتَبِكُ بِها، حتَّى لكأنَّهُ يَصْعُبُ الفَصْلُ بين المُؤَلِّفةِ ومعشوقتِها "حضرموت"، وتَقْرَأُ، في طُولِ الكِتابِ وعَرْضِهِ، ذلك الواديَ، وكأنَّهُ كائنٌ حَيٌّ، وفي الحقِّ إنَّ رُوحَ المُهَنْدِسةِ المِعْمارةِ لمْ يَغِبْ في تضاعيفِهِ، لكنَّها أَبْصَرَتْ في

هندسةِ العُمْرانِ ما يَنْطَمِرُ تحتَ الأشكالِ والنَّماذجِ، فإذا بها تُصْغِي إلى سِرِّ الآصِرَةِ الَّتي تَصِلُ مادَّةَ البِناءِ "الطِّين" بالأرضِ، وتستعيرُ مِنَ المُهَنْدِسِ المِعْمَارِ الْجليلِ حَسَن فتحي عِبَارَتَهُ الْحَانِيَةَ، حِينَ عَدَّ تلك الآصِرَةَ "زَوَاجَ" البِناءِ بالأرضِ؛ فالبُيُوتُ والمَساجِدُ وسائِرُ المَبَانِي ليستْ كائناتٍ غريبةً عن المكانِ، في عُرْفِ البِنَاءِ العربيِّ التَّقليديِّ، ولكنَّ بينهما "رَحِمًا" يَجِبُ رِعَايَتُها والْحُنُوُّ عليها، وبُيُوتُ حضرموتَ ومَساجِدُها العتيقةُ، بينها وبين الإنسانِ وشائِجُ لا تنقطِعُ، بَلْ إنَّ رِيم عبد الغَنِيِّ أَدْرَكَتْ ذلك النَّسَبَ الَّذي يَصِلُ الحضرميَّ بِعِمَارَتِهِ الطِّينيَّةِ العريقةِ، "فهي – المخلوقةُ مِثْلَنا مِنْ طِينٍ – حَيَّةٌ، وكثيرٌ مِّنْ أحياءِ البَشَرِ مَوْتَى.. وفي حِينَ يُوْلَدُ بعضُنا هَرِمًا.. ها هي – رُغْمَ بُلُوغِها أكثرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ عامٍ مِّنَ الْعُمْرِ، أطالَ اللهُ في عُمْرِها – ما زالَتْ تُوَاجِهُ مِزَاجِيَّةَ الصَّحراءِ، بِرُوحٍ شابَّةٍ وطِيبةِ خاطِرٍ".

ومَعَ أنَّ بِوُسْعِنا أنْ نَعْتَدَّ الكِتابَ ضَرْبًا مِّنْ أدبِ الرِّحْلةِ، عَلَى نحْوٍ مَّا، فإنَّهُ يجوزُ لنا أنْ نَرْفَعَهُ إلى أدبِ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ، وبين هذينِ النَّوعينِ وشائِجُ وصِلاتٌ، ورُبَّما صَحَّ أنْ نرى فيهِ سِيرةً للأماكنِ الَّتي نُحِبُّ، وأقربُ الظَّنِّ أنَّ الكاتِبَةَ لَمْ تَشَأْ أنْ تَرْفَعَ كِتابَها إلى نوعٍ أدبيٍّ؛ فالَّذي يَعنيها أنْ تُؤَدِّيَ إلى قارئِها هذا الحُبَّ وذلك العِشْقَ، لكنَّها – مهما أَحَبَّتْ ومهما عَشِقَتْ – كانَتْ سَيِّدَةَ موضوعِها؛ فلَمْ تَدَعْهُ يَتَفَلَّتُ مِنْ بينِ يَدَيْها، لِدعاوَى التَّهويمِ الرُّومنطيقيِّ الصُّوفيِّ، فصَوَّرَ كِتابُها عِنوانَهُ، إنْ أَرَدْنا تحقيقًا لَّهُ، فحضرموتُ، كما حَقَّقَتْ ذلك، "حضارةٌ لا تَمُوتُ"، لَمْ تستطِعِ الصَّحراءُ الَّتي تَجْثُمُ عليها مِنْ كُلِّ جِهاتِها، أنْ تُمِيتَ فيها الحياةَ، ولمْ تَلِنْ بُيُوتُها لهجماتِ السُّيُولِ حِينَ تُغافِلُها، وإذا ما عَنَتْ بُيُوتُها الطِّينيَّةُ لِغَدْرِ السُّيُولِ فسَرْعانَ ما تشتبِكُ أيادي أبناءِ وادي حضرموتَ، أوْ كما تُعبِّرُ رِيم عبدِ الغنيِّ، "حضرموتي" بياءِ المُتَكَلِّمِ = لِيُعِيدُوا الحياةَ إلى واديهِم، ويستأنِفُوا السَّيْرَ في أثنائِهِ، ففي حضرموتَ لا تَتَبَلْبَلُ الألسنةُ حِينَ تَشْتَبِكُ الأيدي فتَرْفَعُ، نَحْوَ السَّماءِ، "مَنارَةَ" مَسْجِدٍ، أوْ تَبْنِي بَيْتًا، وبينما تَكَلَّمَ بنَّاؤو بُرْجِ بابِلَ لُغَاتٍ مُّخْتَلِفَةً، ولَمْ يَفْهَمْ واحِدُهُمْ مُرَادَ الآخَرِ، فلَمْ يَتِمَّ بِناءُ البُرْجِ، وانتشروا في الأرضِ = كانَتْ أيادي البَنَّائِينَ الحضرميِّينَ تتشابَكُ، وأَلْسِنَتُهُمْ تَتَّحِدُ، فرفعوا نَحْوَ السَّماءِ مَنَارَةَ جامِعِ المِحْضارِ لِتُذِيعَ في أنحاءِ الوادي اسْمَ رَبِّ السَّمواتِ والأرضِ.

حَوَّلَتْ رِيمُ عبد الغَنِيِّ هندسةَ العِمَارةِ إلى شِعْرٍ، ولا غرابةَ في ذلك، وقدْ عَلَّمَنا الفيلسوفُ باشلار، مِنْ قَبْلُ، "شِعْريَّةَ المكانِ"، وبين العِمَارةِ وبين الشِّعْرِ نَسَبٌ قديمٌ، يرْقَى إلى زمنٍ اتَّخَذَ فيهِ العربيُّ الشِّعْرَ بَيْتًا لهُ، ونَظَرَ في أثناءِ خِبَائِهِ، فلاءَمَ بينَ بَيْتِ الشِّعْرِ وبَيْتِ الشَّعْر، وما انحَطَّ شأنُ العِمارةِ إلَّا حِينَ حِيلَ ما بينها وبين الشِّعْرِ، ولا غرابةَ فِي أنْ تُفتِّشَ رِيمُ عبد الغَنِيِّ في "حضرموتَ"، وما لِي لا أقولُ: في "حَضْرَمَوْتِها"، و"حَضْرَمَوْتِنا" – كما تُحِبُّ هي وأُحِبُّ – عنْ ذلك الشِّعْرِ في البَيْتِ الطِّينيِّ، وفي المسجدِ، وفي الشَّارعِ، وفي السُّوقِ، وحيثُ يغدو النَّاسُ ويَرُوحُونَ، حتَّى إذا عايَنَتْ في وادي حضرموتَ أثرًا لِّتلك المادَّةِ المُسْتَوْرَدَةِ "الإسمنت"، إذا بها تَثُورُ وتغضبُ، ولا ترى في ذلك إلَّا لونًا مِّنْ ألوانِ الانحطاطِ، أوْ عساهُ يَكُونُ طَلَاقًا بينَ العِمَارةِ والأرضِ، أوْ ما دَعَتْهُ، في أُطروحتِها للدُّكتوراه، بِـ "العِمَارةِ المُؤَدَّبةِ"، فقالَت:

نحنُ في غايةِ الحاجةِ إلى "العِمَارةِ المُؤَدَّبةِ"، أَجَلْ.. هُناك أدبٌ للعِمارةِ، كما هُناك أدبٌ لِّكُلِّ شيْءٍ، وأدبُ العِمارةِ أنْ تحترِمَ الإنسانَ والمكانَ والزَّمانَ، والتَّحدِّي الَّذي يُواجِهُنا اليومَ كمِعْماريِّينَ ومُخَطِّطِينَ، أنْ نختارَ بذكاءٍ مِمَّا تَزْخَرُ بِهِ عِمارتُنا العريقةُ مِنْ قِيَمٍ حضاريَّةٍ ومِعماريَّةٍ هامَّةٍ، ما زالَ الكثيرُ مِنْها صالِحًا للاستمرارِ وقابِلًا للتَّطويرِ، لتكريسِ عِمَارةٍ عربيَّةٍ مُعاصِرةٍ "مُؤَدَّبةٍ"، تستمِدُّ قِيَمَها ومَزاياها مِنْ رُّوحِ العِمارةِ العربيَّةِ الأصيلةِ، وتُطَوِّعُ في الوقتِ نَفْسِهِ تسهيلاتِ التّكنولوجيا لِتُلبِّيَ حاجاتِنا الْعَصْرِيَّةَ، تُعَبِّرُ عنْ هُوِيَّةِ الأُمَّةِ وعُمْقِ انتمائِها الحضاريِّ، وتَعْكِسُ ثقافةَ المجتمعِ العربيِّ وقِيَمَهُ، وهذا جُزْءٌ هامٌّ مِّنَ التَّحدِّي الكبيرِ، تأكيدِ الهُوِيَّةِ العربيَّةِ، أيْ مسألة وُجُودِنا واستمرارِنا

أَتْمَمْتُ قِراءةَ الكِتابِ في ليلةٍ وَّاحِدةٍ، لكنَّني أحسسْتُ أنَّ الكِتابَ بَثَّ فِيَّ شُعُورًا لَّا أستطيعُ له تصويرًا، وكأنَّما أَلْقَتْ بِي رِيمُ عبد الغَنِيِّ ها هُناك، فمَضَيْتُ أَتَتَبَّعُ خُطَاها في سَيْئُونَ، وأرى بِعَيْنَيْها دُرُوبَ تَرِيم وأَزِقَّتَها ومَساجِدَها وبُيُوتَها، وأُلْقِي بَصَرِي إلى السَّماءِ حيثُ ترتفعُ مِئْذَنةُ جامِعِ المِحْضارِ الطِّينيَّةُ الشَّمَّاءُ، فإذا ما انْفَصَلَتْ عنْ تَرِيم إلى شِبَام، سِرْتُ مَعَها، ورَقِيتُ بُيُوتَها الَّتي عانَقَتِ السَّماءَ، فأَنْتَبِهُ إلى أنَّني إنَّما أقرأُ كِتابًا، فأُدْرِكُ أيَّ أثرٍ لهُ في نَفْسِي وعقلي، وكُنْتُ كُلَّما قَرَأْتُ فَصْلًا، واستعددْتُ للفصلِ الَّذي يَلِيهِ، أكتسِبُ معرفةً جديدةً

بحضرموتَ، لَمْ أَكُنْ لِأَعْرِفَها مِنْ قَبْلُ، وكان كُلُّ شيْءٍ جديدًا طريفًا، عاشَتْهُ رِيمُ حِينَ اختلفَتْ إلى ذلك الوادي، وأَبْصَرَتْ حقيقةَ أبنائِهِ، ولَعَلِّي لا أَغْلُو حِينَ أقولُ: إنَّها كانَتْ حضرميَّةً أكثرَ مِنَ الحضارِمةِ أَنْفُسِهِمْ! فَصِلَتُها بتلك البِلادِ لا يُمْكِنُ أنْ نَعْزُوَها إلى مُغامَراتِ الرَّحَّالِينَ، ولا إلى بُحُوثِ العُلماءِ والمُنقِّبِينَ، وقدْ قالَتْ، في فاتِحةِ كِتابِها: إنَّها لا تكتبُ بَحْثًا ترجو بِهِ نَيْلَ دَرَجَةٍ جامِعيَّةٍ، وكُلُّ أمرِها إنَّما "كان نوعًا مِّنْ صلاةٍ، واجبٍ مُقَدَّسٍ نُؤدِّيهِ بِكُلِّ جوارِحِنا، نُتْقِنُهُ لِيَلِيقَ بِمَكْنُونِ المحبَّةِ والاحترامِ".

جَلَتْ رِيمُ عبد الغَنِيِّ صِلَةَ الحضرميِّ بأرضِهِ، وأدركَتْ تفاصيلَها، مَرَّةً في عِمارةِ بَيْتِهِ، وبِناءِ مَسْجِدِهِ، ومَرَّةً أُخْرَى في غِنائِهِ ونشيدِهِ، وكانَتْ عيناها مُغْرَمَتَيْنِ بالتَّفاصِيلِ، وكان كِتابُها، كذلك، مُغْرَمًا بالتَّدقيقِ والتَّفتيشِ، نقرأُهُ مَتْنًا ونقرأُهُ هامِشًا، واستجلَبَ نظري عِنايةُ المُؤَلِّفةِ بإثباتِ التَّاريخِ الهِجْرِيِّ إلى جِوَارِ المِيلاديِّ، في الْحوادثِ والأعلامِ، وفي كَبِيرِ الأُمُورِ وصَغِيرِها، في حِرْصٍ يُحْمَدُ للمُؤَلِّفةِ، لَمْ أَجِدْ لها شبيهًا عِنْدَ أيِّ كاتِبٍ آخَرَ، مِنْ أولئك الَّذين يُعْنَوْنَ بإثباتِ ذلك التَّاريخِ المهجورِ!

تَعيشُ رِيمُ عبد الغَنِيِّ في شَمَالِ العَرَبِ القَصِيِّ "سُورِيَةَ"، وقَلْبُها مُعَلَّقٌ بِجَنُوبِ العَرَبِ القَصِيِّ "حضرموتَ"! وحَسْبُها، إنِ امتدَّتِ المسافةُ وحِيلَ بين العاشِقِ والمعشوقِ، أنَّها تُطالِعُ صُورةً لِمِئْذَنةِ جامِعِ المِحْضَارِ عُلِّقَتْ عَلَى جِدارٍ في مَكتبِها، وأنَّها حَمَلَتْ مدينةَ تَرِيم مِنْ صحراءِ حضرموتَ، إلى غُوطَةِ دِمَشْقَ، فأنشأَتْ "مركزَ تَرِيم للعِمَارةِ والتُّراثِ"، وأَشْرَفَتْ عَلَى مُنْتَدَى "أربعاء تَرِيم الثَّقافيِّ"، وكأنَّما خَفَّفَ عليها لَوْعَةَ البُعْدِ والنَّأْيِ أنْ غَرَسَتْ نَخْلَةً حضرميَّةً في تُرابِ دِمَشْقَ الدَّافِئِ، ولا فَرْقَ، عند كُلِّ عربيٍّ، بينَ صحراءِ حضرموتَ وغُوطَةِ دِمَشْقَ، فهذهِ وتلك غُصْنانِ مِنْ شَجَرَةِ العُرُوبةِ الخضراءِ.

هلْ تُسْتَعادُ أيَّامُ الثَّغْرِ النَّموذجيَّة؟

كان مُسْتَهَلُّ اتِّصالي بِحِرْفةِ التَّعليمِ، يَوْمَ عُيِّنْتُ مُدَرِّسًا لِلُّغةِ العربيَّةِ، بالقِسْمِ الثَّانويِّ بمدارسِ الثَّغرِ النَّموذجيَّةِ، بِحَيِّ الخالِدِيَّة بِجُدَّة. ولا زِلْتُ أذكرُ أوَّلَ صَبَاحٍ لِّي فيها؛ كان صباحًا مُفعَمًا بالزَّهْوِ والحُبُورِ.

لَمْ يَكُنِ التَّدريسُ أُمْنِيَّةً مِّنْ أَمَانِيَّ، لكنَّ الثَّغْرَ النَّموذجيَّةَ تُوْشِكُ، آنَئِذٍ، أنْ تَكُونَ مُكافأةً طيِّبةً، لمُدَرِّسٍ تَخَرَّجَ في الْجامِعةِ بتقديرِ ممتاز! وحَسْبُه، عَزَاءً لَّهُ، أنْ عُيِّنَ في مدينة جُدَّةَ، يَوْمَ عُيِّنَ آخرون، بعيدًا عنْ أُسَرِهِمْ وأهليهِمْ، وها أنا ذا، بَعْدَ أنْ تَقَلَّبَتْ بي الحياةُ، أَعْتَدُّ التَّعليمَ أَجْمَلَ أيَّامي، والثَّغْرَ النَّموذجيَّةَ خيرَ أيَّامي فيهِ!

عَرَفْتُ مدارسَ الثَّغرِ النَّمُوذَجِيَّةِ في حِقْبةٍ صعبةٍ، لَمْ يَبْقَ مِنْ تاريخِها القديمِ إلَّا ذكرياتٌ شاحِبةٌ يُتَحَسَّف عليها، وإلَّا قِيَامُها بأمرِها، مستقِلَّةً عنْ مدارسِ التَّعليمِ العامِّ، وإلَّا ذلك الماضي الَّذي أرادَه لها المَلِكُ فيصل بن عبد العزيزِ – يَرْحَمُهُ اللهُ – يَوْمَ أنشأَها في الطَّائفِ، أوَّلًا، ثُمَّ لَمَّا وَجَّهَ بانتقالِها إلى مدينةِ جُدَّةَ، فكانَتِ الثَّغْرُ لعَرُوسِ الْبَحْرِ نَغْمةً عَذْبةً حُلْوَةً في زمنٍ جميلٍ. وكأنَّما أرادَها الفَيْصَلُ – يومَ أنشأَها – أنْ تُضاهِيَ مدارسَ أقدمَ عهدًا مِنْها، فأشبهَتِ الكُلِّيَّةَ الثَّانويَّةَ بالْجامِعةِ الأمريكيَّةِ ببيروتَ، وماثَلَتْ كُلِّيَّةَ فكتوريا، المدرسةَ المِصْرِيَّةَ الرَّاقيةَ، ولكنَّها في الطَّائفِ، أوَّلًا، وجُدَّةَ، آخِرًا.

لمْ تَكُنْ مدرسةُ الثَّغرِ النَّموذجيَّةِ، مُدَّةَ اتِّصالي بِها، في الأعوامِ 1410-1412هـ = كغيرِها مِنَ المدارسِ؛ فَطُلَّابُها يَرتفعونَ، في عامَّتِهِم، إلى الطَّبقةِ المَخْمَلِيَّةِ، وكان النُّبُوغُ في الدِّراسةِ أَظْهَرَ سِماتِها، أمَّا مُعَلِّمُوها، فَهُمُ السَّابقونَ في التَّخصُّصِ، لا سِيَّما أنَّ القِسْمَ الثَّانويَّ يختصُّ بالعُلُومِ الطَّبيعيَّةِ، دُونَ العُلُومِ الأدبيَّةِ، إلَّا ما كان معدودًا في موادِّ الهُوِيَّةِ كاللُّغةِ العربيَّةِ والدِّينِ والتَّاريخِ والجُغرافيَةِ. أمَّا ما سِوَى ذلك فَلَمْ تَكُنِ الثَّغْرُ لِتَختلِفَ عنْ غيرِها في نشاطٍ فنِّيٍّ أوِ اجتماعيٍّ، مِمَّا عَرَفَتْه في تاريخِها البعيدِ، إلَّا اليسيرَ مِنْهُ، وكان ذلك

اليسيرُ نادِرًا، لا يَأباهُ المُمْسِكُونَ بأمرِ التَّعليمِ في مدارسِ تلك الْحِقْبةِ، فإذا أَبْصَرْتَ قاعةً وَّاسِعةَ الأبهاءِ، أوْ مسرحًا مُّكتمِلَ العناصرِ، فَحَسْبُكَ أنْ تَعْرِفَ فيهما مبنًى دُونَ معنًى، وما كان لِيُؤْذَنَ للطُّلَّابِ ولا للمُدَرِّسِينَ أن يَصْطَنِعُوا في تلك المَرَافِقِ شيئًا مِّنَ الفنِّ أو الثَّقافةِ، إلَّا في ضَرْبٍ مِّنَ الحِيلةِ، ولا أَذْكُرُ أنَّ نشاطًا أدبيًا أوْ فَنِّيًا شَهِدَتْهُ المدرسةُ في الزَّمنِ الَّذي أَمْضَيْتُه فيها، إلَّا مسرحيَّةً ساذجةً يسيرةً كان لي أمرُ الإشرافِ عليها، وما كِدْنا نَعْرِضُها، مصحوبةً بآلةٍ مُّوسيقيَّةٍ، حتَّى صَدَّ عنها قَوْمٌ، وثارَ بها آخَرُونَ، ولَمْ يَكُنْ لِّمُدَرِّسي اللُّغةِ العربيَّةِ، وأنا واحِدٌ مِّنْهُمْ، أن يَلُوا فيها شأنًا ثقافيًّا، مهما كان يسيرًا، ولا أَذْكُرُ أنَّهُ صارَ إليهم تنفيذُ صحيفةٍ حائِطِيَّةٍ، أوْ ما يُشْبِهُها، كما كان العهدُ بِهِمْ، في زمنِ التَّلمذةِ والطَّلَبِ.

لِمَ أقولُ ذلك؟

داخَلَنِي الشُّعُورُ بالأسَى، وأنا أقرأُ كِتابَ الصَّديقِ العزيزِ مِشْعَل عِيضه الحارِثِيِّ **المَلِك فَيْصَل والمدرسة النَّموذجيَّة**[36]. وأقلُّ ما يُقالُ فيهِ: إنَّه جَمَعَ فأوعَى، وكان تاريخًا مُفَصَّلًا لهذهِ المدرسةِ، منذ أُنْشِئَتْ في الطَّائفِ، عامَ 1366هـ، ثُمَّ لَمَّا تَحَوَّلَتْ إلى جُدَّةَ، عامَ 1380هـ.

كان مِشْعَل الحارثيُّ مؤرِّخًا أمينًا، يَصِلُ التَّاريخَ بالوثيقةِ النَّادرةِ، وانطوَى كِتابُهُ على أربعةِ عناصِرَ: الخَبَرِ التَّاريخيِّ، والوثيقةِ النَّادرةِ، والإحصاءِ الدَّقيقِ، والصُّورةِ المُعَبِّرةِ. وتُوْشِكُ أنْ تَكُونَ كُلُّ صفحةٍ مِنْ صفحاتِ الكِتابِ تاريخًا ضاجًّا بالحياةِ؛ فالمدرسةُ أُنْشِئَتْ عَلَى قَدْرٍ، وخُطِّطَ لها بعنايةٍ، ومِنَ البَيِّنِ أنَّهُ أُرِيدَ للطُّلَّابِ الَّذينَ التحقُوا بها أن يَنْعَمُوا في أنحائِها بِأَمْتَنِ حياةٍ وأعذبِها، فإذا تَخَرَّجُوا فيها، بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عامًا، كان ما تَلَقَّوْهُ مِنْ دُرُوسٍ نَّافِعًا مُّفيدًا، وما أصابوهُ مِنَ الثَّقافةِ والفُنُونِ والآدابِ قَمِينًا أن يَصْنعَ مِنهم أشخاصًا مُقْبِلِينَ عَلَى الحياةِ، ما دامَ المُمْسِكُونَ بأمرِها قَدْ أحسنوا التَّخطيطَ والتَّنفيذَ والإدارةَ، ولاءَمُوا بين ما يحتاجُهُ العقلُ، وما يَتَعَشَّقُهُ الرُّوحُ، وأُعْطِيَ التِّلميذُ في القِسْمِ الابتدائيِّ والمتوسِّطِ، والطَّالِبُ في القِسْمِ الثَّانويِّ ما يُقِيمُ شخصيَّتَهُ، فكانَتِ المدرسةُ رياضيَّاتٍ، وفيزياءَ، وكيمياءَ، كما كانَتْ نشاطًا بَدَنِيًّا، وعَرْضًا مَّسْرحيًّا، وَّمَرْسمًا، وَّموسيقا، وَّغِناءً.

كُلُّ ذلك انطوَى عليهِ كِتابُ مِشْعَل الحارثيِّ، ذلك الماتِعُ الْجميلُ. أدَّاهُ إلينا سائغًا عَذْبًا جميلًا، فأمتعَنا وأسخطَنا! أمَّا المُتْعَةُ فلكُلِّ ما مَرَّ بِنا في الكِتابِ، وأمَّا السُّخْطُ – وإنْ شِئْتَ الأسَى – فلأنَّني وجِيليَ الَّذي أنتمي إليهِ لَمْ نَخْتَلِفْ إلى مدرسةِ الثَّغْرِ النَّموذجيَّةِ، ولَمْ نَذُقْ شيئًا مِّنْ أَفَاوِيقِها، ولأنَّني، لَمَّا جِئتُها مُدَرِّسًا، لَمْ أشهدْ شيئًا مِّنْ ذلك التَّاريخِ، وكان يكفيني مِنَ الثَّغْرِ – تلميذًا أوْ مُدَرِّسًا – أنْ تَصِلَ ما بيني وبينَ الفُنُونِ، فإنْ لَمْ أُحْسِنِ الضَّرْبَ عَلَى هذهِ الآلةِ أوْ تلك، فَحَسْبِي أنْ دُرِّبْتُ عَلَى تَذَوُّقِ الفنِّ وإساغتِهِ! فما ظَنُّكَ بِجِيلٍ أتاحَتْ لهُ هذهِ المدرسةُ عِلْمًا وَّفَنًّا وَّثقافةً وَّأدبًا؟!

والْحَقُّ أنَّه أُتِيحَ لمدرسةِ الثَّغْرِ كُلُّ أسبابِ النَّجاحِ؛ أمَّا المؤسِّسُ، فَحَسْبُكَ أنْ تقولَ: فَيْصَل بن عبدِ العزيزِ، ولا تَزِيدُ، وأمَّا الإدارةُ فليس قليلًا أن يَلِيَ أمرَها، في عهدٍ مِّنْ عُهُودِها محمَّد عبد الصَّمَد فِدَا، وأن يُقالَ في ترجمتِهِ: "الفقيهُ، والمُرَبِّي، والأديبُ، والشَّاعِرُ"! وأنْ تقرأَ طَرَفًا مِمَّا قالَهُ فيهِ أصدقاؤهُ وتلاميذُهُ ومُرِيدُوهُ، فتَعْرِفَ أيَّ تاريخٍ صَنَعَ، وأيَّ جِيلٍ أنشأَ!

وليستِ الدُّرُوسُ المتينةُ، ولا المسرحُ، ولا المَرْسَمُ، ولا الموسيقا، هي كُلَّ شيْءٍ في مدرسةِ الثَّغْرِ النَّموذجيَّةِ، مِمَّا أَثْبَتَهُ مِشْعَل الحارِثيُّ في كِتابِهِ، وعساها كانَتْ نادِيًا أدبيًّا، قَبْلَ أنْ تَعْرِفَ البِلادُ الأنديةَ الأدبيَّةَ.

كان ذلك في المُدَّةِ الَّتي عُهِدَ إلى محمَّد فِدَا أمرُ إدارتِها، وأنتَ تَعْرِفُ أنَّ الرَّجُلَ كان أديبًا شاعِرًا مُّثقَّفًا، وأنَّه اشتَهَرَ برعايةِ الثَّقافةِ والفُنُونِ والآدابِ، منذُ كانَ مُديرًا لِّلمدرسةِ الرَّحمانيَّةِ بمكَّةَ المُكرَّمةِ، وها هو ذا يستهِلُّ عهدًا جديدًا لِّلثَّقافةِ لَمَّا تَحَوَّلَتِ المدرسةُ مِنَ الطَّائفِ إلى جُدَّةَ، فالمَقَرُّ واسِعٌ كبيرٌ، يشتملُ عَلَى مَلاعِبَ، وحدائقَ، ومطاعمَ لِّلطُّلَّابِ، والمَرافِقُ تُلائِمُ الغايةَ الَّتي أُنْشِئَتْ لها المدرسةُ، وأهمُّها مسرحٌ واسعٌ مُّكَيَّفُ الهواءِ! إذنْ، فَلْيَكُنْ مسرحٌ، ولْتَكُنْ ندواتٌ ثقافيَّةٌ، وأماسيُّ أدبيَّةٌ!

والْحَقُّ أنَّني كُنْتُ دَهِشًا لَمَّا طالعْتُ مقالًا للعَلَّامةِ عبدِ القُدُّوسِ الأنصاريِّ عنْ "ندوةٍ أدبيَّةٍ كُبْرَى"، أقامَتْها مدرسةُ الثَّغْرِ النَّموذجيَّةِ، عامَ 1380هـ، فلَمَّا قَرَأْتُ كِتابَ مِشْعَل الحارثيِّ زِدْتُ عَلَى الدَّهَشِ إعجابًا وَّأسًى! أمَّا الإعجابُ فبهذهِ المدرسةِ النَّموذجيَّةِ، حقًّا، إذْ لَمْ تَكُنْ

ندوةُ الأنصاريِّ وحيدةً يَّتيمةً، ويكفي أن جُدَّةَ كانَتْ على موعدٍ في مساءِ يومِ الخميسِ 16 مِنْ ذِي القعدةِ سنةَ 1384هـ مَعَ مُحاضَرةٍ للمستشرقِ الفرنسيِّ الكبير شارلْ بِلَّا، موضوعُها الاستشراقُ وتاريخُهُ، وأنَّ المُثَقَّفِينَ والمُدَرِّسِينَ والطُّلَّابَ لمْ يكادُوا يُفِيقونَ مِنْ أثرِها، حتَّى ارتقَى المستشرقُ المُسْلِمُ عبدُ الكريم جرمانوس مِنْبَرَ الثَّغْرِ، فألقَى، في مساءِ يومِ الاثنين 27 مِنْ ذي القعدةِ سنةَ 1384هـ، مُحاضرةً عِنوانُها "الأحاسيسُ والانطباعاتُ الَّتي يتلقَّى بِها الأوربِّيُّ المُثَقَّفُ الْحقائقَ الإسلاميَّةَ".

كان هذا هو الدَّهَشَ والإعجابَ، أمَّا الأَسَى فَلِأَنَّ أحلامي في مدرسةِ الثَّغْرِ لَمْ تَكُنْ لِيَرْتفِعَ بِها الخَيَالُ، إلى ذلك القَدْرِ الَّذي أَثْبَتَهُ كِتابُ مِشْعَل! عَلَى أنَّ ما قَيَّدتُهُ، هُنا، ليس كُلَّ ما فيهِ مِنْ وقائِعَ وتواريخَ، وحَسْبِي أنَّني كُلَّما مَضَيْتُ في بيانِ ما انطوَى عليهِ يزدادُ إعجابي، ويَشْتَدُّ أساي!

نَبْتُ الأرضِ وابْنُ السَّماءِ

يُورِدُ محمَّد بنُ حامِد الأحمريُّ في مُؤَلَّفِهِ **نَبْت الأرضِ وابْن السَّماءِ: الحُرِّيَّةُ والفَنُّ عند عَلِيِّ عِزَّتْ بيغوفيتش**(37) نَصًّا طريفًا ذَكَرَه الشَّاطِبِيُّ في **المُوَافَقاتِ**:

قالَ حدَّثَنا بعضُ الشُّيُوخِ: إنَّ أبا العَبَّاسِ ابْنَ البَنَّاءِ سُئِلَ فقيلَ لهُ: لِمَ لَمْ تَعملْ ﴿إنَّ هذانِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إنَّ هذانِ لساحرانِ﴾ [طه: 63]؟ فقالَ في الْجَوَابِ: لَمَّا لَمْ يُؤَثِّرِ القولُ في المَقُولِ، لَمْ يُؤَثِّرِ العامِلُ في المعمولِ، فقالَ السّائلُ: يا سَيِّدي، وما وَجْهُ الارتباطِ بينَ عَمَلِ (إنَّ) وقَوْلِ الكُفَّارِ في النَّبِيِّينَ؟ فقالَ لهُ الْمُجِيبُ: يا هذا! إنَّما جِئْتُكَ بِنَوَّارَةٍ يَحْسُنُ رَوْنَقُها، فأنتَ تُرِيدُ أنْ تَحُكَّها بينَ يديكَ ثُمَّ تَطْلُبُ مِنْها ذلك الرَّوْنَقَ!

يَسُوقُ الأحمريُّ هذا القَوْلَ الطَّريفَ انتصارًا لِّما آمَنَ بِهِ المُجَاهِدُ البُوْسْنِيُّ الكبيرُ عَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش – رَحِمَهُ اللهُ - مِنْ عُمْقِ الفَنِّ واحتفاظِهِ بأسرارِهِ بعيدًا عنْ فُضُولِ النُّقَّادِ وأساليبِهِمُ الَّتي قدْ تَحُولُ بينَ الفنِّ ومتذوِّقِهِ، فـ

المُسْتَهْلِكُ للفنِّ كالْمُوَلَّهِ بالمحبوبِ لا يبحثُ في تفاصيلِهِ، أمَّا النَّاقِدُ فيبحثُ عنْ فِكْرَةٍ أوْ نِظامٍ يُثْبِتُهُ أوْ يَنْفِيهِ، وهذا مَصْدَرُ مَشَقَّةٍ للفنَّانِ ولِمَنْ أُعْجِبَ بالفَنِّ ولا يدري لماذا؟

انتقلَ إليَّ هذا الشُّعُورُ وأنا أقْرأُ هذا الكِتابَ الصَّغيرَ؛ فَنَزْعُ لِحَائِهِ بِدَعاوَى النَّقْدِ والنَّظريَّةِ مُؤْذِنٌ بالانتهاءِ إلى قولِ ذلك الشَّيخِ: "يا هذا! إنَّما جِئْتُكَ بِنَوَّارَةٍ يَحْسُنُ رَوْنَقُها، فأنتَ تُرِيدُ أنْ تَحُكَّها بينَ يدَيْكَ ثُمَّ تَطْلُبُ مِنْها ذلك الرَّونقَ"، وخَشِيْتُ عَلَى نَفْسِي أنْ أُفْسِدَ "النَّوَّارَةَ" بِنَزْعِ وَرَقاتِها بَحْثًا عنِ الرُّوحِ، وإذا بِي أَصِلُ إلى الهَبَاءِ والفَرَاغِ، فأنتَ لنْ تَصِلَ مِنْ نَزْعِ لِحَاءِ البَصَلَةِ إلى "لُبِّها" بِمَا سِوَى الدُّمُوعِ؛ فالْبَصَلَةُ هي اللُّبُّ واللُّبُّ هو البَصَلَةُ، كما عَلَّمَنا رولان بارط.

لَمْ أُرِدْ أنْ أَقْتَرِفَ مَعَ كِتابِ محمَّد بن حامِد الأحمريِّ ما لَمْ يَقْتَرِفْهُ هو مَعَ عَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش وأَلُوذَ بإثْمِهما؛ فالرَّجُلُ كان "مُوَلَّهًا" بأفكارِ صاحِبِهِ، فاحتفَظَ بِـ "النَّوَّارَةِ" ولَمْ يَقْضِ عليها، بحثًا عنْ رُوحِها، فأَظْهَرَ أفكارَ بيغوفيتش حَيَّةً، حتَّى لكأنَّني، وأنا أَجُولُ في غابَةِ الكِتابِ أُحِسُّ ذلك المُفَكِّرَ والمُجاهِدَ البُوْسْنِيَّ وقدْ بُعِثَ مِنْ مَّرْقَدِهِ!

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عنْ عَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش إلَّا نِضالَهُ وجِهَادَهُ مِنْ أَجْلِ استقلالِ بِلادِهِ البوسنة، وكُنْتُ أَتَلَقَّى طَرَفًا مِّنْ أخبارِ نُبُوغِهِ الفِكْريِّ بغيرِ نشاطٍ لَّهُ، ولا أدْري ما الَّذي صَدَّنِي عنْ كِتابَيْهِ **الإسلام بينَ الشَّرْقِ والغَرْبِ** و**هُرُوبي إلى الْحُرِّيَّةِ**، وقدْ كانا رائِجَيْنِ في المكتباتِ، في تلك المُدَّةِ الَّتي جاهَدَ البُوسنيُّونَ فيها مِنْ أجْلِ الْحُرِّيَّةِ؟

وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ مَرَدَّهُ سُوءُ ظَنٍّ بالسَّاسةِ والقادةِ الَّذين لَمْ نَنْشَطْ لأقاويلِهِمُ السِّياسيَّةِ، فما بالُكَ بأقاويلِهِم في الفِكْرِ والفَنِّ والأدبِ؟ ولَعَلَّ سَطْوَةَ الصِّراعِ البوسنيِّ وتَمزيقَ تلك الأرضِ المُسْلِمَةِ الباحثةِ عن الْحُرِّيَّةِ أَسْكَتْ فِيَّ الْحَماسةَ لِعَلِيِّ عِزَّتْ بيغوفيتش؟ وعساهُ الْجَفَلُ مِنَ الْمَشْرُوعِ الإسلاميِّ التَّقليديِّ واستنساخِ نَفْسِهِ والانكبابِ على التَّقليدِ = حالَ بيني وبينَ أنْ أَعْرِفَ طَرَفًا مِّنْ فِكْرِهِ؟ ولِمَ لا يَكُونُ الوَلَعُ بالْحَداثَةِ وكُلِّ ما هو غربيٌّ قدْ صَرَفَنِي – كما صَرَفَ غيري - عنْ كُلِّ صَوْتٍ مُّبايِنٍ للأصواتِ القادِمةِ مِنْ أُورُبَّةَ وأمريكةَ؟ والعجيبُ أنَّ بيغوفيتش أُورُبِّيُّ المَنْشأ والأصلِ وعالَمِيُّ الثَّقافةِ! لكنَّهُ التَّصنيفُ الَّذي شَوَّهَ ثقافتَنا العربيَّةَ الْحديثةَ وأضاعَ أهدافَها.

ولا أَعْرِفُ ما الَّذي سأَخلُصُ إليهِ في فَصْلي هذا؟ أَعَنِ الأحمريِّ سأكتُبُ أَمْ عنْ بيغوفيتش؟ فالكِتابُ، عَلَى إيجازِهِ، جَلَا عالَمًا حافِلًا بالتَّأمُّلِ والرُّؤيةِ والاستكشافِ، وأَظْهَرَ عَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش مُفَكِّرًا إنسانيًّا فريدًا، وكأنَّ نشأتَهُ في بِلَادِهِ القَصِيَّةِ النَّائِيَةِ فَسَحَ لهُ أن يتأمَّلَ كيفَ تُصْنَعُ الحضاراتُ، وكيفَ تَتَكَوَّنُ الثَّقافاتُ؟ فعَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش غَرْبِيٌّ وَّشَرْقِيٌّ مَّعًا، يَقِفُ في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ بينَ أُورُبَّةَ والمَشْرِقِ الإسلاميِّ، ولَعَلَّهُ، بتكوينِهِ الثَّقافيِّ، مِثَالٌ لِّلتَّوسُّطِ والاعتدالِ، أوْ كأنَّهُ في مَنْزِلَةٍ بينَ المَنْزِلَتَيْنِ، فنَجَا مِنْ أَسْرِ التَّقليدِ الَّذي قَيَّدَ الثَّقافة

الإسلاميَّةَ الْحديثةَ بِقُيُودِ السَّلَفِيَّةِ في التَّفكيرِ والثَّقافةِ، وأشاحَ بِوَجْهِهِ عَمَّا تَضْطَرِبُ بِهِ الثَّقافةُ الغربيَّةُ الحديثةُ مِنْ أفكارٍ انتهَى بَعْضُها إلى اطِّرَاحِ أَيِّ أَثَرٍ لِّلرُّوح.

ونأَى بِهِ بَلَدُهُ الضَّارِبُ في الشَّرْقِ الأوربِّيِّ = عنِ الأسئلةِ الَّتي نَهَكَ المُثقَّفونَ المسلمونَ بِها أَنْفُسَهُم، حتَّى صارَتْ جالِبَةً للسَّآمةِ والإملالِ، وكأنَّ المُثَقَّفَ المُسْلِمَ لَمْ يستطِعْ، بَعْدُ، الْخُرُوجَ عنْ: مَنْ نَحْنُ؟ وماذا نأخُذُ مِنَ التُّراثِ وماذا نَدَعُ؟ وشُغِلْنا بالقُشُورِ دُونَ اللُّبَابِ. أَمَّا بيغوفيتش فكانَ، في حَيَاتِهِ وهُرُوبِهِ مِنْ أَجْلِ الْحُرِّيَّةِ، نموذَجًا للأفكارِ الَّتي تَتَكَوَّنُ في البَيْتِ والمَعْهدِ والمُعْتَقَلِ وساحةِ النِّزَالِ، وكان في سِيرتِهِ الفِكريَّةِ جِمَاعًا للمُفَكِّرِ المتأمِّلِ؛ فكتابتُهُ عالَمٌ مُّوَازٍ لِحَيَاتِهِ، ومَبْعَثُ ذلك أنَّ الرَّجُلَ دَأَبَ عَلَى نَثْرِ تأمُّلِهِ في الكَوْنِ والْحَيَاةِ، وساقَهُ ذلك التَّأمُّلُ الواسِعُ في التَّاريخِ والفلسفةِ والآدابِ والفُنُونِ والسِّياسةِ = إلى فُسْحَةٍ في العَقْلِ دَفَعَتْ بِهِ بعيدًا عنْ سِجْنِ التَّقليدِ، وتَحَرَّرَ مِنْ قُيُودِ الأفكارِ، وكان سِجْنُهُ غيرَ مَرَّةٍ نافِذَةً أَطَلَّ مِنْها رُوحُهُ الباحِثُ عنِ الْحُرِّيَّةِ في الأفكارِ، ولَمْ يُحْدِثِ السِّجْنُ جُرُوحًا غائِرَةً في نَفْسِهِ، تَحُولُ ما بَيْنَهُ وبينَ التَّحَرُّرِ مِنْ سِجْنِ النَّفْسِ، ولَمْ يتعصَّبْ لِمَا سِوَى الحُرِّيَّةِ.

وبِوُسْعِنا أنْ نَقُولَ: إنَّ كُلَّ ذلك جَعَلَ فِكْرَهُ غيرَ مُسْتَأْنَسٍ في حظيرةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ المُعَاصِرةِ الَّتي شُغِفَتْ، في أمثلةٍ ذواتِ عَدَدٍ، بالْحَرَكِيَّةِ والتَّحَزُّبِ الفِكْريِّ والسِّياسيِّ، واستبْدَلَتْ بالَّذي هو أَدْنَى الَّذي هو خَيْرٌ، فإذا فِكْرُ بيغوفيتش غيرُ سائغٍ في جِسْمِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ؛ فالرَّجُلُ:

لَمْ يَكُنْ يُكْثِرُ الكتابةَ ولا الكلامَ لِيَقُولَ: أنا إنسانُ الزَّمانِ. كثيرٌ مِّنْ أفكارِهِ ومَوَاقِفِهِ المعرفيَّةِ تحتاجُ إلى تسهيلٍ وتقريبٍ؛ حتَّى تَكُونَ مُنْدَمِجةً في جِسْمِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ. وإنْ لَّمْ تَتِمَّ عمليَّةُ التَّعريفِ والتَّقريبِ لأفكارِهِ الأساسيَّةِ فقدْ يَمْتَدِحُهُ النَّاسُ مُسْتَقْبَلًا امتداحَ مَهَابَةٍ، كبعضِ مُثَقَّفِي العالَمِ الكِبارِ، مِمَّن يكتفي القارِئُ بِمَدْحِهِمْ ولا يَجْرُؤُ عَلَى اقتحامِ قِلاعِهِمْ

وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ ما فَعَلَهُ محمَّد بن حامِد الأحمريُّ سبيلٌ طَيِّبٌ لِيُسِيغَ "جِسْمُ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ" أفكارَهُ، وظَهَرَ على كِتابِ **نَبْتِ الأرضِ وابْنِ السَّماءِ** أَثَرٌ مِّنْ طريقةِ بيغوفيتش في الكتابةِ والتَّأليفِ، وهي طريقةٌ شاقَّةٌ، وإنْ ظَنَّها القارِئُ العَجِلُ سهلةً يَّسيرةً؛ فالكِتابُ يُبَسِّط

الأفكارَ بِنَثْرِها في مَتْنِهِ، وكأنَّهُ يَقُصُّ رِحلةَ المُجَاهِدِ الكبيرِ بإعادةِ تركيبِ فِكْرِهِ المُمْتَدِّ في الزَّمانِ والمَكانِ مِنْ جديدٍ، أوْ كأنَّهُ رِوائِيٌّ يَعْرِضُ أبطالَ رِوَايَتِهِ دُونَ أن يُشْعِرَ قارِئَهُ بِحَذْلَقَتِهِ.

وعندي أنَّ هذا الأسلوبَ – ولَهُ مَشَابِهُ جَمَّةٌ في التُّراثِ العربيِّ - ينطوي عَلَى ذَكَاءٍ في الكتابةِ؛ فالكلماتُ تُناظِرُ الكلماتِ، والأفكارُ تُناظِرُ الأفكارَ، وشَبِيهٌ بهذا ما صَنَعَهُ المُفَكِّرُ المِصْرِيُّ حَسَن حَنَفِيّ في غيرِ كِتابٍ مِّنْ كُتُبِهِ المُتَأَخِّرةِ، فليسَ للمُؤَلِّفِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى تحريكِ النَّصِّ، وذلك مُؤَثِّرٌ بالِغُ التَّأثيرِ في تكوينِ الفِكْرِ وهَضْمِهِ وإسَاغَتِهِ، وليس له صِلَةٌ بألوانٍ أُخْرَى مِنَ التَّأليفِ كالاختصارِ والتَّهذيبِ، إنَّ ذلك شأنٌ آخَرُ، أَمَّا كِتابُ الأحمريِّ فتكوينٌ جديدٌ لِفِكْرِ بيغوفيتش.

وعَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش كالفلاسفةِ الكِبارِ في النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ؛ وذلك أنَّ الفلسفةَ تنطوي، في أَصْلِ نشأتِها، عَلَى حُبِّ المعرفةِ والبحثِ في أصْلِ الأشياءِ، وعسى أن يَكُونَ في تعريفِ الوَضْعِيَّةِ المَنْطِقِيَّةِ للفلسفةِ بأنَّها "منهجٌ بِلا مُحْتَوَى" فُسْحةٌ لها لمعالجةِ كُلِّ أصنافِ النَّشَاطِ الإنسانيِّ، وأنا أَلْفَيْتُ طَرَفًا مِّنْ هذا البِنَاءِ الفلسفيِّ الكُلِّيِّ في شَذَراتِ بيغوفيتش الَّتي تَجْعَلُهُ فيلسوفًا مُمْتازًا لَوِ التفتَ إليهِ الفِكْرُ العالَمِيُّ، وإلَّا يَفْعَلِ الغربيُّونَ ذلك، فحَسْبُهُ أن يَلْتَفِتَ إليهِ المُفَكِّرونَ العَرَبُ والمسلمونَ، فليس الرَّجُلُ، عَلَى كُلِّ حالٍ، بِالغُمْرِ في مَسَارِبِ الثَّقافةِ الكونيَّةِ.

وعَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش – كما تَدُلُّ نُصُوصُهُ في كِتابِ الأحمريِّ - مُتَأَمِّلٌ فَذٌّ لجوهرِ الإسلامِ، إنَّهُ لا يَقْرَأُ في النَّصِّ سَطْحَهُ، ولكنَّهُ يَبْلُغُ بِهِ الأعماقَ، ويأخُذُ بِيَدِ قارئِهِ حتَّى يَصِلَ إلى الباعِثِ المُحَرِّكِ للإنسانيَّةِ في ذُرَاها، ولا يَقِفُ في تَصَوُّرِهِ للإسلامِ، وهو يَدْفَعُ الإنسانَ إلى التَّحَرُّرِ مِنَ القُيُودِ، عِنْدَ حُدُودِ زمنٍ بِعَيْنِهِ، ولكنَّهُ يَلْقَى في ثقافةِ العَرَبِ قَبْلَ الإسلامِ إرهاصًا لتلك النُّفُوسِ السَّوِيَّةِ؛ فالإسلامُ يُحَرِّرُ الْحَيَاةَ مِنْ أنْ تَكُونَ سِجِلًّا لِّلأحزانِ، وكذلك شِعْرُ العَرَبِ قَبْلَ الإسلامِ

فالعَرَبُ كانوا مَيَّالِينَ إلى التَّضحيةِ ومَلَذَّاتِ الحياةِ، الأمر الَّذي يُمْكِنُ أنْ نُلاحِظَهُ بِوُضُوحٍ في أشعارِهِمْ قَبْلَ الإسلامِ، وكانَتْ مِنْ هذهِ النَّاحيةِ تمهيدًا للإسلامِ... وبِدِراسةِ الشِّعْرِ (الْجاهِليِّ) يُمْكِنُ البرهنةُ عَلَى ذلك. الأمرُ يتعلَّقُ بفضاءٍ رُّوحِيٍّ، كان قريبًا جِدًّا مِّنَ الإسلامِ... شِعْرُ البَدْوِ قَبْلَ الإسلامِ يتحدَّثُ لنا بِوُضُوحٍ عنْ أخلاقِ شَعْبٍ نَّاضِجٍ ويُغَنِّي للقُوَّةِ والرُّجُولةِ، والتَّسامُحِ وحِمَايَةِ الضُّعفاءِ، والتَّضامُنِ والنِّضَالِ، والشَّجاعةِ واحترامِ المرأةِ، والأخلاقِ العائليَّةِ، والمَهارَةِ والشُّعُورِ بالكرامةِ

ويُفَسِّرُ منهجُ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ عَلِيّ عِزَّتْ بيغوفيتش – وهو القِسْمُ الثَّاني مِنْ كِتاب الأحمريّ - كيفَ يَعْمَلُ فِكْرُهُ، بَلْ إنَّهُ يُفَسِّرُ ما آمَنَ بِهِ مِنْ أفكارٍ في التَّربيةِ والفَنِّ والسِّياسةِ؛ فالثَّقافةُ، في رُوحِها، بحثٌ دائِبٌ عنِ الْحُرِّيَّةِ، فلا شيْءَ خارِجَها، ولا شيْءَ دُونَها، فَـ

الْحُرِّيَّةُ تَصْنَعُ الأفكارَ الخاصَّةَ للأفرادِ، وتُفَتِّقُ عُقُولَهُمْ وأَلْسِنَتَهُمْ، وبِغِيابِها يَسُودُ تَمَاثُلُ الأغبياءِ، والكثيرُ مِنَ التَّربيةِ المُوَحَّدةِ والغُلُوُّ في تَوَحُّدِ الأفكارِ يُجَافِي الْحُرِّيَّةَ، وعِنْدَ مَنْعِ النَّاسِ مِنَ التَّعبيرِ عنْ أفكارِهِمْ فإنَّهم يَهْرُبُونَ منْ تطويرِ الأفكارِ، وعِنْدَها ماذا يَبْقَى لَهُمْ مِنْ سِمَات البَشَر؟

لا أُريدُ أنْ أَفْرُكَ "النَّوّارَةَ" حتَّى لا أُفْسِدَ مُتْعَةَ شَمِّها، لكنَّ الفَرْكَةَ الأخيرةَ، قَبْلَ أنْ أُوْقِف القَلَمَ، سأخُصُّ بِها هذهِ الطَّريقةَ مِنَ الكتابةِ الَّتي لَمْ تُقَدِّمْ بينَ يَدَيْها بِحُشُودٍ مِّنَ المصطلحاتِ الْمُفْزِعةِ، ولَمْ تَخْتَبِئْ خَلْفَ حُجُبٍ مِّنَ اليقينِ الْمَدْرَسِيِّ. لَمْ يَفْعَلْ محمَّد بن حامِد الأحمريُّ ذلك، ولَوْ أنَّهُ فَعَلَ ذلك لكانَ أَوَّلَ مَنْ "فَرَكَ" فِكْرَ بيغوفيتش، وحَوَّلَهُ إلى مِزَقٍ وأشلاءٍ، ولَأَتاحَ لي أنْ "أَفْرُكَ" كِتابَهُ، ولكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ!

مِنَ الصَّوْتِ إلى الكتابةِ

لا زِلْتُ أتذكَّرُ ذلك اليَوْمَ مِنْ أيَّامِ عامِ 1398هـ تمامًا. كُنْتُ قدْ أَتْمَمْتُ، حينئذٍ، اختبارَ الشَّهادةِ الابتدائيَّةِ في **المدرسة الفيصليّة**، بمحلِّها الكائنِ في مَحلَّةِ القُرَيَّاتِ، بَعْدَ أنْ تَحَوَّلَتْ إليها مِنْ حارَتي الحبيبةِ الهِنْدَاوِيَّةِ.

لا أستطيعُ اليَوْمَ تعيينَ الوقتِ، لكنَّني أَذْكرُ أنَّه في النَّهارِ، ويَغْلِبُ على ظَنِّي أنَّه قُبَيْلَ الظُّهْرِ، اجْتَمَعْنا أنا وأُمِّي وإخوتي حَوْلَ المِذْياعِ، نترقَّبُ اللَّحْظَةَ الَّتي يَفُوهُ فيها المُذِيعُ الشَّهيرُ بدر كُرَيِّم بِاسْم مَدْرَسَتِي، مُعَدِّدًا أسماءَ النَّاجِحِينَ في الشَّهادةِ الابتدائيَّةِ إلى المَرْحَلَةِ المُتَوَسِّطةِ. كانَ الصَّمْتُ والوُجُومُ يَلُفَّانِ المكانَ، وعَلَى وُجُوهِنا هالةٌ مِّنَ التَّرَقُّبِ.. بَدَأَ الْمُذِيعُ بِحَرْفِ الأَلِفِ فالباءِ فالتَّاءِ فالثَّاءِ، وحِينَ انتهَى إلى حَرْفِ الْجِيمِ = جَعَلَ كُلٌّ مِنَّا يُشِيرُ إلى الآخَرِ بإصبعِهِ إشارةً يُرِيدُ بِها المُبالَغَةَ في الصَّمْتِ، والاستعدادَ لِبَدْءِ الْمُذِيعِ بِحَرْفِ الْحَاءِ، ثُمَّ ما لَبَثَ أنْ جَعَلَ يقرأُ الأسماءَ الَّتي تَبْدَأُ بِحَرْفِ الْحَاءِ، وسَرْعانَ ما فاهَ بِاسْمِي قائلًا: حُسَيْن محمَّد عَلَوِيّ بافقيه؛ فانْفَجَرَ البيتُ صِيَاحًا وابتهاجًا بنجاحي! وما هي حَتَّى عَرَفَتِ الْحَارَةُ بالخَبَرِ السَّعِيدِ، وعَهِدَتْ أُمِّي إِلَيَّ بابتياعِ صُنْدُوقٍ مِّنْ قواريرِ البيبسي والمِيرندا وتوزيعِها عَلَى الْجِيرانِ، ومَن يَعْبُرُ الشَّارِعَ الَّذي يَقَعُ فيهِ بَيْتُنا، قَبْلَ أنْ تُوْكِلَ إِلَيَّ أُمِّي الذَّهابَ إلى السُّوقِ لأُحْضِرَ اللَّوْزَ النَّيِّئَ، وتَفْرَغَ، هي وأُخْتَيَّ، ساعةً مِّنْ نَّهارٍ لإعدادِ مشروبِ "قهوة اللَّوْزِ" السَّاخِنِ، ذِي الطَّعْمِ الرَّائعِ النَّفَّاذِ، وتوزيعِ أكوابٍ مِّنْهُ عَلَى الْجِيرانِ والأصدقاءِ مِنْ أبناءِ حَارَتِنا الهِنْدَاوِيَّةِ.

وأَذْكُر أنَّني عندما التقيْتُ الإعلاميَّ الكبيرَ عبدَ الكريمِ الخطيبَ، ليلةَ تكريمِهِ في "اثنينيَّةِ" الشَّيخِ عبدِ المقصود خوجه = كُنْتُ كَمَنِ استردَّ شيئًا مِّنْ عُمْرِهِ، وجَعَلْتُ، في تلك اللَّيلةِ، أُصْغِي إلى صَوْتِهِ الإذاعيِّ المُمَيَّزِ، وبينما أَخَذَ في استعادةِ ذكرياتِهِ، رَجَعْتُ الْقَهْقَرَى إلى السَّنَوَاتِ الأخيرةِ مِنْ عَشْرِ التِّسعِينَ مِنَ القَرْنِ الهِجْرِيِّ الماضي، ففي ذلك الصَّباحِ الباكرِ، ونحنُ نستعِدُّ للذَّهابِ إلى المدرسةِ، ونَدْفَعُ عنْ وُجُوهِنا ما تَبَقَّى مِنْ نَّوْمٍ، وَّنَسْمَعُ لنصائحِ

أُمِّي كَيْ نَشْرَبَ الحليبَ السَّاخِنَ، وهي تَفْتَحُ حَقيبتَها الصَّغيرةَ، وتُخْرِجَ مِنْها لِكُلِّ واحدٍ مِنَّا مصروفَ اليومِ المدرسيِّ رِيَالَيْنِ كامِلَيْنِ = كان يَنْتهي إلى أسماعِنا صوتُ مِذياعِنا، صادِحًا بتلك الأُنشودةِ الَّتي عَلِقَتْ بِسَمْعِي، منذُ ذلك الزَّمَنِ:

أحْرُتْ وازْرَعْ أَرْض بَلَادَك

بُكْرَهْ تِعْطِي الْخِيرْ لِوْلَادَك

جاهِدْ واسْهَرْ تِغْرِسْ فِيهَا

زَرْعَك يِثْمِرْ خُذْ واعْطِيهَا

ثُمَّ يَخِفُّ صَوْتُ الأُنشودةِ، فينتهي إلينا اسْمُ البرنامجِ "الأرض الطَّيِّبة"، وبعدئذٍ يَصْدَحُ صوتُ الإعلاميِّ عبدِ الكريم الخطيب، بأسلوبِهِ الْعَذْبِ السَّهْلِ اليسيرِ، في حديثٍ مَّاتِعٍ عن الزِّراعةِ والفِلَاحَةِ والتُّرْبةِ وما تحتاجُهُ مِنْ سَمَادٍ وخِلَافِهِ، ويَسْتَمِرُّ البرنامِجُ، مَعَنا، صباحَ كُلِّ يَوْمٍ، حتَّى لكأنَّنا لا نَتَصَوَّرُ صَبَاحًا دُون برنامج "الأرض الطَّيِّبة"! ولا تكتمِلُ طُقوسُ الصَّحْوِ والاستعدادِ للذَّهابِ إلى المدرسةِ، دُونَ أنْ نَرْمِيَ بأسماعِنا إلى صوتِ المُذيعِ الكبيرِ عبد الكريم الخطيب.

ما كِدْتُ أنسَى تلك الأيَّامَ، حتَّى وَضَعَ عدنان صعيديّ بينَ يَدَيَّ كِتابَهُ الْجَدِيدَ **عَلَى مَوْجَةٍ طويلةٍ، برامِجُ وشخصيّاتٌ**(38)، وما إنْ أَخَذْتُ في قِراءَتِهِ حتَّى بِتُّ في حالَينِ لا أَعْرِفُ صَرْفَ أَحَدِهِما عنِ الآخَرِ؛ ما انطوَى عليهِ الكِتابُ مِنْ تأريخٍ وتدوينٍ لبرامجَ إذاعيَّةٍ قديمةٍ، وما تَسَرَّبَ إلى ذاكرتي ووِجداني مِنْ طائفةٍ مِنْها، وألفيتُني أقرأُ كلامَ عدنان صعيديّ، وهو جميلٌ مُؤَثِّرٌ مَّاتِعٌ، وأَغُوصُ في ذاكرتي مَعَهُ، فأَسْتَذْكِرُ مَلامِحَ تلك السَّنواتِ الَّتي كان المِذْياعُ يحتلُّ مَوْقِعَهُ في بَيْتِنا، ولمْ يستطِعِ التِّلفازُ، في زَمَنِ الأبيضِ والأَسْوَدِ، ولا المُلَوَّنِ، أن يَصْرِفَنا عنهُ، فأَلِفْنا أصواتَ المُذِيعينَ والمُذِيعاتِ، وأسماءَ المُعِدِّينَ والمُخْرِجِينَ

ومُهَنْدِسِي الصَّوْتِ، وباتَ مألوفًا في ذاكرتي وذاكرةِ كُلِّ مَنِ انتمَى إلى الْجِيلِ الَّذي أنتمي إليهِ = أسماءُ عبد الله راجِح، وسعيد الهِنْدِيّ، وأحمد كُتَامِيّ، وعبد الرَّزَّاق نُورِيّ، وعَلِيّ قَلَص الغامِديّ، وشِيرين شحاته، ونجوَى مُؤْمِنة، وماما سُعَاد = فَهُمْ أَقْرَبُ إلينا؛ لأنَّهُمْ مَعَنا، طُولَ الوقتِ، ما دامَتْ أصواتُهُمْ وأسماؤهُمْ تَصِلُ إلينا مِنْ خَلْفِ إبرةِ المِذياعِ.

لا أَعرِفُ كيفَ ستستقْبِلُ الأجيالُ الْجديدةُ، تلك الَّتي لَمْ تنشأْ عَلَى المِذياعِ، ولمْ تَعْرِفْ برامِجَهُ، كما عَرَفْناها = كِتابَ عدنان صعيديّ؟ لكنَّني أقولُ، دُونَ أن يَكُونَ في كلامي ضَرْبٌ مِّنْ غُلُوٍّ: إنَّ عدنان صعيديّ أثارَ بِكِتابِهِ هذا ما اختبأَ في مَطَاوِي الذَّاكِرةِ، وأعادَها جَذَعَةً، قَوِيَّةً، فَتِيَّةً، واستجلَبَ إلينا قَدْرًا مِّنَ الْحَنِينِ والْفَرَحِ والْحُزْنِ؛ الْحَنِينِ إلى أيَّامٍ مَّضَتْ، والفَرَحِ بذاكرةٍ حَيَّةٍ، والْحُزْنِ عَلَى عُمْرٍ مَّضَى، لكنَّهُ، في الْحَنِينِ والْفَرَحِ والْحُزْنِ، أَحْسَنَ إلينا، كما أَحْسَنَ إلى تاريخِ الإعلامِ في بِلادِنا. استردَدْنا بِكِتابِهِ جانِبًا حبيبًا مِّنْ حياةِ كُلِّ واحِدٍ أَدْرَكَ ذلك العَصْرَ، ومَنَحَ ثقافتَنا وإعلامَنا كِتابًا فيهِ مِنْ تاريخِ الإذاعةِ السُّعُوديَّةِ ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا مَنْ عاصَرَها وعَمِلَ فيها، وهذا ما اتَّسَمَ بِهِ عدنان صعيديّ، في رِحلتِهِ الطَّويلةِ خَلْفَ المِذْياعِ.

ما الَّذي قَدَّمَهُ عدنان صعيديّ في كِتابِهِ هذا؟

سَيَظْفَرُ فيهِ مُؤَرِّخُ الإعلامِ، وخاصَّةً الإذاعةَ، بتأريخٍ دَوَّنَهُ مُؤَرِّخٌ مُعاصِرٌ، وَقَفَ عَلَى الْحَدَثِ بِنَفْسِهِ، بَلْ وضَرَبَ بِسَهْمٍ وَّافِرٍ في صِناعتِهِ، وذلك هو المُؤلِّفُ عدنان صعيديّ = وسيَلْقَي فيهِ طُلَّابُ الإعلامِ ذاكِرةً لِّحِقْبَةٍ قديمةٍ مِّنْ عُمْرِ إذاعةِ جُدَّة، استنقَذَها المُؤلِّفُ مِنَ الضَّياعِ، وأَثْبَتَها في كِتابِهِ، فظَهَرْنا فيها عَلَى وَثائِقَ طريفةٍ لإنتاجِ البرامجِ وإخراجِها وتنفيذِها، وعَرَفْنا أسماءَ المُعِدِّينَ والمُذِيعِينَ والمُخْرِجِينَ والفَنِّيِّينَ = وعَرَفْنا ساعةَ البَثِّ، وهي ذخيرةٌ نَّفِيسةٌ، سيُنْزِلُها التَّاريخُ مَنْزِلَتَها، بعد حِينٍ، وجَلَا فيه عدنان الْحُجُبَ عنْ أسماءٍ اتَّصلَتْ أسبابُها، منذُ عُقُودٍ طويلةٍ، بالإذاعةِ، فتَرْجَمَ لها ترجمةً وَافِيةً، وقَدَّمَ لِمُؤلِّفِي التَّراجِمِ العامَّةِ سِيَرًا أمينةً لجِيلٍ قديمٍ ومُخَضْرَمٍ مِّنَ الإذاعيِّينَ والإعلاميِّينَ. سيُقْرَأُ كُلُّ أولئك، وسيَقْرَأُ القارئُ المثقَّفُ، كلامًا مبسوطًا مِّنَ التَّاريخِ الحَيِّ الَّذي لا أَثَرَ لِمُعْظَمِهِ في الكُتُبِ ولا الصُّحُفِ

= عنْ برامجَ وأسماءٍ، لَعَلَّ مِنَّا مَن يَعْرِفُها، ومِنَ الْمُؤَكَّدِ أنَّ جمهرةً مِنَّا لَمْ يَعْرِفُوها، فكان كِتابُ عدنان صعيديّ تقييدًا لتلك الحياةِ، وتنبيهًا عَلَى تلك المَآثِرِ.

سنَقْرَأُ ذلك، لا شَكَّ، وسنَظْهَرُ عليهِ، كُلَّما دَعَتْنا الْحَاجَةُ إلى توثيقِ خَبَرٍ، أوْ تَجْلِيَةِ وَهْمٍ، أوْ معرفةِ عَلَمٍ، ولا يَعترِيني شَكٌّ في أنَّ كِتابَ عدنان هذا، وكِتابَهُ الَّذي سَبَقَهُ في الصُّدُورِ **عَلَى المَوْجَةِ القصيرةِ** = سيَغْدُوَانِ مرجعينِ مهمَّيْنِ يَفْزَعُ إليهما مُؤرِّخُو الإذاعةِ السُّعُوديَّةِ وطَلَبَةُ الإعلامِ، وسيرَى فيه أساتذةٌ في أقسامِ الإعلامِ في جامعاتِنا ما يَرْفَعُ كِلَيْهِما لِيُصْبِحَا كِتابَيْنِ مُقرَّرَيْنِ عَلَى الطُّلَّابِ، يسترشدونَهما فيما انْبَهَمَ عليهِمْ مِّنْ تاريخِ الإذاعةِ السُّعُوديَّةِ، ورِجالِها ونِسَائِها، ويكتشفونَ فيهما كيفَ استكانَ عَلَى الوَرَقِ ما كان صَوْتًا أَثِيرِيًّا، لِيُصْبِحَ جُزْءًا مِنْ تُراثِنا الثَّقافيِّ، ولَعَلَّهُمْ سيُعْجَبُونَ بأولئكَ الرِّجالِ والنِّساءِ، حِينَ عَدُّوا الإذاعةَ ضَرْبًا مِّنْ ضُرُوبِ الاستنارةِ وتنميةِ المُجْتَمَعِ، مهما كَلَّفَهُمْ ذلك الصِّعَابَ والمَشَاقَّ.

كُلُّ ذلك وارِدٌ، وكُلُّ ذلك حَقِيقٌ بأن يَبْلُغَهُ الكِتابانِ، وبخاصَّةٍ **عَلَى مَوْجَةٍ طَويلةٍ**، فهُما يَدُلَّانِ عَلَى مِقْدارِ ما عَرَفَهُ عدنانُ وعاشَهُ، وكان هو، بِحَقٍّ، المُؤرِّخَ المُؤْتَمَنَ عليهِ، والْمَنُوطَ بهِ نَقْلُ ذلك التَّاريخِ إلى الأجيالِ، فكانَ ذانِكَ الكِتابانِ.

وعَلَى أنَّني أَجِدُ في هذا اللَّوْنِ مِنَ الكُتُبِ لَذَّةً ومَتَاعًا، وعَلَى أنَّني أُحِبُّ مِنَ الكُتُبِ ما يَمِيلُ إلى التَّأريخِ والتَّدوينِ، نُقَيِّدُ بِها حِقَبًا مِّنْ تاريخِنا، ومَعَالِمَ مِنْ حياتِنا = فإنَّ ما شَدَّنِي إلى هذا الكِتابِ أمرٌ آخَرُ، لا صِلَةَ له بالتَّاريخِ ولا التَّوثيقِ ولا التَّدوينِ، وإنِ استجمعَها وانطوَى عليها وأَنْهَاها إلى قارِئِهِ واضِحةً بَيِّنةً لا يَكْتَنِفُها غُمُوضٌ ولا إبهامٌ.

كُنْتُ، كُلَّما مَضَيْتُ في الكِتابِ، أُمسِكُ بأَثَرٍ ظاهِرٍ مِّنْ عدنان صعيديّ، أكادُ أَسْمَعُ صَوْتَهُ مِنْ وَّراءِ الكلماتِ المكتوبةِ، وكُنْتُ أستطيعُ تَتَبُّعَ أَثَرِهِ كُلَّما تَقَدَّمْتُ في فُصُولِهِ، واستبانَ لِي أنَّني أقرأُ في فُصُولِهِ وفِقَرَاتِهِ ومَقَاطِعِهِ حياةَ عدنان، منذُ كانَ طِفْلًا تَدْفَعُهُ الأُمنياتُ إلى أن يَكُونَ مُذِيعًا، إلى أنِ الْتَفَّ حَوْلَ أسماءِ المُذِيعِينَ والمُعِدِّينَ والمُخْرِجِينَ، الَّذين أمضَى حياتَهُ كُلَّها في كَنَفِهِمْ، ثُمَّ إذا بِهِمْ يغادِرُونَهُ، واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، فيَمْضِي وحيدًا إلَّا مِنْ ذِكرياتِهِ، وكُلَّما تَقَدَّمَ بِهِ العُمْرُ، لا يَجِدُ مَعْنًى يُصِيبُهُ لحياتِهِ إلَّا في ذلك الماضي الَّذي كان، وعساهُ أدركَ أنَّ

"المِذْيَاعَ" الَّذي أَلِفَ حَشْرَجاتِ صَوْتِهِ، لن يلبثَ أن يُظِلَّهُ يومٌ يُحَالُ فيه ما بينهما، حِينَ يتقاعَدُ مِنْ عَمَلِهِ، فآثَرَ أن يُحِيلَ "الصَّوْتَ" إلى "كتابةٍ"، فأَخْرَجَ لنا كِتابَيْهِ **عَلَى المَوْجَةِ القصيرةِ**، و**عَلَى مَوْجَةٍ طويلةٍ**.

لَبِثَ عدنانُ دهرًا طويلًا يُسْمِعُ النَّاسَ صَوْتَهُ، يَرْوِي لَهُمُ الْخَبَرَ حِينَ يُصْبِحُ، ويُناجِيهِمْ حِينَ يُمْسِي، وآنَ اليَوْمَ، بَعْدَ أنْ فُطِمَ عنِ المِذْياعِ، أنْ يُقْرِئَهُمْ ما يَكْتُبُهُ، ولَعَلَّهُ استوفَى كُلَّ ما أتاحَهُ لهُ الصَّوتُ، وآمَنَ، بآخِرةٍ، أنْ جاءَ أَوَانُ الكتابةِ، ولَمَّا كَتَبَ وَجَدَ نَفْسَهُ، كَرَّةً أُخْرَى، ولا شُغْلَ لهُ إلَّا الكتابةُ عنِ الصَّوْتِ، بَلْ إنَّ للصَّوتِ سطوةً عليهِ، تلك السَّطوةَ الَّتي تُلْفِيها في عِنوانَيْ كِتابَيْهِ المُسْتَمَدَّيْنِ مِنِ اصطلاحِ المُشْتَغِلِينَ بالإذاعةِ.

كَتَبَ عدنانُ صعيديّ عنِ الإذاعةِ وعنْ رُوَّادٍ عَبَرُوا بِها، ولكنَّهُ كَتَبَ عنْ نَفْسِهِ، وأنا يَحْلُو لِي أنْ أَرَى في كِتابِهِ **عَلَى مَوْجَةٍ طويلةٍ** سِيَرًا لأولئكَ الرُّوَّادِ الأعلامِ، وأرى فيهِ سِيرةً لِّعدنانَ، وسِيرةً لَّنا نحنُ الَّذينَ أَدْرَكْنا طَرَفًا مِّنْ ذلك التَّاريخِ، وأولئك الرُّوَّادِ، وتلك البرامجِ. هُوَ لمْ يَقُلْ ذلك، ورُبَّما لمْ يَمُرَّ بِخاطِرِهِ، لكنَّ حياتَهُ ظَهَرَتْ في مَرَايَا أساتذتِهِ وزُملائِهِ الَّذين عَمِلَ مَعَهُمْ، وأَحَبَّهُمْ، ورَغِبَ في الكتابةِ عنهم، ويستطيعُ القارِئُ أن يَتَتَبَّعَ حياةَ عدنانَ في كِتابِهِ هذا، طِفْلًا فشابًّا فرَجُلًا فشَيْخًا، يَقْرَأُها في حديثِهِ عنْ برامجِ الأطفالِ، ويَقْرَأُها في سِيَرِ سعيد الهِنْدِيّ، وبَدْر كُرَيِّم، وعبد الله راجِح، وأحمد كُتَامِيّ، وعبد الرَّزَّاق نُورِيّ، ويَقْرَأُها في هذا البرنامجِ أوْ ذلك، وكأنَّ عدنانَ خَشِيَ عَلَى التَّاريخِ العَفَاءَ والاندثارَ، خَشْيَتَهُ عَلَى حَيَاتِهِ هو، ونَفْسِه هو، فاطَّرَحَ "الصَّوتَ"، وانبرَى للكتابةِ.

والَّذي أُوْمِنُ بِهِ أنَّ عدنانَ، في مرحلتيهِ؛ مرحلةِ الصَّوتِ، ومرحلةِ الكتابةِ، تَحَقَّقَ لهُ النُّجْحُ؛ نَجَحَ حِينَ لمْ يَعْرِفِ النَّاسُ مِنْهُ إلَّا صَوْتَهُ القادِمَ إليهم مِّنْ وَّراءِ الأثيرِ، تَرْفِدُهُ لُغَةٌ سَمْحَةٌ مَّتِينةٌ، لا ضَعْفَ فيها ولا التواء، ونَجَحَ حِينَ امْتَشَقَ القَلَمَ واتَّخَذَ الكِتابةَ ذَرِيعَتَهُ إلى النَّاسِ، فقَدَّمَ كتابةً، بِوُسْعِنا أنْ نُطْلِقَ عليها، مُصْطَلَحَ "الأدبِ الإعلاميِّ"، فكان في كِتابتِهِ أديبًا يَعْرِفُ قِيمةَ الكَلِمةِ، ويَزِنُها بِمِيزانٍ يُحِسُّ أَثَرَ أصواتِها في الذَّوْقِ والوِجدانِ، وأَحْسَبُ أنَّ

القَدَرَ كان عادِلًا مَعَ عدنانَ، فما إنْ خَسِرَتْهُ الإذاعةُ، بتقاعُدِهِ مِنْها، حتَّى كَسَبَتْهُ الكتابةُ، فكان فيها السَّابِقَ الْمُجَلِّي.

يا عدنانُ!

أنا عَدَدْتُ كِتابَكَ هذا كِتابًا في السِّيرةِ، واعْلَمْ، أيُّها الصَّديقُ، أنَّكَ لَمْ تَكْتُبْ فيهِ سِيرتَكَ وَحْدَكَ، ولكنَّكَ كَتَبْتَ فيهِ سِيرَتِي وسِيرةَ كُلِّ مَنْ أدركَ ذلك العَهْدَ الَّذي أدركْتَهُ أنتَ وأدركْتُهُ أنا، فأَلْفَى في كِتابِكِ الحَنِينَ والفَرَحَ والحُزْنَ؛ الحَنِينَ إلى أيَّامٍ مَّضَتْ، والفَرَحَ بذاكرةٍ حَيَّةٍ، والحُزْنَ عَلَى عُمْرٍ مَّضَى!

عبدُ الرَّحمن المُعَمَّرُ إمتاعٌ ومُؤَانَسَة

عَرَفْتُ اسْمَ الأديبِ عبدِ الرَّحمن المُعَمَّر قديمًا، كانَ ذلك يَوْمَ اتَّصَلَتْ أسبابي بمكتبةِ تِهَامَةَ، في المرحلةِ الثَّانويَّةِ. ومنذُ عَرَفْتُ كِتابَيْهِ **المُضِيفَات والمُمَرِّضات في الشِّعْرِ المُعَاصِر**" (1404هـ)، و**الْبَرْق والبَرِيد والهاتِف وصِلَتها بِالحُبِّ والأشواق والعَوَاطِف** (1404هـ) = عَرَفْتُ فيه أمرينِ؛ سَعَةَ ثقافتِهِ ووَفْرَةَ مَحْفُوظِهِ مِنْ شِعْرِ العَرَبِ؛ قديمِهِ وحديثِهِ، وأنَّ هذا الرَّجُلَ واحِدٌ مِّنْ ظُرَفاءِ العَرَبِ في عَصْرِهِم الحاضِرِ، فلَمَّا اختلفْتُ إلى الْجامِعةِ عَرَفْتُ أنَّ الرَّجُلَ مَعْدودٌ مِّنْ رُوَّادِ الصِّحافةِ في بِلادِنا، ومِنْ حَسَنَاتِهِ أنَّه أَنْشَأَ **دارَ ثَقِيف للنَّشْرِ والتَّأْليف**، ومَجَلَّةَ **عالَم الكُتُب**، وفَصْلِيَّةَ **المَخطوطات والنَّوادِر**، وشارَكَهُ في إنشائِها الأديبُ الجليلُ عبدُ العزيز الرِّفاعيُّ.

وأَدْرَكْتُ، اليَوْمَ، وأنا أُعَاوِدُ قِراءةَ الكِتابَيْنِ، مَرَّةً أُخرَى، أنَّني إزاءَ أديبٍ سَلَكَ، في الكتابةِ والتَّأليفِ، دَرْبًا، لا يكادُ يَسْلُكُهُ أُدباءُ ومُؤَلِّفونَ، إلَّا شيئًا قليلًا، وأسبابُهُمْ، في ذلك، مُتَبَايِنةٌ، أَهَمُّها أنَّ قَبِيلًا مِّنَ المُثقَّفِينَ العربِ، كُتَّابًا وقُرَّاءً، كأنَّما نَسَكُوا نُسُكًا أعجميًّا، فخالفوا عنِ السَّنَنِ الَّذي أَخَذَتْ بِهِ الثَّقافةُ العربيَّةُ، في فَجْرِها وضُحَاها وظُهْرِها، أوْ كأنَّ مِنْهم مَنِ اقتفَى ضُرُوبًا مُخْتَلِفةً مِّنَ الثَّقافةِ الأوربِّيَّةِ، في التَّحفُّظِ والتَّحَوُّطِ، فَمَسَّهُم شيْءٌ مِمَّا اشتَهَرَ بِهِ "العَصْرُ الفِكتُورِيُّ"، وكان عَصْرًا مُتَحَفِّظًا، مُتزمِّتًا، مُسْرِفًا في التَّنَسُّكِ والتَّطَهُّرِ، فرأى أولئك الأُدباءُ والمثقَّفونَ، مِمَّنْ عَرَفوا الكِتابَيْنِ، كِفَاحًا، أوْ أولئك الَّذين انتهَى إليهم شيْءٌ مِنْ نَّبَئِهِما = فيهما ما يَصْرِفُهُمْ عنِ الثَّقافةِ "الجليلةِ" الَّتي لا ينبغي لأحدٍ مِّنْ أهلِ القَلَمِ أن يَنْتَحِلَها ويَعْتَقِدَها. وما يُدْرينا فلَعَلَّ نَفَرًا مِّنْ أولئك المُثقَّفِينَ حَطُّوا مِنْ شأنِ ذَيْنِكَ الكِتابَيْنِ، وبالغُوا فأَنزلُوا عبدَ الرَّحمن المُعَمَّر عن الثَّقافةِ "الرَّفيعةِ" الَّتي رامُوها، وإلَّا كَيْفَ لكاتِبٍ أوْ أديبٍ أن يَنْصَرِفَ عنْ ذلك الأدبِ "الرَّفيعِ" – هكذا زَعَمُوا - فَيَفْرَغَ، حِينًا مِّنَ الزَّمانِ، ويَتَتَبَّعَ ما قالَهُ الشُّعراءُ في "المُضِيفاتِ" و"المُمَرِّضاتِ"، و"البَرْقِ والبريدِ والهاتِفِ"؟!

ويَظْهَرُ لِي أنَّ الوَجِيهَ عبدَ الرَّحمن المُعَمَّرَ اعترضَتْهُ، يَوْمَ أذاعَ كِتابَيْهِ، أقوالٌ تُهَوِّنُ مِمَّا أَنْشَأَهُ، وأقربُ الظَّنِّ أنَّ أَهْلَ التَّزَمُّتِ والنُّسُكِ الأعجميِّ كانوا فِئَتَيْنِ؛ أَمَّا أُولاهُما فطائفةٌ مِّنَ المُتَدَيِّنِينَ، وخاصَّةً أولئك الَّذين يُطْلِقونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ اسْمَ "طَلَبَةِ العِلْمِ"، وأَمَّا أُخراهما فَنَفَرٌ مِّنَ الأُدباءِ والمُثَقَّفِينَ، وعِنْدَ الفِئَتَيْنِ أنَّهُ لا ينبغي للكاتبِ أوِ الأديبِ أن يُنْشِئَ كِتابًا أوْ فَصْلًا أوْ مَقالًا في المُطَّرَحِ والمُسْتَهْجَنِ مِنَ الكلامِ، ونقرأُ في مُقَدِّمةِ الطَّبعةِ الجديدةِ للكِتابينِ كلامًا كأنَّما يَدْفَعُ بِهِ المُؤَلِّفُ عنْ نَفْسِهِ هذه التُّهْمةَ، ويَصِفُ، وهو مِنْ أَهْلِ الظَّرْفِ = أولئك المُتَنَسِّكِينَ، بِـ "ثِقَلِ الدَمِ والنَّفْسِ والطِّينةِ"، وإلَّا ما الَّذي حَمَلَهُم عَلَى أن يُعَيِّنُوا للأدباءِ والمُؤَلِّفِينَ ما يَكتبونَ وما لا يَكتبونَ؟

والحَقُّ أنَّ ما كَتَبَهُ عبدُ الرَّحمن المُعَمَّرُ ليس يستطيعُهُ أيُّ أَحَدٍ؛ ودَلَّ ما أَنْشَأَهُ عَلَى محفوظٍ وافِرٍ مِّنْ شِعْرِ العربِ، وقُدْرةٍ عَلَى تَتَبُّعِ ما قِيلَ في ذَيْنِكَ البابَيْنِ، في شِعْرِ العربِ، منذُ عَصْرِ نَهْضَتِهِمْ، وحتَّى زمنِ إخراجِ كِتابَيْهِ، ويَعْجَبُ القارِئُ مِنْ حُسْنِ تَهَدِّيهِ إلى موضوعِ تأليفِهِ، ما كان في ديوانٍ نادرٍ قديمٍ، وما كان في ديوانٍ مُعاصِرٍ، وكان عُرُوبيَّ المُتَّجَهِ، فانفسحَ كِتاباهُ لغيرِ شاعرٍ مِّنْ هذا القُطْرِ العربيِّ أوْ ذاك، ولمْ يَكْتَفِ بالكِتابِ وَحْدَهُ، وإنَّه لَيَتَّخِذُ المَجَلَّةَ والصَّحيفةَ مَصْدَرَيْنِ مِنْ مَّصادرِ كِتابَيْهِ، وفي ذلك مِنَ المَشَقَّةِ ما فيهِ.

فإذا عَدَوْنا ذلك "النُّسُكَ الأَعْجَمِيَّ" – في مذهبِ أُدبائِنا القُدامَى - أوِ "الثَّقافةَ الفِكْتُورِيَّةَ – في عُرْفِ الثَّقافةِ الغربيَّةِ - وتَجاوَزْنا ما في الكِتابَيْنِ اللَّطِيفَيْنِ مِنْ تَوَفُّرٍ عَلَى الشِّعْرِ، مهما كان مَذْهَبُهُ في الصَّنعةِ والفَنِّ = فَبِوُسْعِنا أنْ نُدْرِجَ عبدَ الرَّحمن المعمَّرَ في الأُدباءِ "الإنسانيِّينَ"، أولئك الَّذين سَمَتْ هِمَمُهُمْ إلى نَواحٍ قليلٍ طارِقُوها، فإذا تأمَّلْناها ألفَيْناها مِمَّا يَدُورُ حوالَيْنا مِنْ حياةٍ، ويَتَّصِلُ بِها، ولمْ يَكُنِ الأُدباءُ العربُ، في عَصْرِ نهضتِهِمُ الحديثةِ لِيَجْفُوها، وإنَّنا لَنَظْفَرُ بِقَدْرٍ مِنْها ليس هَيِّنًا في **الشَّوْقِيَّاتِ**، وما أَنِفَ أحمد شوقيّ مِنْ أن يَنْظِمَ في شُؤونٍ يِسيرةٍ مِمَّا لهُ تَعَلُّقٌ بِهِ، فَحَيَّا الصَّحفيِّينَ بشَوْقيَّةٍ، يَوْمَ كانَتِ الصِّحافةُ حِرْفَةً ليستْ بالمُوَقَّرةِ، ورَثَى أصدقاءَهُ الَّذينَ أَحَبَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الطَّرَبِ والغِنَاءِ، ووَجَدَ الكِبارُ والصِّغارُ في أشعارِهِ الَّتي اختصَّ بِها الأطفالَ، والحيواناتِ، وقصائدَهُ الهَزْلِيَّةَ في صديقِهِ

الدُّكتور محجوب ثابِت = ما يُرْضِي الفَنَّ والوِجْدانَ، وكذلك كان الشَّأنُ في العَقَّادِ، والمازِنيِّ، وكوكبةٍ أُخرَى مِنَ الشُّعراءِ الَّذين نَقْرَأُ طَرَفًا مِّنْ إنشائِهم في ذَيْنِكَ الكِتابَيْنِ الصَّغيرَيْنِ.

وأنا لا أَدْفَعُ عنْ عبدِ الرَّحمن المُعَمَّر تُهمةً التصقَتْ بِهِ، بَلْ أَزِيدُ فأقولُ: إنَّه أَحْيَا ضَرْبًا مِّنَ التَّأليفِ، كان معروفًا ومألوفًا في ثقافتِنا، عند أولئك الأُدباءِ المَعْدُودِينَ آباءً للأدبِ العربيِّ والثَّقافةِ العربيَّةِ، وما الجاحِظُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وأبو الفَرَجِ الأصفهانيُّ، وأبو حَيَّانَ التَّوحيديُّ، والوَشَّاءُ، وكُشَاجِم، والرَّاغِبُ الأصفهانيُّ، والأبشيهيُّ = إلَّا شَواهدُ يسيرةٌ لثقافةٍ أَنْشَأَ أصحابُها يكتبونَ في "البُخَلاءِ"، و"الحَمْقَى والمُغَفَّلِينَ والمَجَانِينِ"، و"اللُّصُوصِ"، و"الدِّيَارَاتِ"، ولا يكادُ يَخْلُو كِتابٌ، في الأخبارِ والنَّوادِرِ، مِنْ أبوابٍ وفُصُولٍ في ضُرُوبٍ مِّنَ الكتابةِ يأبَى علينا "تَنَسُّكُنا" التَّعريفَ بِها، وقدْ كانَتْ، في يَوْمٍ مِّنَ الأيَّامِ، لا يَخْلُو مِنْها مَجْلِسٌ مِّنْ مَّجالِسِ الأدبِ والعِلْمِ.

قالَ عبدُ الرَّحمن المُعَمَّرُ: إنَّكَ أيُّها القارِئُ ستُصِيبُ في هذينِ الكِتابَيْنِ لَذَّةً ومَتاعًا، وحَسْبُكَ ذلك مِنْهما. وحَسْبُ المُعَمَّر خَلَّةً أن تَتَّجِهَ هِمَّتُهُ يَوْمَ حاضَرَ في مُوْضُوعَيْهِ الطَّرِيفَيْنِ، إلى إمتاعِ قارِئِهِ، ويَكْفِيهِ أن يَكُونَ وَرِيثًا لِّتقاليدَ عربيَّةٍ هي أَصْلٌ في ثقافتِنا، اصطنَعَ لها أبو حَيَّان التَّوحيديُّ عِبارَةَ "الإمتاع والمُؤَانَسَة"، وما أَجْدَرَ أن نَبْعَثَها فَتِيَّةً في ثقافةِ عَصْرِنا الحاضِرِ! ورُبَّما حِيلَ بين كِتابَيْ صاحِبِنا إبَّانَ صُدُورِهِما، وعَسَاهُما نَفِدا مُنْذُ أَمَدٍ بعيدٍ، فإذا أَرَدْنا تصنيفًا نُدْرِجُ فيهِ المُؤَلِّفَ الأديبَ، عَدَدْناه وَاحِدًا مِّنْ "صُنَّاعِ البهجةِ" في بِلادِنا، وما بالقليلِ ذا اللَّقَبُ!

صَبْرُ أحمدَ وعِشْقُهُ

كان أحمدُ التَّيْهَانيُّ مِنْ أُولِي العَزْمِ لَمَّا اختارَ **الشِّعْر في عَسير ١٣٥١-١٤٣٠هـ** موضوعًا لأُطروحتِهِ في الدُّكتوراه، وكان عاشِقًا صابِرًا لَمَّا أَخْرجَها في كِتابٍ مِّنْ جُزْأَيْنِ كبيرينِ، في ١١٠٠ صفحةٍ(39)، ولا يُسَاوِرُني شَكٌّ في أنَّ هذا الضَّرْبَ مِنَ الكُتُبِ يحتاجُ إلى قارئٍ يَّتحلَّى بِصِفتَيِ العِشْقِ والصَّبرِ!

وأَظُنُّكَ ستتهيَّبُ الكِتابَ، بادِيَ الرَّأيِ، ورُبَّما أعرضْتَ عنهُ، أوْ سَوَّفْتَ الظُّهُورَ عليهِ إلى قابِلِ الأيَّام، ولكنَّك إنْ وَقَفْتَ عَلَى فِهْرِسِهِ، وقَرَأْتَ مُقَدِّمتَهُ، ومَرَرْتَ بِثَبَتِ المَصادِرِ والمَرَاجِعِ، سَتَحْمَدُ للباحثِ صَبْرَهُ وعِشْقَهُ؛ لأنَّه لا يكتبُ هذا النَّوعَ مِنَ الكُتُبِ إلَّا صابرٌ عاشقٌ.

أقامَ التَّيهانيُّ أُطروحتَهُ عَلَى الشِّعْرِ في إقليمِ عَسير - جنوبيّ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ - وكأنَّهُ اسْتَبَقَ القارئَ إلى تفسيرِ الإقليميَّةِ في دَرْسِ الأدبِ في هذه النَّاحِيةِ أوْ تلك، وكان حَقًّا عليهِ أن يَدْرُسَ الشِّعْرَ في كُلِّ البِلادِ، لا أنْ تَستأثِرَ ناحِيَةٌ مَّا بِجُهْدِهِ وتَعَبِهِ، مهما كانَتْ مَرْتَبَتُها في الشِّعْرِ والثَّقافةِ!

لَعَلَّكَ فَكَّرْتَ في شيْءٍ مِّنْ ذلك.

وما كان أحمدُ إقليميًّا حِينَ تَوَفَّرَ عَلَى الشِّعْرِ في عَسِيرَ، وحَسْبُكَ أنْ تستعيدَ عَدَدَ الصَّفحاتِ لِتُدْرِكَ ثِقَلَ التَّبِعَةِ الَّتي أُلْقِيَتْ عَلَى كاهِلِ باحِثٍ أَجْمَعَ عَزْمَهُ عَلَى دَرْسِ الشِّعْرِ، دُونَ سِوَاهُ مِنْ فُنُونِ الأدبِ، في عَسيرَ، وفي ثمانينَ سَنَةً مِّنْ تاريخِها الأدبيِّ الحديثِ!

كأنَّما أَحَسَّ أحمدُ لناحيةِ عَسِيرَ ما نَدْعُوهُ، اليومَ، "شخصيَّةً" في المكانِ، لا تُنْفَى عَمَّا سِوَاها، ولكنَّها لا تَصُدُّنا عنْ تِبْيَانِها في الْجُغرافِيَةِ، والإنسانِ، والثَّقافةِ، والفُنُونِ، أوْ عساهُ أَحَسَّ، بدافِعِ "البَلَدِيَّةِ الثَّقافيَّةِ"، وهو دافِعٌ حَسَنٌ والْخَوْضُ فيهِ واجِبٌ = أنَّ دَرْسَ الشِّعرِ في هذهِ النَّاحِيَةِ كأنَّما هو تَتِمَّةٌ لِمَا بَدَأَهُ الأستاذُ الجليلُ الدُّكتور عبدُ الله أبو داهش بتدوينِ صُورةِ

الثَّقافةِ العالِمةِ في عَسِيرَ وجَنُوبيّ البِلاد السُّعُوديَّة، فخَفَّ يَلُمُّ أشتاتَ الرُّقُمِ والوثائقِ والمخطوطاتِ، في دَأْبٍ وجَلَدٍ عجيبينِ، وكأنَّما كان أبو داهش يَسْتَهِلُّ "عَصْرَ تدوينٍ" جديدًا لهذهِ النَّاحيةِ مِنْ جزيرةِ العربِ.

لا أستبعِدُ أنَّ شيئًا مِّنْ هذا تَرَدَّدَ في صَدْرِ أحمد التَّيهانيِّ، فرَبِحَ الدَّرْسُ الأدبيُّ هذا الكِتابَ الكبيرَ! ورَبِحَ النَّقدُ الأدبيُّ وتاريخُ الثَّقافةِ باحِثًا مُّقتدِرًا، يُحْسِنُ أداءَ ما تَكَلَّفَ بَحْثَهُ ودَرْسَهُ.

وأنا لا أُرِيدُ أنْ أَعْرِضَ أبوابَ الكِتابِ وفُصُولَهُ، ولا أُحِبُّ أنْ أُلَخِّصَهُ، ولكنَّني أَطْمَحُ إلى أنْ أبْلُغَ رُوحَهُ وأساسَهُ، ما استطعْتُ إلى ذلك سبيلًا. وأوَّلُ ما استجلَبَ نَظَرِي أنَّ أحمد التَّيهانيَّ لمْ يَكُنْ ناقدًا أدبيًّا - وهو ناقِدٌ أدبيٌّ - ولا مُؤَرِّخَ أدبٍ، وهو معدودٌ فيهم، لكنَّه جَمَعَ إلى هاتينِ الصِّفتينِ معرفةً وَّاسِعةً بتاريخِ عَسِيرَ في القديمِ والحديثِ، وجُغرافيَّتِها، وقبائلِها، وكان التَّمهيدُ الَّذي أقامَهُ عَلَى تعليلِ الاسْمِ "عَسِير"، وتعيينِ حُدُودِهِا، ضِيقًا وسَعةً، والبحثُ في المَظَانِّ، والانتهاءُ إلى رأيٍ يرتاحُ إليهِ = بيانًا لِمِقْدارِ تَضَلُّعِهِ مِنْ تلك العُلُومِ، وكان يَكْفِيهِ، لوْ أرادَ، أن يَلُوذَ بكُتُبِ الباحثينَ، ويُحْسِنَ التَّلخيصَ والعَرْضَ!

وأنا أَعرِفُ الْمُشكِلَ الَّذي يَقَعُ فيهِ باحِثٌ يُعِدُّ أطروحةً عِلميَّةً عاليةً! إنَّه يُلاقي عَنَتًا في أن يُصْغِيَ إلى ما يُرضِيهِ، أوْ أن يَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ الْجامِعةِ، والمُشْرِفِ، وتقاليدِ البحثِ. أَظْهَرَتْني مُقدِّمتُهُ عَلَى شيْءٍ مِّنْ ذلك؛ فكلامُهُ عنِ المنهجِ - أوِ المَناهجِ الَّتي استعانَ بِها! - مَظهرٌ لتَوَزُّعِ عَقْلِهِ ونَفْسِهِ بينَ ما يبتغيهِ، وما تُمْلِيهِ عليهِ التَّقاليدُ، فقالَ، وكأنَّهُ يُرِيدُ أن يُطَمْئِنَ المُشْرِفَ والمُناقِشِينَ: إنَّه اصطنَعَ المنهجَ التَّاريخيَّ في تَتَبُّعِ فُنُونِ الشِّعْرِ، وثانيةً المنهجَ الموضوعاتيَّ، وما أَثْقَلَ هذه الكلمةَ! = وثالثةً المنهجَ الاجتماعيَّ لبيانِ أثرِ البيئةِ في الشُّعَراءِ، ورابعةً المنهجَ النَّفْسِيَّ لفَهْمِ القُوَى الدَّاخليَّةِ الَّتي تُحَرِّكُ في نُفُوسِ الشُّعَراءِ أسبابَ القَوْلِ في بعضِ الموضوعاتِ = وخامسةً المنهجَ الْجَمَاليَّ لتفسيرِ الصُّوَرِ الشِّعْرِيَّة، واكتشافِ وظائفِها، ومَصادرِها، وسادسةً المنهجَ الأسلوبيَّ لِفَهْمِ طرائقِ التَّضمينِ، وأشكالِ التَّعالُقِ النَّصِّيِّ كُلِّها!

ولنْ أُدافِعَ عنْ أحمدَ وأُعَلِّلَ ذلك بغيرِ ما قُلْتُهُ، ولنْ أَتَّهِمَهُ بالتَّذَبْذُبِ والتَّحَيُّرِ، أوْ أنْ أَدْفَعَ به إلى وادي "المنهجِ التَّكامُلِيِّ" وما يُشْبِهُها مِنْ عِبارَاتٍ، وغايةُ ما أرتضيهِ أنَّ "المنهجَ" ليس حِلْيَةً مُستعارةً. المنهجُ شيْءٌ أبعدُ مِنْ ذلك، مهما تَسَاهَلْنا في اصطناعِ هذه الكلمةِ، ولَعَلَّنا نَخْلِطُ، دُونَ أنْ نَدْرِيَ، بين "المنهجِ" و"الأداةِ"، والمِحَكُّ المَتْنُ وقُدْرَةُ الباحثِ عَلَى الوفاءِ بموضوعِ كِتابِهِ.

لَمْ يُدَاخِلْني إحساسٌ أنَّ أحمدَ التَّيهانيَّ مِنْ "عَبيدِ المَناهجِ"! وكان، في كِتابِهِ الواسِعِ المُحيطِ، يَصْدُرُ عنْ عِلْمِ الدَّارسِ، وثقافتِهِ، وبَصِيرتِهِ، وأَلْمَعِيَّتِهِ. كان يَلُوذُ بِهِنَّ، أمَّا المنهجُ - أوِ المناهجُ! - فمَحَلُّهُ النِّيَّةُ، والتَّلَفُّظُ بهِ مَظِنَّةُ الإدلالِ بالمعرفةِ، أوِ التَّلَبُّسِ بِمَا لَمْ يُعْطَ، مِمَّا نلقاهُ عند ضَعَفَةِ الدَّارِسِينَ، وصاحِبُنا ليس مِنهم!

يُشْبِهُ أحمدُ قَبيلًا مِّنَ النُّقَّادِ والباحثينَ الَّذين عَرَفوا "المنهجَ" - في حقيقتِهِ المَنطقيَّةِ والفلسفيَّةِ - فإذا جَعَلَ يَكْتُبُ فليسَ إلَّا الباحثُ - أو الكاتبُ - الَّذي يَصْدُرُ عنْ نَفسِهِ، ولا يَكادُ يُمِيطُ اللِّثَامَ عنْ مَّصادِرِ تكوينِهِ، وإنْ دَلَّنا أسلوبُهُ وعِبارتُهُ عنْ مِّقْدارِ ثقافتِهِ، ودرجةِ ذكائِهِ وأَلمعيَّتِهِ.

ولكنْ ما الْجديدُ في كِتابِ التَّيهانيِّ؟

وأُجِيبُ: إنَّ الكِتابَ يُعطيكَ عَلَى قَدْرِ ما تُرِيدُ! إنَّه أَفْصَحَ عنْ كُلِّ ما يبتغيهِ أحمدُ: قَرَأَ الشِّعْرَ مِنْ مَّطْلعِهِ إلى مُخْتَتَمِهِ؛ مِنَ التَّسميةِ والعِنوانِ حتَّى الخاتمةِ، وجالَ في أثناءِ المُعْجَمِ الشِّعْرِيِّ، والصُّورةِ، والموسيقا والإيقاعِ، وأَظْهَرَتْنا حواشي الصَّفحاتِ عَلَى ما استعانَ بِهِ مِنْ مَّصادرَ ومَراجِعَ؛ مِنْ **عُمْدَةِ** ابنِ رَشِيقٍ، و**إيضاحِ** الخطيبِ القَزْوِينِيِّ، إلى **الاتِّجاهِ الوِجدانيِّ** لعبد القادر القطّ، وعَتَبَات جيرار جينيت! لكنَّكَ تَخْرُجُ مِنَ نَّقَدَاتِهِ وأنتَ مُوْقِنٌ أنَّ أحمدَ يَقْبِضُ عَلَى كِتابِهِ بِقُوَّةٍ، وتَعْرِفُ أنَّ وراءَ هذا النَّقْدِ مَلَكَةً يَصْدُرُ عنها صاحِبُها، وذَوْقًا مُّعَلَّلًا يأخُذُ بِيَدِ قارئِهِ إلى مَوَاطِنِ الْجَمَالِ والمَزِيَّةِ، فلا تكادُ تُحِسُّ تَذَبْذُبًا في مَتْنِهِ النَّقْديِّ، ولا انحيازًا إلَّا لِذَوْقِ النَّاقدِ وخِبرتِهِ، ولَعَلَّكَ تُدرِكُ، كما أدركْتُ، أنَّ أحمدَ التَّيهانيَّ يَتحَلَّى، في

طُولِ الكِتابِ وعَرْضِهِ، بفضيلةٍ عزيزةٍ نادرةٍ هي التَّواضُعُ، أمَّا المَحَبَّةُ - وهي فضيلتُهُ الأُخْرَى - فتَجْعَلُ ما يَكْتُبُهُ قريبًا حبيبًا، وذلك أَعَزُّ ما يَرْجُوهُ القارئُ!

أحمد آل مُرَيِّع يُعِيدُ الأدبَ إلى شَجَرَةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ

أحمد آل مُرَيِّع يُعِيدُ الأدبَ إلى شَجَرَةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ

- 1 -

كان طه حُسَيْن يُلِحُّ، كثيرًا، عَلَى أنَّ الأدبَ ينقسِمُ إلى قِسْمينِ: أدبٍ إنشائيٍّ، هو الَّذي نَدْعُوهُ اليومَ "إبداعًا"، وأدبٍ وَصْفيٍّ، ويَعْنِي بِهِ النَّقدَ الأدبيَّ. قال طه حُسَيْن ذلك في زمنٍ مُّبَكِّرٍ، وكأنَّما أرادَ أن يُنَبِّهَ دارِسِي الأدبِ في مَعاهِدِهِ المعروفةِ، آنئذٍ، وبِخاصَّةٍ الْجامِعُ الأزهرُ، والْجامِعةُ الأهليَّةُ، ودارُ العُلُوم = إلى انحرافِهِمْ عن القَصْدِ. قال ذلك لَمَّا رأى نَفَرًا مِّنهم يَجْنَحُونَ عنْ رُّوحِ الدَّرْسِ الأدبيِّ، وبِخاصَّةٍ النَّقْدُ الأدبيُّ، وأرادَ أن يُذَكِّرَهُمْ بأنَّهُ لا قُوَّةَ للنَّقْدِ الأدبيِّ إنْ خالَفَ حقيقتَهُ الَّتي يُريدُها، وهي أن يَكُونَ "أدبًا نقديًّا"، عَلَى ذلك النَّحْوِ الَّذي عَرَفَه، قديمًا، نَقَدَةُ الأدبِ في تُراثِنا، واتَّصَفَ الشَّيْخُ طه بِهِ، لَمَّا تَزَيَّا بِعِمَامةِ الأزهريِّينَ، ولمْ يتنكَّرْ لهُ حِينَ صارَ في عِدَادِ الْجامِعيِّينَ.

كان ناقِدُ الأدبِ، في زمنٍ مَّضَى، يقرأُهُ الخاصَّةُ والعامَّةُ، وكان جُمْهُورُ القُرَّاءِ يَحْرِصُونَ عَلَى أن يَظْهَرُوا عَلَى الصُّحُفِ اليوميَّةِ، والمَجلَّاتِ الأسبوعيَّةِ والشَّهريَّةِ، لا لِيَقْرَأُوا فيها الشِّعْرَ والقصَّةَ والرِّوايةَ، وحَسْبُ = وإنَّما ليقرأوا الفُصُولَ النَّقديَّةَ الَّتي يُذيعُها طه حُسَيْن، والعقَّادُ، والمازِنيُّ، ومحمَّد حُسَيْن هيكل، وعَلِيّ أدهم، فلَمَّا عُرِفَ أساتذةُ الْجامِعةِ أَلْفَيْنا جمهرةً مِّنْهم يكتبونَ نَقْدًا عليهِ سِيماءُ الأدبِ، وكان محمَّد مندور، ولويس عوض، وسَهِير القَلَماوِيُّ، وشوقي ضيف، مِنَ الْجِيلِ القديمِ، وشُكْري عَيَّاد، وعبد القادر القطّ، ومحمَّد النُّوَيْهِيُّ، مِنَ الْجيل الَّذي لَحِقَ بِهِمْ = لا يزالُ للأدبِ والفَنِّ أثرٌ فيما يُنشِئُونَ، مهما استمسكُوا بِمَنْزَعِ الْجامِعةِ في البحثِ والتَّأليفِ، ومهما اتَّصلوا بمناهجِ النَّقْدِ الغربيَّةِ الَّتي جَعَلَتْ تُطِلُّ عَلَى الثَّقافةِ العربيَّةِ الحديثةِ، وقَبْلَ أن يَرْتَدَّ أساتذةُ النَّقْدِ في الْجامِعةِ إلى أَنْفُسِهِمْ، ويخوضوا في كلامٍ لَّا يُرِيدونَ بِهِ جُمْهُورَ المُثَقَّفِينَ والأدباءِ، وإنَّما يُنْشِئُونَ نَقْدًا يُديرونَهُ بينهم وَحْدَهُم.

وعندئذٍ انصرَفَ القُرَّاءُ عنهم وأَعْرَضُوا، وخَسِرَ أساتذةُ الْجامِعةِ جُمْهُورًا كان، في يومٍ مَّا، يرى في أسلافِهِمُ القريبينَ مِنْهم ما يُنَمِّي الذَّوْقَ، وفيما يُنشِئُونَ أدبًا إنْ لَّمْ يَكُنْ خالِصًا، فلا أقلَّ مِنْ أنَّهُ أصابَ مِنْه قَدْرًا طَيِّبًا.

يَقُولُ نَفَرٌ مِّنْ أساتذةِ الْجامِعةِ – والأَمْثَلُ أنْ نَدْعُوَهُمْ أساتذةً لِمُقَرَّراتِ النَّقْدِ الأدبيِّ لا نُقَّادًا –: إنَّ الدَّرْسَ الأدبيَّ واجِبٌ عليهِ أن يَلْحَقَ بصِنْفِ العُلُومِ الخالِصةِ، وأن يَتَّقيَ أصحابُهُ أيَّ أسلوبٍ يَجْنَحُ بِهِ إلى التَّخَفُّفِ مِنَ "الصَّرامةِ"، وأن يتَّصِفَ برُوحِ "العِلْمِ" في تَجَهُّمِهِ، ويَذْهَبُ آخَرُونَ، نُزُولًا عَلَى ما بَلَغَهُ الدَّرْسُ اللُّغويُّ الحديثُ عند دو سوسير ومَنِ اصطَنَعَ منهجَهُ = إلى أنَّ نَقْدَ الأدبِ أضحَى مُشْبِهًا للعُلُومِ الخالِصةِ، في المَنْزَعِ والغايةِ والأثرِ، وهو، لا شَكَّ في ذلك، وَهْمٌ مِّنَ الأوهامِ؛ ذلك أنَّ النَّقْدَ إنَّما يَرْجِعُ إلى ما طُبِعَ عليهِ النَّاقدُ مِنْ ذكاءٍ، وَّألمعيَّةٍ، وَّثقافةٍ، وَّمَقْدِرةٍ عَلَى التَّحليلِ، وأنَّ المنهجَ – وللمُحْدَثِينَ وَلَعٌ بهذهِ الكلمةِ – لا يَعْمَلُ وَحْدَهُ، وإلَّا لاستوَى زَيْدٌ وَّعَمْرٌو مِّنَ النُّقَّادِ، ولاكتفَى الدَّارِسونَ برأيٍ كان قدْ قُرِّرَ في الماضي البعيدِ، ما دامَ النَّقْدُ عِلْمًا خالِصًا، كأمثالِهِ مِنْ عُلُومِ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعةِ وما سِوَاها.

إذنْ، النَّقْدُ هِبَةُ النَّاقدِ، ومهما أُوتِيَ سَعَةً في المعرفةِ، وتَوَفُّرًا عَلَى مَناهجِ العِلْمِ = فلا مَعْدَى لهُ عنْ تلك السِّمَاتِ الَّتي يتحلَّى بِها، والَّتي تَجْعَلُهُ "بَصيرًا" عارفًا بِمَضَايِقِ النَّصِّ المدروسِ، وشَجَرَتِهِ الَّتي يرتفعُ إليها. وتُعْجِبُني كلمةٌ للنَّاقدِ المِصْريِّ الْجليلِ الدُّكتور مصطفَى ناصِف = قمينةٌ، لِمَنْ تأمَّلَها، أنْ تُصْلِحَ مِعْوَجَّ الفَهْمِ، مِمَّا يُرَدِّدُهُ، اليومَ، نَفَرٌ مِّنْ أساتذةِ مادَّةِ النَّقْدِ في الْجامِعاتِ = يَقُولُ: "مهما كانَتِ النَّظريَّةُ حاذِقةً، فالعِبْرةُ بِالْيَدِ الَّتي تَعْمَلُ"!

- 2 -

حَقَّقَ كِتابُ **عَلِيِّ الطَّنطاوِيِّ، كانَ يَوْمَ كُنْتُ؛ صِناعةُ الفِقْهِ والأدبِ** للدُّكتور أحمدَ بن عَلِيِّ آل مُرَيِّع[40] = قَدْرًا كبيرًا مِّنْ مَّقولةِ مصطفَى ناصِف، وحَقَّقَ، قَبْلَ ذلك، ما يَرجوه طه حُسَيْن: أن يَصِيرَ النَّقدُ الأدبيُّ أدبًا نقديًّا؛ فأنتَ تقرأُ الكِتابَ وعساكَ تَنْسَى حَجْمَهُ الواسِعَ المُحِيطَ، فتُحِسُّ قُرْبَ ما بينهُ وبينكَ، وما إنْ تَمْضي فيهِ حتَّى يَغِيبَ عنْ خاطِرِكَ أنَّكَ إزاءَ كِتابٍ هو

في أصلِهِ رسالةٌ جامِعيَّةٌ عاليةٌ؛ لشِدَّةِ مُصَاقَبَتِهِ لِرُوحِ الأدبِ، دُونَ أن يَجْنِيَ عَلَى العِلْمِ والمنهجِ، مِمَّا لطلبةِ الدِّراساتِ العُلْيا وَلَعٌ بِهِ، وكأنَّما أرادَ آل مُرَيِّع أنْ لا يَحْرِمَ نَفْسَهُ مِنْ أن يَكُونَ أديبًا مُنْشِئًا، بِقَدْرِ إرادتِهِ أن يَكُونَ ناقدًا دارِسًا، فجَمَعَ كِتابَهُ الحُسْنَيَيْنِ، وكان أقربَ إلى القارئِ المُثَقَّفِ، ذلك الَّذي ينتفعُ مِمَّا يقرأُ، ويَلْقَى فيه لَذَّةً ومَتَاعًا.

أعادَني أحمدُ آل مُرَيِّع إلى نَقْدِ الرُّوَّادِ، ذلك الَّذي يُخْلِص للكتابةِ وأُسلوبِها إخلاصَهُ لِمَا تَقَرَّرَ في مناهجِ النَّقْدِ الأدبيِّ؛ فالباحِثُ مُحِيطٌ بِما انتُدِبَ إليهِ، عارِفٌ طريقَهُ، أعطَى موضوعَهُ ما يستحِقُّهُ مِنَ الدَّرْسِ والفَحْصِ، أَدَّى إلينا كُلَّ ذلك بِلُغةٍ مُحْكَمَةٍ، وأسلوبٍ عربيٍّ رَّفيعٍ، وكان حاضِرًا في كِتابِهِ، عَلَى ذلك النَّحْوِ الَّذي نَلْقَى طَرَفًا مِنهُ في نَقْدِ الرُّوَّادِ، وكان مُطْمَئِنًّا، لا يُدِلُّ بمعرفةٍ، وإنْ أدركَ قارئُهُ كَمْ كَلَّفَهُ كِتابُهُ مِنْ جُهْدٍ وَّعَرَقٍ، وكَمْ أخلَصَ في بيانِ موضوعِهِ الَّذي تَوَفَّرَ عليهِ، يَوْمَ أخذَ عَلَى عاتِقِهِ مُقارَبَةَ **ذِكْرَيَاتِ** عَلِيّ الطَّنطاويِّ، فكان ناقدًا أديبًا، متى التفتْنا إلى ما تَقَرَّرَ في نَقْدِ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ، لكنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَأْسُرَ نَفْسَهُ في حُدُودِ مَناهِجِها ورُسُومِها، وأَرُدُّ ذلك إلى إحاطتِهِ بما تَكَلَّفَهُ، وإلى ثقافتِهِ الواسعةِ، وإلى أنَّه لَمْ يُرِدْ أن يَتَعَبَّدَ للمنهجِ، وأغلَبُ الظَّنِّ أنَّ قارئَ كِتابِهِ سيفوزُ، متى ظَهَرَ عليهِ، بمعرفةٍ أَعْمَقَ بالسِّيَرِ الذَّاتيَّةِ، عامَّةً، وبِـ **مُذَكَّراتِ** الطَّنطاويِّ، خاصَّةً، ولا يَشْعُرُ، في ذاتِ نَفْسِهِ، أنَّه مقطوعٌ عن العَصْرِ والتَّاريخِ، ويَكْفِيهِ أَمْرَ الظُّهُورِ عَلَى تلك السِّيرةِ البديعةِ؛ لأنَّ أحمدَ أَحْسَنَ إلى القارئِ حِينَ اقتطَفَ مِنْها، تارَةً بَعْدَ تارَةٍ، لُبَّها ورُوحَها، دُونَ أن يَنْزِلَ بِمَقامِ كِتابٍ ابتغَى صاحِبُهُ أن يَكُونَ في نَقْدِ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ.

لَمْ يَكُنْ أحمدُ آل مُرَيِّع مِنْ "عَبِيدِ المنهجِ"، فذلك شأنُ ضَعَفَةِ الدَّارِسِينَ، ففُسِحَ لهُ قَدْرٌ كبيرٌ في أن يكتبَ ما يشاءُ، وكان، كصاحِبِهِ الطَّنطاويِّ، واسِعَ المعرفةِ، مُثَقَّفًا مُحِيطًا، النَّقْدُ الأدبيُّ واحِدٌ مِنْ صِناعاتِهِ، وإلَّا فإنَّ الباحِثَ يَتَّكِئُ على ثقافةٍ إسلاميَّةٍ، حَمَلَتْهُ عَلَى أن يَدْعُوَ كِتابَهُ في عِنوانِهِ الفَرْعِيِّ **صِناعة الفِقْهِ والأدبِ**، وكأنَّما أرادَ أن يَصِلَ عُلُومَ العربيَّةِ بِعُلُومِ الشَّريعةِ، بَعْدَ أنْ بَتَّتِ الثَّقافةُ العربيَّةُ الحديثةُ ما بينهما؛ فإذا ناقِدُ الأدبِ لا يكادُ يَعْرِفُ مِنْ عُلُومِ العربيَّةِ إلَّا النَّزْرَ اليسيرَ، دَعْ عنكَ عُلُومَ الشَّريعةِ، كالفِقْهِ، والتَّفسيرِ، والْحديثِ، والأصلينِ، وعسانا، اليومَ، لا نكادُ نَقَعُ، إلَّا في النَّادِرِ العزيزِ، عَلَى ناقدٍ أدبيٍّ يَعْرِفُ، شيئًا، وَّلَوْ كان يسيرًا،

مِنْ تلك العُلُومِ، بَعْدَ أنْ كانَتْ عُلُومُ العربيَّةِ والإسلامِ، كالكِتابِ الواحدِ – كما يَقُولُ العَلَّامةُ محمود محمَّد شاكِر –.

عَلَى أنَّ التَّضلُّعَ مِنْ تلك العُلُومِ ليس تَرَفًا وَّلا زِينةً، إنَّما هو أصلٌ أصيلٌ، ولَعَلَّكَ تَلْقَى شيئًا مِّنْهُ وافِرًا عند جمهرةٍ مِّنَ الباحِثِينَ، لا سبيلَ إلى إحصائِهِمْ، مِنْهم أمين الخوليّ، ومحمود محمَّد شاكر، وأحمد أحمد بدويّ، وبكري شيخ أمين، ومحمَّد محمَّد أبو موسى، وطالما أَخَذَ مصطفَى ناصِف عَلَى نُقَّادِ العَصْرِ جَهْلَهُم بِكُتُبِ التَّفسيرِ، وأُصُولِ الفِقْهِ، وكأنَّ النَّاقِدَ، عندهُ، ذلك الَّذي لا تكفيهِ مُتُونُ النَّقْدِ، فيَقْصِدُ إلى تلك الكُتُبِ، بلْ إنَّهُ يَعِيبُ عليهِم ضَعْفَ صِلَتِهِم بِـ **شُرُوحِ التَّلخيصِ**، وهي مِنْ صِناعتِهم، واعتذَرَ النَّاقدُ الشَّيخُ، كثيرًا، في غيرِ كِتابٍ مِّنْ كُتُبِهِ، عنْ مُّجَافاةِ تلك الأُصُولِ الَّتي لا يَتِمُّ عِلْمُ ناقدِ الأدبِ إلَّا بِها.

ويَظْهَرُ لِي أنَّ أحمد آل مُرَيِّع اطمأَنَّ إلى طريقتِهِ في الكتابةِ والتَّأليفِ؛ فكان نَقْدُ الأدبِ عنده سبيلًا إلى اختبارِ كَلِمٍ مِّنَ البلاغةِ العربيَّةِ القديمةِ وإحيائِها. إنَّه لا يُخْفِي معرفتَهُ بالنَّقْدِ الحديثِ؛ فالفُصُولُ الَّتي أنشأَها، وجريدةُ مَراجِعِهِ = تُبِينُ مِقْدارَ اتِّصالِهِ بِهِ، لكنَّ للكَلِمِ العربيِّ القديمِ سُلطانًا عليهِ. وأقربُ الظَّنِّ أنَّهُ رأى في البلاغةِ العربيَّةِ القديمةِ قُوَّةً يستعينُ بِها عَلَى أداءِ ما تَكَلَّفَهُ، ولا شَكَّ في أنَّها كانَتْ سَخِيَّةً، وكان قادِرًا، لوْ أرادَ، أن يُعْرِضَ عنها ويتعلَّقَ بكَلِمٍ لهُ خِلَابةٌ، وكان المظنونُ أن يُخالِفَ أحمدُ عنْ طريقتِهِ الَّتي ابتدأَها، فيتحوَّلَ في أُطروحتِهِ للدُّكتوراه عنْ مَّنهجِهِ ذلك الغريبِ! وجَعَلْتُ أُرَدِّدُ في صدري ظَنًّا غَلَبَ عَلَيَّ، يَدْفَعُ فيه أحمدُ عنْ نَفْسِهِ ما تأصَّلَ فيها، لَمَّا تَبَدَّلَ المكانُ، والأستاذُ المُشرِفُ، والموضوعُ، وقَدَّرْتُ أنْ سيَكُونُ مُتَحَيِّرًا، مُوَزَّعَ القَلْبِ، غيرَ مُسْتَقِلٍّ، تَسَلَّطَ على عَقْلِهِ الفيلسوفُ ميشال فوكو، وشَقَّ عليهِ مُشرِفُهُ الدُّكتور عبدُ الله الغذَّاميُّ، وبعضُ المُشرِفِينَ مُسْتَبِدٌّ نَكِدٌ! لكنَّ صاحِبَنا حَفِيٌّ بموضوعِهِ في الماجستيرِ، ودَلَّنا إقبالُ النَّاسِ عَلَى كِتابِهِ، وتَعَدُّدُ طبعاتِهِ، عَلَى مِقْدارِ ما أصابَهُ مِنْ نُجحٍ، عَلَى أنَّ ما خِفْتُ أن يَكُونَ كَذَّبَتْهُ أُطروحتُهُ في الدُّكتوراه، وموضوعُها **خِطَابُ الجُنُونِ**، وهي مطبوعةٌ منشورةٌ قَمِينةٌ بأن يَظْهَرَ عليها القُرَّاءُ([41])؛ لِلَّذي سأقولُه فيما سيأتي!

كان كُلُّ شيْءٍ سَيَحْمِلُ أحمدَ عَلَى الإذعانِ؛ الأستاذُ المُشرِفُ، والموضوعُ، والمنهجُ. ويَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أنَّهُ سيَسِيرُ حيثُ سارَ مِنْ قَبْلُ أساتذةٌ وطُلَّابٌ؛ فلا يَتَكَلَّفُ في سبيلِ بَحْثِهِ مَشَقَّةً؛ فموضوعُ "الْجُنُونِ" تَعَاوَرَتْهُ، مِنْ قَبلُ، أقلامُ النَّقَدةِ والباحِثِينَ، وليس عليهِ إلَّا أن يَسْلُكَ سبيلًا وُطِّئَ، مِنْ قَبْلُ، حتَّى اطمأنَّ واستَتَبَّ، يُشْبِهُ فيهِ المنهجُ المنهجَ، والعِبَارةُ العِبَارةَ، لا فَرْقَ كبيرًا بينَ باحثٍ وباحثٍ، فكُلُّهُمْ عِيَالٌ عَلَى فيلسوفِ الْجُنُونِ فوكو، وعساهُ يَضَعُ كِتابَ محمَّد حَيَّان السَّمَّان – وسأختَصُّهُ بكلمةٍ عَمَّا قريبٍ! – عَلَى شِمَالِهِ، وأوراقَهُ ودفاتِرَهُ عنْ يَمينِهِ، ما دامَ الموضوعُ والمنهجُ والتُّراثُ واحِدًا، وليس بعيدًا أنَّ مُشرِفَهُ الدُّكتور عبدَ الله الغذَّاميَّ أرادَ أن يَحْمِلَ أحمدَ عَلَى منهجٍ بِعَيْنِهِ، يستعيرُه ويُوافِقُهُ في صوابِهِ وخطئِهِ = هو، إنْ تأَمَّلْناهُ، عربيُّ الألفاظ أعجميُّ المعنَى، فالمُهِمُّ المُهِمُّ أن يُوَافِقَ الطَّالِبُ الأُستاذَ، لا يُخالِفُ مَشيئتَهُ، ولا يَمِيلَ إلى سِوَاهُ!

لكنَّ أحمدَ آل مُرَيِّع ليس كأحَدٍ مِّنَ التَّلامذةِ، وأنا لا أَعْرِفُ مَنْ أشارَ عليهِ بموضوعِ أُطروحتِهِ؟ وسواءٌ أَصدَرَ عنْ ذاتِ نَفْسِهِ، أوْ وافَقَ مُشْرِفَهُ = فسيَكْسُو الموضوعَ والأُطروحةَ والمنهجَ زِيَّهُ ولَوْنَهُ وعَقْلَهُ ورأيَهُ، وهذا كِتابُهُ **خِطَابُ الْجُنُونِ؛ الحُضُورُ الفيزيائيُّ والغِيَابُ الثَّقافيُّ؛ الاستبعادُ والنَّفيُ** = بين أيدينا، يُقَوِّي ما أقولُ أوْ يُضْعِفُهُ!

وأستطيعُ القولَ: إنَّ صاحِبَنا ارتقَى بموضوعِ أُطروحتِهِ، وصَوَّرَهُ تصويرًا جديدًا، وكان أيسرَ له أن يَسْلُكَ – كما مَرَّ بنا – طريقًا كَثُرَ سالِكُوهُ حتَّى استتَبَّ – لكنَّ أحمدَ شَدَّ هذا الموضوعَ ذا الوجهِ الْحداثيِّ إليهِ، فإذا هو جديدٌ وغريبٌ، خالَفَ فيهِ طريقةَ مَنْ سَبَقَهُ، ولَسْتُ أستبعِدُ أنَّهُ خالَفَ أستاذَهُ وعَقَّهُ، وليس هذا – لَوْ صَحَّ – بالأمرِ اليسيرِ!

وقارِئُ ما يُنْشِئُهُ أحمدُ آل مُرَيِّع – وأنا مِنْ قُرَّائِهِ – يَهْدِيهِ ظُهُورُهُ عليهِ إلى خَصِيصةٍ فيهِ تُوْشِكُ أنْ تَسْتَبِدَّ بِهِ في كُلِّ ما كَتَبَ وأَلَّفَ، عَالَنَ بِها النَّاسَ في عِنوانِ رِسالتِهِ في الماجستير **عَلِيّ الطَّنطاوِيّ؛ كانَ يَوْمَ كُنْتُ: صِنَاعةُ الفِقْهِ والأدبِ** = فنحنُ إزاءَ باحِثٍ لَّا يزالُ للفِقْهِ – وعُلُومِ الشَّريعةِ – سُلْطانٌ عليهِ، عَلَى أنِّي لا أَعْنِي أنَّ أحمدَ كَسَا الأدبَ، وهو موضوعُهُ وصَنْعَتُهُ، لَبُوسًا دِينيًّا، فما أحمدُ بالَّذي تُغْوِيهِ دعاوَى شاعَتْ في غيرِ بيئةٍ، تَجْعَلُ الأدبَ في

خِدْمةِ الدِّين. لا! فأحمدُ يُنبِئُنا قديمُ ما أنشأَهُ وحديثُهُ بصُدُورهِ عنْ منهجٍ باتَ، في العصرِ الْحاضرِ، غريبًا: الأدبُ فيه موصولُ العُرَى بِعُلُومِ الإسلامِ، نَعَمْ هو – أي الأدب – مُسْتَقِلٌّ بنَفْسِهِ، قَوِيٌّ بشخصيَّتِهِ، لكنَّهُ يَغْتذِي مِنْ مَّعِينِ تلك العُلُومِ، لا فَرْقَ عندهُ بينَ أدبٍ، ونَحْوٍ، ولُغَةٍ، وفِقْهٍ، وعقيدةٍ، وتفسيرٍ، وحديثٍ، ولا جَرَمَ أن رِسَالتَهُ الَّتي كَسَرَها عَلَى **ذِكْرَيَاتِ** شَيْخٍ أديبٍ فقيهٍ هو عَلِيّ الطَّنطاويّ = استمدَّتْ عِنوانَها وموضوعَها مِنْ صِناعةِ الشَّيْخِ الأديبِ الفقيهِ = لكنَّ أُطروحةَ أحمدَ عنِ **الْجُنُونِ** تَجْلُو عبقريَّةَ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ – فِقْهًا، وأدبًا، وحضارةً – في تَنَاوُلِ هذا الموضوعِ، فكان أحمدُ أديبًا ناقدًا، حِينًا، وفقيهًا أُصوليًّا، مُفَسِّرًا، عالِمَ حديثٍ، مؤرِّخًا = حِينًا آخَرَ.

وسأُكاشِفُكَ بأمرٍ تَلَجْلَجَ في صدري؛ ذلك أنَّني اتَّصَلْتُ بموضوعِ "الْجُنُونِ" منذُ عهدٍ بعيدٍ، منذُ ظَهَرْتُ عَلَى كِتابِ **خِطَابِ الْجُنُونِ في الثَّقافةِ العربيَّةِ** لمحمَّد حَيَّان السَّمَّان[42]. ولا زِلْتُ أذكرُ الشُّعُورَ الَّذي استولَى عَلَيَّ، وأنا أقرأُ صفحاتِهِ، وأُتِمُّ فُصُولَهُ. تَمَنَّيْتُ أنْ لا ينتهيَ؛ فلا أزالُ أنْعَمُ بقراءتِهِ! أَجَلْ كان كِتابًا رائعًا، وكان السَّمَّانُ ناقدًا ذكيًّا ألمعيًّا، مُتَضَلِّعًا مِّنَ الثَّقافتينِ العربيَّةِ القديمةِ والغربيَّةِ الحديثةِ، ولهُ تَعَلُّقٌ خاصٌّ بالفيلسوفِ الفرنسيِّ ميشال فوكو الَّذي مَرَّ بِنا اسْمُهُ غيرَ مَرَّةٍ، عَلَى أنَّ اتِّصالَهُ بدراسةِ فوكو عنِ الْجُنُونِ دَلَّ عَلَى أمرينِ؛ معرفتِهِ الْجيِّدةِ بهذا اللَّونِ مِنَ الدِّراساتِ في الثَّقافةِ الغربيَّةِ، واستقلالِ السَّمَّانِ عنْ أن يَكُونَ مِنْ عَبِيدِ المناهجِ الغربيَّةِ الطَّارئةِ، ولَوْلا أنَّهُ أَعْلَمَ قارِئَهُ باصطناعِهِ منهجَ الفيلسوفِ الفرنسيِّ = لَقَدَّرْنا انبتاتَ العلاقةِ ما بينَ الكاتبِ العربيِّ والكاتبِ الأوربِّيِّ؛ ذلك أنَّهُ نَفَعَهُ تَضَلُّعُهُ العظيمُ مِنْ تُراثِ قومِهِ، وأنه لَمْ يُرِدْ أن يَكُونَ عِيالًا عَلَى فوكو ومَنْ إليهِ مِنْ فلاسفةِ فرنسةَ ونُقَّادِها، فكان مُعْتَدِلًا، لا نكادُ نَشْتَمُّ مِنْ وَّراءِ كلماتِهِ استعجامًا أوْ تغريبًا، وكان سهلًا عليهِ، لوْ أرادَ، أن يستنسِخَ منهجَ الفيلسوفِ الفرنسيِّ، ويَقْسِرَ القَصَصَ البديعةَ الماتِعةَ الَّتي تَخَيَّرَها مِنْ تُراثِ العربِ = فيُلْبِسَ المنهجَ الغربيَّ عِمَامةً عربيَّةً، دُونَ أن يَعنِيَهُ تَحَدُّرُهُ مِنْ تاريخٍ وسِياقٍ يُبايِنانِ النُّصُوصَ العربيَّةَ التي وُلِدَتْ في بيئةٍ مُّختلِفةٍ وَّثقافةٍ مُّختلِفةٍ، وأَفْلَحَ السَّمَّانُ فَلَاحًا عظيمًا، وكان كِتابُهُ، بِحَقٍّ، رائدًا في بابِهِ، لمْ يُبْلِهِ القِدَمُ وإنْ كان قديمًا.

عَلَى أنَّني سأُؤَاخِذُ أحمدَ، وهو الباحثُ العارِفُ بمَضَايِقِ موضوعِهِ = عَلَى إغفالِ كِتابِ السَّمَّان! وما كان الكِتابُ بالمجهولِ لِيُعْذَرَ، ولا بالنَّادِرِ فيُنْسَى، وليس أحمدُ بالَّذي يَهْتَدِمُ كِتابَ مُؤَلِّفٍ ويَسْكُتُ عنهُ، والكِتابُ، بَعْدُ، مشهورٌ مَّذكورٌ، ولَعَلَّ قائِلًا يقولُ: إنَّ أحمدَ آل مُرَيِّع آثَرَ أنْ لا يَرْجِعَ إلى كِتابِ السَّمَّانِ حتَّى لا يَقَعَ في دائِرةِ سِحْرِهِ! فما لَهُ لَمْ يَنْظُرْ فيهِ بَعْدَ أنْ فَرَغَ مِنْ مُسَوَّدةِ أُطروحتِهِ؟

الْحَقُّ أنَّ ذلك أمرٌ مُحَيِّرٌ، ولا سبيلَ إلى تَقَبُّلِهِ، لا سِيَّما أنَّ أُطروحةَ أحمدَ تمتازُ بمُلاءَمةٍ ذكيَّةٍ بين الأدبِ والعُلُومِ الشَّرعيَّةِ، وحَسْبُهُ أنْ أعادَ آدابَ اللُّغةِ العربيَّةِ إلى حِضْنِ تلك العُلُومِ، وهذهِ وَحْدَها مَزِيَّةٌ تُفْرِدُهُ عنِ السَّمَّانِ وغيرِ السَّمَّانِ! عَلَى أنَّني لنْ أُؤَاخِذَ الدُّكتورَ عبدَ الله الغذَّاميَّ – المُشْرِفَ عَلَى الأُطروحةِ – ولَوْ قالَ الغذَّاميُّ: لَمْ أَسْمَعْ بكِتابِ السَّمَّانِ لَصَدَّقْتُهُ وما عاتَبْتُهُ!

ولا أُحِبُّ أنْ أُتِمَّ هذا الفصلَ دُونَ أنْ أدعُوَ مُحِبِّي الأدبِ إلى مُطالَعةِ كِتابٍ اجتمَعَ فيهِ ما لا نكادُ نُوَفَّقُ إلى شبيهٍ لَّهُ في عَصْرِنا الْحاضِرِ إلَّا في القليلِ والنَّادِرِ؛ فنحنُ إزاءَ كِتابٍ يُعِيدُ إلينا ذلك اللَّونَ الرَّصِينَ الْحُلْوَ الماتِعَ مِنْ كُتُبِ الأدبِ والنَّقْدِ، وحَسْبُ مُؤَلِّفِهِ الْجليلِ الدُّكتور أحمدَ آل مُرَيِّع مَنْقَبَةً أن يُذْكِرَنا بِرَصانةِ رُوَّادِ الأدبِ والنَّقْدِ، وأن يُجَدِّدَ الأملَ في عَوْدةِ الدَّرْسِ الأدبيِّ والنَّقْديِّ إلى سابِقِ عهدِهِ، وأنَّ بِوُسْعِنا أنْ نَقُولَ في أدبِنا وتُراثِنا قولًا جديدًا!

بين عُثمَانَ وأبو مَدْيَن.. نَقْدٌ أدبيٌّ أَمْ مُدَاهَنَةٌ؟

اختلَفَ عُثْمان جمعان الغامديُّ إلى جامِعةِ المَلِكِ سُعُود بالرِّياض، عامَ 1418هـ، وأَمْضَى فيها سَنَةً ونِصْفَ السَّنَةِ لدراسةِ الماجستير، ثُمَّ انقطَعَ لإنجازِ رِسالتِهِ في النَّقْدِ الأدبيِّ، وكان موضوعُها "الخِطَاب النَّقْديّ عِنْدَ عبدِ الفتَّاح أبو مَدْيَن"، ثُمَّ ما هي حتَّى ظَفِرَ بالدَّرَجَةِ العِلْمِيَّةِ عامَ 1423هـ.

كان عُثْمانُ سعيدًا بالوقتِ الَّذي أَنْفَقَهُ في البحثِ والتَّفتيشِ والدَّرْسِ، وكان يَلْقَى في ذلك لَذَّةً وَّمَتَاعًا، كُلَّما تألَّفَ مِنْ دِراستِهِ فصلٌ، حتَّى إذا استوفَى البحثَ، كان كَمَنْ رَّزَقَهُ اللهُ بمولودٍ مَلأَ عليهِ حياتَهُ سعادةً وَّحُبُورًا، وكان يُحِسُّ أنَّ بَحْثَهُ ذلك الَّذي صارَ كِتابًا أَقَلُّ ما فيهِ أنَّهُ وَقَفَ عَلَى دِراسةِ شخصيَّةٍ أدبيَّةٍ عِصَاميَّةٍ، أتاحَ لها اللهُ - تبارَكَ وتعالَى – صَبْرًا وَّجَلَدًا وَّعِنَادًا، فكان عبدُ الفتَّاح أبو مَدْيَن عَلَى النَّحْوِ الَّذي عَرَفَهُ كُلُّ مَنِ اتَّصَلَ بِهِ، أوْ ظَهَرَ عَلَى شيْءٍ مِّنْ تاريخِهِ وجِهادِهِ في الصِّحافةِ والثَّقافةِ والأدبِ، وأَكْبَرَ في ذلك الشَّيْخِ الجليلِ قُدْرَتَهُ الفَذَّةَ حِينَ أدارَ نادِيَ جُدَّةَ الأدبيَّ رُبْعَ قَرْنٍ مِّنَ الزَّمانِ، فبَلَغَ بِهِ مَرتبةً لَمْ يستطِعْ مَنْ وُسِّدَ رِئاسةَ النَّادي مِنْ بَعْدِهِ أن يَرْتَقِيَها.

فُوجِئَ عُثْمانُ الغامديُّ أنَّ الأستاذَ الجليلَ عبدَ الفتَّاحِ أبا مَدْيَن جَرَّدَ قَلَمَهُ، واندفَعَ يَنْشُرُ في صحيفةِ **الجزيرة** مقالاتٍ مُّتوالِيَةً – لَعَلَّها بَلَغَتْ عَشْرًا – تَمَلَّكَهُ فيها عُنْفٌ عَنِيفٌ، وغَضَبٌ لَّا يَسْكُتُ، وثورةٌ لَّا تكادُ تَسْكُنُ حتَّى تَنْدَفِعَ مِنْ جديدٍ، وكان سَبَبُ العُنْفِ والغَضَبِ والثَّورةِ أنَّ الشَّيْخَ الجليلَ كان قدْ قَدَّرَ أنَّ عُثْمانَ الغامديَّ الَّذي غادَرَ الطَّائفَ، حيثُ يعيشُ، إلى الرِّياضِ، حيثُ يَدْرُسُ، والَّذي كان يُمْضِي يَوْمَهُ بينَ المدرسةِ، حيثُ يَعْمَلُ، والْجامِعةِ، حيثُ يَدْرُسُ، وبينَ البيتِ والمكتبةِ والمَرَاجِعِ والبحثِ = أنَّ عُثْمانَ الغامديَّ سيَصْرِفُ طاقَتَهُ ووُسْعَهُ لكتابةِ رِسالةٍ يُعْلِي فيها مِنْ الفُصُولِ الَّتي أَنْشَأَها في "النَّقْدِ"، ثُمَّ جَمَعَ أشتاتَها في غيرِ كِتابٍ، وأنَّ قُصارَى ما سيُؤَدِّيهِ عُثْمانُ للبحثِ والدَّرْسِ أن يَصُوغَ عِبَاراتٍ حُلْوَةً لَيِّنةً، إنْ لمْ تُرْضِ العِلْمَ والبَحْثَ، فحَسْبُها أنْ تُرْضِيَ الشَّيْخَ الَّذي اعتادَ أن يَسْمَعَ كلماتٍ، لا شَكَّ في أنَّهُ

جديرٌ بِها، يُثْني فيها الأحبابُ والأصحابُ عَلَى جِهَادِهِ في الصِّحافةِ والثَّقافةِ والأدبِ، ولا مانِعَ مِنْ أن يَكُونَ عُثْمانُ الغامديُّ في عِدَادِهِمْ.

اِنْدَفَعَ الشَّيْخُ أبو مَدْيَن يُنْشِئُ المقالةَ تِلْوَ المقالة، ويَظْهَرُ عليها القُرَّاءُ المُحِبُّونَ للأدبِ، والقُرَّاءُ المشغوفونَ بالمَعارِكِ الأدبيَّةِ العنيفةِ، وقَرَأْتُها أنا، كما قَرَأَها عُثْمانُ، وكُنْتُ لا أكادُ أَعْبُرُ سَطْرًا إلَّا وفيهِ سُخْطٌ عَلَى عُثْمانَ، حتَّى إنَّني ظَنَنْتُ، ورُبَّما ظَنَّ معي غيرُ قارئٍ، أنَّ بينَ الأُستاذِ الجليلِ أبي مَدْيَن والصَّديقِ عُثْمانَ الغامديِّ ثأرًا قديمًا، أوْ حَقًّا مُضَاعًا؛ فكلماتُ المَقالاتِ سِيَاطٌ مِنْ نَّارٍ، لَّا تَهْدَأُ، إنَّما تضطرِمُ اضْطِرَامًا، وأكادُ، مِنْ شِدَّةِ نِيرانِها، أُشْفِقُ عَلَى الكاتبِ والمكتوبةِ فيه؛ أُشْفِقُ عَلَى الكاتبِ خَشْيَةً عَلَى صِحَّتِهِ، والمكتوبةِ فيهِ عَطْفًا عليهِ، ولوْ لَمْ أَكُنْ مِنْ عارِفِي عُثْمانَ القريبينَ مِنْهُ، لَظَنَنْتُ أنَّهُ جَنَى جِنَايةً فطَلَبَهُ أبو مَدْيَن، أوْ لَعَلَّهُ كما تَقُولُ العامَّةُ: "قَتَلَ لهُ قتيلًا"! والحَمْدُ للهِ أنَّ صديقي عُثْمانَ لَمْ يَجْنِ جِنَايَةً ولَمْ يَقْتُلْ قتيلًا، وهو أَبْعَدُ ما يَكُونُ عنِ العُنْفِ، وقدْ عَرَفَهُ الأصدقاءُ هادِئًا ساكِنًا وديعًا حُلْوَ الكلامِ مُمْتِعَهُ، فكيفَ صارَ إلى ما صارَ إليهِ، عندَ كُلِّ مَنْ قَرَأَ تلك المقالاتِ الَّتي تَمَيَّزَتْ مِنَ الغَضَبِ؟

لَمْ يَدَّخِرِ الأستاذُ الجليلُ صِفَةً سَيِّئَةً إلَّا أَلْصَقَها بِعُثْمانَ الغامديِّ، وما غَضِبَ مِنْهُ إلَّا لِأَنَّهُ اختارَهُ موضوعًا للدَّرْسِ، ولأنَّهُ حِينَ ظَهَرَ عَلَى ما كَتَبَ = راعَهُ أن يَقْرَأَ، فيما قَرَأَ، كلامًا لَّمْ يُعْجِبْهُ، وعَزَّ عليهِ أن يَقْرَأَ مِثْلَ هذا الكلامِ الَّذي لَمْ يأْلَفْهُ ولَمْ يَعْتَدْ سَمَاعَهُ منذُ سَنَوَاتٍ لا يَحُدُّها العَدُّ، ولَمَّا كان ذلك كذلك لَمْ يُوَفِّرِ الرَّجُلُ عُثْمانَ؛ فهو مَرَّةً لا يَفْقَهُ في النَّقْدِ، وهو، مَرَّةً أُخْرَى، بَلِيدٌ يُعْجِزُهُ الفَهْمُ عَلَى أن يَفْهَمَ، وهو، في حِينٍ، لا يستقيمُ لهُ تركيبٌ، وَّلا يستطيعُ أن يُؤَدِّيَ معنًى، وهو، في كُلِّ أحوالِهِ، كَيْتَ وكَيْتَ، مِمَّا يمنعُنِي القَلَمُ أنْ أَسُوقَهُ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ الشَّيْخُ الْجليلُ أن يُوَجِّهَ لَوْمَهُ وعُنْفَهُ وسُخْطَهُ عَلَى أساتذةِ عُثْمانَ؛ عَلَى المُشْرِفِ عَلَى الرِّسالةِ، وعَلَى الأساتذةِ الَّذينَ ناقشوها، وعَلَى القِسْمِ الَّذي أجازَها، وعَلَى الْجامِعةِ الَّتي أقرَّتْها! وما ذلك إلَّا لأنَّ الطَّالِبَ والمُشْرِفَ والأساتِذةَ المُناقِشِينَ والقِسْمَ والْجامِعةَ = ما قَدَرُوا أبا مَدْيَن حَقَّ قَدْرِهِ، فقاسَمُوا الطَّالِبَ عُثْمانَ "الإِثْمَ" و"الْجِنَايَةَ"، إذا كان ما كَتَبَهُ معدودًا في "الإِثْمِ" و"الْجِنَايَةِ"!

كُنْتُ أقرأُ المقالاتِ الَّتي امتلَأَتْ عُنْفًا وسُخْطًا وغَضَبًا، وكُنْتُ أتأمَّلُ الكلماتِ الَّتي اشتطَّ فيها الكاتبُ الجليلُ فطاشَتْ هُنا وثَمَّ، وكُلَّما مَضَيْتُ في القِراءَةِ لا أَظْفَرُ إلَّا بِسِبَابٍ وشَتْمٍ وعُنْفٍ وسُخْرِيَّةٍ، وتَبَيَّنَ لِي مِقْدارُ الأَلَمِ الَّذي اسْتَكَنَّ في صَدْرِ أبي مَدْيَن؛ ذلك الرَّجُلِ الَّذي خَيَّبَ عُثْمانُ الغامديُّ ظَنَّهُ فيهِ، فلَمْ يُنْشِئْ رِسالةً يُعَدِّدُ فيها آلاءَ أبي مَدْيَن ومَظْهَرَ العَظَمَةِ والإبداعِ فيما كَتَبَ وأَنْشَأَ!

وبينما كُنْتُ أقرأُ الفُصُولَ الغاضِبَةَ السَّاخِطةَ = إذا بِي أَجِدُ صديقي الهادئَ الوديعَ عُثْمانَ الغامديَّ يُنْشِئُ مقالاتٍ يَرُدُّ فيها عَلَى أبي مَدْيَن كلامَهُ، ويُقَابِلُ السُّخْطَ بالسُّخْطِ، والسُّخْرِيَّةَ بالسُّخْرِيَّةِ، ولَمْ أستطِعْ أنْ أَدْفَعَهُ عنْ ذلك، وقدْ أَحَسَّ "الظُّلْمَ"، ولَمْ أستطِعْ أنْ أَلُومَهُ عَلَى سُخْرِيَّتِهِ بَعْدَ أنْ سَخِرَ أبو مَدْيَن مِنهُ، ولَمْ أَمْلِكْ إلَّا أنْ أُمْسِكَ الصَّحيفةَ فأقرأَ مقالَ أبي مَدْيَن، وحِينَ أَفْرَغُ مِنْهُ، أَشْرَعُ في قِراءَةِ ما أنشأَهُ عُثْمانُ، وبدا لِي عُثْمانَ عنيفًا عَنيدًا صُلْبًا، وظَهَرَ لِي صديقي ساخِرًا سُخْرِيَّةً لَمْ أَعْهَدْها فيهِ مِنْ قَبْلُ، وقُلْتُ: لا بأْسَ، سَيَسْكُنُ، بَعْدَ حِينٍ، متَى بَلَغَ مِنْ أبي مَدْيَن غايتَهُ، وقدْ كان.

أَصْدَرَ عُثْمانُ الغامديُّ رِسالتَهُ الَّتي لَمْ تُعْجِبْ أبا مَدْيَن، في كِتابٍ يستطيعُ القارِئُ أن يَصِفَ مَظْهَرَهُ بتلك العِبَارَةِ المكرورةِ "طبعة قشيبة"! وفي الْحَقِّ إنَّ الطَّبعةَ كانَتْ أنيقةً قشيبةً، كسائِرِ الكُتُبِ الَّتي أَخْرَجَها نادي تَبُوك الأدبيُّ في عامِنا هذا 1437هـ = 2016م، ودَفَعَها، مَرَّةً واحِدةً، في معرِضِ الرِّياضِ الدَّوْليِّ للكِتابِ.

اِصْطَنَعَ عُثْمانُ الغامديُّ **المعرفة والنَّقد؛ دِراسةٌ في نَقْدِ عبدِ الفَتَّاحِ أبو مَدْيَن** عِنوانًا لِكتابِهِ[43]. وعَلَى حِرْصِي عَلَى قِراءةِ كُتُبِ نادي تَبُوك الأدبيِّ، وفيها ما يستحِقُّ الانقطاعَ إلى قِراءَتِهِ وتَدَبُّرِهِ = فإنَّ حِرْصِي عَلَى قِراءةِ كِتابِ عُثْمانَ؛ ذلك الَّذي أَغْضَبَ أبا مَدْيَن = يَفُوقُ سائِرَ الكُتُبِ؛ فأنا لَمْ تُتَحْ لِي قِراءَةُ الكِتابِ، حِينَ كانَ رِسالةً عالِيَةً، مَعَ أنَّ عُثْمانَ صديقٌ مِّنْ أقربِ الأصدقاءِ وأَحَبِّهِمْ إِلَيَّ، ولكِنْ ها هي ذِي الرِّسالةُ تُصْبِحُ كِتابًا، فما عَلَيَّ إلَّا أنْ أَفْرَغَ لها فأَظْهَرَ عليها وأقرأَها. ولا أُخْفِي القارِئَ الكريمَ أنَّني حِينَ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى قِراءَةِ الكِتابِ، لَمْ أستطِعْ أنْ أَدْفَعَ عنْ عَقْلِي كلماتِ أبي مَدْيَن العنيفةَ السَّاخِطةَ، ولا غَضَبَهُ

وسُخْرِيَّتَهُ وتَبْكِيتَهُ؛ لَمْ أستطِعْ أنْ أَصْرِفَ ذلك، ولكنَّني أَقْبَلْتُ عَلَى الكِتابِ، وقُلْتُ: الفَيْصَلُ ما سأقرأُهُ في كِتابِ عُثْمانَ، لا ما قالَهُ أبو مَدْيَن، وقدْ كان!

والْحَقُّ أنَّ الكِتابَ كان مُفَاجَأَةً سارَّةً لِّي؛ فأنتَ إذْ تقرأُهُ تُدْرِكُ، كُلَّما تَقَدَّمْتَ في القِراءَةِ، أنَّكَ لَسْتَ بِإِزَاءِ باحِثٍ أَعَدَّ رِسالةً جامِعيَّةً عالِيَةً، وحَسْبُ، ولكنَّكَ بِإِزَاءِ ناقِدٍ تقرأُ في كلماتِهِ بصيرةً بِمَضَايِقِ النَّقْدِ، وفَهْمًا صحيحًا للأدبِ، لَمْ يستهلِكْ طاقَتَهُ في كَلِمٍ مُبَهْرَجٍ مِمَّا ابْتُلِيَتْ بِهِ جامِعاتُنا اليومَ، ولَمْ يُخَيِّلْ عَلَى قارِئِهِ بمصطلحاتٍ يَتَّخِذُهُنَّ "فَزَّاعَةً" يُخَيِّلُ لقارِئِهِ، متَى ظَهَرَ عليها، أنَّها العِلْمُ كُلُّ العِلْمِ، ولكنَّهُ يَسْتَأْنِي في أداءِ عِبَارَتِهِ، فلا تَلْقَى فيها إدلالًا بالمنهجِ، وهو ذُو منهجٍ، ولا تَبَجُّحًا بالمعرفةِ، وهو عارِفٌ لموضوعِهِ، مُمْسِكٌ بِناصِيَتِهِ، يَسُوقُ كُلَّ أولئكَ في عِبَارةٍ وَّاضِحةٍ، لا تَغْمُضُ، ولا تَلْتَوِي، ويُوْلِي النَّصَّ المدروسَ عِنايتَهُ، ولا يَخْرُجُ عنهُ، لِيَهِيمَ في أَوْدِيَةٍ مِّنَ الكلامِ المَمْجُوجِ في النَّظرِيَّةِ؛ فالمعرفةُ النَّقديَّةُ الَّتي تَوَفَّرَ عليها عُثْمانُ، تَفْعَلُ فِعْلَها في عَقْلِهِ، حتَّى إذا أَنْشَأَ يكتبُ، تَعْرِفُ أنَّ صاحِبَ القَلَمِ خبيرٌ، عارِفٌ لموضوعِهِ، لا يَتَطَاوَلُ عَلَى القارئِ، ولا يَتَعَالَى عليهِ.

كَتَبَ عُثْمانُ الغامديُّ عنْ نَقْدِ عبدِ الفتَّاحِ أبو مَدْيَن، واتَّخَذَ كُلَّ ما أنشأَهُ مِنْ كُتُبٍ في النَّقْدِ والسِّيرةِ مَتْنًا وَّاحِدًا، يَتَلَمَّسُ فيهِ ضالَّتَهُ الَّتي جَدَّ في طَلَبِها، وجَعَلَ، في غيرِ مَوْضِعٍ مِّنْ كِتابِهِ، كلماتِ أبي مَدْيَن، هي الفَيْصَلَ والحَكَمَ، وهذا ضَرْبٌ مِّنَ الكتابةِ ذَكِيٌّ! فكلماتُ أبي مَدْيَن هي الَّتي تتحدَّثُ حِينَ يَقْتَضِي الكِتابُ حُكْمًا عَلَى "قِيمةِ" ما أنشأَهُ الشَّيخُ مِنْ نَقْدٍ، وأنتَ لا تَقَعُ عَلَى كلمةٍ أوْ كلمتينِ، ولكنَّكَ تَظْفَرُ بِعِبَاراتٍ كثيرةٍ، يَسُوقُها عُثْمانُ بِلِسانِ أبي مَدْيَن، وإذا ما ظَهَرْتَ عليها، تكادُ تَعْجَبُ مِنْ قَسْوَتِها، وتَجَرُّدِها، لكنَّني، وقدِ استوفَيْتُ الكِتابَ كُلَّهُ، لَمْ أَقَعْ عَلَى عِبَارةٍ جارِحةٍ، ولا كَلِمةٍ ساخِرةٍ، وفي الكِتابِ إنصافٌ للأستاذِ الكبيرِ، وفيهِ فَهْمٌ صحيحٌ لوظيفةِ النَّقْدِ وطبيعتِهِ، بَلْ إنَّ فيهِ فُصُولًا، أراها جديدةً قَمِينةً بأن يتدبَّرَها الدَّارسونَ، ولا سِيَّما الفَصْلُ الَّذي وَقَفَهُ عُثْمانُ عَلَى المُقَابَلَةِ ما بينَ "الشَّفَهِيِّ" و"المكتوبِ" في أُسْلُوبِ أبي مَدْيَن.

وباختصارٍ فإنَّ الكِتابَ جليلٌ، ويستحِقُّ أن يُقْرَأَ وأنْ نُدِيمَ فيهِ التَّأمُّلَ، وأنْ نَقُولَ، إذا ما أَتْمَمْنا قِراءَتَهُ: إنَّ هذا الكِتابَ، الَّذي أَغْضَبَ أبا مَدْيَن، عَسِيٌّ أن يُرْضِيَ العِلْمَ، ويُرْضِيَ النَّقْدَ، ويُرْضِيَ القُرَّاءَ، وهذا حَسْبُهُ!

شجاعةُ نُورة

لا أُنْكِرُ أنَّني حِينَ لَمَحْتُ عِنوانَ **المرأة في شِعْرِ محمَّد حَسَن فَقِي؛ دِراسة نَقْدِيَّة**[44]، للباحثةِ نُورة العُمْرَانِيّ = لمْ أَنْشَطْ إلى تَصَفُّحِهِ، دَعْ عنكَ أنْ أَقْرَأَهُ! وإنَّني لَعَلَى يقينٍ مِّنْ أنَّ شُعُورِيَ هذا ليس مِنَ العِلْمِ ولا النَّقْدِ في شيْءٍ؛ لأنَّ الكِتابَ يُنْبِئُنا ببعضِ ما فيهِ متَى أقبلْنا عليهِ، وإذا صَحَّ أنَّ الكِتابَ يُقْرَأُ مِنْ عِنوانِهِ، فلا شَكَّ في أنَّ هذا الكِتابَ يُغْرِي بِقراءَتِهِ، لغيرِ ما ناحِيَةٍ؛ فعِنوانُهُ يُطَابِقُ مُطابَقَةً تامَّةً الشَّاعِرَ المدروسَ، وعسى أن يَكُونَ محمَّد حَسَن فقي مِنَ الشُّعراءِ العربِ القلائلِ في العَصْرِ الحاضِرِ نَظْمًا في المرأةِ؛ الحبيبةِ، والمِثَالِ، والعاشقةِ، والعفيفةِ، واللَّعُوبِ، ورُبَّما عَدَدْنا شِعْرَهُ الَّذي قالَهُ فيها، "تكفيرًا" عنْ "خطيئةٍ"، وأنتَ إذا استطعْتَ صَبْرًا عَلَى شِعْرِهِ الغزيرِ، فأغلبُ الظَّنِّ أنكَ ستُشارِكُني الرَّأْيَ في أنَّ نموذجَ "الخطيئةِ والتَّكفيرِ" الَّذي رَكَّبَهُ الدُّكتور عبد الله الغذَّاميُّ عَلَى شِعْرِ حمزةَ شحاته، هو أَدْنَى إلى شِعْرِ محمَّد حَسَن فقي مِنْهُ إلى شِعْرِ حمزة شحاته.

والَّذي صَدَّنِي، بادِيَ الرَّأْيِ، عن الظُّهُورِ عَلَى الكِتابِ، ما صِرْتُ أتوقَّعُهُ كُلَّما قَرَأْتُ أُطروحةً عِلْمِيَّةً عالِيَةً يَدْرُسُ فيها باحِثٌ أوْ باحِثَةٌ أديبًا، قديمًا أوْ حديثًا، أوْ مسألةً مِّنْ مسائِلِ الأدبِ والنَّقْدِ، فإذا ما وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى ذلك، خَرَجْتُ مِنَ الأُطروحةِ وأنا لَمْ أَظْفَرْ بِسِوَى أمشاجٍ مِّنَ الكلامِ النَّظَرِيِّ الباهتِ المكرورِ في "الصُّورةِ الأدبيَّةِ"، و"التَّناصِّ"، و"العَتَبَاتِ النَّصِّيَّةِ"، و"الانحرافِ الأُسلوبيِّ"، ويجتهدُ البحثُ في التَّلخيصِ والاقتباسِ، في كلامٍ اتَّفَقَ لنا أنْ قَرَأْناهُ، أصيلًا جديدًا، عِنْدَ أصحابِهِ مِنَ النُّقَّادِ الغربيِّينَ، حتَّى إذا أَقْبَلَ الباحِثُ عَلَى موضوعِهِ، إذا بِهِ يُقدِّمُ رِجْلًا ويُؤَخِّرُ أُخْرَى، ويُكْثِرُ الْهَمْهَمَةَ والاستعانةَ في الكلامِ، فيَكْتُبُ كلامًا ركيكَ الأسلوبِ، سقيمَ المَعْنَى، فِجًّا، وكان صاحِبُهُ، قَبْلَ أَسْطُرٍ، كالفارِسِ الَّذي يُقَارِعُ الأبطالَ، وما هي حتَّى يَطْلُبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالَ!

لكنَّني قُلْتُ: لا بأسَ! فَلأَرَ ما الَّذي ستقولهُ نُورةُ العُمْرَانيُّ في شاعِرٍ اتَّسَعَ شِعْرُهُ حتَّى استوفَى تِسْعةَ مُجَلَّداتٍ مِّنَ القَطْعِ الكبيرِ، وأنَّى لقارِئٍ أو باحِثٍ أن يَصْبِرَ عَلَى هذا القَدْرِ مِنَ

الشِّعْرِ، وأنا لا أَسْتَبْعِدُ أنَّ الَّذي زَهَّدَ شِعْرَ محمَّد حَسَن فقي في أَعْيُنِ النُّقَّادِ والدَّارِسِينَ، عَلَى جَلالَةِ ذلك الشِّعْرِ وقُوَّتِهِ، إنَّما يَؤُولُ قَدْرٌ مِّنْهُ إلى تلك المُجَلَّداتِ التِّسْعَةِ الكبيرةِ، والنُّقَّادُ – حتَّى الكِبَارُ مِنْهُمْ – يُرِيدونَ أن يُلِمُّوا بالشَّاهِدِ والشَّاهِدَيْنِ، والقصيدةِ والقصيدتَيْنِ، ثُمَّ يُرَكِّبُوا عَلَى تلك النُّتَفِ أقوالًا في النَّقْدِ والنَّظريَّةِ، فتستويَ لَهُمْ مِّنْها دِراسةٌ، يَصِيحُ بِها الرُّكْبانُ، فما ظَنُّكَ بطالِبةٍ ساقَها قَدَرُها إلى أنْ تَدْرُسَ شاعِرًا، حتَّى إذا قَرَأَتْ شِعْرَهُ، اصْطَفَتْ مِنْهُ ما لهُ واشِجَةٌ بالمرأةِ، ثُمَّ جَعَلَتْ تُفَتِّشُ في أثناءِ ذلك الشِّعْرِ - وما هو بقليلٍ - عنْ صُورةِ المرأةِ.

والْحَقُّ أنَّني لَمْ أَظْفَرْ بشيْءٍ مِمَّا كُنْتُ أنتظِرُهُ، وأنا أُجِيلُ بَصَرِي في فِهْرِسِ المُحتوياتِ؛ لَمْ أقرأْ شيئًا مِنْ ذلك الكَلِمِ الشَّائعِ في أمثالِ هذه الدِّراساتِ؛ لمْ أَرَ فيهِ أثرًا للعَتَباتِ، ولا التَّناصِّ، ولا البِنْيَةِ، ولا الأُسلُوبِ...! فهذا اللَّوْنُ مِنَ الكَلِمِ لا تكادُ أُطروحةٌ جامِعِيَّةٌ تَخْلُو مِنْهُ، حتَّى كأنَّما صارَ منهجًا أوْ عَلامَةً عَلَى ذلك اللَّوْنِ مِنَ الدِّراساتِ الَّتي يقتفي فيها الْخَلَفُ أَثَرَ السَّلَفِ، وحتَّى يَجُوزُ لكَ أنْ تَعْبُرَ الفُصُولَ والصَّفحاتِ الَّتي لا جديدَ فيها، إلى موضوعِ الدِّراسةِ، فإذا بَلَغْتَها خُيِّلَ إليكَ أنَّكَ تَسْمَعُ أنفاسَ الباحثِ وقدْ أَعْيَاهُ لُهاثُ الظَّفرِ بِـ "نَظَرِيَّةٍ جديدةٍ" لِـ "مشروعِهِ النَّقْديِّ"!

لَمْ أَجِدْ شيئًا مِّنْ ذلك عِنْدَ نُورةَ العُمْرانيِّ، وإنَّما أَلْفَيْتُها تَكْتُبُ عن "المرأةِ المِثَالِ"، وجَعَلَتْ تَدْرُسُ "الأنا الشاعِرَةَ والمَرْأَةَ المِثَالَ"، و"المرأةَ واستلهامَ الصُّورةِ التُّراثيَّةِ"، فإذا استوفَتِ الفَصْلَ، أَقْبَلَتْ تَدْرُسُ "الفُحُولةَ والمرأةَ"، وأَنْشَأَتْ تبحثُ في شِعْرِ محمَّد حَسَن فقي عنِ "الشَّاعِرِ والعقلِ الرَّعَوِيِّ"، و"الفُحُولةِ والشِّعْرِ والمرأةِ"، ولَمَّا تَمَّ لها ذلك، جَعَلَتِ "المرأةَ وصِرَاعَ المُجْتَمَعِ" آخِرَ فَصْلٍ في كِتابِها، فدَرَسَتِ "المرأةَ المقهورةَ"، فَـ "المرأةَ المُسْتَبِدَّةَ"، وخَتَمَتْ فَصْلَها هذا بِمَبْحَثٍ جريءٍ دَعَتْهُ "المرأةَ وعِشْقَ الذَّاتِ".

وعِندي أنَّ نُورةَ العُمْرانِيَّ باحِثةٌ شُجَاعةٌ؛ شُجَاعةٌ لأنَّها ما تَهَيَّبَتْ أنْ تَدْرُسَ شاعِرًا كبيرًا مِثْلَ محمَّد حَسَن فقي، جَمَعَ شِعْرَهُ، إلى الوَفْرَةِ والْغَزارةِ، العُمْقَ الفلسفيَّ، والمَتَانَةَ اللُّغويَّةَ، والمَعانيَ النَّفْسِيَّةَ كالْحُزْنِ، والتَّشاؤمِ، والإحساسِ بالخطيئةِ، واقتصارَ شِعْرِهِ – في الأَعَمِّ

الأغلبِ – عَلَى هذهِ السِّمَاتِ، دُونَ غَيْرِها مِنْ أغراضِ الشِّعْرِ ومَعانِيهِ = وهي شُجاعةٌ، كذلك، لأنَّها سَلَكَتْ سبيلًا قَلَّ اليومَ سالِكُوهُ، وكان بِيَدِها أنْ تُوْهِمَ القُرَّاءَ، وتُوْهِمَ نَفْسَها، بِـ "المنهجِ"، و"النَّظرِيَّةِ"، فتَخْبِطَ في غابةٍ مِّنَ الكَلِمِ الَّذي أَفْقَدَ النَّقْدَ رُوحَهُ، مِنْ كَثْرةِ تَكرارِهِ، وباعَدَ بينَ الأدبِ والفَهْمِ الصَّحيحِ لهُ، ولكنَّها، وهذا يَظْهَرُ مِنْ كِتابِها، كأنَّما أرادَتْ جديدًا في موضوعِها، وجديدًا في مُعالَجةِ هذا الموضوعِ، فاتَّجَهَتْ، مِنْ فَوْرِها، إلى شِعْرِ شاعِرِها، وجَعَلَتْ تقرأُهُ قِراءَةً مُتَّئِدةً صابِرةً، وأَكْسَبَها النَّظَرُ "بَصِيرةً" بالشِّعْرِ، وقُدْرَةً عَلَى تَمَثُّلِ مَعانيهِ، ومُقَارَبةِ صُوَرِهِ، وصاغَتْ ذلك كُلَّهُ بِلُغَةٍ لا التواءَ فيها ولا عِوَج، فإذا كِتابُها كُلُّهُ، مِنْ أَلِفِهِ إلى يائِهِ، قِراءَةٌ "نَصِّيَّةٌ"، أَصاخَتْ فيها نُورةُ إلى ما في شِعْرِ محمَّد حَسَن فقي مِنْ دلائلِ قُوَّةٍ، وهَدَاها بَحْثُها إلى أنْ تَستخلِصَ صُورةَ المرأةِ "المِثَالِ"، والمرأةِ "الْخَطَّاءَةِ"، ودَلَّ بَحْثُها المُستأْنِي الرَّزِينُ عَلَى شَجَاعةِ "ناقِدةٍ" اقْتَحَمَتْ موضوعَها الصَّعْبَ حتَّى لانَ لَها واستقادَ.

فِهْرِسَةُ ما رَوَاهُ ابنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ

لِـ **فِهْرِسَةِ ما رَوَاهُ ابنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ**[45] مَذَاقٌ مُّخْتَلِفٌ عنْ سائِرِ كُتُبِ الفهارِسِ والمَعاجِمِ والبرامِجِ والأَثْبَاتِ والْمَشْيَخَاتِ!

لا يَخْرُجُ كِتابُ ابنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ عنْ هذا اللَّوْنِ الطَّريفِ مِنَ الكُتُبِ في التُّراثِ الإسلاميِّ: يُثْبِتُ الكُتُبَ الَّتي أجازَهُ شُيُوخُهُ بِرِوايتِها، عَلَى وَفْقِ الأُصُولِ المُتَّبعةِ في القِراءَةِ والرِّوايةِ والتَّلقِّي في شَجَرَةِ العِلْمِ الإسلاميِّ، وتُوْشِكُ الفِهْرِسَةُ أنْ تَكُونَ، في كثيرٍ مِّنَ المَواضِعِ، "شهادةَ مِيلادٍ" لهذا الكِتابِ أوْ ذاك.

لَكِنَّ في **فِهْرِسَةِ ابنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ** شيئًا آخَرَ؛ إنَّهُ "شاهِدُ عِيَانٍ" عَلَى الصِّلاتِ الثَّقافيَّةِ بينَ المَشْرِقِ العربيِّ والأندلُسِ، ومِثالٌ حَيٌّ عَلَى ارتِحالِ الكُتُبِ مِنْ صُقْعٍ إلى آخَرَ، ودليلٌ عَلَى وَحدةٍ ثقافيَّةٍ لا تَعْبَأُ كثيرًا باختلافِ الْجَالِسِ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ في بَغْدادَ أوِ الأندلُسِ، فالكِتابُ وَحَّدَ الأُمَّةَ يومَ فَرَّقَتْها السِّياسةُ.

لا تُفزِعْنا وَفْرةُ الكُتُبِ، ولا تَصْرِفْنا كثرةُ أسماءِ العُلَماءِ والمُؤَلِّفينَ والرُّوَاةِ... إنَّهم مِلْحُ الكِتابِ، والشُّهُودُ العُدُولُ عَلَى أنَّ كِتابًا قُرِئَ، ومَتْنًا أُجِيزَ.. إنَّ هذهِ الأسماءَ تَجْلُو لنا شيئًا مُّهِمًّا: شُيُوخَ العِلْمِ الَّذِينَ عليهم مَدارُ الرِّحْلَةِ والتَّلقِّي، وعواصِمَ العِلْمِ وأمصارَهُ في عالَمِ الإسلامِ الفسيحِ، وسَيرورةَ الكُتُبِ في هذهِ النَّاحيةِ أوْ تلك، وضُمُورَ كِتابٍ بَعْدَ شُهرَتِهِ، وتَيَّاراتِ العِلْمِ واتِّجاهاتِ الأدبِ في الْحِقْبَةِ الَّتي صُنِّفَ فيها هذا الفِهْرِسُ.

لا تَصْرِفْنا القِراءَةُ العَجْلَى غيرُ المُتَدَبِّرةِ عنِ الفِهْرِسَةِ؛ إنَّ هذه الأسماءَ تَطْوِي تحتَها عالَمًا فسيحًا مِّنَ الثَّقافةِ الحَيَّةِ الخِصْبةِ، شريطةَ أنْ نُعْطِيَ الكِتابَ حَقَّهُ مِنَ التَّأمُّلِ والتَّدَبُّرِ والتَّدَسُّسِ في مَضَايِقِهِ، فإذا نَزَلْتَ عَلَى هذا الشَّرْطِ تَكَشَّفَ لكَ عنْ روعةٍ وسِحْرٍ.

سأُوْرِدُ مِثالَيْنِ:

كُنْتُ أتقصَّى مَوْقِعَ مكَّةَ المُكَرَّمةِ في **فِهْرِسَةِ ابْنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ**، أُرِيدُ تَتَبُّعَ الكُتُبِ الَّتي دارَتْ حَوْلَها حَرَكَةٌ عِلْمِيَّةٌ، أوْ تلك الَّتي شَدَّتِ الرِّحَالَ مِنَ البَلَدِ الْحَرَامِ إلى الأندلُسِ.

كُنْتُ أَعْرِفُ، مِنْ قَبْلُ، أنَّ الإمامَ أبا عُبَيْدٍ القاسِمَ بنَ سَلَّامٍ - رَحِمَهُ اللهُ - (ت ٢٢٤هـ) اتَّخَذَ مِنْ مَكَّةَ المُشَرَّفةِ دارًا وسَكَنًا. دَلَّتْني كُتُبُ التَّراجِمِ عَلَى ذلك، وأَظْهَرَتْني عَلَى تِلميذِهِ النَّابِهِ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ البَغَوِيِّ (ت ٢٨٧هـ)، سادِنِ كُتُبِهِ ورَاوِيَتِها، وكُنْتُ كُلَّما قَرَأْتُ اسْمَ عَلِيٍّ بنِ عبدِ العزيزِ رأيْتُ اسْمَ أبي عُبَيْدٍ إلى جِوَارِهِ. فماذا نرى في **فِهْرِسَةِ ابْنِ خَيْرٍ**؟

نرى طُرُقَ تَلَقِّي ابْنِ خَيْرٍ والأندلُسِيِّينَ لِكِتابِ **فَضائِلِ القُرآنِ** و**كِتابِ الأمثالِ** كِلاهُما لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بْنِ سلَّامٍ:

فابْنُ خَيْرٍ رَوَى **كِتابَ فضائلِ القُرآنِ** مِنْ أربعةِ طُرُقٍ تنتهي كُلُّها إلى عَلِيٍّ بْنِ عبدِ العزيزِ البَغَوِيِّ المَكِّيِّ راويةِ أبي عُبَيْدٍ القاسِمِ بْنِ سلَّامٍ.

أَمَّا **كِتابُ الأمثالِ**، وكان للأندلُسِيِّينَ تَعَلُّقٌ بِهِ، فلِمُؤلِّفِهِ أبي عُبَيْدٍ - وأنا أَنْقُلُ، هُنا، كلامَ العَلَّامةِ إحسان عبَّاس - تِلْميذانِ هُمَا ثابِتٌ بْنُ أبي ثابِتٍ وعَلِيٌّ بْنُ عبدِ العزيزِ البَغَوِيُّ المَكِّيُّ - والآخِيرُ هو الأَهَمُّ –

وعنِ الاثنينِ مَعًا أَخَذَ إبراهيمُ بْنُ محمَّدٍ بْنِ عَرَفَةَ الشَّهيرُ بِنِفْطَوَيْهِ (- ٣٢٣)، وعنْ نِفْطَوَيْهِ أَخَذَ الكِتابَ شَيْخُ لُغَوِيِّي الأندلُسِ أبو عَلِيٍّ القالِيُّ (- ٣٥٦)، وعنِ القالِيِّ أَخَذَهُ تِلميذُهُ ابْنُ الْحَبَّابِ القُرْطُبِيُّ (- ٤٠٠)، وتَلَقَّاهُ عنهُ مُؤَرِّخُ الأندلُسِ أبو مروانَ ابْنِ حَيَّانَ (- ٤٦٩).

وهُناك ثلاثُ طُرُقٍ أُخْرَى في الأندلُسِ لروايةِ كِتابِ الأمثالِ، أَوَّلًا: طريقُ ابْنِ القُوْطِيَّةِ عنْ أبي الْحَسَنِ طاهر بْنِ عبدِ العزيزِ عنْ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ نَفْسِهِ، والثَّانيةُ: طريقُ ابْنِ الإفليليِّ عنِ القاسِمِ بنِ سَعْدانَ عنْ طاهِرِ بْنِ عبدِ العزيزِ عنْ عَلِيّ بْنِ عبدِ العزيزِ، والطَّريقُ الثَّالِثةُ بِسَنَدِ يُونُسَ بْنِ أحمدَ الحَرَّانِيِّ عن ابْنِ أَبي الحَبَّابِ عنِ القالِيِّ عنِ ابْنِ دُرُسْتَوَيْهِ عنْ عَلِيٍّ بْنِ عبدِ العزيزِ، فكُلُّ الطُّرُقِ تنتهِي إلى عَلِيٍّ بْنِ عبدِ العزيزِ [46]

هذا هو المِثَالُ الأوَّلُ، ورَأَيْنا فيهِ كَيْفَ انتقَلَ كِتابانِ إلى الأندلُسِ!

أَمَّا المِثَالُ الآخِرُ؛ فيَحْفَظُ **فِهرِسَةُ ابنِ خَيرٍ الإشبيليّ** أسماءَ الكُتُبِ والدَّواوينِ الَّتي وَصَلَ بِها أبو عَلِيٍّ القالِيُّ إلى الأندلُسِ، ولَوْلا **الفِهْرِسَةُ** لَغَامَ علينا نَبَأُها، وليس الأمرُ بالشَّأنِ اليسيرِ في حَرَكَةِ العِلْمِ والثَّقافةِ؛ فأبو عَلِيٍّ البَغداديُّ المعروفُ بالقالِيِّ حادِثٌ ثقافيٌّ ضَخْمٌ في تاريخِ العِلْمِ والثَّقافةِ في الأندلُسِ، وحَسْبُنا أنَّ نؤرِّخَ للثَّقافةِ ثَمَّ بِوِفَادَتِهِ المُبارَكةِ عليها، أَمَّا الكُتُبُ والدَّواوينُ الَّتي اجْتَلَبَها مِنَ المَشْرِقِ فسيَكُونُ لها شأنٌ بعيدٌ في تَرَقِّي عُلُومِ اللُّغةِ والأدبِ في نواحِي الأندلُسِ، كُلَّما تَقَدَّمَ بِنا الزَّمانُ.

كُتُبُ برامِجِ العُلماءِ والفهارِسِ والمُعْجَمَاتُ والمَشْيَخاتُ والأَثْباتُ = هي "الخريطةُ الْوِرَاثِيَّةُ" للثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، وفي كُلِّ كِتابٍ مِّنْها تُولَدُ كُتُبٌ، وتَنْمُو ثقافةٌ، وتَحْيَا أُمَّةٌ!

نَصٌ تَشَعُّبِيٌّ

اِسْتَحْكَمَتِ الأُلفةُ بيني وبينَ كُتُبِ الفهارِسِ والمُعْجَماتِ والمَشْيَخاتِ والبرامِجِ والأَثباتِ في تُراثِنا، وباتَ لها رُكْنٌ رَّكينٌ في خِزانةِ كُتُبي.

وأَذْكرُ، أوَّلَ عهدي بِها، الحَيْرَةَ الَّتي استوْلَتْ عَلَيَّ لَمَّا اقتنيْتُ كِتابَ **فِهْرِسَة ما رَوَاهُ ابْنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ**(47)، ويُوْشِكُ الكِتابُ أن يَكُونَ جريدةً أَثْبَتَ فيها ابْنُ خَيْرٍ المُتَوفَّى سَنَةَ ٥٧٥هـ الكُتُبَ الَّتي تَلَقَّاها عنْ شُيُوخِهِ، عَلَى وَفْقِ ما هو معروفٌ وَّمُسْتَتَبٌّ في تَلَقِّي العِلْمِ في الإسلامِ.

ولَوْلا الاحتِطابُ في غابَةِ الكِتابِ لَمْ يَصِلْ **فِهْرِسَةُ ابْنِ خَيْرٍ** إلى يَدِي! ولَكِنْ مَّا كُلُّ احتطابٍ ضارٌّ، وإنْ لَّبِثَ في خِزانَةِ كُتُبي مُدَّةً ليستْ بالقصيرةِ، حتَّى أدركْتُ قَدْرَ هذا الكِتابِ، وقِيمةَ هذا اللَّونِ مِنَ التَّصنيفِ في تاريخِنا.

وأنا أَرُدُّ جَهْلِي بهذا اللَّوْنِ مِنَ التَّأليفِ في تُراثِنا = إلى أنَّ طريقةَ تعليمِنا في الْجامِعةِ غيرُ حَسَنَةٍ؛ فكيفَ يُجَازُ طالِبٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، أوْ في الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ، أوِ التَّاريخِ، أوْ عُلُومِ المكتباتِ، أوِ الفلسفةِ = وهو لا يَعْرِفُ شيئًا عنْ أنواعِ التَّأليفِ في تاريخِ العِلْمِ عِنْدَنا؟!

كيفَ يُجازُ هذا الطَّالِبُ وهو لا يَعْرِفُ مَعْنًى لعِنواناتِ الكُتُبِ في تُراثِنا، وعَسَاهُ لَمْ يَمُرَّ بِهِ - أوْ لَمْ يَسْتَجْلِبِ انتباهَهُ - مُصْطَلَحَاتٌ لَّها شأنُها في التَّأليفِ العربيِّ الإسلاميِّ، كَـ "الشَّرْحِ، والحاشِيَةِ، والمُخْتَصَرِ، والتَّهذيبِ، والتَّلخيصِ، والتَّرتيبِ، والذَّيْلِ، والتَّكمِلةِ، والصِّلَةِ، والمُعْجَمِ، والفِهْرِسِ، والمَشْيَخةِ، والبرنامِجِ، والثَّبَتِ، والتَّقييدِ، والتَّقريرِ، والتَّعليقِ..."!

وكيفَ يَظْفَرُ طالِبُ العُلُومِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ بِـ "الإجازةِ الْجامِعيَّةِ"، دُونَ أن يَتَّصِلَ، شيئًا مَّا، بمُصَنَّفاتِ العُلُومِ في تُراثِنا، ودُونَ أن يُلْقِيَ بَصَرَهُ إلى كُتُبٍ لَّها مَقامُها في تاريخِ العُلُومِ،

أَشْهَرُهُنَّ **الفِهْرِسْتُ** للنَّديمِ، و**كَشْفُ الظُّنُونِ عنْ أسامِي الكُتُبِ والفُنُونِ** لِحَاجِّي خليفة؟!

وأَذْكُرُ أنَّ مِنْ أَجَلِّ ما قُرِّرَ علينا في الْجامِعةِ مُقَرَّرَ "مَصادِرِ الأدبِ واللُّغةِ"! كان مُقَرَّرًا نافِعًا جِدًّا، ومُفيدًا جِدًّا، ويكفي أنَّه عادَ علينا بِخَيْرٍ كثيرٍ؛ فعَرَفْنا الكُتُبَ الأُمَّهاتِ والأُصُولَ، واتَّصَلْنا بالمُؤَلِّفِينَ. كان الدَّرْسُ عظيمًا، وكانَتِ الكُتُبُ الَّتي أَخَذَتْ بأيدينا نافِعةً جِدًّا[48]. لكنَّنا لَمْ نَعْرِفْ شيئًا عنْ مُصْطَلَحاتِ التَّأليفِ في تُراثِنا، ولَمْ نَقِفْ عَلَى شيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ قَبْلًا، وكانَ واجِبًا أنْ نجتازَ الْجامِعةَ ونحنُ أَمْتَنُ صِلَةً بِعُلُومِنا، وأشدُّ معرِفةً بها!

لكنَّني عَرَفْتُ، بفضلِ اللهِ، ما لَمْ أَكُنْ أعْرِفُ، وأَقْبَلْتُ عَلَى ما صَدَدْتُ عنهُ، وأدركْتُ مَعْنَى تلك الكُتُبِ، وأنَّها "الإجازةُ" - أوِ الشَّهادةُ - الَّتي تُؤَهِّلُ طالِبَ تلك العُلُومِ لِقراءَتِها وبَيَانِ ما فيها، وأنَّ لَها مَنافِعَ كثيرةً، ومِنْ أَجَلِّهِنَّ أنَّ الكُتُبَ الَّتي يُقَيِّدُ العُلَماءُ فيها أسماءَ شُيُوخِهِمْ، ومَرْوِيَّاتِهِمْ، والكُتُبَ الَّتي دَرَسُوها... تلك الَّتي يَدْعونَها "مُعْجَماتٍ، أوْ مَشْيَخاتٍ، أوْ أَثْبَاتًا، أوْ بَرَامِجَ، أوْ فَهارِسَ" = كأنَّها شَجَرَةُ نَسَبٍ نَرْفَعُ بِها هذا الكِتابَ أوْ ذاكَ إلى مُؤَلِّفِهِ = وأنَّ سِلسلةَ الرُّواةِ الَّذينَ تَلَقَّوْا الكِتابَ إنَّما سِيقُوا لإثباتِ صِحَّةِ الرِّوايةِ والتَّلقِّي، عَلَى وَفْقِ أُصُولٍ يَعْرِفُها القومُ في التَّلقِّي، والنَّسْخِ، والعَرْضِ، والمُقَابَلةِ.

ويَحْلُو لِي اليومَ أنْ أستعيدَ طَرَفًا مِّنْ مُكابَدَتي قِراءَةَ هذهِ الكُتُبِ، وبالأخصِّ **فِهْرِسَةُ ما رَوَاهُ ابْنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ**!

كان الكِتابُ غريبًا، وما كانَ حَقُّهُ أن يَكُونَ غريبًا عَلَى طالِبٍ أُجِيزَ في اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، قُدِّرَ لَهُ أن يَتَّصِلَ بكِتابٍ ذائعٍ مَّعرُوفٍ في تُراثِ أُمَّتِهِ!

ولأَعترِفْ أنَّ ما شَدَّني إلى الكِتابِ، أوَّلَ عهدي بِهِ، كَلِمَةُ "فِهْرِسَة" المُثْبَتَةُ عَلَى غِلافِهِ! وقَدَّرْتُ أنَّ بينَ كِتابِ ابْنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ و**الفِهْرِسْتِ** للنَّديمِ آصِرةً وَّوَشِيجَةً! والْحَقُّ أنَّ بينَ الكِتابينِ نَسَبًا وَّرَحِمًا، إنْ لَمْ يَكُونا قريبَيْنِ ومِنْ عَصَبةٍ وَّاحِدةٍ، ففي الأُصُولِ!

حَيَّرَني **فِهرِسَةُ ابْنِ خَيْرِ الإشبيليّ**؛ هذا الَّذي لَمْ أَهْتَدِ إلى فَكِّ رُمُوزِهِ، ومعرفةِ مُخَبَّآتِهِ؛ أُطالِعُهُ، كثيرًا، في غيرِ كِتابٍ، ويُكْثِرُ المُؤَلِّفُونَ في شأْنٍ مِّنْ شُؤونِ التُّراثِ والمُحقِّقونَ مِنَ الرُّجُوعِ إليهِ! إِذَنِ الكِتابُ لهُ مَقامُهُ في تُراثِنا، ولَوْلا ذلك ما استعانَ بِهِ أولئك المُؤَلِّفونَ الأعلامُ!

لكنْ صَبْرًا عَلَى حَلِّ هذهِ المُعْضِلاتِ!

كانَ ذلك يَوْمَ اتَّصَلَتْ أسبابي بكِتابِ **فِهرِس الفَهَارِسِ** للعَلَّامةِ السَّيِّدِ عبدِ الْحَيِّ الكَتَّانيِّ، وعِنايَةِ العَلَّامةِ إحسان عَبَّاس(49)، ويَوْمَ وَقَفْتُ عَلَى طَرَفٍ مِّنْ كُتُبِ التَّربيةِ والتَّعليمِ في تُراثِنا، واستأنسْتُ بِكُتُبِ عُلُومِ الحديثِ، وأَهَمُّهُنَّ **تقييدُ العِلْمِ** للخطيبِ البغداديِّ، و**الإلماعُ** للقاضي عِيَاض، و**جامِعُ بَيَانِ العِلْمِ** لابْنِ عبدِ البَرِّ.

أَحْبَبْتُ هذا الضَّرْبَ مِنَ الكُتُبِ، وباتَ قريبًا إِلَيَّ، حبيبًا، وصِرْتُ أنتخِبُ طائفةً مِّنها، وإذا هي تَجْلُو لِي غامِضًا، وتَكْشِفُ مُخَبَّأً، وإذا بِي أَفْهَمُ، وأَعْرِفُ ما لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ! أَمَّا كِتابُ ابْنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ؛ ذلك المُبَهَمُ المُسْتَغْلِقُ = فاسْتَسْلَمَ لِي بَعْدَ تَأَبٍّ وَّتَمَنُّعٍ، وصِرْتُ أُدْرِكُ ما الأسرارُ الَّتي تُكِنُّها سَلاسِلُ الكُتُبِ والمُؤَلَّفاتِ؛ فإذا هي ثَمَرَةُ عُقُولٍ أَكَبَّ أصحابُها عَلَى التَّصنيفِ والتَّأليفِ، وأدركْتُ مِنْ مَّعانِيها ما لَمْ أُدْرِكْهُ قَبْلَئِذٍ.

وسأَسُوقُ إليكَ شيئًا مِّنْ مُخَبَّآتِ **فِهرِسَةِ ما رَوَاهُ ابنُ خَيْرٍ الإشبيليّ**.

اِرْتَحَلَ أبو عَلِيٍّ القالِيُّ البَغداديُّ (ت ٣٥٦هـ) مِنَ المَشْرِقِ إلى الأندلُسِ، وكانَ مَسِيرُهُ إليها حادِثًا جليلًا أَثْبَتَهُ المُؤَرِّخُونَ، وعَدُّوهُ بُدَاءَةَ حِقْبةٍ يُؤَرِّخُ لها في تلك النَّواحِي، وعادَ علينا **فِهرِسَةُ ما رَوَاهُ ابنُ خَيْرٍ الإشبيليّ** بِنَفْعٍ عظيمٍ؛ فالشَّيْخُ الإمامُ لَمْ يَرْحَلْ وَحْدَهُ، وإنَّما ارتحَلَتْ مَعَهُ كُتُبٌ ذواتُ شأْنٍ، فكانَ صاحِبُ **الأمالي** جِسْرًا يَّصِلُ المَغْرِبَ بالمَشْرِقِ، وحَفِظَ لنا ابْنُ خَيْرٍ أسماءَ الكُتُبِ والدَّواوينِ الَّتي صارَ بِها إلى الأندلُسِ، والَّتي كانَ ارتحالُها إلى العُدْوَةِ القُصْوَى خَيْرًا عَلَى العِلْمِ والأدبِ واللُّغةِ والمعرفةِ.

إِذَنْ، هذهِ مأْثُرَةٌ واحِدةٌ مِّنْ مآثِرِ كُتُبِ الفهارِسِ والبَرَامِجِ والأَثْبَاتِ والمُعْجَمَاتِ والمَشْيَخاتِ، وهي بعضُ ما تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فَـ **الفِهْرِسَةُ**، بهذا المَعْنَى، يُشْبِهُ أن يَكُونَ "شهادةَ مِيلادٍ" للكُتُبِ، فإذا اجْتَزْنا هذه المسألةَ تَكَشَّفَتْ لَنا الحياةُ العَقْلِيَّةُ في الأندلُسِ، ومِقدارُ ما اقتبسَهُ الأندَلُسِيُّونَ مِنَ المَشارِقةِ، ونَصِيبُ تلك الكُتُبِ في تَرَقِّي الثَّقافةِ في تلك النَّواحِي، أَمَّا أبو عَلِيٍّ القالِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فصارَ أَبًا أَعْلَى في سِلْسِلةٍ طويلةٍ ضارِبةٍ في الأزمنةِ والأمكنةِ = ترتفِعُ إليهِ أنسابُ أَهْلِ القَلَمِ مِنَ الأندلُسِيِّينَ، فإذا عَرَفْنا ذلك، أدركْنا مَقامَ **فِهْرِسَةِ ما رَوَاهُ ابْنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ**، وأنَّ تلك الْجرائدَ الَّتي قَيَّدَ فِيهِنَّ عِنواناتِ الكُتُبِ إنَّما تَثْوِي فيها حياةٌ، وَّثقافةٌ، وَّأنَّ ما تَخَيَّلْتُهُ، أَوَّلَ عهدي بِهِ، بِلا معنًى، ليس إلَّا وَهْمًا مِّنَ الأوهامِ.

ولَنا أنْ نَقِيسَ عَلَى **فِهْرِسَةِ ابنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ** فهارِسَ ومُعْجَماتٍ وبرامِجَ أُخْرَى، مِنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، لا سبيلَ إلى إحصائِها.

تَأكَّدَتِ الأُلْفَةُ بيني وبينَ كُتُبِ التَّراجِمِ والسِّيَرِ في تُراثِنا. ذَلَّتْ ما كان يَعْتَرِضُ قِراءَتي مِنْ صِعَابٍ، وإذا هي تُعِيدُ، عَلَى نَحْوٍ مَّا، أشياءَ مَرَّتْ بِي في **فِهْرِسَةِ ابنِ خَيْرٍ الإشبيليِّ**، فأَفْهَمُ أكثرَ! وأدركْتُ طَرَفًا مِّنْ تلك الرُّمُوزِ، وعندئذٍ داخَلَني شُعُورٌ بأنَّني امتلكْتُ مِفتاحَ تلك الكُتُبِ الَّتي استغلقَتْ عَلَيَّ، فها أَنَذا أقرأُ وأَفْهَمُ ما أَقْرَأُ، وبينما اضطربَتْ حالي، واستبهَمَ عَلَيَّ الطَّرِيقُ، أَوَّلَ اتِّصالي بِها = أضاءَتِ الصُّوَى ما كان، مِنْ قَبْلُ، مَجَاهِلَ، وتَذَوَّقْتُها! نَعَمْ تَذَوَّقْتُها! ومَنْ ذاقَ عَرَفَ!

عَلَى أنَّكَ لوْ كُنْتَ مِمَّنِ اعتادَ الظُّهُورَ عَلَى هذهِ الكُتُبِ، وجالَ في مَضَايِقِها، أوِ اضطرَّكَ البحثُ، لأمرٍ مَّا أنْ تستعينَ بِها = لاستجلَبَ انتباهَكَ تَشَعُّبُ الكُتُبِ والمُؤَلِّفِينَ والأمكنةِ والأزمنةِ، حتَّى لكأنَّكَ إزاءَ نَصٍّ تَشَعُّبِيٍّ Hypertext مُكَوَّنٍ مِّنْ أمشاجٍ، وهو كذلك؛ فالكِتابُ مِنْ هذهِ الكُتُبِ غامِضٌ، فإذا عَرَفْتَ رُمُوزَهُ وغايتَهُ، تَكَشَّفَ لكَ بَعْدَ غُمُوضٍ، وأدركْتَ أنَّ التَّشَعُّبَ الَّذي فيهِ إنَّما هو عَصَبُهُ وهيكلُهُ ورُوحُهُ، وأنَّ اختلافَهُ ائْتِلافٌ، وتَشَرْذُمَهُ وَحدةٌ، وأنَّ هذا المُعْجَمَ أو البرنامِجَ الَّذي تأَخَّرَ في الزَّمانِ يَجْمَعُ الأشتاتَ، فإذا الأزمِنةُ والأمكِنةُ

والمُؤَلِّفونَ والرُّواةُ أغصانٌ في شَجَرَةِ العِلْمِ الإسلاميِّ، وأنَّ الجِذْرَ والسَّاقَ والأغصانَ يُغِذِّيهِنَّ نُسْغٌ وَّاحِدٌ بمادَّةِ الْحياةِ.

أَنسابُ الكُتُبِ

للإمامِ جَلَالِ الدِّينِ السُّيُوطِيِّ (ت 911هـ) كِتابٌ اِتَّخَذَ لَهُ عِنوانًا طريفًا هو **أَنْسَابُ الكُتُب في أَنْسَابِ الكُتُب**[50]، قَيَّدَ فيهِ طائفةً عظيمةً مِّنَ الكُتُبِ الَّتي أَذِنَ له أشياخُهُ وشَيْخاتُهُ في غيرِ ناحيةٍ مِّنْ بِلادِ العربِ بِقِراءَتِها والإخبارِ عَنْها. وكُنْتُ، منذُ قَرَأْتُ خَبَرًا عنْهُ في كِتابِهِ **زاد المَسِير في الفِهْرِسْتِ الصَّغِير**[51]، وهو اختصارٌ لَّهُ = أزدادُ إعجابًا بِعِنوانِ الكِتابِ، عَلَى أنَّني حَزِنْتُ، آنَئِذٍ، أَشَدَّ الْحُزْنِ لِقَوْلِ مُحَقِّقِهِ: ويَظْهَرُ أنَّ المُعْجَمَ الكبيرَ لَمْ يَصِلْنا[52]، ثُمَّ إذا بِي أَقَعُ عَلَيْهِ بِعِنْوانِهِ الطَّرِيفِ في مَعْرِضِ جُدَّةَ الدَّوْلِيِّ للكِتابِ 1437هـ = فعَدَدْتُّهُ مِنْ خَيْرِ مُقْتَنَيَاتِ المَعْرِضِ، وما أَكْثَرَها وما أَعَزَّها وأَنْدَرَها!

لنْ أَتَحَدَّثَ عنِ الكِتابِ بِغَيْرِ الَّذي قُلْتُهُ في مُفْتَتَحِ الفَصْلِ، ولكنَّني سأَقِفُ مُتَأَمِّلًا عِنْوَانَهُ البديعَ **أَنْسَابُ الكُتُب في أَنْسابِ الكُتُب**؛ فالسُّيُوطِيُّ يُعَزِّزُ مَذْهَبًا عَرَبِيًّا وَّإسلامِيًّا في العِلْمِ والمعرفةِ والثَّقافةِ؛ فشَجَرَةُ العِلْمِ في ثقافةِ المُسْلِمِينَ لَيسَتْ مُنْبَتَّةً عنْ جُذُورِها، إنَّما هي تَغُورُ في أُصُولٍ، ويَتَلَقَّاها كُلُّ جِيلٍ عنِ الَّذي سَبَقَهُ، ويُسْلِمُها الآباءُ إلى الأبناءِ فالْحَفَدَةِ، وتَتَحَدَّرُ إلى الْخَلَفِ مِنَ السَّلَفِ، فلَمَّا جاءَ السُّيُوطِيُّ في قَرْنٍ مِّنَ القُرُونِ الإسلاميَّةِ المُتأَخِّرةِ، بَعْدَ أنْ أَصَابَتِ الأُمَّةَ وحضارَتَها الْجَوَائِحُ والكائِناتُ، وشارَفَ النَّاسُ مَعْنَى الفَنَاءِ والذَّوَاءِ = أَلْفَى في الْكُتُبِ أَنسابًا كأنسابِ النَّاسِ، وهو، إذِ اصْطَنَعَ هذا العِنوانَ، إنَّما يُحْيِي قَوْلًا طالما تَكَرَّرَ في كُتُبِ الْحَدِيثِ والفهارِسِ والبرامِجِ والمَشْيَخَاتِ = هو "الأسانيدُ أنسابُ الْكُتُبِ"[53]، فالْعِلْمُ في ثقافتِنا، لَهُ أَصْلٌ يَلُوذُ بِهِ، وجَدٌّ أَعْلَى يَعْتَزِي إليهِ الأبناءُ والْحَفَدَةُ والذَّرَارِيُّ، ولا نَصَّ مقبولًا، مسموعًا كانَ أوْ مقروءًا، إلَّا وله أَصْلٌ يَرْتَفِعُ إليهِ، وشَجَرَةُ نَسَبٍ تَجْمَعُ الفُرُوعَ في أَبٍ واحِدٍ.

ولا يَكُونُ عالِمًا ولا طالِبَ عِلْمٍ مَنْ لَّمْ يَنْتَمِ إلى تلك الشَّجَرَةِ، وإنَّهُ إنْ لَّمْ يَعْتَزِ إليها كانَ كَمَنْ لا أَصْلَ لَهُ. ونقرأُ في كُتُبِ الفهارِسِ والبرامِجِ والْمَشْيَخاتِ أُصُولًا وفُرُوعًا مِّنَ العُلماءِ

والكُتُبِ، هي إنْ تأَمَّلْناها إعلانٌ عنِ استمرارِ الأُمَّةِ في الزَّمانِ والمكانِ، ولَعَلَّ مِنْ أَطْرَفِ ما نقرأُهُ في كُتُبِ القَوْمِ ما دَعَوْهُ "مُشَجَّراتٍ" يُثْبِتُ فيها العالِمُ أوِ المُتَعَلِّمُ شَجَرَةَ نَسَبِهِ العِلْمِيِّ، كما يُثْبِتُ شَجَرَةَ آبائِهِ وأجدادِهِ، عَلَى أنَّ مِنْ أَهَمِّ ما خَلَّفَتْهُ الثَّقافةُ العربيَّةُ الإسلاميَّةُ أنَّ الكُتُبَ نَفْسَها كالإنسانِ؛ مِنْها الجَدُّ الأَعْلَى، ومِنْها الآباءُ، والأبناءُ، والْحَفَدَةُ، ومِنَ الكُتُبِ مَنِ امتدَّتْ سُلَالَتُهُ في التَّاريخِ، ومِنْها مَنْ عَقَمَ، ونُمْسِكُ بهذهِ الظَّاهرةِ في كُتُبِ الفِقْهِ والتَّفسيرِ والتَّوحيدِ، كما نَظْفَرُ بِها في كُتُبِ الأدبِ والتَّاريخِ والأخبارِ؛ فللكِتابِ، إذا رُزِقَ السَّعادةَ والشُّيُوعَ، تَتِمَّةٌ، وَّتَكْمِلَةٌ، وَّصِلَةٌ، وَّذَيْلٌ، ولَهُ، كذلك، اختصارٌ، وَّتلخيصٌ، ولبعضِ الكُتُبِ شُرُوحٌ، وَّحَوَاشٍ، وَّتعليقاتٌ، ورُبَّما تَفَرَّدَ تلخيصٌ أوْ مُخْتَصَرٌ فأَصْبَحَ رَأْسًا لقبيلةٍ تَتَفَرَّعُ شَجَرَتُها في المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، نَلْقَى ذلك في **تلخيصِ المِفْتاحِ** و**شُرُوحِهِ** في البلاغةِ، ونَلْقَاهُ، كذلك، في المُخْتَصَراتِ الفِقْهِيَّةِ، وأَشْهَرُها **مُخْتَصَرُ أَبِي شُجَاع**، و**مُخْتَصَرُ الْخِرَقِيِّ**، و**مُخْتَصَرُ خَلِيل**، و**مُخْتَصَرُ القُدُورِيِّ**، ونَلْقَاهُ في **الأَلْفِيَّةِ** وما بُنِيَ عليها مِنْ شُرُوحٍ وتَحْشِيَاتٍ. وفي هذهِ وتلك نَظْهَرُ عَلَى شَجَرَةِ العِلْمِ الإسلاميِّ واستمرارِها، مهما اخْتَلَفَتِ الأَزمِنةُ والأَمكِنةُ.

عِلْمُ احتمالاتِ النُّصُوص

كان العَلَّامةُ الدُّكتور شوقي ضيف - رَحِمَهُ اللهُ - الَّذي قَضَى عُمْرَهُ أستاذًا بِكُلِّيَّةِ الآدابِ = تِلميذًا نجيبًا وَّطالبًا ألمعِيًّا في "المعهدِ الدِّينيِّ الأزهريِّ"، وثَمَرةً مِّنْ ثَمَرَاتِهِ المُباركةِ، وعساهُ، بَعْدَ أنِ التحقَ بِكُلِّيَّةِ الآدابِ = عَرَفَ بَرَكَةَ دِراستِهِ لعُلُومِنا القديمةِ.

رُبَّما أَوْحَتْ لنا جريدةُ مُؤلَّفاتِهِ بِتَضَلُّعِهِ مِنَ الثَّقافةِ الموروثةِ، في صُورتِها الَّتي رعاها الْجامِعُ الأزهرُ وحافَظَ عليها؛ فالرَّجُلُ الَّذي نَشَرَ كُتُبًا مُحَقَّقةً تحقيقًا عِلْمِيًّا في النَّحْوِ، والقِراءَاتِ، والأدبِ = إنَّما كان يَشِيمُ إلى دُرُوسِهِ الأزهريَّةِ، منذُ كانَ صَبِيًّا في القريةِ، وإلى أنْ تَخَرَّجَ في المعهدِ الدِّينيِّ الأزهريِّ بدِمياط.

عَرَضَ شوقي ضيف المقرَّراتِ الَّتي يتلقَّاها التَّلامِذةُ والطُّلَّابُ، منذُ اختلافِهِم إلى الكتاتيبِ، وإلى أن يُسْلكُوا في الجامِعةِ = في الْجُزْءِ الأوَّلِ مِنْ ترجمتِهِ الشَّخصيَّةِ البديعةِ **مَعِي**[54]، ويَعنيني في ترجمتِهِ هذهِ كلامُهُ عنْ دَرْسِ النَّحْوِ في المعهدِ الدِّينيِّ الابتدائيِّ، في سَنَوَاتِهِ الأَرْبَعِ الأُولَى، وعلينا أنْ نستعيدَ في أذهانِنا أنَّ الأستاذَ الجليلَ شوقي ضيف أَخْرَجَ للمكتبةِ العربيَّةِ كُتُبًا في النَّحْوِ التَّعليميِّ، فلكلامِهِ، هُنا، وزنٌ وقيمةٌ!

كان مَتْنُ **الآجرُّوميَّة** أَوَّلَ كِتابٍ في النَّحْوِ يُقَرَّرُ عَلَى طلبةِ القِسْمِ الابتدائيِّ في المعهدِ، وما إنِ استهَلَّ الأستاذُ - أوِ الشَّيْخُ - الدَّرْسَ حتَّى أَخَذَهُمْ بِحِفْظِ الإعرابِ، هكذا جُمْلةً واحِدةً، وما إنِ انتهَى العامُ المدرسيُّ حتَّى جاءَ التَّلامِذةُ على الهيكلِ العامِّ للنَّحْوِ، وحِينَ خَطَوْا إلى العامِ الثَّاني دَرَسُوا مَتْنَ **الأزهريَّةِ** للشَّيْخِ خالد الأزهريِّ، وإذا بِهِمْ يَعُودُونَ، مَرَّةً أُخْرَى، إلى الهيكلِ العامِّ للنَّحْوِ، مَعَ شيءٍ مِّنَ التَّفصيلِ يقتضيهِ الْفَرْقُ ما بينَ **الأزهريَّةِ** و**الآجرُّوميَّةِ**، وقُلِ الأمرَ نَفْسَهُ في مَتْنِ **قَطْرِ النَّدى** لابْنِ هشامٍ الَّذي سيَدْرُسُونَهُ في العامِ الثَّالثِ مِنْ دِراستِهِم الأزهريَّةِ، فإذا أَقبلُوا عَلَى العامِ الرَّابِعِ قرأوا مَتْنَ **الألفيَّةِ**، وإذا بالنَّحْوِ يَرْسَخُ في

الأذهانِ في هيكلِهِ العامِّ وتفاصيلِهِ الَّتي يقتضيها التَّحَوُّلُ مِنْ مَّتْنٍ إلى مَتْنٍ، وتَضَلُّعُ التَّلامذةِ والطُّلَّابِ مِنْهُ.

يَمِيلُ شوقي ضيف إلى هذا الأُسْلوبِ التُّراثيِّ القديمِ، مهما قالَ التَّربويُّونَ والبيداغوجِيُّونَ المُحْدَثونَ فيه ما قالوا؛ إذْ تُوجِبُ التَّربيةُ الحديثةُ، عِنْدَ هؤلاءِ، أن يَقضيَ التِّلميذُ أوِ الطَّالبُ سَنَتَهُ الأُولَى في تَعَرُّفِ "الاسْمِ"، حتَّى إذا أَقْبَلَ عَلَى سَنَةٍ أُخْرَى عَرَفَ "الفِعْلَ"، ثُمَّ يَدْرُسُ، بَعْدَ ذلك، الْحَرْفَ، وإذا بِـ "الهيكلِ العامِّ" للنَّحْوِ يتقوَّضُ، ويُصْبِحُ أشلاءَ ومِزَقًا، ويُنْسِي جديدُ الدَّرْسِ قديمَهُ، وما هكذا الطَّريقةُ الأزهريَّةُ الموروثةُ عنْ سَلَفِ الأُمَّةِ.

وَقَفَ شوقي ضيف عِنْدَ المُتُونِ والشُّرُوحِ والحواشِي والتَّقريراتِ؛ قالَ: إنَّ دِراستَهُ في المعهدِ الدِّينيِّ الأزهريِّ اقتضَتْهُ أن يَقْرأَ جُمْلةً مِّنْ مُتُونِ العُلُومِ، ويَنْتَخِبَ جمهرةً مِّنَ الشُّرُوحِ والحواشي والتَّقريراتِ في النَّحْوِ والفِقْهِ الشَّافعيِّ وسِوَاهُما مِنَ الدُّرُوسِ المُقرَّرةِ.

الكلامُ في المُتُونِ والشُّرُوحِ والحواشِي والتَّقريراتِ ليس جديدًا، ونَقْدُ هذا الأُسْلُوبِ مِنَ الدَّرْسِ قديمٌ، نَقِفُ عليهِ عِنْدَ ابْنِ خَلْدُونَ وسِوَاهُ مِنَ العُلَماءِ والمُرَبِّينَ، لكن يُهِمُّني كلامُ شوقي ضيف عنْ هذا الضَّرْبِ مِنَ التَّعليمِ؛ لفائدتِهِ.

يَقْرَأُ شوقي ضيف في ظاهِرةِ المُتُونِ والشُّرُوحِ والْحَوَاشِي والتَّقاريرِ أساليبَ في تحليلِ "النَّصِّ" وتفتيتِهِ إلى أُسُسِهِ الأُولَى الَّتي بُنِيَ عليها؛ والْمَتْنُ نَصٌّ مُّوجَزٌ تَحْمِلُ كَلِماتُهُ إشاراتٍ ورُمُوزًا، ويُسَهِّلُ حِفْظُهُ واستظهارُهُ تَعَرُّفَ أُصولَ ذلك العِلْمِ وفُرُوعَهُ، ويَنْهَضُ بهذهِ المُهِمَّةِ الشُّرَّاحُ، وهُمْ، عادةً، مُدرِّسونَ، فإذا ظَهَرْنا عَلَى الشُّرُوحِ رَأَيْنا ما كانَ مُوجَزًا مُفصَّلًا، بِوُجُوهِهِ المُخْتلِفةِ، ثُمَّ تأتي الحواشِي والتَّقريراتُ لِتُناقِشَ وتُحَاوِرَ وتَعترِضَ وتُصَحِّحَ، وإذا بنا إزاءَ طَبَقاتٍ ليس لها حَدٌّ مِّنَ النُّصُوصِ والقِرَاءَاتِ، تَشْحَذُ العَقْلَ، وتُقَوِّي مَلَكَةَ النَّقْدِ، وتأخُذُ القارِئَ إلى فِقْهِ النُّصُوصِ.

قالَ شوقي ضيف: إنَّ الجامِعةَ الحديثةَ بِوُسْعِها أنْ تُفِيدَ مِنْ هذه الطَّريقةِ الأزهريَّةِ - الَّتي هي طريقةُ سَلَفِ الأُمَّةِ في الدَّرْسِ والقِراءةِ - لا بتقريرِ المُتُونِ والشُّرُوحِ والحواشِي

والتَّقريراتِ = لكنْ في استلهامِ طريقةِ القَوْمِ في معرفةِ النُّصُوصِ معرفةً شامِلةً وقِراءَتِها،
واقْتَرَحَ الأُستاذُ الجليلُ أنْ نَدْعُوَ المُقرَّرَ الجامِعيَّ مادَّةَ "عِلْمِ احتمالاتِ النُّصُوصِ"!

تَعْلِيقَةٌ عَلَى شَرْحِ الكَفْرَاوِيِّ!

لَدَيَّ شَوْقٌ قديمٌ إلى قِراءَةِ **شَرْحِ الكَفْرَاوِيِّ عَلَى الآجرُّومِيَّةِ**[55]!

فُزْتُ بِطَبْعَةٍ قَشِيبةٍ لهذا الشَّرْحِ بِحَاشِيَةِ الحامِدِيِّ، وعِنَايَةِ الشَّيْخِ مصطفى أبو المَعَالِي.

تَسْتَوْقِفُنِي، كثيرًا، ظاهِرَةُ "المُتُونِ" و"الشُّرُوحِ" و"الْحَوَاشِي" و"التَّعْلِيقَاتِ" في تُرَاثِنا. نستطيعُ قِراءَتَها عَلَى وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ قِراءَةً نَّفْعِيَّةً خالِصةً غَرَضُها الانتفاعُ بموضوعِها ومُحْتَوَاها، وقِراءَةً ثقافِيَّةً، وهي وَاسِعَةٌ لا تَحُدُّها حُدُودٌ، لكنَّها كُلَّها تُوْمِئُ إلى "اتِّصَالٍ ثقافِيٍّ" في الزَّمانِ والمكانِ؛ فالْمَاتِنُ ابْنُ آجرُّوم الصِّنْهَاجِيُّ المُتَوَفَّى سنةَ ٧٢٣هـ مغربيٌّ، والشَّارِحُ حَسَن الكَفْرَاوِيُّ المُتَوَفَّى سنةَ ١٢٠٢هـ مِصْرِيٌّ، والمُحَشِّي إسماعيلُ الحامِدِيُّ المُتَوَفَّى سنةَ ١٣١٦هـ مِصْرِيٌّ، ولَوِ امْتَدَّ الكلامُ لَأَلْفَيْنا الحِجَازيَّ، واليَمَانِيَّ، والشَّامِيَّ، والمَغْرِبِيَّ، والبَغْدَادِيَّ، والإفرِيقِيَّ، والبُخَارِيَّ، والرُّومِيَّ....

ولَوْ فَحَصْنا مادَّةَ **الآجرُّوميَّةِ** في **كَشْفِ الظُّنُونِ** لِحَاجِّي خليفة، أوْ **جامِعِ الشُّرُوحِ والحَوَاشِي** للسَّيِّد عبدِ الله الحِبْشيّ = لَرَأَيْنا كَيْف تَكَوَّنَ مَتْنُ **الآجرُّوميَّةِ**، وكَيْفَ صارَ أَبًا أَعْلَى لقبيلةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِّنْ بَنِينَ وحَفَدَةٍ وذُرِّيَّةٍ، قِوَامُها "شُرُوحٌ"، و"حَوَاشٍ"، و"تَعليقاتٌ"، فإذا اقتربْنا مِنْ تلك الكُتُبِ عَرَفْنا أنَّ شُعُوبَ العالَمِ الإسلاميِّ، منذُ زَمَنِ ابْنِ آجرُّوم، في القَرْنِ الثَّامِنِ الْهِجْرِيِّ، وحتَّى زَمَنِ الحامِدِيِّ - وغيرِ الحامِدِيِّ - في القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الْهِجْرِيِّ = يتَّصِلُ خَلَفُها بِسَلَفِها، ومَشرِقُ الأُمَّةِ بِمَغْرِبِها، في ألوانٍ مِّنَ التَّحاوُرِ، والتَّصويبِ، والاعتراضِ، والشَّرْحِ، والتَّحْشِيَةِ، والتَّعليقِ، والإكمالِ، والتَّتِمَّةِ، وكأنَّما ابنُ آجرُّوم وَّضَعَ بَيْنَ أيديهِمْ نَصًّا قابِلًا للتَّكوينِ والتَّشكِيلِ، فإذا عايَنَّا الشُّرُوحَ والْحَوَاشِيَ والتَّعليقاتِ رَأَيْنا العُلُومَ الإسلاميَّةَ كُلَّها عَلَى طَرَفِ الثُّمَامِ، وكأنَّها طَبَقَةٌ فَوْقَ طَبَقَةٍ فَوْقَ طَبَقَةٍ، عَلَى نَحْوٍ بديعٍ، حتَّى إذا التفتْنا إلى امتدادِ المَسَافَةِ بَيْنَ هذا البَلَدِ وذاكَ مِنْ بِلادِ المُسْلِمِينَ قَوِيَ عِندنا أنَّ المُتُونَ والشُّرُوحَ والْحَوَاشِيَ والتَّعليقاتِ - وما إليها - بِمَنْزِلَةِ "الرَّحِمِ الثَّقافِيِّ" الَّتي تَصِلُ الأُمَّةَ، أوْ كأنَّما كانَتْ

"فُسَيْفِسَاءً" لِكُلِّ ناحِيَةٍ مِّنْ دِيَارِ الْعَرَبِ والمُسْلِمِينَ مِقْدَارٌ ونَصِيبٌ في تكوينِها وتشكيلِها وإبداعِها!

الانتصارُ لِـ "الشُّرُوحِ والحَوَاشِي"

اِعْتَدْنا أنْ نَسْمَعَ ذَمًّا وثَلْبًا لظاهِرةِ "الشُّرُوحِ والحواشِي" في ثقافتِنا، وتَغِيبُ أصواتُ قِلَّةٍ تَرى فيها دليلَ حياةٍ، واتِّصالًا بين الأجيالِ، وفِقهًا للنُّصُوصِ.

أَعْرِفُ أنَّ نَقْدَ "الشُّرُوحِ والحواشِي" يَرْقَى إلى زمنٍ بعيدٍ في ثقافتِنا، لكنَّنا سَكَتْنا عنْ أثرِها في العُلُومِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، وعَدَدْنا النَّيْلَ مِنْها مَظْهَرًا مِنْ مَظاهِرِ التَّجديدِ والحداثةِ، ورَمَيناها بالتَّأخُّرِ والتَّخلُّفِ!

للعَلَّامةِ الدُّكتور جورج صَليبا - المتخصِّصِ في تاريخِ العِلْمِ - رأيٌ آخَرُ([56])؛ إنَّه يذهبُ - عكسَ التَّيَّارِ - إلى أنَّ "الشُّرُوحَ والحواشِيَ تنطوي على قَدْرٍ كبيرٍ مِّنَ الإبداعِ، ويَدْفَعُ - ويُقِيمُ على ذلك الحُجَّةَ - الأقوالَ الَّتي تَقْسِمُ الحضارةَ الإسلاميَّةَ إلى "عَصْرٍ ذَهَبِيٍّ" و"عُصُورِ انحطاطٍ"، وتَجْعَلُ ذُيُوعَ "الشُّرُوحِ والحواشِي والتَّعليقاتِ" سِمَةً مِّنْ سِمَاتِ هذا العَصْرِ الأخيرِ!

ولأنَّ العَلَّامةَ الجليلَ جورج صَليبا يَسْبَحُ عَكْسَ التَّيَّارِ - كما قالَ في صفحةِ الإهداءِ = فإنَّه يُقَدِّمُ رأيًا جديدًا، مُبايِنًا لآراءِ مَنِ استراحُوا مِنَ التَّفكيرِ، خُلاصَتُهُ أنَّ "الشُّرُوحَ والحواشِيَ والتَّعليقاتِ" في الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ = تُشْبِهُ "المَقالاتِ العِلْمِيَّةَ" المنشورةَ في المَجَلَّاتِ العِلْمِيَّةِ في جامِعاتِ الغربِ، وفي جامِعاتِ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ، في العَصْرِ الحاضرِ؛ فالعالِمُ في الغَرْبِ ينشرُ مقالةً عِلْميَّةً مُوْجَزَةً، ويُعَلِّقُ عليها عُلَماءُ آخرونَ، ويُسَاجِلُونَها، ويُكْمِلُونَها، ويَشْرَحُونَها! في كلامٍ مُفَصَّلٍ يستحِقُّ النَّظَرَ والتَّأمُّلَ، فعسَى أنْ نَجْتَهِدَ ونُعِيدَ قِراءةَ تُراثِنا، دُونَ مُرَكَّباتِ نَقْصٍ وعُقَدٍ!

المَتْنُ والحاشِيَةُ

أوَّلُ عَهدي بكِتابِ **مَعْنَى المَعْنَى** لِـ أُوغدن ورتشاردز كان في دَرْسِ "عِلْمِ الدِّلالةِ والمَعاجِمِ" في الْجامِعةِ.

تَحَدَّثَ عنه الدُّكتور أحمد مختار عُمَر - رَحِمَهُ اللهُ - في كِتابِهِ **عِلْمِ الدِّلالةِ** حديثًا مُفِيدًا، غيرَ ما ساقَهُ إلينا أستاذُنا الدُّكتور محمَّد حَبْلَص - حَفِظَهُ اللهُ - في دُرُوسِهِ النَّافعةِ المُفيدةِ، عَلَى ما تقتضيهِ الْجامِعةُ.

ومِمَّا أَذْكُرُهُ أنَّ الدُّكتور حَبْلَص أَظْهَرَ لنا رغبتَهُ في نَقْلِ الكِتابِ إلى العربيَّةِ، ولَعَلَّهُ شَرَعَ فيهِ، ورُبَّما انْصَرَفَ عنهُ، وإنْ كُنْتُ لا أَعْرِفُ مِقدارَ عِلْمِهِ بالإنكليزيَّةِ، أوْ عساهُ لمْ يُطِقْ ترجمتَهُ لصُعُوبتِهِ، عَلَى أنَّ أستاذَنا كان مِنَ المُخْلِصِينَ في دُرُوسِهِ، يَعْرِفُ ما يقولُ.

ولَعَلَّ اللهَ - تبارَكَ وتعالَى - ادَّخَرَ للعالِمِ العِراقيِّ الدُّكتور كِيَان أحمد حازم يَحْيَى ترجمةَ هذا السِّفْرِ الجليلِ، بعدَ زمنٍ ليس يسيرًا مِّنْ نَشْرِهِ في لُغَتِهِ الأُولَى[57].

عَرَفْتُ الدُّكتور كِيَان مِنْ أُطروحتِهِ الكبيرةِ **الاحتمالاتِ اللُّغويَّةِ المُخِلَّةِ بالقَطْعِ وتَعارُضِها عِنْدَ الأُصوليِّينَ**[58]. كان يَشْغَلُني، آنئذٍ، تَفَهُّمُ "المَجازِ"، فأَقْبَلْتُ عَلَى كُتُبٍ في البلاغةِ وأُصُولِ الفِقْهِ، فلَمَّا رأيْتُ كِتابَ كِيانٍ عَدَدْتُهُ مِنْ خَيْرِ ما يُقْتَنى، وأَفَدْتُ مِنْهُ، ويكفي أنَّه ذَلَّلَ لِي مُشْكِلاتٍ في المَنْطِقِ والأُصُولِ، تَعاصَى فَهْمُهُنَّ عَلَيَّ، فجَزَاهُ اللهُ خيرَ الْجَزاءِ.

يَصْطَنِعُ الدُّكتور كِيان في كُتُبِهِ المُؤَلَّفةِ والمُتَرْجَمةِ لُغَةً عربيَّةً شديدةَ الأَسْرِ، مُحْكَمةَ البِنَاءِ. إنَّهُ يُحْيِي أساليبَ اللُّغةِ، ويُطَوِّعُها لِتُسِيغَ المَقاصِدَ الجديدةَ في عُلُومِ اللُّغةِ والفلسفةِ والمَنْطِقِ، وأَفْلَحَ في ذلك فَلاحًا كبيرًا.

ويُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّ ترجمتَهُ لِـ **مَعْنَى المَعْنَى** كانَتْ ضَرْبًا مِّنَ المُكابَدةِ؛ فالكِتابُ موضوعُهُ المَعْنَى، ومُؤَلِّفَاهُ عالِمانِ جليلانِ استوعَبا ما انتهَى إليهما مِنْ عُلُومِ العَصْرِ، زَمَنَ تأليفِ الكِتابِ؛ في

اللُّغةِ، وعِلْمِ النَّفْسِ، والفلسفةِ، وعِلْمِ الرَّمزيَّةِ، وعُلُومٍ أُخْرَى، وكان عَلَى المُتَرْجِمِ أن يتضلَّعَ مِنْ موضوعِ الكِتابِ وما حَفَّ به مِنْ عُلُومٍ، حتَّى إذا تَمَّ لهُ ذلك، كان عليهِ أن يُتَرْجِمَ الكِتابَ بِلِسَانٍ عربيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٍ، فأَهْدَى إلى لُغتِنا وثقافتِنا ترجمةً عالِيَةً لِكِتابٍ عَسِرٍ، دُونَ أنْ تلتويَ بِهِ عِبارةٌ، أوْ يَنْبُوَ أسلوبٌ، وكان الكِتابُ سائِغًا، وإنْ لَّمْ تُفَارِقْهُ الصُّعوبةُ!

لكنَّ المُتَرْجِمَ الجليلَ داخَلَهُ شُعُورٌ أنَّ مُهِمَّتهُ لَمْ تَنْتَهِ، يَوْمَ نَقَلَ الكِتابَ إلى العربيَّةِ، ونراهُ يَخْطُو خُطْوَةً ثانيةً فيؤلِّفُ كِتابًا كبيرَ الحَجْمِ كثيرَ الصَّفحاتِ، دَعاهُ **اللُّغة بينَ الدَّلالةِ والتَّضليلِ: دِراسةٌ نَقْدِيَّةٌ عَلَى هامِشِ "مَعْنَى المَعْنَى"**([59])، بَسَطَ فيهِ الحديثَ فيما لمْ تَحْتَمِلْهُ هوامِشُ التَّرجمةِ، فكان كِتابٌ عَلَى كِتابٍ - وكان، هُنا، تامَّةٌ! -.

قالَ كِيانٌ في العِنْوانِ: إنَّ كِتابَهَ "هامِشٌ عَلَى مَعْنَى المَعْنَى"، وليس في ذلك مَغْمَزٌ! ذلك أنَّ المُتَرْجِمَ القديرَ أَدْرَكَ صُعُوبةَ الكِتابِ، وأنَّه يحتاجُ، بَعْدَ التَّرجمةِ، إلى شَرْحٍ أوْ ما يُشْبِهُ الشَّرْحَ لِيَسْتَبِينَ القارِئُ مَقاصِدَهُ وغاياتِهِ، ويَفْهَمَ ما تَعاصَى عليهِ، وما كان العَمَلُ سهلًا يسيرًا.

لكنَّكَ، متى قَرَأْتَ الكِتابَ المُؤَلَّفَ وقابَلْتَهُ بالكِتابِ المُتَرْجَمِ = عَرَفْتَ أنَّ كَلِمَةَ "هامش" لا تَعْنِي التَّبَعِيَّةَ الكاملةَ؛ ونَقْدِرُ أنْ نرى فيهِ عملًا جديدًا في نظريَّةِ اللُّغةِ وما يتَّصِلُ بِها مِنْ مسائلَ في عِلْمِ الرَّمزيَّةِ.

لماذا أقولُ ذلك؟

لأنَّ كلمةَ "هامش" الَّتي جاءَتْ في الكِتابِ المُؤَلَّفِ أَذْكَرَتْني أَخَوَاتٍ لها كانَ أسلافُنا يَصْطَنِعُونَهُنَّ عِنْواناتٍ لكُتُبِهِم = فـ "الشَّرْحُ"، و"الحاشِيَةُ"، و"التَّعليقُ"، و"التَّقريرُ" عساها تُوحِي بتواضُعِ العالِمِ أو المُؤَلِّفِ، لكنَّه ليس شَرْطًا لازِمًا أنْ تَدُلَّ عَلَى تواضُعِ المضمونِ!

وَكِيلُ كُتُب

يَتَكَرَّرُ، في ترجمةِ الإمامِ أبي عُبَيْدٍ القاسِم بْنِ سلَّام المُتَوَفَّى في مكَّةَ المكرَّمةِ سنةَ ٢٢٤هـ = اسْمُ تِلميذِهِ وراوي كُتُبِهِ عَلِيّ بن عبد العزيز البَغَوِيِّ المَكِّيِّ المُتَوَفَّى سنةَ ٢٨٦هـ.

نَقْرَأُ اسْمَ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ، كثيرًا، في كُتُبِ البرامِجِ والفهارِسِ والمَشْيَخَاتِ الأندلُسِيَّةِ؛ فالأندلُسِيُّونَ عَرَفُوا مِنْ طريقِهِ كُتُبَ أبي عُبَيْدٍ. كان حافِظًا، ثِقَةً، صَدُوقًا، لا يَطْعَنُ فيه أحدٌ!

لكنَّنا...!

لكنَّنا نَقْرَأُ في ترجمتِهِ هذا الخَبَرَ:

قالَ أبو بكرٍ بنُ السُّنِّيِّ: سَمِعْتُ النَّسائِيَّ يُسْأَلُ عنْ عَلِيٍّ بنِ عبدِ العزيزِ، فقال: قَبَّحَهُ اللهُ، ثلاثًا! فقِيلَ: أَتَرْوِي عنهُ؟ قالَ: لا، فقِيلَ: أكانَ كذَّابًا؟ قالَ: لا، ولكنَّ قَوْمًا اجتمعوا لِيَقْرأوا عليهِ شيئًا، وبَرُّوهُ بِما سَهُلَ، وكانَ فيهم إنسانٌ غريبٌ فقيرٌ لَمْ يَكُنْ في جُمْلَةِ مَنْ بَرَّهُ، فأَبَى أن يُحَدِّثَ بِحَضْرَتِهِ فذَكَرَ الغريبُ أنَّهُ ليس مَعَهُ إلَّا قَصْعةٌ، فأَمَرَهُ بإحضارِها، وحَدَّثَ.

ثُمَّ قالَ ابنُ السُّنِّيِّ: بَلَغَنِي أنَّهُمْ عابُوهُ عَلَى الأَخْذِ، فقالَ: يا قَوْمُ! إنَّا قَوْمٌ بينَ الأَخْشَبَيْنِ إذا خَرَجَ الحاجُّ نادَى أبو قُبَيْسٍ قُعَيْقِعَانَ[60]، يقولُ: مَنْ بَقِيَ؟ فيَقُولُ: بَقِيَ المُجَاوِرُونَ! فيَقُولُ: أَطْبِقْ[61]!

الخَبَرُ هذا يُفِيدُ - مِنْ غيرِ ناحيةٍ -: عَدَالَةَ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ، وحالَ الرِّزْقِ في مكَّةَ في القَرْنِ الثَّالِثِ، وأحوالَ المُجَاوِرِينَ مِنَ العُلماءِ ومَعَاشِهِمْ، وحَرَكَةَ العِلْمِ في البَلَدِ الحَرَامِ، ورغبةَ عُلَماءِ الحُجَّاجِ في الحديثِ، وخاصَّةً حديثَ أبي عُبَيْدٍ. ومِنْ فوائِدِهِ أنَّهُ لا يُؤْخَذُ عَلَى العِلْمِ (الحديثِ) شيءٌ، وأنَّ القَوْمَ يستنكِرونَ الأَخْذَ عليهِ، حتَّى لَيَعُدُّوهُ "قبيحًا"!

لكِنَّ في الخَبَرِ شيئًا آخَرَ؛ فيهِ أنَّ نَفَرًا مِّنَ العُلماءِ لا مَعَاشَ لَهُمْ إلَّا مِنْ رِّوايةِ العِلْمِ ونَشْرِهِ، وأنَّ جَمَاعَةً مِّنَ المُحَدِّثينَ - وخاصَّةً الأندلُسيِّينَ، وهُمْ أَغْلَبُ مَن يَرْوِي عنْ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ - لا يَرَوْنَ بأسًا في أن يَبَرُّوا مَن يأْخُذُونَ عَنْهُ، واختلَفَ المَشَارِقَةُ في ذلك[62].

ونَسْتَشِفُّ مِنَ الخَبَرِ أنَّ اختصاصَ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ بِأبي عُبَيْدٍ القاسِمِ بنِ سَلَّامٍ يُظْهِرُهُ في مَظْهَرِ "وَكِيلِ كُتُبِهِ الحَصْرِيِّ" - بمُصْطَلَحِ عَصْرِنا الحاضِرِ - فإذا رَجَعْنا، مَرَّةً أخرى إلى كُتُبِ البرامجِ والمَشْيَخَاتِ الأندلُسِيَّةِ = دَلَّتْنا رِواياتُهُمُ المُخْتَلِفَةُ عَلَى مَّوْقِعِ عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ في سلاسِلِ رِوَاياتِهِم، وأنَّ كُتُبَ أبي عُبَيْدٍ - ونحنُ نَعْرِفُ مَقامَهُ - نَقَلَها الأندلُسِيُّونَ عنْ طريقِ صاحِبِنا عَلِيّ بنِ عبدِ العزيزِ هذا، وأنَّهم دفعُوا لهُ مُقَابِلَ رِواياتِهِ!

مَفَاتِيحُ كُتُبِ التَّراجِمِ

- ١ -

تَستهويني كُتُبُ التَّراجمِ والسِّيَرِ في تُراثِنا. أقرأُها منذُ أَمَدٍ بعيدٍ، ولَمْ أَكُنْ لأَرْجُوَ مِنها إلَّا لَذَّةَ القِراءَةِ، ويكفيني أنْ أُطالِعَ الأسماءَ، وأَظْهَرَ عَلَى التَّراجِمِ، وأتأمَّلَ الأزمِنةَ، وأَتَفَحَّصَ الأمكِنةَ، وتَبْرُزَ لِي النَّواحِي، وأَجُولَ في المُدُنِ، حتَّى كأنَّني أَعْرِفُ الدُّرُوبَ والأَزِقَّةَ والمَحَلَّاتِ، وحتَّى إنَّني اعتدْتُّ أسماءَ الْجوامِعِ والمَساجِدِ، والزَّوايا، والأَرْبِطَةِ، والأسواقِ.

- ٢ -

تَظْهَرُ لنا كُتُبُ التَّراجِمِ والسِّيَرِ في تُراثِنا أصنافًا وأشكالًا وموضوعاتٍ. إنَّها عالَمٌ واسِعٌ فسيحٌ، لا تكادُ تَقِفُ عَلَى مَوارِدِهِ ومَصادِرِهِ، وبِوُسْعِكَ أنْ تَتَنَقَّلَ مِنْ بيئةٍ إلى بيئةٍ، ومِنْ عَصْرٍ إلى عَصْرٍ، ومِنْ جَمَاعةٍ إلى جَمَاعةٍ، وتَعِيشَ هُمُومَ ذلك العَصْرِ وذلك المكانِ وتلك الجماعةِ، حتَّى إذا تَوَثَّقَ ما بينكَ وبينَها عَرَفْتَ جلالَ تلك الكُتُبِ المُحيطةِ الواسعةِ، وأَدْرَكْتَ بعضَ أسرارِها.

- ٣ -

أَذْكُرُ كَلِمةً بليغةً للعَلَّامةِ الدُّكتور رِضْوَان السَّيِّد، وَصَفَ بها تُراثَ التَّراجِمِ، وبالخُصُوصِ تراجِمُ أهلِ القَلَمِ.

قالَ: إنَّها تَرْوِي لنا سِيرةَ العِلْمِ الإسلاميِّ!

وهذا الوَصْفُ صادِقٌ وصحيحٌ؛ فكُتُبُ التَّراجِمِ والسِّيَرِ، مَهْمَا اتَّسَعَتْ لألوانٍ مِّنَ القَوْلِ = هي سِيرةُ العِلْمِ الإسلاميِّ، وعليكَ أنْ تَعْرِفَ هذه الخصيصةَ عندما تَرُوعُكَ وَفْرَةُ أسماءِ العُلماءِ والأساتذةِ والأشياخِ، والتَّلامِذةِ، والمُجِيزِينَ، والمُجازِينَ!

- ٤ -

ولن يَّستقيمَ لنا فَهْمُ هذا الضَّرْبِ مِنَ الكُتُبِ إلَّا بفَهْمِ مِفتاحِها والغايةِ مِنْها؛ فالتَّاريخُ - هذا العِلْمُ الإسلاميُّ الباذِخُ - وكُتُبُ الرِّجَالِ = إنَّما نَقتفي أثَرَهُما في بيئةِ الحديثِ والمُحَدِّثينَ، وما كان سَرْدُ الرِّجالِ دُونَ غايةٍ! لا، إنَّ له غايةً عِنْدَ أولئك المُؤَلِّفينَ؛ فاستمرارُ العِلْمِ، واتِّصالُ حَلَقاتِهِ، ودَوَرَانُهُ في البيئاتِ = لا يَتِمُّ بِسِوَى معرفةِ رجالاتِهِ، والفَحْصِ عنهم.

إنَّ العِلْمَ في الإسلامِ لهُ حُرْمةٌ وَّمَقامٌ، وأنتَ لا تقرأُ كِتابًا إلَّا عَلَى شيْخٍ، وعَلَى وَفْقِ وسائلَ وأدواتٍ نلقاها في كُتُبِ القومِ = ولكُلِّ شَيْخٍ أساتِذةٌ، وله تلامِذةٌ، وأندادٌ يُجِيزُهُمْ ويُجِيزونَهُ، ولنْ أستطيعَ رَفْعَ هذا الكِتابِ إلى صاحِبِهِ إلَّا بسلسلةٍ متَّصِلةٍ مِّنَ الشُّيُوخِ والأساتذةِ، وما كانَ مجلِسُ العِلْمِ سَبَهْلَلًا، إنَّ لهُ تقاليدَ، وآدابًا، ووسائلَ، ومتى ما قُرِئَ كِتابٌ أُثْبِتَتْ أسماءُ قُرَّائِهِ وسامِعِيهِ، ويُؤْذَنُ للتِّلميذِ بروايةِ هذا الكِتابِ أوْ ذاكَ بحُصُولِهِ عَلَى "إجازةٍ" تَكُونُ "شهادةً" عَلَى مَرْتَبَتِهِ وأَهْلِيَّتِهِ، وتَكُونُ، كذلك، حَلْقةَ اتِّصالٍ بينَ المُؤَلِّفِ ومَنْ تَلَقَّى الكِتابَ عنهُ أوْ عنْ تلاميذِهِ وتلاميذِ تلاميذِهِ إلى ما شاءَ اللهُ، في أُصُولٍ في القراءةِ والتَّلقِّي يَرُوعُنا ما انطوَتْ عليهِ مِنْ ضُرُوبِ الإحكامِ في القِراءَةِ، والنَّسْخِ، والعَرْضِ، والمُقابَلةِ بينَ النُّسَخِ، إلى فُنُونٍ أُخْرَى نَلقاها في كُتُبِ القومِ، وخاصَّةً تلك الَّتي اختصَّتْ بعُلُومِ الحديثِ وصِناعتِهِ.

- ٥ -

إذنْ، لنْ تستطيعَ فَهْمَ كُتُبِ التَّراجِمِ والسِّيَرِ، وقِسْ عليها كُتُبَ الفهارِسِ والبرامجِ والمَشْيَخاتِ والأَثباتِ = إلَّا بِفَهْمِ الغايةِ مِنْها، ولن يتيسَّرَ لك ذلك إلَّا بمُدَاوَمةِ قِرَاءَتِها، ومُمارَسةِ مُشْكِلاتِها، وبغيرِ ذلك تَضِيعُ الفائدةُ والغايةُ والمفتاحُ!

- ٦ -

أرادَ الدُّكتور زكي نجيب محمود أن يقرأَ الفِكْرَ العربيَّ القديمَ، فعساه يهتدي إلى سبيلٍ للتَّقدُّمِ والنَّهضةِ.

عَلَى أنَّ فيلسوفَ الوضعيَّةِ المَنْطِقِيَّةِ لَمْ تَكُنْ صِلَتُه بالتُّراثِ العربيِّ الإسلاميِّ بِدَرَجَةِ صِلتِهِ بالثَّقافةِ الأوربِّيَّةِ! لكنَّ عليهِ أن يَكْتُبَ، وأن يَقْرَأَ قَبْلَ أن يَكْتُبَ!

قالَ صاحِبُ **تجديدِ الفِكْرِ العربيِّ** كلامًا نَفْهَمُ مِنهُ أنَّ اتِّصالَهُ بالتُّراثِ لَمْ يَكُنْ بذاك، وأنَّهُ مَعَهُ لكالسَّائحِ الَّذي اختلَفَ إلى مُتْحَفٍ فوَقَفَ أمامَ هذا الأثرِ قليلًا، ثُمَّ اجتازَهُ ووَقَفَ إزاءَ هذه العادِيَّةِ مِنَ العادِيَّاتِ هُنَيْهةً، ثُمَّ مضَى إلى شأنِهِ([63])!

لكنَّه كَتَبَ في الفِكرِ العربيِّ، وفي التُّراثِ الإسلاميِّ كُتُبًا ذواتِ عددٍ، وقالَ في هذا التُّراثِ أقوالًا!

- ٧ -

لا يَعنيني، الآنَ، مِنْ قِراءَةِ زكي نجيب محمود إلَّا ما اتَّصَلَ بِكُتُبِ التَّراجِمِ؛ تراجمِ العُلماءِ، فماذا وَجَدَ؟!

أرادَ أن يَقِفَ عَلَى الكُتُبِ الَّتي تَجْلُو لنا عُلُومَ المُسلمينَ، فاستعانَ بكِتابٍ مِّنْ كُتُبِ تراجمِ العُلماءِ، فلَمَّا ظَهَرَ عَلَى طَرَفٍ مِّنها، حَكَمَ عليها بأنْ لا جديدَ فيها، وأنَّ كُلَّ ترجمةٍ تُشْبِهُ

الأخرى، في تكرارٍ مُمِلٍّ، يُوْشِكُ أن يَكُونَ بِلا معنًى([64])!

- ٨ -

لَمْ يَعْرِفْ زكي نجيب محمود تلك الكُتُبَ، ولَمْ يُعايِشْها.

كانَ - وهو الأستاذُ الْجامِعيُّ الَّذي يُعَلِّمُ طُلَّابَهُ المنهجَ العِلْميِّ في التَّفكيرِ والبحثِ - = مستعجِلًا استعجالَ السَّائحِ الَّذي زارَ مُتْحَفًا زِيارةً خاطِفةً! مَعَ فارِقٍ مُهِمٍّ هو أنَّ السَّائِحَ كانَ يَعْرِفُ غايةَ اختلافِهِ إلى المُتْحَفِ، فلا لَوْمَ عليهِ، أمَّا أستاذُ المَنْطِقِ الوَضْعِيِّ فأرادَ أن يَكْتُبَ في تُراثِ أُمَّتِهِ وفِكْرِها سِلسلةَ كُتُبٍ، وأن يجتهِدَ فيَقُولَ فيهما قولًا!

لكنَّهُ قرأَ كِتابًا مِّنْ كُتُبِ التَّراجِمِ والسِّيَرِ قِراءَةَ "سائحٍ"، لا قِراءَةَ "باحِثٍ"، ولَمَّا لَمْ يَعْرِفْ غايتَها، ولَمَّا لَمْ يَمْتَلِكْ مِفتاحَ رُمُوزِها = لَمْ يَسْتأْنِ، ولَمْ يَسْأَلْ أَهْلَ الذِّكْرِ، وسَرْعانَ ما أَصْدرَ حُكْمًا على لَوْنٍ مِّنْ ألوانِ التَّأليفِ العربيِّ الإسلاميِّ وهو جاهِلٌ بهِ!

كَلِمَةٌ عنِ العَلَّامةِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ

المُحقِّقُ المُقتَدِرُ كأنَّما هو نِعْمَةٌ أَنْزَلَها اللهُ – تباركَ وتعالَى – عَلَى المُؤلِّفِ؛ إذْ نَشَرَ كِتابَهُ في أقربِ صُورةٍ مِّنَ الكَمَالِ = وعَلَى القارِئِ؛ إذْ كانَ جِسرًا بينَ عَصْرَينِ مُخْتَلِفَيْنِ، وذَوْقَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ، وكأنَّهُ لا يَقرأُ حُرُوفًا إنَّما يَفُكُّ طَلَاسِمَ، ويَتَهَجَّى أسرارًا، يُصْلِحُ شأْنَ المَتْنِ، ويَجْلُو غامِضَهُ في الحاشِيَةِ، وليس يكتمِلُ الكِتابُ أو الرِّسالةُ إلَّا بذلكَ الرُّوحِ الَّذي بَثَّتْهُ الحاشِيَةُ في المَتْنِ، وأذابَ عَصْرًا في عَصْرٍ.

كِتابُ **الإعلالِ والمُعَاقَبَةِ والنَّظائِرِ** للإمامِ أبي القاسِمِ الزَّجَّاجِيِّ (ت ٣٣٧هـ) مِنَ الكُتُبِ الَّتي يُشَارُ إليها، هُنا[65]، فمادَّةُ الإعلالِ – ويُشْبِهُها الإبدالُ – مِنْ مَّسائِلِ اللُّغَةِ والمُعْجَماتِ، وعَلَى أنَّ الكِتابَ خَلَصَ لها، فإنَّه انطوَى عَلَى جَمَالٍ مَّنبَعُهُ أُصولُ الكلماتِ وما أصابَها مِنْ تَغَيُّرٍ في الصَّوْتِ، يُساقُ في إيجازٍ لَّطيفٍ، يُقَوِّيهِ المُؤلِّفُ بالشَّاهِدِ والمَثَلِ، ولا يَخْلُو الْحالُ مِنْ تَصَيُّدِ القارِئِ العربيِّ، مهما تَكُنْ بِلادُهُ، كَلِمَةً أَوْ أُخْرَى رَسَبَتْ في لَهْجَتِهِ، فيَعُودُ عليهِ الكِتابُ بِلَذَّةٍ وفائِدةٍ.

أَمَّا مُحَقِّقُ الكِتابِ، وهو العَلَّامةُ السُّوريُّ عِزُّ الدِّينِ التَّنوخيُّ (١٣٠٧-١٣٨٦هـ = ١٨٨٩-١٩٦٦م)، فَلَمْ يكتفِ بتحريرِ النُّسْخةِ وتصحيحِها، وإنَّما أَوْشَكَ أن يَكُونَ عَمَلُهُ حاشِيَةً عَلَى مَتْنٍ؛ يُكْمِلُ عِبارتَهُ، بالرُّجُوعِ إلى المَصادرِ، ويُتِمُّ مَوادَّهُ، ويَجْلُو غامِضَهُ، ويُفصِّلُ مُجْمَلَهُ، وأبانَتِ الحاشِيَةُ عنْ مَّقامِ التَّنوخيِّ في اللُّغَةِ.

وقدْ ينبغي أنْ نَعْرِفَ في الشَّيْخِ العَلَّامةِ صِفَةً اِخْتَصَّ بِها، دُونَ غيرِهِ مِنْ رِّجَالِ طَبَقَتِهِ مِنَ العُلماءِ والمُحَقِّقِينَ؛ فعَلَى ما انْبَسَطَ لَهُ مِنْ مَّعرفةٍ بعُلُومِ العربيَّةِ وأدبِها، والدِّينِ، والتَّاريخِ = كانَ مُتَضَلِّعًا مِّنَ العُلُومِ الخالِصةِ؛ إذِ الشَّيْخُ كانَ قدِ ارْتَحَلَ في طَلَبِها إلى فَرَنْسَةَ، ودَرَسَ فيها الكيمياءَ والطَّبيعةَ، وعلينا أنْ نَعْرِفَ له مَقْدِرَتَهُ عَلَى التَّرجمةِ والتَّعريبِ؛ وأهمُّ ما يُقَالُ، هُنا، إنَّ العربيَّةَ الحديثةَ تَدِينُ لهُ بِنَقْلِ مُصْطَلَحِ Physique "فِيزِيك"، أوْ "فِيزِيق" – أَيِ

الطَّبيعة – إلى مُفْرَدَةِ "فِيزياء" قِيَاسًا عَلَى "كِيمياء"، وارتضَى العُلماءُ والمُعَلِّمُونَ والطُّلَّابُ والمُثَقَّفُونَ هذه الكلمةَ، وهَجَرُوا مُفْرَدَةَ "الطَّبيعةِ" إلى غيرِ رَجْعَةٍ.

عَلَى أنَّ اتِّصالَهُ بالعُلُومِ الحديثةِ كانَ قدِ استبانَ في حاشِيَةِ الكِتابِ، وعِندي أنَّ مِنْ تَمَامِ التَّأريخِ لحركةِ تعريبِ العُلُومِ الاستئناسَ بِها؛ فكَمْ كَلِمَةٍ أَوْرَدَها الزَّجَّاجِيُّ في المَتْنِ، لَقِيَتْ عِنْدَ التَّنُوخِيِّ بَسْطًا وتفصيلًا، وعَدَّها مُقَابِلًا لهذهِ الكلمةِ الأعجميَّةِ أوْ تلك في اللِّسانِ الفرنسيِّ، واقترَحَ صِيَغًا وأوزانًا ومَبَانِيَ في العربيَّةِ الحديثةِ لِصِيَغٍ فرنسيَّةٍ تنتهي بهذهِ الكاسِعَةِ أوْ تلك، وأَلْفَى في مُفْرَداتِ العربيَّةِ، مِمَّا سِيقَ في كِتابِ الزَّجَّاجيِّ، بدائِلَ لجُمْلَةٍ مِّنَ المفرداتِ الأعجميَّةِ، وزادَ، وهو العربيُّ الشَّامِيُّ، فَدَلَّنا عَلَى مُصْطَلَحاتٍ يَرْقَى بعضُها إلى العصرِ الجاهليِّ لا يزالُ لها شُيُوعٌ في عامِّيَّةِ الشَّامِ.

قالَ أوسٌ بنُ حَجَر – وقِيلَ النَّمِرُ بنُ تَوْلَب – [مِنَ الطَّويل]:

كَأَنَّ مِحَطًّا فِي يَدَيْ حَارِثِيَّةٍ صَنَاعٍ عَلَتْ مِنِّي بِهِ الْجِلْدَ مِنْ عَلُو

فكَتَبَ العَلَّامةُ الجليلُ في الحاشِيَةِ عن "الْمِحَطِّ":

بأنَّه حديدةٌ يُصْقَلُ بِها الْجِلْدُ حتَّى يَبْرُقَ. قُلْتُ [والكلامُ لهُ]: ولا تَزالُ هذهِ الأداةُ، وهي خَشَبَةٌ بِطُولِ شِبْرٍ وعَرْضِ ثلاثِ أصابِعَ، يستعملُها السَّرَّاجُونَ بدمشقَ، وبهذا الاسْمِ (المِحَطّ) إلى يومِ النَّاسِ هذا، ويتَّخِذُونَها لِصَقْلِ الْجِلْدِ ونَقْشِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ حَيَوِيَّةِ هذه اللُّغةِ العربيَّةِ العجيبةِ، وهو أنْ تحتفظَ أداةٌ مِّنْ أدواتِها عَلَى اسْمِها الأصليِّ حِينًا مِّنَ الدَّهْرِ يَقْرُبُ مِنْ أربعةَ عَشَرَ قَرْنًا، وأيُّ لُغَةٍ، لَيْتَ شِعْرِي، مِنْ لُغَاتِ الأرضِ تُجارِيها في مِثْلِ ذلك أوْ تُدَانِيها؟ (66)

وقالَ:

"القَارُ والقِيرُ لُغَتانِ، وبالياءِ لُغَةُ العِراقِ، وهو شيءٌ أَسْوَدُ تُطْلَى بِهِ الإِبِلُ مِنَ الْجَرَبِ (القَطِرَان)، والسُّفُنُ (الزِّفْت) يَمْنَعُ الماءَ أن يَنْفُذَ إليها، وصاحِبُ القِيرِ قَيَّارٌ، والقِيرُ هو الَّذي يُقَالُ له: الأَسْفِلْتُ، مِنَ الفرنسيَّةِ [67] Asphalte

وقالَ:

الشَّرِيبُ: الَّذي ليس فيه عُذُوبةٌ وقدْ يُشْرَبُ، والشَّرُوبُ دُونَهُ عُذُوبةً، وقِيلَ العَكْسُ أيْ ما يُمْكِنُ شُرْبُهُ، وبالفرنسيَّةِ Potable، ولَجْنَةُ المُصْطلحاتِ العِلْمِيَّةِ في العَهْدِ الفَيْصَلِيِّ، وكُنْتُ مِنْ أعضائِها، هي أَوَّلُ مَنْ وَضَعَتْ وَزْنَ فَعُولٍ كشَرُوبٍ لِكُلِّ ذِي قابِلِيَّةٍ ينتهي اسْمُهُ في الفرنسيَّةِ بالكاسِعَةِ Able و Ible ووَضَعَتْ وَزْنَ فُعُولٍ لِمَصْدَرِ القابِلِيَّةِ، فالشُّرُوبةُ Potabilité [68]

هَلْ لِنَشْرِ "مُغْنِي اللَّبِيبِ" في ٧ مُجَلَّدَاتٍ وَجْهٌ؟

عَرَفْتُ كِتابَ **مُغْنِي اللَّبِيبِ عنْ كُتُبِ الأعارِيبِ** لِجَمَالِ الدِّينِ ابْنِ هِشَامٍ الأنصارِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أيَّامَ الطَّلَبِ، مَعَ أنَّهُ لمْ يَكُنْ مُقرَّرًا علينا.

اِشْتَرَيْتُ نُسْخَةً حَقَّقَها مازِن المُبَارَك ومحمَّد عَلِيّ حَمْد الله، وراجَعَها العَلَّامةُ سعيد الأفغانيُّ، ولَعَلَّها، اليَوْمَ، نادِرةٌ أوْ في حُكْمِ النَّادِرةِ.

وفي خِزَانَةِ كُتُبي نَشْرَةٌ أُخْرَى مِنْ تحقيقِ الإمامِ العَلَّامةِ محمَّد مُحْيِي الدِّين عبدِ الحميد؛ رَغْبَةً في بَرَكَةِ عِلْمِهِ، ومَحَبَّةً لهذا الإمامِ الكبيرِ.

ومِنْ عادتي أنَّني إذا أحببْتُ كِتابًا لهُ نشراتٌ جيِّدةٌ = اقْتَنَيْتُها كُلَّها - ما استطعْتُ - وأَحْرِصُ عليها، وكُنْتُ قدْ رَأَيْتُ في مكتبةٍ في جُدَّةَ نشرةً للدُّكتور عبد اللَّطيف الخطيب في سبعةِ مجلَّداتٍ! وقَرَأْتُ في الشَّبَكَةِ العالَمِيَّةِ كلامًا لِنَفَرٍ مِّنْ أهلِ العِلْمِ يُقَرِّظُونَها ويستحسنُونَها، ولكنَّني أَحْجَمْتُ عنِ ابتياعِها لشعُورٍ داخلَني - وقدْ أَكُونُ واهِمًا - أنَّ ثَمَّ مُبالَغَةً غيرَ حميدةٍ حَوَّلَتْ كِتابًا ذا مُجَلَّدٍ واحِدٍ إلى كِتابٍ في سبعةِ مُجَلَّداتٍ! وأَحْسَسْتُ، كذلك، وأنا مُحِقٌّ كُلّ الْحَقِّ، أنَّ سبعةَ الْمُجَلَّداتِ هذه تَصُدُّ طَلَبَةَ العِلمِ، والقُرَّاءَ عن الانتفاعِ بِـ **الْمُغْني**، وأَيْسَرُ لِي أنْ أَقْرَأَ النَّشْرةَ المِصْرِيَّةَ أو السُّورِيَّةَ، دُونَ نَشْرَةِ الخطيبِ الكويتيَّةِ الثَّقيلةِ.

ثُمَّ رأيْتُ، قَبْلَ نَحْوِ عامينِ، نَشْرةً جديدةً، تُوْشِكُ أنْ تَكُونَ طِباعتُها عَمَلًا فَنِّيًّا راقِيًا، فأقبلْتُ عليها؛ لأنَّ مُحَقِّقَها هو العَلَّامةُ الجليلُ الدُّكتور فَخْرُ الدِّينِ قَبَاوَة، وأنا حَفِيٌّ بكُتُبِهِ، والْحَقُّ أنَّ نَشْرَةَ قَبَاوَة تُغْرِي بالقِرَاءَةِ، وإنْ كان قَطْعُها الكبيرُ جِدًّا، وصفحاتُها الَّتي تَزيدُ عَلَى التِّسْعِمِئَةِ، قدْ تَحْمِلُ القارِئَ عَلَى أن يَتَرَدَّدَ ويُحْجِمَ، لكنْ لَعَلَّكَ تَفْعَلُ مِثْلِي: تَأْنَسُ بهذه الطَّبعةِ فتَقْتَنِيها

لِجَمَالِها، فإذا رَغِبْتُ في القِرَاءَةِ لُذْتُ بِنَشْرَةِ محمَّد مُحْيِي الدِّينِ عبدِ الحميد - ما دُمْتَ قارئًا يُرِيدُ الانتفاعَ لا دارِسًا هَمُّهُ المُقابَلَةُ بينَ النَّشَرَاتِ -.

عَلَى أنَّ نشرةَ فَخْرِ الدِّينِ قَبَاوَة تمتازُ بمُقَدِّمةٍ هي إلى الدِّراسةِ أَقْرَبُ مِنْها إلى التَّقديمِ المألوفِ، وهي مُفِيدةٌ جِدًّا، لكنَّ المُقدِّمةَ لمْ تَخْلُ مِنَ التَّنافُسِ بينَ أَهْلِ الصَّنعةِ الواحِدةِ، ويَظْهَرُ - دُونَ خَفَاءٍ - أنَّ نَقْدَ قَبَاوَة لِنَشْرَةِ عبدِ اللَّطيفِ الخطيب ذاتِ المُجَلَّداتِ السَّبعةِ = يُضْمِرُ شيئًا غيرَ النَّقْدِ العِلْمِيِّ - واللهُ وَحْدَهُ العالِمُ! - حتَّى إذا قَرَأْنا جريدةً للنَّشَرَاتِ السَّابقةِ لِـ **المُغْنِي** = استجلبَ النَّظَرَ أنَّهُ أَسْقَطَ اسْمَ مازن المُبَارَك مِنَ الطَّبعةِ السُّوريَّةِ، واكتفَى باسْمِ شَرِيكِهِ محمَّد عَلِيّ حَمْد الله!

ساعةٌ في صُحْبَةِ "شَرْحِ أُرْجُوزَةِ أبي نُوَاس"

أَدْهَشَنِي كِتابُ **شَرْحِ أُرْجُوزةِ أبي نُوَاس الَّتي أَوَّلُها: وبَلْدةٍ فِيها زَوَرْ، في تقريظِ الفَضْلِ بنِ الرَّبيعِ وزيرِ الرَّشِيدِ والأمينِ**، لإمامِ العربيَّةِ ابْنِ جِنِّي(69)، ويُسَمَّى، كذلك، **تفسيرَ أُرْجُوزَةِ أبي نُوَاس**.

كُنْتُ في المكتبةِ المركزيَّةِ لجامعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ بِجُدَّةَ، فإذا بنُسَخِ الكِتابِ تَمْلَأُ عَيْنَيَّ كأنَّها تُغْرِيني بالوُقُوفِ عَلَى نَبَئِهِ، فلَمْ أستطِعِ الانصرافَ عنها؛ لأسبابٍ:

لأنَّني أُحِبُّ أَرَاجِيزَ الشُّعَراءِ المُحْدَثِينَ، وخاصَّةً أبا نُوَاس،

ولأنَّ عنوانَ الكِتابِ **تفسير...**، رَغَّبَنِي في الإقبالِ عليهِ،

ولأنَّ الشَّرْحَ أو التَّفسيرَ حَقَّقَه العَلَّامةُ الجليلُ محمَّد بَهْجَة الأَثَرِيُّ،

ولأنَّهُ مِنْ مَّطبوعاتِ مَجْمَعِ اللُّغَةِ العربيَّةِ بِدِمَشْقَ - وأنا مُحِبٌّ لمطبوعاتِهِ –

كانَ الوَقْتُ قصيرًا (بينَ المَغْرِبِ والعِشَاءِ)، لكنَّني عَدَدْتُ السَّاعةَ الَّتي أَنْفَقْتُها في صُحبتِهِ مِنْ أسعدِ أوقاتِي.

كانَتْ مُقدِّمةُ العَلَّامةِ الأَثَرِيِّ، وَحْدَها، دَرْسًا في شَرَفِ العِلْمِ، ومَحَبَّةِ اللُّغةِ. قالَ: إنَّه قَصَدَ المدينةَ النَّبويَّةَ المُنَوَّرةَ سنةَ ١٣٨١هـ للاشتراكِ في "المَجْلِسِ الاستشاريِّ الأَعْلَى للْجامِعةِ الإسلاميَّةِ"، وإنَّه كانَ يُنْفِقُ وَقْتَهُ القصيرَ فيها، بالاختلافِ إلى مكتبةِ عارِف حِكْمَة [حِكْمَتْ]، وبينما هو يُقَلِّبُ خزائنَ مخطوطاتِها = وَقَعَ عَلَى هذا الأَثَرِ النَّفِيسِ، فبادَرَ إلى نَسْخِهِ؛ إذْ لمْ يَكُنْ مُّيَسَّرًا البحثُ عنْ ناسِخٍ يَثِقُ في نَقْلِهِ.

كانَتْ مُقَدِّمةُ محمَّد بَهْجَة الأثريِّ، كما قُلْتُ، دَرْسًا في شَرَفِ العِلْمِ ومَحَبَّةِ اللُّغةِ، وهي، كذلك، مِنْ أَرْقَى الأساليبِ العربيَّةِ مَتَانَةً وفصاحةً!

قَرَأْتُ شيئًا مِّنْ **شَرْحِ الأُرْجُوزَةِ** - أَوْ **تفسيرِها** - وأَطْرَبَتْني الكلماتُ العَذْبَةُ الحبيبةُ الَّتي استهلَّ بِها أبو الفَتْحِ **شَرْحَهُ**.

قالَ الإمامُ الجليلُ - رَحِمَهُ اللهُ -: إنَّه فَسَّرَ الأُرْجُوزَةَ وأَعْرَبَها قضاءً لِحَقِّ الْمَوْدَّةِ، ثُمَّ ساقَ كَلِمَةً - أقامَتْني وأَقْعَدَتْنِي - سأُثْبِتُها بحَرْفِها - قضاءً لِحَقِّ العربيَّةِ! -:

قَرَأْتُ هذهِ الأُرْجُوزَةَ عَلَى (أَبِي عَلِيٍّ، الحَسَنِ بنِ أحمدَ بن عبدِ الغَفَّارِ النَّحْوِيِّ)، بِـ (مَدينةِ السَّلامِ)، في (دَرْبِ الزَّعْفَرَانِيِّ)، مِنْ (بابِ الشَّعِيرِ)، مِنْ حِفْظِي لها، فاستحْسَنَها...!

سأَرْجِعُ، مَرَّةً أُخْرَى، إلى مُقَدِّمةِ العَلَّامةِ محمَّد بَهْجَة الأَثَرِيِّ، وسأَنْقُلُ كَلِمَةً جليلةً فيها.. قالَ:

وأَلِفتُ نَظَرَكَ إلى ما صَنَعَ (ابْنُ جِنِّي) قَبْلَ أن يَكْتُبَهُ، وكيفَ عَمَدَ، بادِئَ ذِي بَدْءٍ، إلى تحريرِ النَّصِّ: نَصِّ الأُرْجُوزَةِ الَّتي سُئِلَ شَرْحَها، فبَدَأَ قِرَاءَتَها "مِنْ حِفْظِهِ" - وهو هو - عَلَى مَنْ كانَ يراهُ أَعْلَمَ مِنْهُ باللُّغَةِ والشِّعْرِ والرِّوايةِ، وأَبْعَدَ إدراكًا للأغوارِ، وأَصْدَقَ فَهْمًا لِّلمَعاني، عَنَيْتُ أُستاذَهُ (أبا عَلِيٍّ الفارِسيَّ)؛ لِيَضُمَّ عِلْمَهُ إلى عِلْمِهِ، ويزدادَ فَهمًا لِمَا هو مُقْبِلٌ عَلَى شَرْحِهِ، حتَّى إذا وَضَعَ كُلَّ لَفْظٍ في هذهِ الأُرْجُوزةِ في قَرَارِهِ، وحَقَّقَ الرِّوايةَ، وكَشَفَ الغامِضَ (...) أَقْبَلَ عَلَى ما اعتزَمَ مِنَ الشَّرْحِ بِوُثُوقٍ وأمانٍ مِّنَ العِثَارِ!

رَحِمَ اللهُ أبا نُوَاسٍ وأبا عَلِيٍّ الفارِسِيَّ وتِلميذَهُ ابنَ جِنِّي والأَثَرِيَّ، وشُكْرًا لتلك السَّاعةِ الَّتي أَنْفَقْتُها في صُحْبَتِهِم.

أمين مَدَنِيّ.. المُؤَرِّخُ المظلوم!

للكُتُبِ والمُؤَلِّفِينَ حُظُوظٌ، فمؤلِّفٌ ذاعَ كِتابُهُ في الآفاقِ، ورَغِبَ فيهِ القُرَّاءُ، عامَّتُهُمْ وخاصَّتُهُمْ، وآخَرُ أَعْرَضُوا عنهُ، دُونَ أنْ نَقِفَ عَلَى سَبَبٍ لِّذلك، ولَوْ أنَّنا استثرْنا الكِتابَ وبَحَثْنا في أثنائِهِ لأدركْنا قَدْرَهُ وقِيمتَهُ، ولَأَسِفْنا لِحَظِّهِ بينَ النَّاسِ، ورُبَّما طارَ صِيتُ كِتابٍ، وهو مَعَ ذلك غيرُ مُسْتَحِقٍّ ما أصابَهُ مِنَ الشُّهرةِ والذُّيُوعِ، فإذا يَئِسْنا مِنَ البحثِ عنْ عِلَّةٍ وسَبَبٍ، رَمَيْنا الأمرَ بِرُمَّتِهِ عَلَى الْحَظِّ والْبَخْتِ، أوِ البَرَكَةِ الَّتي نُزِعَتْ مِنْهُ!

ولطالَما قَرَأْنا في كُتُبِ التَّراجِمِ والسِّيَرِ أنَّ كِتابًا مَّا رُزِقَ الْقَبُولَ، فانْتَشَرَ في غيرِ صُقْعٍ، وأنَّ كِتابًا آخَرَ أَعْرَضَ النَّاسُ عنهُ، فماتَ، وكانَ حَقُّهُ أن يعيشَ، وقدْ كان مِنَ المَرْجُوِّ أن يَظْهَرَ النَّاسُ عليهِ وينتفِعوا بِهِ، بَلْ إنَّ كُتُبًا تستهوِي النَّاسَ فيُقْبِلُونَ عليها، وتَكْثُرُ نُسَخُها، وتُطْلَبُ في كُلِّ ناحِيَةٍ، ثُمَّ إذا هي، بَعْدَ زَمَنٍ يَطُولُ أوْ يَقْصُرُ، تَكْسُدُ، وكأنَّ أَحَدًا لَّمْ يَحْفِلْ بِها مِنْ قَبْلُ. ولَسْتُ في سبيلِ الإكثارِ مِنَ الشَّواهِدِ والأمثلةِ، ويكفيني أنْ أَعْرِضَ لكِتابٍ لَّهُ قَدْرُهُ عِنْدَ النُّحاةِ وطَلَبَةِ النَّحْوِ؛ فحِينَ وَضَعَ أبو القاسِمِ الزجَّاجِيُّ (ت 337هـ) كِتابَهُ **الْجُمَل** اشتغَلَ بِهِ العُلماءُ والمُدَرِّسُونَ، وأَقْبَلَ عليهِ طُلَّابُ العربيَّةِ، وأَوْسَعَهُ الشُّرَّاحُ شَرْحًا وتعليقًا، حتَّى إذا أَخْرَجَ ابْنُ جِنِّي كِتابَهُ اللَّطيفَ **اللُّمَع**، وأبو عَلِيٍّ الفارِسيُّ كِتابَهُ **الإيضاح**، مالَ إليهما القومُ، وأشاحُوا بِوُجُوهِهِمْ عنْ كِتابِ الزَّجَّاجِيِّ، ولطالما لَهِجُوا بِهِ وبصاحِبِهِ، ورُبَّما كانَ وَصْفُ القِفطِيِّ المُتَوَفَّى سنةَ 624هـ خيرَ بيانٍ لِحالِ هذا الكِتابِ ومآلِهِ. يَقُولُ: "وهو كِتابُ المِصْرِيِّينَ وأَهْلِ المَغْرِبِ وأَهْلِ الحِجَازِ واليَمَنِ والشَّامِ، إلى أنِ اشتغَلَ النَّاسُ "بِاللُّمَعِ" لابْنِ جِنِّي، و"الإيضاحِ" لأبي عَلِيٍّ الفارِسيّ"[70].

ونَقْرَأُ عِنْدَ القَلْقَشَنْدِيّ المُتَوَفَّى سنة 821هـ كلامًا يُجَلِّي لنا شيئًا مِّنْ حُظُوظِ الكُتُبِ وأقدارِها عِنْدَ النَّاسِ، وذلك إذْ يقولُ: "واعْلَمْ أنَّ الكُتَبَ المُصَنَّفَةَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصَى، وأَجَلُّ مِنْ أنْ تُحْصَرَ؛ لا سِيَّما الكُتُبُ المُصَنَّفةُ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ، فإنَّها لَمْ يُصَنَّفْ مِثْلُها في مِلَّةٍ

مِّنَ المِلَلِ، ولا قامَ بنظيرِها أُمَّةٌ مِّنَ الأُمَمِ؛ إلَّا أنَّ مِنْها كُتُبًا مَّشهورةً قدْ تَوَفَّرَتِ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِها والإكثارِ مِنْ نَسْخِها وطارَتْ سُمْعَتُها في الآفاقِ ورُغِبَ في اقتنائِها"[71].

وأَذْكُرُ أنَّهُ لَمَّ مَرَّ بِي، أوَّلَ عهدي بِـ **أَلْفِيَّةِ ابنِ مالكٍ**، قولُه، مادِحًا منظومَتَهُ الشَّهيرةَ [مِنَ الرَّجَزِ]:

وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِ

اِسْتَجْلَبَ نظري ابنُ مُعْطٍ هذا الَّذي فاقَتَ **أَلْفِيَّةُ ابنِ مالِكٍ** أَلْفِيَّتَهُ، وعَرَفْتُ أنَّهُ نَحْوِيٌّ جَلِيلٌ[72]، نَظَمَ قَبْلَ ابْنِ مالِكٍ **أَلْفِيَّةً** في النَّحْوِ، لكنَّ العُلماءَ وطَلَبَةَ النَّحْوِ ومَعاهِدَ العِلْمِ = كُلُّ أولئك أَعْرَضَ عنْ أَلْفِيَّتِهِ، وأَقْبَلُوا، ولا يزالُونَ، عَلَى **أَلْفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ**، ونُسِيَ ابنُ مُعْطٍ، ونُسِيَتْ **أَلْفِيَّتُهُ**، حتَّى إذا ذَكَرَهُ قَوْمٌ فإنَّما يَذْكُرُونَهُ إذا سَعَى بعضُهُمْ إلى تأريخِ النَّحْوِ، أوْ مَرَّ طالِبٌ مِّنْهُمْ ببيتِ ابنِ مالِكٍ هذا!

لنْ أَقِفَ كثيرًا عِنْدَ التُّراثِ، فالشَّوَاهِدُ ثَمَّ لا يَحُدُّها حَصْرٌ، لكنَّني سَرْعَانَ ما أنتقِلُ إلى عَصْرِنا الحاضِرِ، وأَسُوقُ ما تَبَقَّى مِنَ الفَصْلِ إلى مُؤَلِّفٍ أَحْسبُهُ مظلومًا؛ هو مظلومٌ لأنَّهُ صَنَّفَ كِتابًا أَقَلُّ ما يُوْصَفُ بِهِ أنَّه جمهرةٌ تاريخيَّةٌ واسِعةٌ = وهو مظلومٌ لأنَّهُ لَمْ يُرِدْ لكِتابِهِ أن يَكُونَ مِنْ غِمَارِ الكُتُبِ، فسَمْتُ جمهرتِهِ ورُوحُها إنَّما يَتَّخِذانِ مِنْ فلسفةِ التَّاريخِ وتعليلِهِ مِنهاجًا؛ فالمُؤَرِّخ أمين مَدَنِيّ، وهو الَّذي أَصِفُهُ بالمظلومِ، نَهَدَ، منذُ عهدٍ بعيدٍ، إلى أن يَضَعَ في تاريخِ العربِ كِتابًا واسِعًا، تَخَيَّرَ لهُ عِنوانًا عريضًا هو **العربُ في أحقابِ التَّاريخِ**، عَرَفَتْ خزائِنُ الكُتُبِ مِنْهُ ثلاثةَ أجزاءٍ؛ أَوَّلُها **التَّاريخُ العربيُّ وبِدايتُهُ**، صَدَرَتْ طبعتُهُ الأُولَى سنة 1385هـ، وثانِيها **التَّاريخُ العربيُّ ومَصَادِرُهُ**، صَدَرَتْ طَبْعَتُهُ الأُولَى سنةَ 1391هـ، وثالِثُها **التَّاريخُ العربيُّ وجُغْرافِيَّتُهُ**، صَدَرَتْ طَبْعَتُهُ الأُولَى سنةَ 1396هـ، ولمْ يُمْهِلِ القَدْرُ مُؤَلِّفَ هذهِ الْجَمْهَرَةِ فيُصْدِرَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ وعِنوانُهُ **التَّاريخُ العربيُّ وشُعُوبُهُ** = والْجُزْءَ الخامِسَ وعِنوانُهُ **التَّاريخُ العربيُّ ودُوَلُهُ**، فيَكْتَمِلَ عِقْدُ تلك الْجَمْهَرَةِ الَّتي جَعَلَتْ مِنْ تاريخِ العربِ القديمِ موضوعًا لَّها.

وعِنْدِي أنَّ المُؤَرِّخَ أمين مَدَنِيّ مُؤَلِّف مظلومٌ؛ ظَلَمَتْهُ الثَّقافةُ، ورُبَّما ظَلَمَهُ الباحِثون والقُرَّاء، ورُبَّما ظَلَمَهُ حَظُّهُ، فعَلَى كثرةِ ما قَرَأْتُ للمُعاصِرِينَ كُتُبًا وفُصُولًا في تاريخِ العربِ القديمِ، وتاريخِ الجزيرةِ العربيَّةِ خاصَّةً، لَمْ أَظْفَرْ بإشارةٍ إلى أيِّ كِتابٍ مِّنْ جَمْهَرَتِهِ الكبيرةِ تلك، وكانَ مِنَ المظنونِ أن يَعْرِفَهُ المشتغِلونَ بالتَّاريخِ القديمِ، بَلْهَ المشتغِلِينَ بفلسفةِ التَّاريخ والحضارةِ؛ فكِتابُهُ ذلك الواسِعُ الكبيرُ يَقِفُنا عَلَى ذلك التَّاريخِ في أَحْلَكِ نواحِيهِ، ورُبَّما سَمَتْ نَفْسُ صاحِبِهِ إلى أن يَكُونَ فيلسوفَ تاريخٍ، فَوْقَ ما هو مُؤَرِّخٌ، وعسى أن يُقَالَ: إنَّ هذا الكِتابَ ذا العِنوانِ الجليلِ لمْ يَعْرِفْهُ العربُ في أقطارِهِمُ المختلفةِ؛ لأنَّ صاحِبَهُ مِنْ أبناءِ الجزيرةِ العربيَّة. وهذا الكلامُ يَصْدُقُ لَوْ أنَّ الكِتابَ نُشِرَ في مكَّةَ المكرَّمةِ أوِ المدينةِ المنوَّرةِ أوْ جُدَّةَ أوِ الرِّياضِ، ولكنَّ الكِتابَ عَرَفَ طريقَهُ إلى النَّشْرِ في القاهرةِ، وفي دارِ المَعارِفِ؛ تلك الدَّارِ العريقةِ، ثُمَّ في الهيئةِ العامَّةِ للكِتابِ، وأَعْجَبُ مِنْ ذلك أنَّ هذا الكِتابَ، وهو جَمْهَرَةٌ وَّاسِعةٌ، سَكَتَ عنهُ العُلماءُ والدَّارِسُونَ والقُرَّاءُ في بَلَدِ المُؤَلِّفِ، وفي جزيرةِ العربِ نَفْسِها، وكان حَظُّهُ تَعِسًا، فلمْ يُرْزَقِ الذُّيُوعَ، ولمْ يُكْتَبْ لهُ الانتشارُ، بَلْ سَكَتَ الدَّارِسونَ والقُرَّاءُ عنهُ، ولَفَّهُ الصَّمْتُ، فكأنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ، مَعَ أنَّهُ نُشِرَ بَعْدَ نَشْرَتِهِ المِصْرِيَّةِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ إنَّ الكِتابَ، عَلَى استحقاقِهِ الدَّرْسَ والبحثَ والتَّأَمُّلَ = لَمْ أَقْرَأْ أوْ أَسْمَعْ أنَّ طالِبًا في هذه الجامِعةِ أوْ تلك، مِنَ الْجامِعاتِ الَّتي تَنْتَشِرُ في بِلادِنا = اتَّخَذَهُ موضوعًا لرِسالةٍ عاليةٍ يَظْفَرُ بها بدرجةٍ عِلْمِيَّةٍ رفيعةٍ.

لِكُلِّ ذلك أقولُ: إنَّ أَمْرَ هذا الكِتابِ الجليلِ مُحَيِّرٌ، ولِكُلِّ ذلك أَعُدُّهُ كِتابًا غيرَ محظوظٍ، وأَعُدُّ مُؤَلِّفَهُ، وقدِ اجتمعَتْ لهُ كُلُّ أسبابِ النُّجْحِ والبُرُوزِ، مُؤَلِّفًا مظلومًا.

كِتابٌ مَدْرَسِيٌّ... ولكِنْ!

كِتابٌ مَدْرَسِيٌّ... ولكِنْ!

يَصِفُ محمَّد مندور كِتابَهُ **في الأدبِ والنَّقْدِ** بِـ "الخُلَاصَةِ"[73]، وهذا صحيحٌ؛ فالكِتابُ صغيرٌ لَّطيفٌ لَّا يُكَلِّفُ قارِئَهُ وقتًا وَّلا جُهْدًا، ويَضَعُهُ باحثونَ في "الكُتُبِ المَدْرَسِيَّةِ"، وهذا أيضًا صحيحٌ، متَى أَرَدْنا بِـ "المَدْرَسِيَّةِ" المَرْجِعَ الَّذي يُذَلِّلُ للأُستاذِ والطَّالبِ والقارِئِ المُثَقَّفِ فلسفةً كَزَّةً في الأدبِ والنَّقْدِ، فإذا هي سائِغةٌ سَهْلةٌ يَسيرةٌ.

لكنَّ في هذا الكِتابِ - بَلْ في كُلِّ الكُتُبِ الَّتي وَضَعَها مندورٌ - شيئًا آخَرَ بعيدَ الغَوْرِ؛ فيهِ تَصَوُّرُ النَّاقِدِ والمُنَظِّرِ لحقيقةِ الأدبِ والنَّقْدِ؛ فمندورٌ، وطَبَقَتُهُ مِنَ النُّقَّادِ، لا يأنفونَ مِنْ تسميةِ ما يكتبونَهُ "خُلاصةً"، أوْ "إيجازًا"، لكنَّهم يَمْنَحُونَ قُرَّاءَهُمْ الخِبرةَ والدِّرايةَ والرَّأيَ، وما انتهَوْا إليهِ، وهُمْ يتأمَّلونَ في حقيقةِ الأدبِ والنَّقْدِ وطبيعتِهما.

كان مندورٌ، في أُخْرَياتِ حياتِهِ، يُمْلِي كُتُبَهُ، ودُرُوسَهُ، ومُحاضراتِهِ، ومقالاتِهِ، لاعتلالِ بَصَرِهِ، وصَوَّرَتِ الفُصولَ الَّتي ينشرُها أستاذًا جليلًا يؤدِّي "خُلاصةَ" تجرِبَتِهِ وثمرةَ خِبرتِه إلى الأجيالِ الشَّابَّةِ؛ فكِتابُهُ اللَّطيفُ هذا لا يُشبِهُ كُتُبًا أُخْرَى قَصَدَ بِها أصحابُها الطُّلَّابَ ومَنْ في حُكْمِهِمْ، لسببٍ مُّهِمٍّ أنَّ أولئكَ الأساتذةَ لَمْ يُتَحْ لَهُمْ ما أُتِيحَ لمحمَّد مندور، الَّذي تُوْشِكُ كُتُبُهُ وفُصُولُهُ أنْ تُصْبِحَ لَوْنًا مِّنْ ألوانِ التَّنظيرِ النَّقْديِّ، مَعَ استدراكٍ مُهِمٍّ أنَّ مُنَظِّرَ الأدبِ والنَّقْدِ كانَتْ تَحْمِلُهُ رِسالتُهُ العِلْمِيَّةُ والاجتماعيَّةُ عَلَى أن يَسُوقَ جِمَاعَ خِبرتِهِ البعيدةِ الغَوْرِ إلى القارِئِ في تواضُعٍ وإسماحٍ، وطَلَبَ، مِنْ أَجْلِ هذه الغايةِ، السُّهُولةَ والتَّيسيرَ، فأَدْرَكَهُما، دُونَ أنْ تَنْزِلَ كِتابتُه عنْ مَّرْتَبَتِها في التَّفلسُفِ والتَّنظيرِ!

الكِتابُ الْجامِعيُّ

وَصَفَ الدُّكتور محمَّد يوسُف نَجْم الأستاذَ والنَّاقِدَ الجامِعيَّ الدُّكتورَ محمَّد غنيمي هِلَال - في حياتِهِ - بأنَّه "ناقِدٌ جامِعيٌّ... يُبَشِّرُ بالخيرِ"، وعَدَّ كِتابَهُ **الرُّومانتيكيّة** "أَوَّلَ دِراسةٍ ناضِجةٍ في الموضوعِ في أدبِنا"، وقال عنْ كِتابِهِ **مَدْخَل إلى النَّقْدِ الأدبيِّ الحديثِ**: "وهذا الكِتابُ يُعْتَبَرُ خُلاصةَ الجُهُودِ الْجامِعيَّةِ في هذا الموضوعِ، وهو تنقيحٌ وتهذيبٌ للجُهُودِ السَّابِقةِ؛ جُهُودِ الشَّايِبِ وطه إبراهيم وأحمد أمين، والفَرْقُ بينه وبينَهما هو الفرقُ بينَ عَصْرَيْنِ وثقافتيْنِ"[74]!

ويُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّ الدُّكتورَ نَجْمًا ما أَنْصَفَ في عِبارَتِهِ الأخيرةِ الدُّكتورَ غنيمي هِلال؛ فالكِتابُ الَّذي سنَعْرِفُهُ في طَبعاتِهِ اللَّاحِقةِ باسْمِ **النَّقد الأدبيّ الحديث** = ليس هو بِـ "تنقيحٍ وتهذيبٍ" لجُهُودِ مَنْ سَبقوه، مَهْما انتفَعَ بِها!

وأنا لا أَشُكُّ في أنَّه "خُلاصةٌ"، لكنَّهُ خُلاصةٌ لِّمَذاهِبِ النَّقْدِ الأدبيِّ منذُ اليُونانِ ثُمَّ العربِ حتَّى النَّقْدِ الغربيِّ الحديثِ، وتَدُلُّ مَصادِرُ كِتابِهِ عَلَى مُكابَدَتِهِ فيهِ.

سأَجُوزُ هذه المسألةَ فليسَتْ هي الَّتي أُريدُ، وأقولُ:

الدُّكتور محمَّد غنيمي هِلال رائدٌ مِّنْ رُوَّادِ الدَّرْسِ الأدبيِّ في الْجامِعةِ، وتَجْلُو لنا كُتُبُهُ الَّتي أرادَ بِها الْجامِعةَ والطُّلَّابَ ذلك: **الأدب المقارن**: 1372هـ = ١٩٥٣م، و**الرُّومانتيكيّة: 1375**هـ = ١٩٥٦م، و**النَّقد الأدبيّ الحديث: 1378**هـ = ١٩٥٨م.

نحنُ، إذنْ، إزاءَ أعمالٍ عِلْمِيَّةٍ رصينةٍ، بَذَلَ صاحِبُها في إعدادِها جُهْدًا كبيرًا، عَلَى أنَّها تُصَوِّرُ لنا مَقامَ الأستاذِ الْجامِعيِّ في ذلك الزَّمانِ؛ كان يُحاضِرُ طُلَّابَهُ بِدُرُوسٍ بعيدةِ الغَوْرِ، حتَّى إذا استقامَتْ، نَظَرَ فيها مَرَّةً ومَرَّةً ثُمَّ دفَعَ بِها إلى المطبعةِ فإذا هي كِتابٌ جليلٌ ينتفِعُ بِهِ الطَّالِبُ والباحِثُ والقارِئُ المُثَقَّفُ ولا يَزْهدوا فيه.

لمْ يَكُنْ هذا الضَّرْبُ مِنَ الدَّرْسِ أمرًا يَخُصُّ غنيمي هِلال وَحْدَهُ! إنَّه سِمَةُ ذلك الْجِيلِ مِنَ الأساتذةِ؛ نراهُ عِنْدَ أحمد أحمد بدويّ في كِتابِهِ الفَذِّ **أُسُس النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العربِ**، وعِنْدَ بدويّ طَبَانَة، بَلْ ونَلْقاهُ عِنْدَ شوقي ضَيْف وسَهِير القَلَماوِيّ مِنَ الْجِيلِ الأَقْدَمِ.

ويزدادُ العَجَبُ ويَعْلُو التَّقديرُ متى قَرَأْنا دُرُوسَ طه أحمد إبراهيم **تاريخ النَّقد الأدبيّ عند العرب**؛ فصاحِبُها تَوَفَّاهُ اللهُ قَبْلَ أن يُتِمَّها، حتَّى إذا أَظْهَرَها بعضُ أصدقائِهِ في كِتابٍ تَبَيَّنَ لنا مَقامُ ذلك الأستاذِ الْجليلِ، وعَرَفْنا أَثَرَ كِتابِهِ في الْجامِعاتِ العربيَّةِ كُلِّها. ويَعْرِفُ رِفاقي في قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها بجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ بجُدَّةَ = أنَّ هذا الكِتابَ الجليلَ كانَ سبيلَنا إلى النَّقْدِ العربيِّ القديمِ، وها أنذا، بَعْدَ تلك العُقُودِ، أَقْرَأُهُ، وأَلْقَى فيهِ عِلْمًا واسِعًا بِنَقْدِ العربِ، وبَصَرًا حديدًا بِمَذاهِبِهِم في الأدبِ.

اليومَ.. تَغَيَّرَ الْحالُ كثيرًا!

لا صِلَةَ لِي بالْجامِعةِ ولا بِدُرُوسِها، ولكنَّني متَى مَرَرْتُ بهذهِ المكتبةِ التِّجاريَّةِ أوْ تلك أَلْقَى كُتُبًا تَحْمِلُ العِنواناتِ نَفسَها في تاريخِ الأدبِ العربيِّ، والنَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العربِ، والأدبِ المقارنِ، والمذاهِبِ الأدبيَّةِ، وفِقْهِ اللُّغةِ، وعِلْمِ اللُّغَةِ... لكنَّ مُؤَلِّفِيها لا يَحْمِلُون هِمَمَ شوقي ضيف، وطه أحمد إبراهيم، وإحسان عَبَّاس، وغنيمي هِلال، وصُبْحِي الصَّالح، ومحمود السَّعْران... ومُعْظَمُ ما انْطَوَتْ عليهِ ليس إلَّا اهتدامًا ومَسْخًا لكُتُبِ ذلك الْجِيل!

أَخْرُجُ مِنَ المكتبةِ حزينًا، ثُمَّ لا أَلْبَثُ أنْ أَحْمَدَ اللهَ - تباركَ وتعالَى - عَلَى أنَّني مِنْ جِيلٍ أَدْرَكَ كُتُبَ الأساتذةِ الأجِلَّاءِ!

بَيْنَ كِتابٍ ومُذَكِّرة

دَرَسْتُ، في الْجامِعةِ، في عامِ ١٤٠٧هـ، مُقَرَّرَ "عِلْمِ اللُّغةِ"، وكان الدُّكتور محمَّد يوسُف حَبْلَص أُستاذَنا في تلك الدُّرُوسِ.

يمتازُ الدُّكتور حَبْلَص بجُملةٍ مِّنَ الصِّفاتِ؛ كان مَرِحًا، مُبْتَسِمًا، خفيفَ الظِّلِّ، وكان أستاذًا مُقْتَدِرًا.

وعَلَى أنَّ ذلك المُقَرَّرَ كان أوَّلَ عهدِنا بالدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ الحديثِ؛ فقدِ استطاعَ أُستاذُنا أن يُذَلِّلَ لنا مناهجَ عِلْمِ اللُّغةِ الحديثِ، فأَحَطْنا - نحنُ طُلَّابَ الإجازةِ الْجامِعيَّةِ - بالمنهجِ الوصفيِّ، والمنهجِ البِنْيَوِيِّ الأمريكيِّ، والتَّحويليِّ، وكان أُستاذُنا، وهو سليلُ مدرسةِ دارِ العُلُومِ العريقةِ، يتمثَّلُ في دُرُوسِهِ الأعلامَ مِنْ أساتذتِهِ، وكان يَرْوِي لنا، عَلَى سبيلِ النُّكتةِ، حديثَ بعضِ أساتذتِهِ عنْ أعلامِ الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ في بريطانيةَ، وبخاصَّةٍ عالِمُ اللُّغةِ فِيرث.

كانَتْ دُرُوسُ الأُستاذِ نافِعةً، ولَمْ يَفُتْهُ أن يَنْصَحَ لنا بالرُّجُوعِ إلى كُتُبِ الأساتذةِ الأعلامِ في عِلْمِ اللُّغةِ الحديثِ: عَلِيّ عبدِ الواحدِ وافي، وإبراهيم أنيس، وتَمَّام حَسَّان، ومحمود السَّعْران، وكمال بِشْر، ورمضان عبد التَّوَّاب، وعبده الرَّاجحيّ، وأحمد مختار عُمَر = فاتَّصلْنا بِمُشْكِلاتِ اللُّغةِ وعَرَفْنا مَلَامِحَ الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ الحديثةِ.

فجَزَى اللهُ الدُّكتور محمَّد يوسُف حَبْلَص خَيْرَ الْجزاءِ.

وتَمُرُّ السِّنونَ...

التحقْتُ، في سنةِ ١٤١٨هـ، ببرنامجِ الماجستير بجامِعةِ المَلِكِ سُعُود بالرِّياض.

كان مِنْ بينِ المُقَرَّراتِ الَّتي دَرَسْناها مُقَرَّرُ "عِلْمِ اللُّغةِ"!

جِئْتُ وجاءَ زُملائي مِنْ جامِعاتٍ سُعُوديَّةٍ مُخْتَلِفةٍ، وكان لَدَيْنا معرفةٌ جَيِّدةٌ بالدَّرْسِ اللُّغويِّ الحديثِ عَلَى النَّحْوِ الَّذي يُلائِمُ طَلَبَةً جامِعيِّينَ.

كان أُستاذُ المُقَرَّرِ مِنْ جِنْسِيَّةٍ عربيَّةٍ، اسْمُهُ محمَّد الزُّلَيْطَنِيّ.

وَزَّعَ علينا، في الدَّرْسِ الأوَّلِ، "مُذَكِّرةً في اللِّسانيَّاتِ"! ثُمَّ مَضَى إلى شأنِهِ، ولمْ نَكُنْ لِنَراهُ إلَّا بَعْدَ حِينٍ وحِينٍ!

كانَتِ "المُذَكِّرةُ" مِمَّا يُلائِمُ طَلَبَةَ الثَّانويَّةِ، وإنْ بالغْنا فطَلَبَة التَّمهيديِّ في الْجامِعةِ، وكانَتْ غايةُ الأُستاذِ، فيما أُقَدِّرُ، أن يَكُونَ في "المُذَكِّرةِ" عِوَضٌ عنْ تَغَيُّبِهِ وتَسَيُّبِهِ!

اِجْتَزْنا الماجستير ولَمْ تُضِفْ إلينا "مُذَكِّرةُ اللِّسانيَّاتِ" شيئًا ذا بالٍ، وصارَ المُقَرَّرُ وصارَ الأُستاذُ وصارَتِ "المُذَكِّرةُ" موضعَ نَقْدِنا واستصغارِنا حتَّى اليومِ.

أُسُسُ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَب

العِنْوانُ أعلاهُ كِتابٌ للدُّكتور أحمد أحمد بدويّ، وهو مِنْ جِلَّةِ الأساتذةِ الَّذينَ مَرُّوا بكُلِّيَّة دارِ العُلُومِ - بَلْ ومِنْ جِلَّةِ الأساتذةِ العربِ –

أَصْلُ الكِتابِ دُرُوسٌ جامِعيَّةٌ، وَصَلَتِ الأُستاذَ الْجليلَ بِمَصَادِرِ النَّقْدِ الأدبيِّ والنَّظريَّةِ الأدبيَّةِ عِنْدَ العربِ، فكان هذا الكِتابُ الواسِعُ المُحِيطُ في ٦٤٣ صفحةً مِّنَ القَطْعِ الكبيرِ[75].

لا أُخْفِي إعجابي بهذا الضَّرْبِ النَّادِرِ مِنَ الأساتذةِ؛ أولئك الَّذينَ يَعُدُّونَ الدُّرُوسَ الْجامِعيَّةَ قَوْلًا ثقيلًا، لا فُرْصةً للتَّنَدُّرِ وإهدارِ الوقتِ في كلامٍ تافِهٍ لا يَمُتُّ إلى العِلْمِ بآصِرَةٍ.

لَمْ أَهْتَدِ إلى تاريخِ الطَّبعةِ الأُولَى، وأَظُنُّها قديمةً؛ ذلك أنَّ الأستاذَ الجليلَ أحمد أحمد بدويّ تَوَفَّاهُ اللهُ سنةَ ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م، وفي كِتابِ **البلاغةِ عِنْدَ السَّكَّاكِيّ** للدُّكتور أحمد مطلوب إشارةٌ إلى الطَّبعةِ الثَّالِثةِ، وتاريخُها ١٩٦٤م.

لَمْ أَدْرُسِ الكِتابَ في الْجامِعةِ، وإنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ اسْمًا، فقدْ شَغَلَنا كِتابُ طه أحمد إبراهيم عَمَّا سِوَاهُ، وطَغَتْ شُهرةُ كِتابَيْ محمَّد مندور وإحسان عَبَّاس عَلَى كِتابِ بدويّ وأَخْمَلَتْهُ، عَلَى أنَّني لا أَسْتَبْعِدُ أنَّ أُستاذَ مادَّةِ النَّقْدِ العربيِّ القديمِ الدُّكتور عبدِ الله سالم المَعْطَانِيّ - حَفِظَهُ الله - قدِ اسْتَجْلَبَهُ في دَرْسٍ مِّنَ الدُّرُوسِ، وكانَ مِنْ عادتِهِ لَفْتُ أنظارِنا - نحنُ الطُّلَّابَ - إلى كُلِّ ما يَنْفَعُ ويُثْرِي ويُثقِّفُ.

كان الدُّكتور بدويّ أُستاذًا جليلًا ونادِرًا!

لكنَّه ليسَ المُتَفَرِّدَ في الْجَلَالةِ والنَّدْرةِ؛ فالبيئةُ الْجامِعيَّةُ - آنئذٍ - كانَتْ مَلْأَى بالأساتذةِ الكِبارِ، فهو، إذنْ، واحِدٌ مِّنْ تلك الصَّفْوَةِ المُبارَكةِ.

لِمَ أَقُولُ ذلك؟

لأنَّ **أسُسَ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العربِ** معدودٌ في تقاليدِ الْجامِعةِ "كِتابًا جامِعيًّا"، قَصَدَ بِهِ صاحِبُهُ طُلَّابَهُ في حُجْرَةِ الدَّرْسِ = لكنَّهُ ليس "كِتابًا جامِعيًّا" عَلَى النَّحْوِ الَّذي نَرَى ونَسْمَعُ اليومَ! إنَّه ليسَ تلخيصًا ومَسْخًا، لكنَّهُ قِراءَةُ عالِمٍ جليلٍ، وناقِدٍ ذَوَّاقةٍ لمَصادرِ النَّظريَّةِ النَّقْديَّةِ في تُراثِنا، اِنْقَطَعَ إليها، ووَقَفَ عَلَى أُصُولِها وفُرُوعِها، وعَرَفَ مُخَبَّآتِها، وانتهَى إلى "أُسُسِها"، و"أُصُولِها"، و"مَبادِئِها"، ولمْ يشأْ أن يُلِمَّ بتاريخِ النَّقْدِ العربيِّ وأعلامِهِ - مَهْمَا كانَ كِتابًا جامِعيًّا - وآثَرَ أن يَتَهَدَّى إلى ما وراءَ التَّاريخِ، فاستصفَى فلسفةَ النَّقْدِ ورُوحَهُ وأُسُسَهُ.

كان بِوُسْعِ أحمد أحمد بدويّ أن يُلَخِّصَ نُصُوصَ النُّقَّادِ القُدَامَى، ما دامَتِ الغايةُ أن يأخُذَ بأيدي طُلَّابِهِ إلى ذلك النَّقْدِ. لكنَّهُ أدركَ أنَّ غايتَهُ أَبْعَدُ وأَجَلُّ، وما أَقْعَدَهُ وُقُوفُهُ في حُجْرةِ الدَّرْسِ عنْ أن يَتَلَمَّسَ مبادئَ وأُسُسًا في نَقْدِنا القديمِ؛ تَكْشِفُ ما لأسلافِنا مِنْ سَهْمٍ في هذا الفَنِّ الَّذي لَمْ يَبْلُغْ عِنْدَهُمْ أن يَكُونَ عِلْمًا مِّنْ عُلُومِهِم، ويَستعِينُ بِما في آثارِهِمْ مِّنْ قُوَّةٍ وحياةٍ في صَوْغِ نَظَرٍ نَقْدِيٍّ جديدٍ.

والْحَقُّ أنَّ الأُستاذَ الجليلَ لَمْ يَبُحْ بذلك، لكنَّني أُرَجِّحُهُ مِنْ كِتابِهِ هذا ومِنْ كُتُبٍ أخرى لَهُ كَسَرَها عَلَى النَّقْدِ والبلاغةِ، وكأنَّما غايةُ أُستاذِ النَّقْدِ العربيِّ القديمِ في كُلِّيَّةِ دارِ العُلُومِ أن يَدُلَّ طُلَّابَهُ - ومِنْهُمْ مَنْ سيُصْبِحُ، بَعْدَ حِينٍ، ناقِدًا أوْ باحِثًا - إلى مَعالِمِ الطَّرِيقِ، ثُمَّ كأنَّما أرادَ أن يُخَفِّفَ مِنْ غُلَوَاءِ نُقَّادِ الأدبِ، خارِجَ الْجامِعةِ، ورَكْضِهِمْ - آنئذٍ - وراءَ بَرِيقِ النَّظريَّاتِ النَّقْدِيَّةِ الغربيَّةِ، وأَظْهَرَهُمْ - لوْ عَرَفُوا الكِتابَ! - عَلَى مَوْرِدٍ عَذْبٍ، وإنْ كانَ قليلَ الزِّحَامِ! يُقَوِّي ذلك أنَّ بدويًّا كأنَّهُ ما استطابَ - في خِتامِ مُقَدِّمتِهِ - مُحَاوَلَةَ بعضِ النُّقَّادِ إجراءَ نظريَّاتِ النَّقْدِ الغربيِّ عَلَى النَّقْدِ القديمِ، فإذا اتَّصلْنا بكِتابِهِ **مِنْ بَلاغةِ القرآن** - ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م - وظَهَرْنا عَلَى فُصُولِهِ الأُولَى = أَدْرَكْنا أنَّ مِنْ غاياتِهِ العُلْيا بَعْثَ كَلِمِ البلاغةِ العربيَّةِ، واصطناعَها في تحليلِ النُّصُوصِ وقِرَاءَتِها، لكنَّ قَوْمَنا - كعادتِهِمْ - كأنَّما سَجَنُوا الكِتابَ بِعنْوانِهِ الجليلِ وغايتِهِ الكريمةِ، وهي بلاغةُ القرآنِ، ولمْ ينتفعوا بِمَا انطوَى عليهِ مِنْ أُسُسٍ وَّمَبَادِئَ في تحليلِ الشِّعْرِ والنُّصُوصِ الأدبيَّةِ.

أَلُوذُ، اليومَ، بأعمالِ هذا الرَّائدِ الكبيرِ، ويُداخِلُني أَسَفٌ عَلَى أنَّ نَقْدَنا العربيَّ الحديثَ لَمْ يُفِدْ مِنْ نَظَرَاتِهِ الثَّاقِبةِ، وكانَ جديرًا أن يُبَوَّأَ مَقامًا أَعْلَى وأَسْمَى!

مُؤَلَّفَاتُ عبدِ العزيزِ عَتِيق

-١-

ليسَ شيئًا هَيِّنًا أن يَقْرَأَ طُلَّابٌ وباحِثُونَ ومُثَقَّفونَ لا يُحْصَى عَدِيدُهُمْ = كِتابًا لِمُؤَلِّفٍ، وليسَ يسيرًا أنْ تَذِيعَ كُتُبُهُ في مَشْرِقِ الوطنِ العربيِّ ومَغْرِبِهِ، يُضَافُ إلى ذلك إفريقيةُ جَنُوبَ الصَّحراءِ، ومَعَاهِدُ الدِّراساتِ العربيَّةِ في إيرانَ وبِلادِ جاوَهْ وسِوَاهُنَّ!

لا شَكَّ في أنَّ ذلك نِعمةٌ كُبْرَى، وإجماعٌ عَلَى مَقامِ المُؤَلِّفِ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، فكيفَ إذا قُرِئَتْ ودُرِسَتْ وتُدُورِسَ ما فيها، ونُشِرَتْ في حياتِهِ وبَعْدَ مَمَاتِهِ عَشَرَاتِ الطَّبعاتِ الشَّرعيَّةِ وغيرِ الشَّرعيَّةِ؟!

إنَّه الدُّكتورُ عبدُ العزيزِ عَتِيق - رَحِمَهُ اللهُ – (ت 1396هـ = 1976م) الأستاذُ الْجليلُ الَّذي نَعْرِفُهُ بِكُتُبِهِ فَوْقَ معرفتِنا لشخصِهِ! وكأنَّ ترجمتَه الشَّخصيَّةَ هي كُتُبُهُ ومُؤَلَّفاتُهُ!

-٢-

اِخْتَلَفْتُ إلى جامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ بِجُدَّةَ سنةَ ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، فوَجَدْتُ كُتُبَ عبدِ العزيزِ عَتِيق في الطَّريقِ يَعْرِفُها العربيُّ والعَجَمِيُّ، والحَضَرِيُّ والبَدَوِيُّ بِطِباعَتِها البيروتيَّةِ الزَّاهيةِ الْجميلةِ، وغِلافاتِها البديعةِ الرَّائعةِ!

لَمْ يَدُلَّنا أَحَدٌ عليها، لكنَّنا قَصَدْناها، ومِلْنا إليها وأحببْناها، عَلَى كَثْرَةِ ما في المكتباتِ مِنْ كُتُبٍ تُعَالِجُ ما عالَجَتْهُ مؤلَّفاتُ الأُستاذِ القديرِ.

-٣-

لَمَّا أَظَلَّتْنا سنةُ ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م كانَ دَرْسُ البلاغةِ عَذْبًا حبيبًا قريبًا؛ فأستاذُ البلاغةِ عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الدَّارِسِينَ، هو أُستاذُنا العَلَّامةُ الدُّكتور بكري شَيْخ أمين - رَحِمَهُ اللهُ - والكِتابُ المُقَرَّرُ هو **تلخيصُ المِفتاح** وشَرْحُهُ **الإيضاح** كِلاهُما للخطيبِ القَزْوِينِيّ - رَحِمَهُ اللهُ - عَلَى أنَّنا أحببْنا كِتابَ أُستاذِنا بكريّ **البلاغة العربيّة في ثَوْبِها الجَدِيدِ**، وكانَ قدْ صَدَرَ مِنْهُ جُزْءَانِ؛ عِلْمُ المَعَانِي وعِلْمُ البيانِ، ثُمَّ صَدَرَ الْجُزْءُ الثَّالِثُ عِلْمُ البديعِ وأنا لا أزالُ طالِبًا في قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها.

قَرَأْنا **التَّلخيصَ** و**شَرْحَهُ**، وأَحْبَبْنا كُتُبَ أُستاذِنا العالِمِ الأديبِ الفَنَّانِ، ولمْ يَتَغَيَّرْ علينا أُستاذُنا لَمَّا رأى في أيدينا كُتُبَ الدُّكتور عبدِ العزيزِ عَتِيق في البلاغةِ، بأجزائِها الثَّلاثةِ، بَلْ إنَّه رَغَّبَنا في قِراءَتِها، وعادَ علينا اتِّصالُنا بِكُلِّ هذهِ الكُتُبِ بالخَيْرِ والنَّفْعِ.

فلَمَّا اختلفْنا إلى دَرْسِ العَرُوضِ والقافِيَةِ كان عبدُ العزيزِ عَتِيق مَعَنا؛ فنحنُ نَقْرَأُ جُمْلَةَ كُتُبٍ مِنْ بينِها كِتابٌ لَّهُ كَسَرَهُ عَلَى هذا العِلْمِ، فإذا أَتْمَمْنا دَرْسَنا، مِلْنا إلى دَرْسِ النَّقْدِ الأدبيِّ القديمِ، وإذا بِمُؤَلِّفنا الرَّصِينِ يختصُّ هذا العِلْمَ بكِتابٍ لَّهُ شهيرٍ بَسَطَ فيهِ الحديثَ وأجادَ وأَحْسَنَ!

وحَيْثُ اتَّجهْنا في دُرُوسِ العربيَّةِ وآدابِها فثَمَّ أَثَرٌ كريمٌ مِّنْ آثارِ الدُّكتور عبدِ العزيزِ عَتِيق؛ كانَ مَعِي في مُقَرَّرِ "مَدارِسِ النَّحْوِ" بكِتابٍ جَيِّدِ العَرْضِ والإبانةِ، وكانَ مَعِي في دَرْسِ "الأدبِ الأندلُسِيِّ" بكِتابٍ نافِعٍ طَيِّبٍ أَعانَني عَلَى التَّهدِّي إلى مَسالِكِ أدبِ ذلك العَصْرِ!

لَمْ يَغِبِ الدُّكتورُ عبدُ العزيزِ عَتِيق عنْ عقلي ووِجداني، بَعْدَ كُلِّ هذهِ السِّنِينَ، وما خَيَّبَ ظَنِّي متَى قَصَدْتُهُ؛ استعنْتُ بكُتُبِهِ أيَّامَ الطَّلَبِ، فكانَ نِعْمَ الأستاذُ، وكانَتْ نِعْمَ الكُتُبُ! وكانَ مَعِي في كُلِّ مَرْحَلةٍ خَطَوْتُها، أَفْرَحُ بكُتُبِهِ، وأرى فيها ما يَرْجُوهُ الطَّالِبُ والباحِثُ والمُثَقَّفُ مِنْ عُلُومِ العربيَّةِ وآدابِها.

- ٥ -

كانَ الزَّمانُ الَّذي اختلفْتُ فيهِ إلى الْجامِعةِ كريمًا سَخِيًّا؛ كانَ كريمًا بأساتذةٍ هُمْ صَفْوَةُ أهلِ العِلْمِ، وكانَ سَخِيًّا بتلك الحياةِ الْجامِعيَّةِ الَّتي عَرَفَتْ مِنْ الكُتُبِ ثلاثةَ أنواعٍ؛ كِتابًا تُراثيًّا، وكِتابًا جامِعيًّا لأستاذٍ له مقامُهُ، وكِتابًا ثقافيًّا لِمُؤَلِّفٍ مَّذكورٍ مَّشهورٍ، ولَمْ نَعْرِفْ، وتلك نِعمةٌ تُوْجِبُ الشُّكْرَ، المُذَكِّراتِ، أو المُرَقَّعاتِ والمُلَفَّقاتِ، وهي تلك الكُتُبُ الَّتي فَرَضَها التَّعليمُ الْجامِعيُّ الحديثُ عَلَى الطُّلَّابِ، فللَّهِ الْحَمدُ والمِنَّةُ!

- ٦-

تُصَنَّفُ مُؤلَّفاتُ الدُّكتور عبدِ العزيزِ عَتِيق في الكُتُبِ الْجامِعيَّةِ، وإنْ شِئْتَ المدرسيَّة، وهذا حَقٌّ. عَلَى أنَّ هذا الوَصْفَ يَقتضِي إضافةً مُّهِمَّةً هي أنَّنا إزاءَ كُتُبٍ لا تَخْذِلُ المُنْتَفِعَ بِها مهما كانَتْ مَرْتَبَتُهُ في العِلْمِ، تُعْطِيهِ عَلَى وَفْقِ ما يُرِيدُ؛ يستعينُ بِها الطَّالِبُ في دُرُوسِهِ، والباحِثُ في بُحُوثِهِ، ولا تُخَيِّبُ ظَنَّ العالِمِ إذا استأْنَسَ بِها، وما هكذا الكُتُبُ المُرَقَّعاتُ المُلَفَّقاتُ الَّتي نَلْقَى مِنْها، اليومَ، قَدْرًا كبيرًا في المكتباتِ، وكانَ الظَّنُّ بالكُتُبِ الْجامِعيَّةِ أنْ تَرْقَى بالطَّالِبِ الْجامِعيِّ دَرَجَةً هو جديرٌ بِبُلُوغِها، فإذا بأشباهِ الكُتُبِ تَنْزِلُ بِهِ دَرَكَاتٍ!

وتَدُلُّنا كُتُبُ عبدِ العزيزِ عَتِيق عَلَى مَبْلَغِ ما بُذِلَ فيها مِنْ جُهْدٍ، وليسَ شأنًا يسيرًا أن يُؤَلِّفَ أستاذٌ جامِعيٌّ كُتُبًا يَلْقَى فيها الطُّلَّابُ، عَلَى اختلافِ أجيالِهِمْ وبُلْدَانِهِمْ ومَقاصِدِهِمْ = النَّفْعَ، ولَعَلَّهُمْ لَوِ اكتفَوْا بِها لَأَغْنَتْهُمْ عنْ سِوَاها، وهذا دَيْدَنُ الكُتُبِ الْجامِعيَّةِ الَّتي يُؤَلِّفُها عُلماءُ الأساتذةِ ويَنْتَفِعُ بِها الطُّلَّابُ وعامَّةُ المُثَقَّفِينَ.

مكتبةُ دارِ الوفاء

أَقْبَلَتْ **مكتبةُ دارِ الوفاءِ** بِجُدَّة كالنَّسِيمِ العَذْبِ، فأَنْعَشَتْ أرواحَنا، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أنْ عاكَسَها الزَّمانُ سريعًا فذَوَتْ وغابَتْ، وكأنَّها لَمْ تَكُنْ!

- ١ -

كُنْتُ في سَنَتِي الْجامِعيَّةِ الثَّانيةِ حِينَ افْتُتِحَتْ **مكتبةُ دارِ الوفاء**. كان ذلك في سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، واتَّخذَتْ موقعًا مُبايِنًا لأشباهِها مِنَ المكتباتِ. نَعَمْ، هي لا تَبْعَدُ، كثيرًا، عن الْجامِعةِ، ولكنَّكَ لنْ تَبْلُغَها راجِلًا كتلك المكتباتِ الَّتي كُنْتُ أغْشاها كُلَّما واتَتْني فُرْصةٌ بينَ دَرْسٍ وآخَرَ، أَمَّا هذه المكتبةُ الَّتي طُوِيَتْ صفحتُها، وما خُطَّ فيها شيءٌ ذو بالٍ = فجاوَرَتْ **ثانويّةَ الشّاطِئ** زِينةِ المَدارِسِ الثّانويَّةِ في العَرُوسِ، قَبْلَ أنْ تَبْهَتَ المدرسةُ ويَكْشِفُ الزَّمنُ ما عَلَى وَجْهِها مِنْ نُدُوبٍ.

- ٢ -

ولا زِلْتُ أَتَذَكَّرُ مَوْقِعَ المكتبةِ أَسْفَلَ عِمارةٍ سامِقةٍ. ولا زِلْتُ أتذكَّرُ أنِّي عَرَفْتُها اتِّفاقًا، ولَمَّا عَرَفْتُها أحبَبْتُها. أَجَلْ أحببتُها. كانَتْ مكتبةً كبيرةً، مُمْتَدَّةً، واسِعةً، واعتدْتُ غِشْيَانَها في الأسبوعِ الواحِدِ مَرَّتَيْنِ وثلاثًا وأربعًا، وخُيِّلَ إليَّ، آنذاكَ، أنَّها خِزانةٌ لتُراثِ العربيَّةِ وآدابِها، إنَّها تَفُوقُ المكتباتِ الَّتي أَعْرِفُها، جِدَّةً، ووَفْرَةً، وتَنَوُّعًا، وفاقَتْ مُنافِساتِها في مُصَنَّفاتِ النَّحْوِ واللُّغةِ ودِراساتِ الأدبِ، وكأنَّما وافقَتْ ما يَرْجُوهُ طالِبٌ أَوْشَكَتِ اللُّغةُ العربيَّةُ تَكُونُ هي كُلَّ حياتِهِ، وكُلَّ ما يَحْلُمُ بِهِ ويتمنَّاهُ في دُنياهُ!

- ٣ -

وأنا أَرُدُّ قَدْرًا كبيرًا مِّنْ معرفتي للعُلُومِ العربيَّةِ إلى المكتباتِ الَّتي اتَّصَلْتُ بِها، وما أَعْظَمَ الشُّعُورَ الَّذي غَمَرَني في تلك السَّنَوَاتِ! إنَّني لا أُحِسُّهُ اليومَ، ويُعْجِزُني بيانُهُ، وكيفَ لِي أنْ أُعِيدَ إلى نَفْسِي ذلك الدَّهَشَ؟

- ٤ -

كان كُلُّ شيْءٍ في **مكتبةِ دارِ الوفاءِ** يَضُوعُ دَهَشًا ورَوْعةً وجَمَالًا: أسماءُ المؤلِّفِينَ، وألوانُ غِلافاتِ الكُتُبِ، وعِنْواناتُها، والمُحَقِّقونَ، والمُؤَلِّفونَ، ودُورُ النَّشْرِ، وتَحَوُّلِي مِنْ ناحِيةٍ إلى أُخْرَى، وأُمْنِيَّةٌ تَتَرَدَّدُ كلماتُها في صَدْرِي بأنْ تَمْتَدَّ أسبابي بأولئك الأئمَّةِ الأعلامِ مِنْ أسلافِنا، وكُلَّما مَدَدْتُ يَدِي إلى كِتابٍ يَّسْرَحُ بِي الْخَيَالُ إلى زمنِ العربيَّةِ وتُراثِها، ويَغُورُ اسْمُ المُؤَلِّفِ في ذاكرتي فَلَسْتُ أنساهُ، وأسألُ: هَلْ سيُقَدَّرُ لِي، وأنا في أوَّلِ الخَطْوِ، أنْ أَعْرِفَ كُلَّ هؤلاءِ المُؤَلِّفِينَ؟ وهَلْ سيُظِلُّني اليومُ الَّذي أَقْرَأُ كُتُبَهُمْ وأتأمَّلُها وأتَدَبَّرُها وأذوقُ كَلِماتِها؟

- ٥ -

أَعْطَتْنِي **مكتبةُ دارِ الوفاءِ** ما أُرِيدُ، في ذلك العَهْدِ: كُتُبًا لَمْ أَعْرِفْها مِنْ قَبْلُ، ومُؤَلِّفِين صاروا أصدقاءَ العُمْرِ، وأَخَذَتْ بِيَدِ ذلك الطَّالبِ الَّذي لَمْ يَحْلُمْ بالْجامِعةِ ويُؤَمِّلِ الاختلافَ إليها، إلَّا لِيكُونَ طالِبًا في قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها!

- ٦ -

لكِنَّ **مكتبةَ دارِ الوفاءِ** تلك الصَّبِيَّةَ الحُلْوَةَ = سَرْعانَ ما اختفَتْ، وحِينئذٍ صارَ طَعْمُ المكتباتِ دُونَها مُرًّا!

نَعَمْ، أَعْتَرِفُ أنَّني أَحْبَبْتُ مكتباتٍ قَبْلَها، وصاحَبْتُ مكتباتٍ بَعْدَها، لكنَّ **دارَ الوفاءِ** وَحْدَها، مِنْ بينِهِنَّ، هي الَّتي آلَمَنِي غِيابُها!

مكتبةٌ دِينيَّة!

اِضْطَرَّتْني الظُّرُوفُ أنْ أَقْصِدَ وَسَطَ جُدَّةَ اليومَ مَرَّتَيْنِ، ويَعْنِي ذلك أنَّ سيَّارتي قَطَعَتْ ٢٠٠ كِيلٍ في المَرَّتَيْنِ!

مِنْ حُسْنِ الحَظِّ أنَّ حَرَكَةَ المُرُورِ والسَّيْرِ هادِئةٌ جِدًّا، صَبَاحَ اليومِ ومساءَهُ.

رَغِبْتُ، بَعْدَ هُبُوطِي الثَّانِي إلى وَسَطِ المدينةِ = في زِيارةِ **مكتبةِ الشِّنقيطِيِّ**، المُجَاوِرةِ لمسجدِ الأميرِ مُتْعِب، فعسَى أنْ أَلْقَى جديدًا!

لَمْ تُخَيِّبِ المكتبةُ ظَنِّي فعُدْتُ إلى مَنزلي في ضاحِيَةِ أبْحُر الشَّماليَّةِ بِكُتُبٍ رَّائِعةٍ في اللُّغةِ والأدبِ وبرامِجِ الشُّيُوخِ.

عَرَفْتُ **مكتبةَ الشِّنقيطيِّ** قَبْلَ عِشرينَ سنةً، بِفَضْلِ الصَّدِيقِ الكبيرِ الأستاذِ الدُّكتور بَكْر باقادِر - حَفِظَهُ اللهُ –

تُعْنَى المكتبةُ بالكُتُبِ الدِّينيَّةِ، وجُمهورُها مِنَ المُتَدَيِّنينَ، ومنذُ ذلك العَهْدِ استهوتْني! واعتدْتُ الاختلافَ إليها بينَ حِينٍ وآخَر، وكُنْتُ، في مُعْظَمِ الأوقاتِ، أَخْرُجُ مِنْها بكُتُبٍ نادِرةٍ في الأدبِ القديمِ، واللُّغةِ، والبلاغةِ، ومَعَاجِمِ الشُّيُوخِ.

صِرْتُ وَجْهًا مَّألوفًا في المكتبةِ؛ لكثرةِ اختلافي إليها، وجَمَعَتْني بمُديرِها الأخِ الأستاذ حَسَن هَيْجَان محبَّةٌ في اللهِ، فلا يستقبلُني إلَّا هاشًّا باشًّا، وكان، في بُداءَةِ اتِّصالي بالمكتبةِ، يستغرِبُ زِياراتي الدَّائِمةَ لها، فلَمَّا عَرَفَ الكُتُبَ الَّتي أعتني بِها، صارَ يُرْشِدُني إلى جديدِها.

لا أَجِدُ غرابةً في اعتيادِي زيارةَ المكتباتِ الدِّينيَّةِ، وإنَّني لألقَى فيهنَّ ما لا ألقاهُ في غيرِهِنَّ، ولَعَلَّ في ذلك مَزِيَّةً تُمَيِّزُني مِنْ أهلِ الأدبِ الجديدِ والثَّقافةِ الجديدةِ؛ فأنا، منذُ اتَّصَلَتْ أسبابي بالقِرَاءَةِ والكِتابِ، لَمْ أَفْصِلْ بينَ الأدبِ وعُلُومِ الشَّريعةِ، ولَوْ تَيَسَّرَ لِي دراسةُ عُلُومِ

الإسلامِ، كما أُحِبُّ وأرجو، ما تَرَدَّدْتُ، ولَأَقْبَلْتُ عليها؛ فليس شيْءٌ هو أشدَّ أَسًى مِنِ استقلالِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، في العصرِ الحديثِ، عنْ عُلُومِ الشَّريعةِ، وإنَّ في الفصْلِ بينهما ثُلْمَةً ليستْ بالهَيِّنةِ في كِتابِ الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ الواسِعِ الكبيرِ، وطالما كَتَبْتُ، وتَحَدَّثْتُ، وعالَنْتُ بعضَ الصَّديقِ عنْ رَّغبةٍ خبيئةٍ في تَعَلُّمِ طائفةٍ مِّنْ عُلُومِ الشَّريعةِ، وعُلُومِ الآلةِ، أبتغِي مِنهُنَّ وَصْلَ ما انبَتَّ، وإساغةَ عُلُومٍ لَّا سبيلَ إلى تَفَهُّمِها مُفْرَدةً مَبتوتةً مِنْ شَجَرَتِها.

واليومَ، لا يكادُ يُظِلُّني أُسبوعٌ دُونَ أنْ أزورَ **مكتبةَ الشِّنقيطيِّ**، وحَسْبُها أنْ تُحَقِّقَ بعضَ ما أرجوهُ؛ ليس في كُتُبِ الفهارِسِ والمعاجِمِ والمَشْيَخاتِ والبرامِجِ، ولي تَعَلُّقٌ عظيمٌ بِهِنَّ = ولكنْ في عُلُومِ العربيَّةِ نَفْسِها، وطالَما قصدْتُ هذه المكتبةَ الحبيبةَ ولا غايةَ لِي إلَّا أنْ أَظْفَرَ بكِتابٍ – أوْ كُتُبٍ – في النَّحْوِ والصَّرْفِ، أوِ اللُّغةِ والمُعْجَماتِ، أوِ البلاغةِ، ويُداخِلُني شُعُورٌ طاغٍ بالفَرَحِ، عِلَّتُهُ تَخَلُّصِي، منذُ أَمَدٍ بعيدٍ، مِنْ عُقَدِ المُثَقَّفينَ المُحْدَثِينَ، فأنا لا أَعرِفُ اللُّغةَ العربيَّةَ وعُلُومَها مُنْتَزَعةً أغصانُها مِنْ شَجَرَةِ العُلُومِ الإسلاميَّة.

ولَمَّا اتَّصَلَتْ أسبابي بالمَتاجِرِ الإلكترونيَّةِ لمكتباتِ بَيْعِ الكُتُبِ = لَقِيتُنِي لا أكادُ أبتاعُ كُتُبًا في اللُّغةِ وما يَحُفُّ بها، وفي التَّاريخ، والبُلْدانِيَّاتِ، والثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، والفلسفةِ، والفِكْرِ الإنسانيّ = إلَّا مِنْ متاجِرَ إلكترونيَّةٍ، هي، في الأصلِ، مكتباتٌ دِينيَّةٌ، إنْ شِئْتَ، أوْ إسلاميَّةٌ، إنْ أردْتَّ، وكُلَّما وَصَلَني هذا الكِتابُ أوْ ذاكَ بِطَرَفٍ مِّنْ عُلُومِنا = يَقْوَى عِندي يَقِينٌ بأنَّه لا سبيلَ إلى دَرْسِ اللُّغةِ العربيَّةِ إلَّا بِدَرْسِ عُلُومِ الإسلامِ، والعكسُ صحيحٌ!

هذا الشِّعْرُ الحديثُ مَرَّةً أُخرى

- ١ -

ليس شيْءٌ أحَبَّ مِنَ الكُتُبِ غيرَ الحديثِ عن الكُتُبِ!

لا أَمِيلُ، كثيرًا، إلى عُرُوضِ الكُتُبِ الَّتي تُلَخِّصُ كِتابًا مَّا، بابًا بابًا، وفَصْلًا فَصْلًا، وأنا لا أُنكِرُ ما في هذا اللَّونِ مِنَ الكتابةِ مِنْ فوائدَ = لكنَّ الَّذي أَمِيلُ إليهِ هو تلك الآصِرةُ الرُّوحيَّةُ الَّتي تَصِلُ قارِئًا بكِتابٍ.. إنَّهُ يُحَدِّثُكَ عنِ الكِتابِ ويُحَدِّثُكَ عنْ نَفْسِهِ كذلك، وكأنَّه الوحيدُ الَّذي عَرَفَ الكِتابَ حِينَ ذاقَهُ، واستغرقَتْهُ تفاصيلُهُ ومَضَايِقُهُ.

كَتَبْتُ كثيرًا عنْ كُتُبٍ أحببْتُها، لكنَّني لا أهتمُّ بالتَّفاصِيلِ، ولا تَعنيني الأبوابُ ولا الفُصُولُ، وكُنْتُ، وأنا أَقُصُّ صِلَتِي بكِتابٍ، كأنَّني أَرْجِعُ بالقارِئِ إلى ذِكرَى عزيزةٍ، أوْ كأنَّما كان الكِتابُ صديقًا حالَتْ دُونَ لِقائِهِ سَنَوَاتٌ وجُغْرَافِيَّةٌ وحُدُودٌ!

- ٢ -

لا أستطِيعُ أنْ أُحَدِّثَ صديقًا عنْ كِتابِ **هذا الشِّعر الحديث..**[76] **!** للعَلَّامةِ الجليلِ الدُّكتور عُمَر فَرُّوخ = دُونَ أنْ أستعيدَ شبابًا وَلَّى وعُمْرًا ذَهَبَ.. ليس بِوُسْعِي ذلك؛ لأنَّ الكِتابَ ليس كأيِّ كِتابٍ، والمُؤَلِّفَ ليس كأيِّ مُؤَلِّفٍ، ولأنَّ القارِئَ ليس كأيِّ قارِئٍ!

اِجْتَمَعَ كُلُّ أولئك في كِتابٍ ومُؤَلِّفٍ وقارِئٍ!

- ٣ -

نَعَمْ، أستطيعُ أنْ أُبِينَ لكَ ما انطوَى عليهِ الكِتابُ مِنْ فُصُولٍ وبُحُوثٍ، وأَقْدِرُ عَلَى أنْ أُوْجِزَ لك موضوعَهُ، وشيئًا مِنْ مُحْتَوياتِهِ = لكنَّ ذلك ليس هو الكِتابَ! إنَّه يُجَرِّدُهُ مِنْ رُوحِهِ، فيَصِيرُ بِلَا رُوحٍ، ومِنْ إنسانيَّتِهِ ويُصْبِحُ جَمَادًا، وهذا الكِتابُ كأنَّما كان رُوحًا، وكأنَّما كان إنسانًا!

- ٤ -

كأنَّما أرادَ لي القَدَرُ أنْ أَعرِفَ الدُّكتور عُمَر فَرُّوخ في ذلك الزَّمانِ!

كُنْتُ في أوَّلِ عَهْدِي بالْجامِعةِ! كانَتِ الْجامِعةُ شيئًا مَّهِيبًا عظيمًا، وما كانَتْ في ذاكرتي مرحلةً وتُجتازُ، ودُرُوسًا وتُقْرَأُ، وشهادةً ويُظْفَرُ بِها!

كانَتِ الْجامِعةُ في خَيَالِ ذلك الشَّابِّ حُلُمًا رائعًا حُلْوًا.. كانَتْ تَعْنِي لهُ التُّراثَ كُلَّهُ، واللُّغةَ العربيَّةَ، والأدبَ، والثَّقافةَ..!

وما كُنْتُ أَدْرُس لِأَظْفَرَ بشهادةٍ، كُنْتُ كأنَّما أَخْتَلِفُ إلى أشياخٍ وأَطْمَعُ في إجازةٍ.. وكان خيرُ الكُتُبِ ما هَزَّنِي، وأَيْقَظَنِي، وجَعَلَ يَعْبُرُ بِي الْحُدُودَ والأمكِنةَ والأزمِنةَ!

- ٥ -

كان خيرًا لِي أنْ عَرَفْتُ عُمَر فَرُّوخ - آنئذٍ - وأنِ اتَّصلْتُ بكِتابِهِ هذا!

ولَعَلَّكَ تُرِيدُ بيانًا للكِتابِ، وأنا أُحَدِّثُكَ عنْ نَفْسِي! وفي الكِتابِ، متَى أَرَدْتَ بيانًا، مَوْقِفُ صَدَّ مُؤَلِّفَهُ العَلَّامةَ الجليلَ عن الشِّعْرِ الجديدِ! إنَّهُ يأباهُ ويَتَّقِيهِ، ولا يُسِيغُهُ!

لكنَّ في هذا الوَصْفِ ظُلْمًا للكِتابِ والمُؤَلِّفِ والقارِئِ!

أرادَ عُمَرُ فَرُّوخ أن يُصْدِرَ شِعْرَهُ في دِيوانٍ، وأَحَبَّ أن يُقَدِّمَ لهُ بمُقَدِّمةٍ، فإذا ما كان مُقَدِّمةً يَتَّسِعُ ويَكْبُرُ ويَصِيرُ كِتابًا!

إنَّها حالةٌ غريبةٌ، هذهِ الَّتي صارَتْ فيها المُقَدِّمةُ كِتابًا!

لكنَّ هذا المَعْنَى الَّذي ثَوَى في نِيَّةِ المُؤَلِّفِ عَسَاهُ هو الَّذي صَيَّرَ الكِتابَ قريبًا حبيبًا!

تقرأُهُ وكأنَّكَ تَعْرِفُ الكاتِبَ.. إنَّه يُحَدِّثُكَ حديثًا قريبًا حبيبًا. لا شَكَّ في أنَّكَ ستَعْجَبُ لثقافةٍ واسِعةٍ مُّحِيطةٍ اِقْتَدَرَ المُؤَلِّفُ عليها، وستَدْهَشُ لِتَنَقُّلِهِ بينَ اللُّغاتِ والثَّقافاتِ، وتَخَطِّيهِ الأمكِنةَ وعُبُورِهِ الأزمِنةَ = غَيْرَ أنَّه لا يَزْهو بمعرفةٍ، إنَّما هو يَكْتُبُ "مُقدِّمةً" طالَتْ فصارَتْ كِتابًا! وأنتَ تَعْرِفُ أنَّ "المُقدِّمةَ" تنتمي إلى الكِتابِ وتختلِفُ عنه، إنَّها كَعَتَبَةِ البيتِ مُتَحَيِّرةٌ بينَ الدَّاخِلِ والخارِجِ.

- ٦ -

لَمْ أُحِسَّ هذه المَعاني يومَ قَرَأْتُ الكِتابَ عامَ ١٤٠٦هـ = لكنَّني أدركْتُ أنَّ المؤلِّفَ عُمَرَ فَرُّوخ نَمَطٌ مختلِفٌ مِّنَ المُؤَلِّفين؛ إنَّه يعيشُ بِكُلِّيَّتِهِ في ما يُؤَلِّفُ، فلَمَّا تَوَثَّقَ ما بَيْني وبينَ كُتُبِهِ عَرَفْتُ ما الَّذي تَعْنِيهِ مُقَدِّماتُه؟ وأدركْتُ أنَّ في "مُقَدِّماتِه" شيئًا مِّنْ نَفْسِهِ، ونَبَأً عنْ حياتِهِ، وكُنْتُ كُلَّما قرأْتُ إحداهُنَّ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّني ارتقيْتُ في معرفةِ أطرافٍ مِّنْ سِيرتِهِ.. كان ذلك قَبْلَ أنْ أُطالِعَ تَرْجَمَتَهُ الشَّخصيَّةَ البديعةَ **غُبار السِّنين**.

- ٧ -

لَمْ يَكُنْ كِتابُ **هذا الشِّعر الحديث..**! للدُّكتور عُمَر فَرُّوخ كِتابًا كأمثالِهِ مِنَ الكُتُبِ الَّتي قَرَأْتُها قَبْلَهُ وبَعْدَهُ!

إنَّهُ أَخَذَ بِيَدِي إلى "الْجامِعةِ" الَّتي لا زِلْتُ أَحْلُمُ بِها، وإلى المُؤَلِّفِينَ الَّذينَ أحببتُهُمْ؛ لأنِّي أحبَبْتُ مُؤَلَّفاتِهِمْ، وكان عُمَرُ فَرُّوخ واسِطَةَ العِقْدِ في المُؤلِّفِينَ والكُتَّابِ الَّذين أحبَبْتُهُمْ!

ذاكِرَةُ النَّقْدِ العربيِّ الحديث

أَدِينُ في تَعَرُّفِي مَضَايِقَ النَّقْدِ العربيِّ الحديثِ لطائفةٍ مِّنَ الدَّارِسِينَ، ويَعنيني مِنْهُمُ الآنَ:

غالِي شُكْرِي!

كأنَّما كانَتْ كُتُبُهُ "رِوَايةً" موضوعُها النَّقْدُ الأدبيُّ، وأبطالُها النُّقَّادُ!

أَحْبَبْتُ كُتُبَهُ النَّقْدِيَّةَ كثيرًا، وهِمْتُ بكِتابِهِ الرَّائِعِ **سوسيولوجيا النَّقْدِ العربيِّ الحديث**[77].

أهدانِي إيَّاهُ الصَّدِيقُ الكبيرُ البروفيسور بَكْر باقادِر - حَفِظَهُ اللهُ –

لا أَعْرِفُ كَمْ مَرَّةً قَرَأْتُهُ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؟ رُبَّما أَرْبَعَ مَرَّاتٍ!

كُنْتُ أقرأُهُ وكأنِّي أَقْرَأُ رِوايةً أبطالُها نُقَّادٌ عَرَبٌ مِّنْ كُلِّ البُلْدانِ العربيَّةِ - باستثناءِ الجزيرةِ العربيَّةِ فلَعَلَّها، عِنْدَ القوميِّينَ واليَسَارِيِّينَ والتَّقدُّمِيِّينَ = ليستْ عربيَّةً! –

وقَرَأْتُ عَدَدًا طَيِّبًا مِّنْ كُتُبِهِ، وأَوَّلُ كِتابٍ قَرَأْتُهُ لهُ هو **شِعرُنا الحديثُ إلى أين؟** أهداني إيَّاهُ العَمُّ العزيزُ الشَّاعِرُ الكبيرُ عَلِيّ بافقيه (عَلِيٌّ في مَقَامِ عَمِّي لأنَّهُ ابْنُ عَمِّ أَبي لَحًّا).

غالِي شُكْرِي ناقدٌ فَنَّانٌ، عُرُوبِيُّ المُتَّجِهِ، عَلَى عَكْسِ أساتذتِهِ ورُصَفائِهِ مِنَ النُّقَّادِ المِصْرِيِّينَ (أَستثْنِي أحمد زكيّ أبو شادي، ومصطفَى عبد اللَّطيف السَّحَرْتِيّ، ومحمَّد عبد المُنْعِم خفاجيّ، وعبد القادِر القطّ، وعَلِيّ الرَّاعِي، ورجاء النَّقَّاش).

أَحْبَبْتُ، كذلك، كِتابَهُ **ماذا أضافوا إلى ضَمِير العَصْرِ؟**

إنَّهُ كِتابٌ بديعٌ وقريبٌ إلى القَلْبِ!

تَأَثَّرْتُ بغالِي شُكْرِي تأثُّرًا كبيرًا، راقَنِي أُسلوبُهُ في الكتابةِ، ويُخَيَّلُ لِي أنَّهُ يَكْتُبُ وكأنَّهُ يَتَحَدَّثُ، لا فَرْقَ كبيرًا بينَ كتابتِهِ وحديثِهِ، ويَرُوعَكَ في كُتُبِهِ، وبخاصَّةٍ **سوسيولوجيا النَّقْدِ العربيِّ الحديث**، وَفْرَةُ أسماءِ النُّقَّادِ العربِ، بِمُخْتَلِفِ أصقاعِهِمْ ومُتَّجهاتِهِمْ، وعِنواناتِ كُتُبِهِم، ويستجلِبُ النَّظَرَ تَحَرُّرُهُ مِنْ أساليبِ الْجامِعِيِّينَ في التَّوثيقِ، والتَّوَحُّشِ، وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنْ أُسْلُوبَهُ في الكتابةِ الَّذي يُشْبِهُ الْحديثَ = أصلُهُ عَمَلُهُ في الصِّحافةِ. لكنْ مَّهْلًا! إنَّ أُسْلُوبَ غالِي شُكْرِي عليهِ مِنْ عَصْرِهِ سِيماءُ؛ فهذه طريقةٌ في الكتابةِ والتَّأليفِ شائعةٌ في مُثَقَّفِي عَصْرِهِ، وبخاصَّةٍ النُّقَّادُ الأعلامُ؛ فمحمَّد مندور، ولويس عوض، وعَلِيّ الرَّاعي لا يختلِفُ ما يَكْتُبُونَهُ عنْ أحاديثِهِمْ إلى المُثَقَّفِينَ، ومُحاضَرَاتِهِمْ، وبرامِجِهِمْ في الإذاعة، ولا رَيْبَ عِندي في أنَّ غالي شُكْرِي اقتفَى خُطَا الأساتذةِ، لكنَّه امتازَ دُونَهُمْ بإكبابِهِ على التَّأريخِ لحركةِ النَّقْدِ العربيِّ الحديثِ، وكأنَّما أرادَ أن يَكْتُبَ "رِوايةً" نَقْدِيَّةً فكان **سوسيولوجيا النَّقْدِ العربيّ الحديث** هو تلك "الرِّواية"!

ويَغْلِبُ على ظَنِّي كُلَّما قَرَأْتُ الكِتابَ = أنَّ فُصولَهُ كُتِبَتْ في قَهْوَةٍ باريسيَّةٍ مِنْ تلك القهواتِ الَّتي يَحْلُو لِنَفَرٍ مِّنَ المُثقَّفينَ والكُتَّابِ الإخلادَ إليها، في غُدُوِّهِمْ ورَوَاحِهِمْ، وأنَّ الرَّجُلَ استعانَ بذاكرتِهِ الَّتي لا يَنِدُّ عنها صِغارُ الحوادِثِ وكِبارُها؛ فرِوايةُ النَّقْدِ العربيِّ الْحديثِ تألَّفَتْ عناصِرُها في ضميرِهِ، حتَّى إذا نَضِجَتْ اِسْتَلَّ يراعتَهُ وأنشأَ كِتابَهُ البديعَ، ولَوْلا ما فيهِ مِنْ براعةٍ في الإنشاءِ والتَّأليفِ ما قرأتُهُ أربعَ مَرَّاتٍ، ولَوْلا ما فيهِ مِنْ إمتاعٍ ومؤانَسَةٍ ما دَعَوْتُهُ "رِوايةً"!

وسأقولُ شيئًا: إنَّ قارِئَ كُتُبِ غالِي شُكْرِي الَّتي كان النَّقْدُ الأدبيُّ موضوعَها = سيَخْرُجُ مِنْها، ولا سِيَّما **سوسيولوجيا النَّقْدِ العربيِّ الحديث** أَمْتَنَ معرفةً بتضاريسِ النَّقْدِ العربيِّ في العَصْرِ الْحاضِرِ، مِنْ تُرَاثِهِ العقلانيّ، وتعبيريَّتِهِ الرُّومنطيقيَّةِ، إلى واقعيَّتِهِ الاشتراكيَّةِ، فالنَّقْدِ الْجديدِ، حتَّى يَبْلُغَ مَشارِفَ البنيويَّةِ، وإنَّهُ مِنَ العَسِيرِ أن يَظْهَرَ عَلَى كُلِّ ذلك في كِتابٍ واحِدٍ، ولن يُتاحَ لهُ الظُّهورُ عَلَى خريطةِ النَّقْدِ إلَّا إذا استرشَدَ كِتابَ غالِي، واستصحبَهُ!

وأستطيعُ أنْ أُصَنِّفَ نَقْدَ غالي شُكْرِي في النَّقْدِ الَّذي لا يزالُ عليهِ مِنَ رُّوحِ الأدبِ الْخالِصِ أثرٌ، ولنا أنْ نَسْلُكَهُ في "الأدبِ النَّقْدِيِّ" الَّذي يَتَوَسَّطُ ما بين الأدبِ الْخالِصِ والنَّقْدِ الخالِصِ، النَّقْدِ الَّذي فيهِ مِنْ صاحِبِهِ رُوحُهُ ونَجْواهُ وفَرَحُهُ وحُزْنُهُ، ومِنْ عَجَبٍ أنَّ كِتابَ غالِي شُكْرِي أذاعَهُ في النَّاسِ سنةَ 1400هـ = 1980م، وأنَّنا نقرأُ فيهِ سُطُورًا يُشارِفُ فيها النُّقَّادُ العربُ "البنيويَّةَ"! حتَّى إذا صارَ الأُدباءُ والنُّقَّادُ والمُثَقَّفُون ولا حديثَ لديهم إلَّا حديثُ البنيويَّةِ = رأيْنا غالِيًا يَتَّقِيها، ويُعْلِنُ الحربَ عليها، وكأنَّما أدركَ أنَّ هذا اللَّوْنَ مِنَ النَّقْدِ الأدبيِّ سيُعْلِنُ الْحَرْبَ، عَمَّا قريبٍ، عَلَى نَقْدٍ أدبيٍّ يَمْشِي مَعَ النَّاسِ في الشَّارِعِ، ويُجالِسُهُمْ في القَهْوَاتِ، وينتزِعُ مِنْهُ ما فيهِ مِنْ إنسانيَّةٍ، فإذا هو بارِدٌ فاترٌ مُمِلٌّ!

ماهِر حَسَن فهمي

الدُّكتور ماهر حَسَن فهمي - رَحِمَه اللهُ - مِنْ كِبارِ نُقَّادِ الأدبِ، وإنْ جُهِلَ قَدْرُهُ اليومَ!

أُحِبُّ كُتُبَهُ، ولا أتردَّدُ في اقتنائِها، وهي عزيزةٌ نادِرةٌ. أَبْدَعَ في كُتُبِ التَّراجِمِ، وأخرجَتْ لهُ سِلْسِلةُ "أعلامِ العَرَبِ" مجموعةً مِّنَ الكُتُبِ المُهِمَّةِ، وتَجَلَّى في دِراسةِ المَذاهِبِ الأدبيَّةِ ولهُ فيها كِتابٌ جَيِّدٌ، والشِّعرِ في مِصْرَ، ومَسائِلَ أخرَى، مِنْ بينِها شِعْرُ شوقيّ، أَمَّا كِتابُهُ في فنِّ السِّيرة والتَّراجِم فمَرْجِعٌ مُفِيدٌ في موضوعِهِ.

لَكِنَّ أَحْلَى كُتُبِهِ وأَجْمَلَها - وكُلُّ ما كَتَبَهُ حُلْوٌ وجَميلٌ! - كِتابُهُ **تطوُّرُ الشِّعْرِ العربيِّ الحديثِ بِمِنْطَقةِ الخليجِ**[78]. اقتنيتُه قديمًا قديمًا! ورَاقَني نَقْدُهُ وطريقتُهُ في قِرَاءَةِ الشِّعْرِ، واعتدْتُ الرُّجُوعَ إليهِ، والاستئناسَ بِهِ، مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، ولا يتغيَّرُ رأيي فيهِ، إلى وقتِنا الحاضِرِ، إلَّا إلى الأفضلِ.

قَرَأتُ، اليومَ، فَصْلَهُ الطَّويلَ عنْ غازي القُصَيْبِيّ، ولَذَّ لِي ما كَتَبَ، وعادةً مَّا يُعْجِبُني النَّقْدُ إذا أَنْبَأَ عنْ بَصَرٍ بالشِّعْرِ، وبَسْطَةٍ في ثقافةِ النَّاقِدِ، ولا أُحِبُّ الإدلالَ بالثَّقافةِ والمعرفةِ، والإسرافَ في المُصْطَلَحاتِ!

يَقْرَأُ ماهر حَسَن فهمي الشِّعْرَ، وتُدْرِكُ أنَّهُ مُحِيطٌ بموضوعِهِ إحاطةً جَيِّدةً، وسأقولُها صريحًا: لَمْ أُحِسَّ في الكِتابِ الَّذي كَسَرَ فُصُولَهُ عَلَى شُعَراءَ مِنَ الخليجِ العربيِّ أنَّني إزاءَ "ناقدٍ سياحيٍّ" يقرأُ القصيدةَ، ولا يَعْرِفُ الدِّيوانَ، ويتأمَّلُ الدِّيوانَ، مُفْرَدًا، مَّقطوعًا عنْ إخوتِهِ وأشقَّائِهِ! ماهر حَسَن فهمي نَمَطٌ آخَرُ مِنَ النُّقَّادِ، إنَّه مِنْ ذلك القَبِيلِ مِنَ الدَّارِسِينَ الَّذين يَكُونُ وُفُودُهُمْ عَلَى بَلَدٍ مَّا خيرًا عَلَى ثقافتِهِ، وهو يُشْبِهُ، مِنْ هذا الوَجْهِ، إحسان عَبَّاس وعبدَ المَجِيدَ عابدين في السُّودان، ومحمَّد حَسَن عبد الله في الكويت، وعَلِيّ جَوَاد الطَّاهِر وبكري شيخ أمين وأحمد كمال زكيّ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وعبدَ العزيز مَطَر في

قَطَر = كهؤلاءِ كان ماهِر حَسَن فهمي يومَ وَفَدَ عَلَى قَطَر، وعَرَفَ الخليجَ العربيَّ وثقافتَهُ؛ فكِتابُهُ ليس كِتابًا صُنِّفَ وكَفَى، إنَّهُ مِنْ تلك الكُتُبِ الَّتي تَهَبُ قارِئَها فَهْمًا أصيلًا للنَّقْدِ، وبَصَرًا حديدًا بالشِّعْرِ، وكان النَّاقِدُ عارِفًا ما يَقُولُ، ولذا صارَ كِتابُهُ - عِنْدِي - أصيلًا، حُلْوًا، جميلًا!

بَقِيَ أنْ أقولَ: إنَّ الدُّكتور ماهِر حَسَن فهمي - رَحِمَهُ اللهُ - مِنْ أقدمِ أساتذةِ جامِعةِ قَطَر، ومِنْ جِيلِ المُؤَسِّسِينَ، وعاشَ مُدَّةً طويلةً في رِحَابِها، وتُوفِّيَ فيها إثْرَ حادِث سَيْرٍ.

تاريخُ الجزائرِ الثَّقافيُّ

كُنْتُ محظوظًا - لا أَشُكُّ في ذلك! - يومَ ساقَنِي عَمَلِي في مَجلَّةِ **الحَجِّ والعُمرةِ** - ١٤٢٣-١٤٢٦هـ - إلى أنْ أَعْرِفَ ثُلَّةً مِنْ أَكْرَمِ المُثَقَّفِينَ العربِ، وكان العَلَّامةُ الجزائريُّ الدُّكتور أبو القاسم سَعْد الله مِنْ أولئك الأعلامِ الكِبارِ الكِرامِ!

عَرَفْتُه، كِفَاحًا، في المَوْسِمِ.

كان – يَوْمَ عرَفْتُهُ - شَيْخًا طاعِنًا في السِّنِّ، مُتَحَفِّظًا، مُنْقَبِضًا، قليلَ الكلامِ، تَلُوحُ مِنْ وَجْهِهِ سِيماءُ الطِّيبةِ والنُّبْلِ والعِزَّةِ، وما كانَ العَلَّامةُ الجليلُ، آنئذٍ، بالرَّجُلِ الَّذي أَجْهَلُهُ. كان مِنْ أعلامِ الثَّقافةِ العربيَّةِ في العَصْرِ الحاضرِ، مُؤَلِّفًا جليلًا، غزيرَ التَّأليفِ، مُتْقِنَهُ، باحثًا مُحِيطًا، أديبًا، شاعِرًا، ناقِدًا، رَحَّالةً، جُغْرَافِيًّا، مُؤَرِّخًا، مُحَقِّقًا!

اِتَّصَلْتُ بجمهرةٍ مِّنْ كُتُبِهِ الَّتي اِعْتَنَتْ بِنَشْرِها، في حُلَّةٍ قشيبةٍ، دارُ الغَرْبِ الإسلاميِّ لِمُنْشِئِها العَلَّامةِ التُّونُسيِّ الحبيبِ اللَّمْسِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وكُلُّها في تاريخِ بِلادِهِ الجزائر.

وعِنْدِي أنَّ كِتابَ **تاريخِ الجزائرِ الثَّقافيِّ** واسِطَةُ العِقْدِ بينَ مُؤَلَّفاتِهِ[79]، وإنْ كانَتْ كُتُبهُ كُلُّها مِنَ الجَيِّدِ المُختارِ! ولكَ ما تشاءُ مِنْ ألوانِ القولِ في **تاريخِ الجزائرِ الثَّقافيِّ**، وليس يَسِيرًا أن يُخَصِّصَ مُؤَلِّفٌ لتاريخِ الثَّقافةِ في بِلَادِهِ تِسْعَةَ مُجلَّداتٍ! نَعَمْ، تِسْعَة مُجلَّداتٍ! وأن يَستوعِبَ الكِتابُ المُحِيطُ كُلَّ ضُرُوبِ الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ في الجزائرِ، في كُلِّ عُهُودِها، بما فيها العَهْدُ الاستعماريُّ البغيضُ!

وأستطيعُ القَوْلَ، وأنا مُطْمَئِنٌّ: إنَّنا نَخْرُجُ مِنْ هذا الكِتابِ المَوْسُوعِيِّ المُحِيطِ - إنْ صَبَرْنا عَلَى قِراءَتِهِ - ونحنُ أَمْتَنُ معرفةً بِـ "الجزائرِ العالِمةِ"، وسَهْمِ عُلمائِها وأُدبائِها ومُؤَلِّفيها في التَّاريخِ الإسلاميِّ، ونُحِيطُ بمعاهدِ العِلْمِ، والمدارسِ، والكتاتيبِ، والزَّوايا، والطُّرُقِ الصُّوفيَّةِ، وألوانِ التَّأليفِ، ورِحْلاتِ الجزائريِّينَ في سبيلِ العِلْمِ، وطَلَبًا للنَّجاةِ مِنْ بَطْشِ المُسْتَعْمِرِ =

ونَقِفُ عَلَى جِهَادِهِمْ في الذَّوْدِ عن الإسلامِ والعربيَّةِ، في فُصُولٍ تَبْهَرُ وتَسْحَرُ، وتَزِيدُكَ إعجابًا بهذا العالِمِ الَّذي أَكَبَّ عَلَى التَّأليفِ وانْقَطَعَ إليهِ. كُلُّ ذلك في نِظَامٍ مِّنَ البيانِ بديعٍ، ولُغَةٍ مُحْكَمة البِنَاءِ.

ومِنْ عادتي أنْ أَلُوذَ بجمهرةِ **تاريخِ الجزائرِ الثّقافيِّ**، حِينًا بَعْدَ حِينٍ.. اِنْتَفَعْتُ بِهِ مِرَارًا: قَرَأْتُه وأنا أُعِدُّ بَحْثًا عنْ "هِجْرةِ المُثَقَّفِينَ الجزائريِّينَ إلى الحِجَازِ"، وانْتَفَعْتُ، كذلك، بالفُصُولِ الطِّوَالِ الَّتي أَدارَها عَلَى التَّأْريخِ لِمَعَاهِدِ التَّعليمِ في الجزائرِ، وأَدْرَكْتُ عَظَمَةَ "الكتاتيبِ" - المَسِيد - في الذَّوْدِ عن الإسلامِ والعربيَّةِ، في المُدَّةِ الَّتي أَحْكَمَ فيها المُسْتَعْمِرُ قَبْضَتَهُ عَلَى الجزائرِ والجزائريِّينَ، ورَاعَنِي جَلَالُ "الكتاتيبِ" - وقدْ يَكُونُ الكُتَّابُ خَيْمَةً في صحراءَ! - ومُشَابَهَتُها الكبيرةُ للكتاتيبِ في الحِجَازِ ونَوَاحٍ أُخْرَى في عالَمِ الإسلامِ الفَسِيحِ! وأَلْمَمْتُ بتلك الصِّلةِ المُبارَكةِ الَّتي جَمَعَتْ محمَّد البشير الإبراهيميَّ وعبدَ الحميد بن بادِيس بالمسجدِ النَّبويِّ الشَّريفِ، والطَّيِّبَ العُقْبِيّ بصحيفةِ **القِبْلَةِ** - صحيفةِ الشَّريفِ حُسَيْن بن عَلِيّ –

كِتابُ **تاريخِ الجزائرِ الثّقافيِّ** مِنْ مَفاخِرِ التَّأليفِ العربيِّ في العَصْرِ الحديثِ، ومِثَالٌ لِوَحْدَةِ الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، والعَلَّامةُ أبو القاسمِ سَعْد الله مِنْ أعلامِهِا الكِبَارِ، أَدِينُ لهُ بالفَضْلِ، بَعْدَ اللهِ - تبارَكَ وتَعالَى - وأَعُدُّ كُتُبَهُ، وخاصَّةً كِتابَهُ المُحِيطَ هذا، مِنْ مَصادِرِ تكويني.

مُقَدِّمةٌ نَفِيسةٌ لِمحمَّد عبده عزَّام

- ١ -

المُقدِّمةُ الفَخْمَةُ الَّتي وَطَّأَ بِها العَلَّامةُ الدُّكتور محمَّد عبده عَزَّام لِنَشْرَتِهِ لِـ **دِيوانِ أبي تَمَّامٍ** = يُسْتَفادُ مِنْها في غيرِ ناحيةٍ، أَهَمُّها:

- اِنْصِرَافُ كوكبةٍ مِّنْ أوائلِ المُتَخَرِّجِينَ في قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالْجامِعةِ المِصْرِيَّةِ إلى نَشْرِ نُصُوصٍ مِّنَ التُّراثِ العربيِّ القديمِ.

- ومقامُ ذلك الجِيلِ في البَحْثِ والتَّأليفِ والتَّرجمةِ.

- ومَوْقِعُ محمَّد عبده عَزَّام وسَهْمُهُ العِلْمِيُّ والأدبيُّ.

- ٢ -

عُرِفَ محمَّد عبده عَزَّام بتحقيقِهِ لِـ **دِيوانِ أبي تَمَّامٍ**[80]، وعُرِفَ، مِنْ قَبْلُ، بِمُشارَكتِهِ زميلَهُ ورَفِيقَ دَرْبِهِ خليل محمود عساكِر في تَحقيقِ كِتابِ **أخبارِ أبي تَمَّامٍ** لأبي بَكْر محمَّد بن يَحْيَى الصُّوليّ، قَبْلَ أن يُشَارِكَهُما نَظِيرُ الإسلامِ الهِنْدِيُّ فيهِ.

وأَهَمُّ ما يُشَارُ إليهِ أنَّ محمَّد عبده عَزَّام يَنتمي إلى جِيلٍ مِّنْ أفرادِهِ خليل محمود عساكر، ومحمَّد القَصَّاص، وأنَّ ذلك الجِيلَ كانَ قدْ عَرَفَ أُصولَ نَقْدِ النُّصُوصِ ونَشْرِها مِنْ دُرُوسِ أُستاذِهِمْ المُستشرِق برجستراسر، وأنَّ أساتذتَهُمْ مِّنَ المِصْرِيِّينَ والمُستشرِقِينَ كانوا يُعَلِّقُونَ عَلَيْهِمْ آمالًا كِبارًا، ولا سِيَّما طه حُسَيْن، وأحمد أمين، ومصطفَى السَّقَّا، وبرجستراسر، وپول

كراوس = وعُرِفَتْ تلك الكوكبةُ بإقدامِها عَلَى نَشْرِ نُصُوصٍ تُراثيَّةٍ بإشرافِ أولئك الأساتذةِ الأعلامِ.

وأَتَصَوَّرُ أنَّ ذلك الجِيلَ المُتقدِّمَ مِنْ طُلَّابِ قِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالْجامِعةِ المِصْرِيَّةِ جديرٌ بالدَّرْسِ، وكان مِنَ المُنْتَظَرِ أن يَبْسُطَ الدُّكتور محمود الطَّناحيّ الحديثَ عنْ أفرادِهِ في كِتابِهِ النَّافِعِ المُفِيدِ **مَدْخَل إلى تاريخِ نَشْرِ التُّراثِ العربيِّ**، لكنَّه لَمْ يَفْعَلْ! وأَظُنُّ أنَّ سطرينِ صغيرينِ في كِتابٍ كبيرٍ لا يَفِيَان مَقامَ ذلك الجِيلِ ولا سَهْمَهُ في نَشْرِ التُّراثِ العربيِّ.

إذنْ، كانَتْ كُلِّيَّةُ الآدابِ سَبَّاقةً إلى نَشْرِ نُصُوصٍ مِّنَ التُّراثِ العربيِّ، وأَفْلَحَ أساتذتُها يَوْمَ أَخَذُوا طُلَّابَهُمْ بِنَشْرِ تلك النُّصُوصِ، ويَعْرِفُ المُشْتَغِلُونَ بالأدبِ الأندلُسِيِّ أنَّ كِتابَ **الذَّخِيرةِ في مَحَاسِنِ أَهْلِ الجزيرةِ**، لأبي الحَسَنِ عَلِيِّ المعروفِ بابْنِ بَسَّامٍ الشَّنترينيِّ الأندلُسِيِّ (ت 542هـ) = نَشَرَتْهُ كُلِّيَّةُ الآدابِ بالْجامِعةِ المِصْرِيَّةِ، قديمًا (١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م)، وأنَّها استعانَتْ عَلَى نَشْرِهِ بطُلَّابِها محمَّد عبده عَزَّام، وخليل محمود عساكِر، وبِخَاطره الشَّافعيِّ، وشارَكَهُمْ في نَشْرِهِ المُستشرِق لِيفِي بروفنصال، وأَشْرَفَ عَلَى عَمَلِهِمْ مِنْ أساتذةِ الْجامِعةِ: أحمدُ أمين، ومصطفَى عبد الرَّازق، وعبدُ الحميد العَبَّادِيُّ، وعبدُ الوهَّاب عَزَّام، وطه حُسَيْن.

- ٣ -

سأَعُودُ، الآنَ، إلى **دِيوانِ أبي تَمَّامٍ**..

لَمْ تَكُنْ مُقَدِّمةُ محمَّد عبده عَزَّام تعريفًا للنُّسَخِ الخَطِّيَّةِ لِـ **دِيوانِ أبي تَمَّامٍ**، وحَسْبُ. إنْ ذلك - عَلَى جَلَالَتِهِ - أَيْسَرُ ما فيها = إنَّما كانَتِ المُقَدِّمةُ دَرْسًا جامِعًا، نَخْرُج مِنْهُ، بَعْدَ قِراءَتِهِ، ونحنُ أَمْتَنُ معرفةً بالجُهُودِ الَّتي بُذِلَتْ في "عَصْرِ التَّدوينِ" لِجَمْعِ الشِّعْرِ، ورِوايتِهِ، وتفسيرِهِ، وأُصُولِ القومِ ومَناهِجِهِمْ في تَلَقِّي الشِّعْرِ القديمِ، حتَّى إذا ما أَتَمُّوا ذلك، جَعَلَ مَنْ تَقَيَّلَ آثارَهُمْ يَدْرُسُ ذلك الشِّعْرَ، ويُصَنِّفُهُ ويُرَتِّبُهُ ويُبَوِّبُهُ، قَبْلَ أن يَتلقَّاهُ الخَلَفُ عنهم فيَشْرحُوهُ، وتتبايَنُ أساليبُهم في شَرْحِهِ باختلافِ مَداخِلِ القولِ إليهِ لُغَةً، ونَحْوًا، وتاريخًا، وأخبارًا،

وأيَّامَ عَرَبٍ، ثُمَّ جاءَ عَقِبَ أولئك العُلَماءِ كوكبةٌ مِّنْ شُرَّاحِ الشِّعْرِ؛ عَمِلُوا عَلَى شَرْحِ الشِّعْرِ وتفسيرِهِ وتأويلِهِ، قَبْلَ أن يَستقِلَّ النُّقَّادُ بِدَرْسِ الشِّعْرِ وتمييزِ جَيِّدِهِ مِنْ رَّدِيئِهِ.

وأَتَصَوَّرُ أنَّ الدَّارسِينَ، مِنْ بَعْدِ محمَّد عبده عَزَّام، كان قُصَارَاهُم أن يُفَصِّلوا ما أَجْمَلَهُ، ويَزِيدوا في الشَّاهِدِ والمَثَلِ، لكنَّهم لَمْ يَخْرُجُوا عنِ الصُّوَى الَّتي ثَبَّتَها في طريقِ البحثِ الأدبيِّ، ولا تَزَالُ تلك المُقَدِّمةُ الرَّائدةُ - عَلَى تَقَادُمِها - تَعِدُنا بالكثيرِ!

طه أحمد إبراهيم.. أيَّ أستاذٍ كان!

- ١ -

لا أَظُنُّ أنَّ أُستاذًا، أوْ باحِثًا، أوْ طالِبًا، أوْ مُثقَّفًا أَحَبَّ المرحومَ الأستاذَ طه أحمد إبراهيم كما أَحَبَّهُ العَلَّامةُ العِرَاقيُّ الكبيرُ الدُّكتور عَلِيّ جَوَاد الطَّاهر!

عَرَفَ الطَّاهرُ كِتابَ **تاريخِ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ** لطه أحمد إبراهيم في زمنٍ قديمٍ[81]؛ يومَ كان طالِبًا في السَّنَةِ الثَّانيةِ بدارِ المُعَلِّمِينَ العُلْيا في بغدادَ، وكأنَّما اكتشَفَ كَنْزًا مَركوزًا... بَلَى إنَّهُ اكتشَفَ كنزًا ثمينًا!

شُغِلَ الطَّالِبُ الشَّابُّ بالكِتابِ، منذُ عَرَفَهُ في سنةِ 1361هـ = ١٩٤٢م، وباتَ يَسْتَقْصِي خَبَرَ صاحِبِهِ فعَسَى أن يَصِلَ إلى شيْءٍ مِنْ نَبَئِهِ، وكان كُلَّما تَذَكَّرَ وفاةَ مُؤَلِّفهِ الأثيرِ لديهِ، وهو في غَضَارَةِ الشَّبابِ، يَزدادُ أَلَمًا وحُزْنًا، لكنَّ الكِتابَ مَلَكَ عليهِ عقلَهُ وقَلْبَهُ ووِجدانَهُ، واستولَى عَلَى مَشاعِرِهِ، فلَمَّا رأى الدُّكتورَ إبراهيم سَلَامة في دارِ المُعَلِّمِينَ، حيثُ يَدْرُسُ، خَفَّ فَرِحًا إلى لقائِهِ فعسَى أن يَجِدَ لَدَيْهِ خَبَرًا، ولكنَّهُ عادَ مُنْكِسِرًا؛ فليس لدى الأستاذِ المِصْريِّ مِنْ خبرٍ يزيدُ عَلَى النَّزْرِ اليَسِيرِ الَّذي يَعْرِفُه، ولا ما ذَكَرَهُ الأُستاذُ أحمدُ الشَّايِبُ في المُقَدِّمةِ الَّتي مَهَّدَ بِها لكِتابِ زميلِهِ!

غَيْرَ أنَّ الشَّابَّ عَلِيًّا الطَّاهرَ كان ساخِطًا عَلَى الأُستاذِ أحمدَ الشَّايبِ؛ زميلِ المرحومِ طه في الْجامِعةِ، والْمُعْتَنِي بالكِتابِ، وكان أكثرُ ما أَغْضَبَهُ أنَّ الصَّفحاتِ الثَّمانيَ الَّتي وَطَّأَ بِهِنَّ لكِتابِ زميلِهِ ليس فيها شيْءٌ يتَّصِلُ بالمُؤَلِّفِ النَّابهِ سِوَى الصَّفحتينِ الأخيرتينِ، وأَثْمَنُ ما فيهما إشارتُهُ إلى الذَّوْقِ الصَّادِقِ الَّذي حُبِيهُ المُؤَلِّفُ، والَّذي سيُدْرِكُهُ القارِئُ كُلَّما مَضَى في الكِتابِ.

- ٢ -

قَصَدَ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرُ القاهرةَ للدِّراسةِ في جامِعتِها، وخُيِّلَ إليهِ أنْ سيَظْفَرُ بخبرٍ جديدٍ، عَلَى أنَّ نَفْسَهُ لَمْ تُطَاوِعْهُ في سُؤالِ أُستاذِهِ أحمدَ الشَّايِبِ عنْ زميلِهِ القديمِ؛ وعَكَّرَ انقباضُ الأستاذِ مِزَاجَ الطَّالِبِ، فعَدَلَ عنْ ذلك، فلَمَّا أَمَّ باريسَ وحازَ مِنْها درجةَ الدُّكتوراه، ورَجَعَ إلى بِلَادِهِ = ظَلَّ وَفِيًّا للكاتِبِ والكِتابِ، وأَنْشَأَ يُدرِّسُ طُلَّابَهُ العِراقيِّينَ كِتابَ **تاريخِ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ**، ويُحَدِّثُهُمْ عنْ عبقريَّةِ المُؤَلِّفِ الَّذي تُوُفِّيَ شابًّا، ويُرِيهِمْ كيفَ صَنَّفَ كِتابًا فريدًا غيرَ مسبوقٍ، فانتقَلَ حُبُّ الكِتابِ والمُؤَلِّفِ - والحُبُّ عَدْوَى - إلى قُلُوبِ طَلَبَتِهِ العِراقيِّينَ!

وفي الرِّياضِ، حيثُ عَمِلَ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرُ في جامِعتِها الشَّابَّةِ، لَقِيَ أستاذَهُ الجليلَ مصطفَى السَّقَّا، فلَمَّا اطمأَنَّ بِهِما المَجْلِسُ سأَلَ التِّلميذُ الأُستاذَ عَمَّا يَعْرِفُهُ عن المرحومِ الأُستاذِ طه أحمد إبراهيم!

لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الأُستاذِ عَمَّا لَدَى التِّلميذِ إلَّا في شيْءٍ واحِدٍ كَشَفَ لنا أيَّ أستاذٍ كانَ طه أحمد إبراهيم!

قال مصطفَى السَّقَّا:

حِينَ تَخَرَّجَ طه أحمد إبراهيم في دارِ العُلُومِ، كانَ يَمْلِكُ بُسْتانًا جاءَتْهُ إرْثًا، فرأى أنَّ خيرَ استثمارٍ لهذهِ البُسْتَانِ أن يَبِيعَها ويَسْتَغِلَّ ثَمَنَها الحاصِلَ مِنَ البيعِ في السَّفَرِ إلى باريسَ والوُقُوعِ هُناكَ عَلَى جَوْهَرِ النَّقْدِ الأدبيِّ. وقدْ فَعَلَ!

- ٣ -

كَتَبَ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرُ عنْ مُؤَلِّفِهِ الحبيبِ مَقالَيْنِ يُوْزَنانِ بالذَّهَبِ[82]! كانَ مأخوذًا بكِتابِهِ لا يَعْدِلُ بِهِ كِتابًا آخَرَ في موضوعِهِ، مِنْ تلك الكُتُبِ الَّتي جاءَتْ في أَثَرِهِ وأفادَتْ مِنْهُ، بَلْ عَسَاها لَمْ تَخْرُجْ عَمَّا رَسَمَهُ وخَطَّطَ لهُ، لا يَمِينًا ولا شِمَالًا!

أَحَبَّ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرُ الكِتابَ في شبابِهِ المُبَكِّرِ، وكانَتْ طبعاتُهُ عزيزةً نادِرةً، وكُلَّما رأى نُسْخَةً مِنْهُ في هذه المكتبةِ أوْ تلك احتازَها، وباتَ يَعْرِفُ كُلَّ ما فيهِ، يقرأُهُ مُتَعَلِّمًا، ويقرأُهُ مُعَلِّمًا، ويقرأُهُ مُتَذَوِّقًا، ويُدِيمُ النَّظَرَ في منهجِهِ وطريقتِهِ، وجَعَلَ، منذُ ذلك الزَّمنِ المُبَكِّرِ، يُنْشِئُ شيئًا في مُؤَلِّفِهِ الحبيبِ، ويُحْضِرُ القَلَمَ والدَّوَاةَ والوَرَقَ، ويَخُطُّ كلماتٍ، ويُتِمُّ سُطُورًا، ثُمَّ يُعْرِضُ عنها ولا يرضاها، ويَمْضِي إلى شُؤونِهِ دُونَ أن يَنْسَى طه ولا كِتابَهُ، ويَعُودُ إلى القَلَمِ والدَّوَاةِ والوَرَقِ، ويَكْتُبُ ثُمَّ لا يُرْضِيهِ ما كَتَبَ، ويُداخِلُهُ إحساسٌ أنَّ لأُستاذِهِ طه حَقًّا عليهِ يَجِبُ الوفاءُ بِهِ، وما كان عَلِيٌّ تِلميذًا لطه أحمد إبراهيم ولَمْ يَلْتَقِهِ! لكنَّهُ لَمَّا أَحَبَّ كِتابَهُ وهامَ بِهِ، سَمَّى نَفْسَهُ تِلميذًا لهُ. وكانَ يَكْفِيهِ مِنَ التَّلمذةِ اتِّصالُهُ بهذا الكِتابِ الحبيبِ القريبِ! وكانَ يَحْلُو لَهُ أن يُنادِيَهُ، حيثُ كَتَبَ، بِـ "أُستاذي"! فلَمَّا مضَى عَلَى وفاةِ الأُستاذِ نِصْفُ قَرْنٍ (١٩٣٥-١٩٨٥) كَتَبَ التِّلميذُ مَقالًا، ثُمَّ أَتبعَهُ مَقالًا آخَرَ في السَّنةِ الَّتي تَلَتْها.

- ٤ -

وأنا لا أَعْرِفُ أَحَدًا شُغِفَ بكِتابِ طه أحمد إبراهيم شَغَفَ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرِ بِهِ، وبِتُّ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى أنَّني لَمْ أتعلَّقْ بالكِتابِ تَعَلُّقَهُ، ولمْ أَعْشَقْهُ عِشْقَهُ، وتَمَنَّيْتُ أنْ لَوْ كُنْتُ تِلميذًا للعَلَّامةِ العِراقِيِّ الكبيرِ فيُصِيبُنِي مِنْ حُبِّ طه وكِتابِهِ ما أصابَهُ، غيرَ أنِّي أَخَذْتُ عَلَى نَفْسي عَهْدًا بأنْ أقرأَ الكِتابَ وأَذُوقَ كلماتِهِ، وأتأمَّلَ سُطُورَهُ وصفحاتِهِ وفُصُولَهُ، فعسَى أنْ أبلُغَ في مَحَبَّتِهِ مِثْلَ الَّذي بَلَغَ!

- ٥ -

تَقْرَأُ في مَقَالَيْ عَلِيٍّ جَوَاد الطَّاهرِ حديثًا يُوْشِكُ أن يَكُونَ شِعْرًا، لكنَّكَ تَخرُجُ مِنْهُ وقدْ أَدْرَكْتَ عَظَمَةَ طه ونُبُوغَه وعبقريَّتَه، وعَرَفْتَ أيَّ أستاذٍ كانَ!

أَلَا يَكْفِي أنَّهُ أَنشَأَ لتاريخِ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العربِ عِلْمًا قائمًا بِنَفْسِهِ؟ كانَ الأُستاذُ يَعْرِفُ الطَّريقَ الَّذي سيَسْلُكُهُ، وكانَ يَعْرِف ُما يُريدُ، وكأنَّهُ، يَوْمَ أَسَّسَ عِلْمًا، وصَنَّفَ كِتابًا = وَضَعَ العَلَامات والصُّوَى ثُمَّ مَضَى إلى بارئِهِ، وأنا لا أَجِدُ، لتحقيقِ ذلك، أَبْلَغَ مِنْ كلماتِ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرِ، تلك الَّتي صَوَّرَ بِهِنَّ المُهِمَّةَ الَّتي نَهَضَ بِها طه ثُمَّ رَحَلَ:

"عَشِقَ أُستاذي النَّقْدَ الأدبيَّ فشَدَّ الرِّحَالَ إلى باريسَ وهو لا يَطْلُبُ شهادةً وإنَّما يَطْلُبُ عِلْمًا، ولا يَطْلُبُ عِلْمًا وإنَّما يَطْلُبُ فِكْرًا، ولا يَطْلُبُ فِكْرًا غربيًّا لِذاتِهِ وإنَّما يَطْلُبُهُ لإثارةِ فِكْرٍ نَقْدِيٍّ عربيٍّ ظَلَّ مطموسًا تَحْتَ الأنقاضِ لأكثرَ مِنْ ألفٍ وخَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ أَشْلَاءَ مُبَعْثَرَةً، شِلْوًا في مكانٍ وشِلْوًا في زمانٍ، خَبَرًا في كُتُبِ الأدبِ والبلاغةِ، وخَبَرًا في كُتُبِ الأدبِ والتَّاريخِ، وفي كُتُبٍ عَرَفَها النَّاسُ ولَمْ يَعْرِفوا أينَ يضعونَها مِنْ نوعٍ مُسْتَقِلٍّ؛ أَهِيَ مِنَ البلاغةِ؟ أَهِيَ مِنَ الأدبِ؟ أَهِيَ أفرادٌ لا رَبْط بينَها ولا مَرْجِعَ لها: طَبَقَات الشُّعَراءِ، والشِّعْر والشُّعَراء، المُوَازَنة، الوَسَاطَة..".

ثُمَّ يَقُولُ، مِنْ فَوْرِهِ، وكأنَّهُ يَتْلُو ترنيمةً في حَضْرَةِ أُستاذِهِ:

وطَلَعْتَ أنتَ طُلُوعَ البَدْرِ فأَنَرْتَ اللَّيْلَ وحَلَلْتَ المُشْكِلَ، وأَلَّفْتَ بينَ المُتَبَاعِدِ، واستحضرْتَ الماضيَ، فإذا للعربِ نَقْدٌ وإذا للنَّقْدِ العربيِّ تاريخٌ (...) لقدْ بَقِيَ النَّقْدُ الأدبيُّ العربيُّ غائِبًا عنْ وُجُودِهِ وكأنَّهُ يتعالَى أن يَحْضُرَ عَلَى يَدِ مَنْ هَبَّ ودَبَّ، اعتزازًا بِمَكْنُونِهِ وانتظارًا لشابٍّ أديبٍ عالِمٍ بعيدِ مَدَى الرُّؤيةِ والرُّؤيا، طويلِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ قليلِ الكلامِ والكَمِّ... إنَّه طه أحمد إبراهيم فَيَا أهلًا وسَهْلًا بالشَّابِّ الشَّيْخِ والباحِثِ المُنْشِئِ، وأَهْلًا بكِتابِهِ الَّذي سيَصِيرُ في موضوعِهِ "الكِتابَ"، وهَيْهَاتَ أنْ نَجِدَ مِثْلَهُ يَعْرِضُ المُعَقَّدَ بَسِيطًا ويُعِيدُ القديمَ جديدًا؛ وهَيْهَاتَ أنْ تَخْضَعَ لُغَةٌ لبحثِ باحثٍ كما هي في طَوْعِهِ؛ فإذا البحثُ سلاسةٌ ولطافةٌ وشفافيَّةٌ وطَراوةٌ[83]!

أَوْرَثَ طه أحمد إبراهيم كِتابَهُ **تاريخَ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ** للخَلَفِ مِنْ بَعْدِهِ، فكيفَ تَلَقَّوُا التَّرِكةَ؟

فَتَحَ لَهُمُ الطَّريقَ فكانَ هو "الفاتِحَ"، لكنَّهُ أَغْلَقَهُ مِنْ بَعْدِهِ فما استطاعُوا السَّيْرَ إلَّا حيثُ سارَ، وكادَ كِتابُهُ يُنْسَى لَوْلا أنَّ دُورَ النَّشْرِ في لُبْنانَ أَحْسَنَتْ إليهِ، مِنْ حيثُ أَساءَتْ، فسارَ الكِتابُ في كُلِّ دَرْبٍ، وعَرَفَتْهُ الأجيالُ، جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ! فماذا فَعَلَ أولئكَ المُؤَلِّفونَ الَّذينَ سارُوا خَلْفَهُ؟

مِنْهُمْ مَنِ اهتضَمَهُ، ومِنْهُمْ مَنِ اهْتَدَمَهُ، وفِيهم مَنْ أشارَ إليهِ، وفِيهم مَنْ طَوَى ذِكْرَهُ، وكُلُّهُمْ اِنْتَفَعَ بِهِ!

أُعْجِبَ عَلِيّ جَوَاد الطَّاهرُ بكِتابِ محمَّد مندور **النَّقْد المنهجيّ عِنْدَ العَرَبِ**، وكانَ مندورٌ عِنْدَهُ ناقِدًا حَقًّا، لكنَّهُ اهتضَمَ حَقَّ طه ونَزَلَ بكِتابِهِ، فَعَلَ ذلك مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً عندما قالَ: إنَّ موضوعَ كِتابِهِ **النَّقْدِ المنهجيّ...** كانَ حَقْلًا بِكْرًا! فسَكَتَ عنْ كِتابِ طه، ومَرَّةً حِينَ عَدَّدَ مَراجِعَهُ فأَخَّرَ كِتابَهُ وكانَ حَقُّهُ أن يُقَدَّمَ، وكذلك الشَّأنُ في مُؤلِّفِينَ ذَوِي عَدَدٍ، أَلَّفُوا في الموضوعِ نَفْسِهِ لكنَّهم عُدِمُوا مَوْهِبَةَ طه وذَوْقَهُ وأَلمعيَّتَهُ وذكاءَهُ، سمَّاهُمُ الطَّاهرُ بأسمائِهِمْ ونَصَّ عليهِمْ، إلَّا إحسان عَبَّاس! كان كِتابُهُ **تاريخُ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ** آيةً في الإتقانِ والتَّجويدِ، لكنَّهُ سَكَتَ، كذلك، عنْ كِتابِ المرحومِ الأستاذ طه أحمد إبراهيم وطَوَى ذِكْرَهُ، وما كانَ يَجْدُرُ بإحسان عَبَّاس، وهو هو، أن يَسْكُتَ عنهُ ويَهْتَضِمَ حَقَّهُ!

رَحِمَ اللهُ طه أحمد إبراهيم وعَلِيّ جَوَاد الطَّاهرَ وغَفَرَ لَهُما!

ح. ح. عبد الوهَّاب

كان اسْمُ العَلَّامةِ التُّونُسيِّ حَسَن حُسْنِي عبد الوهَّاب (١٣٠١-١٣٨٨هـ = ١٨٨٤-١٩٦٨م) يَشُدُّ انتباهي، وأنا أُرَاجِعُ قراراتِ مَجْمعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرةِ. كان اسْمُهُ الثُّلاثيُّ الَّذي يُوَقِّعُ بِهِ ذا جَرْسٍ خاصٍّ، يُثْبِتُهُ، في غالبِ الأحيانِ، كامِلًا، ويكتفي، أحيانًا، بأن يَرْمِزَ إلى اسْمِهِ المُرَكَّبِ "حَسَن حُسْنِي" بالْحَرْفَيْنِ الأوَّلينِ مِنهما، ويتركُ الثَّالِثَ "اسْمَ جَدِّهِ كما هو (ح. ح. عبد الوهَّاب)، ولمْ يَكُنِ العالِمُ التُّونُسِيُّ ضَيْفَ شَرَفٍ في مَجْمَعِ الخالِدِينَ - وكذلك في المَجْمَعَيْنِ العِلْمِيَّيْنِ بدمشقَ وبغدادَ - لكنَّهُ كانَ نابِغةً في عُلُومِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، والدِّينِ، والتَّاريخِ والحضارةِ، وفُنُونِ المُوسيقا.

لَمْ تَكُنْ تُونُسُ - أو إفريقيَّةُ، كما هو اسْمُها عِنْدَ القُدَامَى - لِيَخْفَى عَلَيَّ شيْءٌ مِنْ ثقافتِها، في العَصْرِ الحاضِرِ؛ فأنا أَعْرِفُ النَّهْضَوِيَّ خيرَ الدِّينِ التُّونُسيَّ - وهو عِنْدَ التَّوَانِسةِ بِمَنْزِلَةِ رِفاعةَ الطَّهطاويِّ عِنْدَ المِصْرِيِّينَ - وأَعْرِفُ تُرَاثَ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، وابْنِهِ محمَّد الفاضِل ابن عاشور، وظَهَرْتُ عَلَى شيْءٍ مِّنْ آثارِ محمَّد الخِضْر حُسَيْن - شَيْخِ الجامِعِ الأزهرِ - والأديبِ النَّاقِدِ أبي القاسِم كِرُّو = لكنَّني لَمْ أَكُنْ لِأَعْرِفَ عنْ حَسَن حُسْنِي عبدِ الوهَّاب إلَّا مُدَاخَلاتِهِ المَجْمَعِيَّةَ، وإشاراتٍ أخرَى يُقَيِّدُها بعضُ أهلِ العِلْمِ والفَضْلِ، ومِنْ بينِها ترجمتُهُ الواسِعةُ في كِتابِ **الأعلامِ** لِخَيْرِ الدِّينِ الزِّرِكْلِيِّ = حتَّى اتَّفَقَ لِي أنْ ظَفَرْتُ بأوَّلِ كُتُبِهِ: **بِسَاطِ العَقِيقِ في حَضَارةِ القَيْرَوانِ وشاعِرِها ابْنِ رَشِيق** (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م). فلَمَّا تَهَيَّأَ لِي أنْ أَزُورَ تُونُسَ كانَ مِنْ أَعَزِّ أمانِيَّ أنْ أَرْجِعَ بشيْءٍ مِّنْ مُؤَلَّفاتِ ح. ح. عبد الوهَّاب، وكانَ كِتابُهُ **وَرَقاتٌ عنِ الحضارةِ العربيَّةِ بأفريقيَّةَ التُّونُسِيَّةِ**، بِمُجَلَّداتِهِ الثَّلاثةِ، مِنْ أعزِّ ما اقتنيتُهُ مِنْ تُونُسَ الحبيبةِ.

أَخَذَ حَسَن حُسْنِي عبد الوهَّاب بِيَدِي إلى تَلَمُّسِ شخصيَّةِ ذلك القُطْرِ العربيِّ، إلى إفريقيَّةَ أو المَغْرِبِ الأَدْنَى، بمصطلحِ أسلافِنا. وكانَ أَشَدَّ ما يَشْغَلُ ذِهْنَ الشَّيخِ الجليلِ مِقدارُ ما لِبِلادِهِ مِنْ سَهْمٍ في الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ. كانَ يَذْهَبُ إلى أنَّ تُونُسَ - ذات الرُّقعةِ الجُغرافيَّةِ

الصَّغيرةِ - تَمتازُ بِـ "شخصيَّةٍ"، وأنَّ عُلَماءَها وأُدباءَها ومُؤلِّفِيها كانَ لَهُمْ، داخِلَ تلك الحضارةِ، أَثِرٌ عظيمٌ، منذُ حَطَّ في أرضِها الطَّيِّبةِ كوكبةٌ مِّنْ أصحابِ النَّبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - ثُمَّ لَمَّا أَوْفَدَ إليها الخليفةُ الأُمَوِيُّ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ - رَحِمَهُ اللهُ - نَفَرًا مِّنَ التَّابِعِينَ والقُرَّاءِ، فكَوَّنُوا الطَّبَقَةَ الأُولَى والثَّانيةَ مِنْ عُلَماءِ إفريقيَّةَ "تُونُس"، كما هو منصوصٌ عليهِ في كُتُبِ العُلَماءِ، وكانَتِ القَيْرَوانُ، وكانَ جامِعُها المُبارَكُ، مَهْوَى أفئدةِ العُلَماءِ والأُدباءِ وطَلَبَةِ العِلْمِ، والوُصْلَةَ ما بينَ مَشْرِقِ الأُمَّةِ ومَغْرِبِها، فإذا أَضَفْنا فِقْهَ مالِكٍ - إمامِ دارِ الهِجْرَةِ - واتِّصالَ التُّونُسيِّينَ بِهِ، منذُ زمنٍ مُبَكِّرٍ، و**مُدَوَّنَةَ سَحْنُون** = أدركْنا شخصيَّةَ تُونُسَ العالِمةِ، تلك الَّتي تَكَوَّنَتْ في القُرُونِ الأُولَى مِنْ تاريخِ الإسلامِ، فلَمَّا أُنْشِئَ جامِعُها المُبارَكُ "الزَّيتونةُ" كانَ - بِحَقٍّ - جامِعًا وجامِعةً، وحاضِرَةَ عُلُومِ الإسلامِ والعربيَّةِ في إفريقيَّةَ التُّونُسِيَّةِ.

والحَقُّ أنَّ المَشارِقَةَ والمَغارِبَةَ يُسلِّمُونَ بأوَّلِيَّةِ تُونُسَ، في الفِقْهِ، واللُّغةِ، وفي النَّقْدِ الأدبيِّ، وحَسْبُكَ أنَّ العَلَّامةَ إحسان عَبَّاس عَدَّ تُونُسَ فَصْلًا ذا شأْنٍ في تاريخِ النَّقْدِ العربيِّ، ولا رَيْبَ في أنَّ ما أدَّاهُ إلينا ابْنُ شَرَفٍ وابْنُ رَشِيقٍ وعبدُ الكريمِ النَّهْشَلِيُّ القَيْرَوانِيُّونَ، وحازِمٌ القَرْطاجَنِّيُّ = ليس بالشَّيْءِ الهَيِّنِ اليسيرِ، أَمَّا ابْنُ خَلدونَ فحَسْبُ إفريقيَّةَ التُّونُسِيَّةِ أنْ أَهْدَتْ إلى العَرَبِ وإلى العالَمِ أَجْمَعَ هذا المُفَكِّرَ الاجتماعيَّ العبقريَّ!

تَصَدَّى حَسَن حُسْنِي عبد الوهَّاب للتَّأليفِ؛ أَلَّفَ في غيرِ فَنٍّ، وخَلَّفَ وراءَهُ تُراثًا عظيمًا، وكانَ العَلَّامةُ الجليلُ قدْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ تحقيقَ أمرينِ: بَعْثِ الشَّخصيَّةِ التُّونُسِيَّةِ وإحياءِ التُّراثِ العربيِّ في بِلادِهِ، وكانَ يَحْلُمُ بأن يُخَلِّدَ وراءَهُ مَأْثُرَةً تُونُسِيَّةً يَذْكُرُهُ التَّاريخُ بِها. قالَ العَلَّامةُ الجليلُ: إنَّ قَوْمَهُ مِنَ التَّوَانِسَةِ أَدَّوْا للتُّراثِ العربيِّ الإسلاميِّ خِدْماتٍ جليلةً، وعساهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا فَنًّا ولا صِناعةً إلَّا وكانَ لَهُمْ فيهما قولٌ، وكانَ كُلَّما طَوَّفَ في التُّراثِ عامَّةً يُدِيمُ النَّظَرَ في المَتْنِ وفي الهامِشِ، بحثًا عَنْ سُهمةِ أسلافِهِ مِنَ التُّونُسِيِّينَ، فأنشأَ يَجْمَعُ الأشباهَ والنَّظائرَ، في عَمَلٍ شاقٍّ مُتَّصِلٍ لا يَقْدِرُ عليهِ إلَّا أُولُو العَزْمِ مِنَ العُلَماءِ والباحِثِينَ، وصارَ إليهِ مِنْ ذلك قَدْرٌ صالحٌ، وكانَ الشَّيْخُ الجليلُ سعيدًا بِما اجتمَعَ لهُ مِنَ الغَوْصِ في التُّراثِ المطبوعِ والمخطوطِ، وما اهتدَى إليهِ في خزائنِ الكُتُبِ العامَّةِ والخاصَّةِ، وما تَحَصَّلَ عليهِ

مِنْ لَقًى وعادِيَّاتٍ، وكانَ الأصحابُ والتَّلاميذُ والمُريدونَ يَعْرِفُونَ أنَّ العَلَّامةَ التُّونُسِيَّ يُنْفِقُ النَّهارَ واللَّيْلَ باحِثًا ومُنَقِّبًا وقارِئًا ومُحَقِّقًا، فإذا أَقْبَلَ عليهِ عالِمٌ أوْ باحِثٌ مِّنَ العَرَبِ والمُسْتَعْرِبِينَ والمُسْتَشْرِقِيَن = خَفَّ يُرِيهِ ما اجْتَمَعَ لهُ مِنْ تُراثِ أسلافِهِ في صناعةِ الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، ويقولُ - والفَرَحُ يَمْلأُ جَوانِحَهُ -: إنَّهُ يرجو أن يَكُونَ كِتابُهُ هذا - الَّذي تَرْجَمَ فيهِ للمُؤلِّفِينَ التُّونُسِيِّينَ وأَحْصَى آثارَهُمْ ومُصَنَّفاتِهِمْ = كِتابَ العُمْر. ولَمَّا أَحَسَّ أنَّ عُمْرًا واحدًا ليس بمستطيعٍ أن يَتَّسِعَ لذلك التُّراثِ الزَّاخِرِ العظيمِ، ولَمَّا خَشِيَ أن يُدْرِكَهُ الموتُ قَبْلَ أن يَبْلُغَ ما أرادهُ = عَهِدَ إلى تِلميذِهِ الأديبِ والمُحَقِّقِ والنَّاقدِ والسَّفيرِ محمَّد العَرُوسِيِّ المَطْوِيِّ بأن يَصُونَ الكِتابَ مِنْ بَعْدِهِ، وأن يُتِمَّهُ متى ما حانَ أَجَلُهُ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ.

حَفِظَ المَطْوِيُّ تُراثَ شَيْخِهِ الجليلِ مِنْ بَعْدِهِ، وكانَ قدْ تَسلَّمَ مِنْهُ - "قُبَيْلَ وَفاتِهِ بأسابيعَ - صُنْدُوقَيْنِ وبعضَ المَلَفَّاتِ، فيهما الجُذاذَاتُ والتَّراجِمُ الَّتي يَتَكَوَّنُ مِنْها هذا الكِتابُ"، يَعنِي مَعْلَمَتَهُ الفَخْمَةَ **كِتابَ العُمْرِ في المُصَنِّفاتِ والمُؤَلِّفِينَ التُّونُسِيِّينَ**، غيرَ أنَّ المَطْوِيَّ أَدْرَكَ أنَّهُ إزاءَ عَمَلٍ شاقٍّ يستغرِقُ الْجُهْدَ والعُمْرَ، فطَلَبَ مِنَ المُحَقِّقِ التُّونُسِيِّ بشير البَكُّوش أن يُشارِكَهُ في مُراجَعةِ هذه المَعْلَمةِ وإكمالِها، فلَمَّا أَتَمَّا ما انْتُدِبا إليهِ خَرَجَ **كِتابُ العُمْرِ** إلى الباحِثِينَ والقُرَّاءِ، عامَ 1410هـ = ١٩٩٠م، في ثلاثةِ مُجَلَّداتٍ زاهِيَةٍ فَخْمَةٍ[84]، وكانَ، بِحَقٍّ، تَحِيَّةً تُونُسِيَّةً لحضارةٍ عظيمةٍ، كانَ أبناؤها مِنْ أَعْظَمِ صُنَّاعِها!

البَحْثُ عنْ كِتابٍ للعَلَّامةِ صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ!

لا أَعْرِفُ اليومَ السَّبَبَ ٱلَّذي حَمَلَني عَلَى ابتياعِ كِتابِ **المُنْتَقَى مِنْ دِراساتِ المُسْتَشْرِقِينَ** للعَلَّامةِ الدُّكتور صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ - رَحِمَهُ اللهُ ([85]) -

وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ فُضُولًا مَّعرفِيًّا دَفَعَني لاشتراءِ الكِتابِ؛ فالمستشرقونَ موضوعٌ طريفٌ يستحِقُّ أنْ أَعْكُفَ عَلَى قِرَاءَتِهِ وتَفَهُّمِهِ = والوُقُوفُ عَلَى مُنْتَقًى مِّنْ دِراساتِهِمْ أَمْرٌ مُفِيدٌ لقارئٍ يبتاعُ الكِتابَ، ويَدَّخِرُ لذلك شيئًا مِّنْ مَّصروفِهِ = لأنَّهُ يُحِبُّ الكِتابَ، وتستهويهِ المعرفةُ.

أَخَذَني الكِتابُ إلى أَمْرَيْنِ؛ أنْ أقرأَ للمستشرقينَ ما استطعْتُ إلى ذلك سبيلًا = وأنْ أَجِدَّ في البحثِ عنْ كُتُبٍ للدُّكتور صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ.

ومنذُ تلك السَّاعةِ الَّتي أَضَفْتُهُ إلى خِزانةِ كُتُبي عَرَفْتُ مَقامَ مُؤَلِّفِهِ الَّذي لَمْ أَكُنْ لِأَعْرِفَهُ مِنْ قَبْلُ، لكنَّ الكِتابَ جليلٌ في موضوعاتِه، كبيرٌ بأسماءِ الْجِلَّةِ مِنَ المستشرقينَ، وأنا إزاءَ مُؤَلِّفٍ عالِمٍ باللُّغاتِ، مَتِينِ الصِّلَةِ بعُلَماءِ المَشْرِقِيَّاتِ، عَلَّامةٍ في التُّراثِ العربيِّ.

هكذا قَدَّرْتُ، وهكذا غارَ في عقلي ووِجداني، عنْ مُؤَلِّفٍ عَرَفْتُه قَبْلَ قليلٍ، وأدركْتُ أَنَّني وَقَعْتُ عَلَى كَنْزٍ مِّنَ الكُنُوزِ النَّفيسةِ الَّتي لا تُتاحُ للقُرَّاءِ في كُلِّ حِينٍ.

وطالما قُلْتُ: إنَّني كُنْتُ في القِراءَةِ والكُتُبِ حاطِبَ لَيْلٍ! وإنَّ الاحتطابَ في غابةِ الكِتابِ مَهْمَا أَضَرَّني فقدْ نَفَعَني! وهَبْ أنِّي تَوَرَّطْتُ مِرارًا في كُتُبٍ ومؤلِّفينَ = فإنَّني ظَفِرْتُ، منذُ أوَّلِ عَهْدِي بالقِراءَةِ والكُتُبِ، بِمُؤَلِّفِينَ أعلامٍ، وكانَ صلاحُ الدِّينِ المُنَجِّدُ واحِدًا مِنْهُمْ.

ليس قليلًا في مِيزانِ القِرَاءَةِ والثَّقافةِ أنْ أقرأَ لِعَلَّامةٍ جليلٍ كصلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ! وأُدْرِكُ اليومَ تَبِعَةَ هذهِ القِراءةِ، وأَعْلَمُ أنَّها كالعِبْءِ الثَّقيلِ، مِثْلَما كانَتْ جائِزَةً ثمينةً! ليس قليلًا أنْ

أقرأ في حداثتي له، وحَسْبِي أنَّ اتِّصالي، منذُ ذلك العَهْدِ، بِمُؤلِّفينَ مِنْ مَّرْتَبَتِهِ عَنَى لِي تقاليدَ صارِمةً أَلْقَيْتُها على نَفْسي، فلَن يَبْهرَني أيُّ كِتابٍ، ولن يُعجبَني أيُّ مُؤلِّفٍ! ثُمَّ إنَّ اعتنائي بهذهِ الطَّبقةِ مِنَ المُؤَلِّفينَ سيُزَهِّدُ في عَيْنِي طَبَقَاتٍ أُخْرَى، تَنْزِلُ عَنْهُمْ في الطَّبَقَةِ والمَرْتَبَةِ، ولا تَبْلُغُهُمْ في التَّجويدِ والإحسانِ، ولَسْتُ أَشُكُّ، بَعْدَ كُلِّ هذهِ السِّنِينَ، في أنَّ القِراءَةَ لهذهِ الطَّبَقَةِ مِنَ المُؤَلِّفِينَ ستَأْخُذُ بِيَدِي إلى أنْ أَقِفَ مَلِيًّا عَلَى آثارِهِمْ، وأنَّ الظُّهورَ عَلَى شيْءٍ مِنْها سيُؤَثِّرُ في منهجي في القِراءَةِ، وطريقي في الثَّقافةِ.

زادَتْ معرفتي بصلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ، لكنَّها لَمْ تَتَوَثَّقْ؛ ومَرَدُّ ذلك صُعُوبةُ التَّهدِّي إلى كُتُبِهِ في المكتباتِ التِّجاريَّةِ، وأَذْكُرُ أنَّني جَمَعْتُ مِنهُنَّ قَدْرًا ضئيلًا لا يُوازِي تآلِيفَهُ الكثيرةَ الوافِرةَ، عَلَى أنَّهُ لمْ يَغِبْ عنِّي؛ فاسْمُهُ يُطَالِعُني في ثَبَتِ المَصادِرِ والمَراجِعِ كُلَّما قَرَأْتُ كِتابًا تُراثيًّا مُحقَّقًا، وعِنواناتُ مُؤَلَّفاتِهِ تُخايِلُني وأنا أُطالِعُ كِتابًا في فِقْهِ اللُّغةِ العربيَّةِ، أوْ تاريخِ الخَطِّ العربيِّ، فأَقِفُ هُنَيْهَةً ويَسْرَحُ بِي الخَيَالُ فعسَى أنْ أَظْفَرَ بشيْءٍ مِنْ أعمالِهِ!

بَقِيْتُ عَلَى هذا الحالِ حيثُ أَسْكُنُ في جُدَّةَ، ولَمَّا تَحَوَّلْتُ عنْها إلى الرِّياضِ، ثُمَّ لَمَّا أُبْتُ إلى جُدَّةَ، وعَدَدْتُ ذلك أُمنِيَّةً، وما أَكْثَرَ أَمانِيَّ! حَتَّى وَقَعَ بينَ يَدَيَّ كِتابٌ فَخْمٌ كانَتْ مُؤَسَّسةُ الفُرقانِ بِلَنْدَنَ قدْ كَسَرَتْ بُحُوثَهُ ودِراساتِهِ عَلَى العَلَّامةِ الْجليلِ[86]!

أَحْبَبْتُ الكِتابَ كثيرًا، وبِتُّ أُعاوِدُ قِراءَتَه حِينًا بَعْدَ حِينٍ. وهذا اللَّونُ مِنَ الكُتُبِ حبيبٌ إلى نَفْسِي، قريبٌ إليها، متَى ما أُحْسِنَ الاختيارُ والانتقاءُ، فليس مِنْ مُّتْعَةٍ تَفُوقُ قِراءَةَ مُجَلَّدٍ عنْ عَلَّامةٍ له مَقَامُهُ في ثقافتِنا العربيَّةِ الحديثةِ، ولا يُنكِرُ أَحَدٌ سَهْمَه في العِنايةِ بِها كِتابًا مخطوطًا، وآثارًا، وأعلامًا، وفَنًّا، وحضارةً... وما شِئتَ مِنْ ضُرُوبِ العُلُومِ والفُنُونِ والصِّناعاتِ.

لَكِنَّ كِتابَ مؤسَّسةَ الفُرقانِ - هذا الْجليلَ النَّفيسَ - زادَني اشتياقًا إلى قِراءَةِ كُتُبِهِ! فكيفَ السَّبيلُ إليهِنَّ، والمكتباتُ عَلَى ما مَرَّ بنا مِنْ قَبْلُ! وهَدَانِي التَّفكيرُ إلى أنْ أَزُورَ المكتبةَ المركزيَّةَ لجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ، وعهدي بِها أنَّها تنطوي عَلَى نفائسِ الكُتُبِ، وأنَّ القائِمِينَ

عليها، في سَنَوَاتِها الأُولَى، كانوا لا يَضِنُّونَ عَلَى تَرَقِّيها بالمالِ، فكانَتِ الكُتُبُ الَّتي صارَتْ إليها، في تلك السَّنَوَاتِ، آيةً في الأصالةِ والنَّدْرَةِ!

لَمْ تُخَيِّبِ المكتبةُ المركزيَّةُ ظَنِّي بِها، وإذا خزائِنُها تَضُمُّ نفائِسَ مِمَّا أَلَّفَهُ العَلَّامةُ الْجليلُ وحَقَّقَهُ وتَرْجَمَهُ، وإذا المكتبةُ تَشمَخُ بِمَجَلَّةِ مَعْهَدِ المخطوطاتِ، وفَضْلُ العَلَّامةِ الْجليلِ عليها ليس بالمجهولِ!

ولا زِلْتُ أَذْكُرُ لَذَّةَ الظَّفَرِ بكُتُبِ صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ؛ كانَتْ وافِرةً، وكانَتِ المكتبةُ المركزيَّةُ سَخِيَّةً، فإذا الكُتُبُ والمُحَقَّقاتُ بينَ يَدَيَّ، لا يُنَازِعُني في قِراءَتِهِنَّ والاختلاءِ بِهِنَّ أَحَدٌ، وأَحْسَبُ أنَّ مَنْ رَآني في أَصِيلِ ذلك اليومِ = لنْ تُخْطِئَهُ عَلَاماتُ الفَرَحِ الَّتي يَطْفَحُ بِها وَجْهِي؛ فها أَنَذَا أَضَعُ كُتُبًا حبيبةً عَلَى مَكْتَبِ القِراءَةِ، وها هي ذِي تَكْبُرُ شيئًا فشيئًا، فلَمَّا اسْتَتَمَّ لِي ما أَرَدْتُ أنشأْتُ أتنقَّلُ مِنْ كِتابٍ إلى كِتابٍ، أتأمَّلُ الغِلافَ، وأُطالِعُ المُقدِّمةَ، وأَقِفُ عَلَى سَنَةِ الطَّبْعِ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَتَدَبَّرُ عِنواناتِ الكُتُبِ، فإذا كِتابٌ عنْ تاريخِ الخَطِّ العربيِّ، وكِتابٌ عنْ أُمَرَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وثالِثٌ ورابِعٌ وخامِسٌ عنْ دِمَشْقَ؛ حضارتِها، ومُؤَرِّخيها، ومَدارِسِها، وكِتابٌ عنْ دُورِ القُرآنِ فيها، وهذا عنِ المستشرقينَ الألمانِ، وذلك عنِ الْجَوارِي والإِمَاءِ، وذاك عنِ الرِّحْلاتِ...!

نَعَمْ، إنَّ صلاحَ الدِّينِ المُنَجِّدَ مكتبةٌ في رَجُلٍ!

لَبِثْتُ في المكتبةِ المركزيَّةِ ساعاتٍ ما كانَ أَحْلاهُنَّ! حتَّى إذا غادرْتُها كُنْتُ قدْ مَلَأْتُ دَفْتَرَ كُنَّاشاتي بفرائِدَ نادرَةٍ عزيزةٍ، هي بعضُ ما قُدِّرَ لِي الفَوْزُ بِهِ مِنْ كُتُبِ العَلَّامةِ الْجليلِ صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّدِ، فعسَى أنْ تَجُودَ الأيَّامُ عَلَيَّ فأَقْتَنِيَ مُؤَلَّفاتِهِ جميعَها، وأُجَدِّدَ العَهْدَ بِها حِينًا بَعْدَ حِينٍ!

حِينَ يُصْبِحُ رَجُلُ الدِّينِ مُؤَرِّخَ أَدَبٍ!

أَخَذْتُ نَفْسي بالصَّبْرِ، وأنا أقرأُ كِتابَ **تاريخِ الآدابِ العربيَّةِ في القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ والرُّبْعِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ العِشرينَ** للأب لويس شَيْخُو[87].

وما حَمَلَني عَلَى قِراءَةِ هذا الكِتابِ الواسِعِ الكبيرِ إِلَّا لأنَّه ذخيرةٌ نفيسةٌ في التَّرجمةِ لجمهرةٍ واسِعةٍ مِّنَ الأُدباءِ العربِ في تلك المُدَّةِ، وبخاصَّةٍ الأُدباءُ النَّصارَى في سُوريَةَ التَّاريخيَّةِ، عَلَى اختلافِ طَوَائِفِهِمْ ونِحَلِهِمْ.

الكِتابُ مُفيدٌ جِدًّا، واسِعٌ مُّحِيطٌ، ويتضمَّنُ مادَّةً كبيرةً مِّنَ الشِّعْرِ والنَّثْرِ، واتِّجاهاتِ الأدبِ والرَّأيِ، وفيهِ بيانٌ وَّافٍ عنِ المَطَابِعِ ودُورِ النَّشْرِ، والمَدارِسِ والمَعَاهِدِ والكُلِّيَّاتِ، والمَسارِحِ، والرِّواياتِ، والمَظاهِرِ الأُولَى للتَّجديدِ، والمُصْطَلَحاتِ، والشِّعْرِ الكَنَسِيِّ، ودُورِ العِبادةِ النَّصرانيَّةِ.. فيهِ كُلُّ هذا وأكثرُ مِنْ هذا!

لَكِنَّ رَجُلَ الدِّينِ - مهما كان دِينُهُ ومَذْهَبُهُ وطائِفَتُهُ - الغالِبُ عليهِ التَّعَصُّبُ القبيحُ، وضِيقُ الأُفُقِ، وسُوءُ العِبَارةِ!

لا يَعْنِيني، هُنا، تَعَصُّبُهُ عَلَى المُسلمينَ، فذلك شائِعٌ مَّعروفٌ، ولا جديدَ فيهِ، ولا تنصيرُهُ لشُعَراءِ الْجاهِلِيَّةِ، متَى ما اشْتَمَّ في أشعارِهِمْ عِبارةً أوْ كَلِمةً نصرانيَّةً، ولا ما فَعَلَهُ بكوكبةٍ مِّنَ الشُّعراءِ المسلمين = فذلك، أيضًا، مشهورٌ مذكورٌ! = إنَّما يَعنيني تَعَصُّبُهُ عَلَى الأُدباءِ والمُؤَلِّفِينَ والمُعَلِّمِينَ والمُثَقَّفِينَ النَّصارَى، مِنْ أبناءِ دِينِهِ، متَى رأى مِنْ أَحَدِهِمْ دعوةً إلى تجديدٍ لا يَقْبَلُهُ الأَبُ المُتَعِصِّبُ، أوْ متَى بَدَّلَ بعضُ الأُدباءِ والمُثَقَّفِينَ مَذْهَبَهُ = فليس ثَمَّ، حينئذٍ، إلَّا الكَلِمُ اليابِسُ، والعِباراتُ القبيحةُ! والحُجَّةُ هي هي: الحِفاظُ على الآدابِ العامَّةِ، والأخلاقِ الفاضلةِ مِنْ هؤلاءِ الَّذِينَ يُجاهِرونَ بالخطيئةِ، ويَتَسَوَّرُونَ مَبادِئَ الدِّينِ وقِيَمَ

الهيئةِ الاجتماعيَّةِ، ولطالما شَتَمَ كُتَّابًا أحرارًا ناضَلُوا رِجَالَ الدِّينِ وحَذَّرُوا مِنْ شُرُورِهِمْ، ونالَ أمين الرَّيْحانِيّ وجُبران خليل جُبران مِنْ قُبْحِ عِباراتِهِ ما نالا!

لذلك أَخَذْتُ نَفْسِي بالصَّبْرِ، وأنا أقرأُ هذا الكِتابَ الأدبيَّ المُهِمَّ ذا التَّقْسِيمِ الطَّائفيِّ الفِجِّ، واحْتَمَلْتُ أُسْلُوبَهُ النَّاشِفَ، وغَفَرْتُ لهُ كُلَّ قُبْحِهِ؛ لِعِلْمِهِ وتأريخِهِ لِحِقْبةٍ مُّهِمَّةٍ مِّنْ تاريخِ الثَّقافةِ العربيَّةِ، في سُورِيَة التَّاريخيَّة، وفي لُبْنَانَ خاصَّةً!

الوَسِيلَةُ الأدبيَّةُ في جُدَّة

كُنْتُ أَسْمَعُ بِكِتابِ **الوَسِيلَةِ الأدبيَّةِ إلى العُلُومِ العربيَّةِ** للشَّيخِ حُسَيْن المَرْصَفِيِّ (ت ١٣٠٧هـ = ١٨٩٠م)، ولا أَراهُ. وكان مِنْ عادةِ مُؤَرِّخِي الأدبِ العربيِّ الحديثِ أن يَذْكُرُوهُ في أسبابِ البَعْثِ الأدبيِّ، في الحِقْبَةِ الَّتي كان مِنْ أعلامِها الشَّاعِرُ محمود سامي البارودِيُّ.. كان الرَّجُلُ - مهما كانَتْ ترجمتُهُ عزيزةً شَحِيحةً - معروفًا، فلَمَّا قَرَأْتُ كِتابَ **النَّقْد والنُّقَّاد المُعاصِرون** للدُّكتور محمَّد مندور كان حُسَيْن المَرْصَفِيُّ أَوَّلَ نُقَّادِهِ، لكنَّ الكِتابَ الَّذي طُبِعَ قديمًا صارَ نادِرًا ويَصْعُبُ الوُصُولُ إليهِ.

ومَعَ ذلك استطعْتُ تكوينَ شيْءٍ عنهُ، مهما كان يسيرًا، وأَهَمُّ ما فيهِ أنَّ الكِتابَ أتاحَ للأُدباءِ الَّذين جاءُوا في أَثَرِ البارودِيِّ، وخاصَّةً شَوْقِيًّا وحافِظًا، مادَّةً عظيمةً مِّنَ التُّراثِ العربيِّ، حتَّى ظَفَرْتُ بالجُزْأَيْنِ الأوَّلِ (١٩٨٢م)، والثَّاني (١٩٩١م) بِعِنايةِ الدُّكتور عبدِ العزيزِ الدِّسُوقِيِّ - وهُما، اليومَ، عزيزانِ نادِرانِ [88] - لكنَّني لَمْ أَعْتَنِ بِهِ؛ لانصرافي إلى شُؤونٍ وغاياتٍ لَمْ يَكُنِ المَرْصَفِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ – مِنْ بينِها، وإنْ تَجَدَّدَ العهدُ بِهِ يومَ اقْتَنَيْتُ رِسالةً صغيرةً لَّهُ عِنوانُها **الكَلِمُ الثَّمَانِ** وموضوعُها كلماتٌ ثَمَانٍ هي: الأُمَّةُ، والوطنُ، والحُكُومةُ، والعَدْلُ، والظُّلْمُ، والسِّياسةُ، والحُرِّيَّةُ، والتَّرْبِيَةُ = فعَرَفْتُ مِنْ أَمْرِ الشَّيخ الجليلِ ما لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ!

فلَمَّا كان عامُ ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م أَصْدَرَتْ دارُ المِنهاجِ في جُدَّةَ الكِتابَ بِتَمَامِهِ في طبعةٍ جديدةٍ مُطَابِقةٍ للطَّبْعةِ المِصْرِيَّةِ الأُولَى النَّافِدَةِ - بالدَّالِ المُهْمَلَةِ! (سَنَةَ 1292-1296هـ = ١٨٧٥-١٨٧٩م) وكانَتْ النَّشْرَةُ السُّعُودِيَّةُ الجديدةُ آيةً في روعةِ الطَّبْعِ، ودِقَّةِ الصَّفِّ، وفخامةِ التَّجليدِ، فاقتنيتُها، مهما كان ثَمَنُها باهِظًا، وزَيَّنَ لِي جَمَالُ النَّشرةِ وجِدَّتُها أنْ أَقْرَأَ أطرافًا مِّنَ الكِتابِ ذِي المُجَلَّداتِ الأربعةِ، وأنْ أَتَعَرَّفَ منهجَ الشَّيْخِ حُسَيْن المَرْصَفِيِّ. واهتدَيْتُ إلى أنَّ أَهَمَّ ما يمتازُ بِهِ إنَّما هو رُوحُ البَعْثِ والإحياءِ للتُّراثِ العربيِّ القديمِ، وذَوْقٌ أصيلٌ، وبَصِيرةٌ ثاقِبَةٌ بالأدبِ واللُّغةِ، نَظْهَرُ عليها في غيرِ فَصْلٍ، ولا سِيَّما الفَصْلُ الَّذي نَقَضَ فيه كلامًا لأبي

بَكْرٍ الباقِلَّانِيِّ في كِتابِهِ **إعجازِ القرآنِ**، أدارَهُ عَلَى مُعَلَّقةِ امْرِئِ القَيْسِ وشِعْرٍ لأبي عُبَادَةَ البُحْتُرِيِّ - مِمَّا يَتَّصِلُ بوظيفةِ النَّقْدِ والبَيَانِ –

ولا تَتَّسِعُ هذهِ الخاطِرةُ للتَّبسُّطِ في موضوعِ كِتابٍ نَشَّأَ جِيلًا أوْ جِيلَيْنِ مِنْ أُدباءِ النَّهضةِ والإحياءِ، مهما كان تَقَبُّلُهُ - اليومَ - ضعيفًا فاتِرًا، لكنَّهُ يُغْرِي القارِئَ بالتَّوَفُّرِ الجَادِّ عليهِ، حتَّى يَتَلَمَّسَ ما فيهِ مِنْ قُوَّةٍ، بِحَيْثُ كان مِنْ ثَمَرَاتِهِ شاعِرانِ كبيرانِ هُما شوقيٌّ وحافِظ!

ولا يَصِحُّ خَتْمُ هذا النِّثَارِ دُونَ الوُقُوفِ، قليلًا، عَلَى سَبَبِ نَشْرِ هذا الكِتابِ الأَثَرِيِّ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وفي جُدَّةَ، مدينةِ الْبَحْرِ، والْجَمَالِ، واللَّيْلِ، والسَّهَرِ!

ما كانَ الكِتابُ ليُطْبَعَ مِنْ جديدٍ لَوْلا شَيْخُ الْجامِعِ الأَزْهَرِ الدُّكتور أحمد الطَّيِّبُ الَّذي قَدَّمَ لهُ بِمُقَدِّمةٍ رائعةٍ، عَرَفْنا مِنْها أنَّ الإمامَ الأكبرَ أشارَ عَلَى النَّاشِرِ عُمَر سالِم باجُخَيْف، صاحِبِ دارِ المِنْهاجِ المُتَخَصِّصَةِ بِنَشْرِ تُرَاثِ الفِقْهِ الشَّافِعِيِّ = بإعادةِ طَبْعِ كِتابِ **الوَسِيلَةِ الأدبيَّةِ**، فلَمْ يَمْضِ إلَّا زمنٌ يسيرٌ فإذا الكِتابُ النَّادِرُ العَزِيزُ يُرَى ويُقْرَأُ، وقدْ كانَ، مِنْ قَبْلُ، يُسْمَعُ عنهُ ولا يُرَى!

مَغلَمَةُ المَناهِجِ الأزهريَّةِ

- ١ -

ما إنْ قَرَأْتُ خَبَرًا عنْ **مَغلَمةِ المَناهِجِ الأزهريَّةِ**[89] حتَّى كَسَرْتُ تقليدًا أَخَذْتُّ بِهِ، منذ تَقَاعَدْتُّ مِنَ العَمَلِ، بفضلِ اللهِ = وهو أنْ لا أَبْرَحَ ضاحِيَةَ أبْحُرِ الشَّماليَّةِ، إلى وَسَطِ جُدَّةَ وقَلْبِ البَلَدِ وما يُحِيطُ بِهِما = إلَّا للشَّديدِ القَوِيّ!

عَدَدْتُّ **المَغلَمةَ** مِنَ الشَّديدِ القَوِيِّ الَّذي يَحْمِلُني عَلَى مُبَارَحَةِ الضَّاحِيَةِ إلى قَلْبِ المدينةِ، ولا بأْسَ في ٤٠ كِيلًا ذَهَابًا ومِثلِها إيابًا مِّنْ أَجْلِ كِتابٍ تَوَسَّمْتُ فيهِ الفخامةَ والرَّصانةَ، ولَوْ لَمْ أَشُدَّ الرِّحَالَ إلى مكتبةِ المِنهاجِ لَقَضَيْتُ نَهارِي ولَيْلَي مُضْطَرِبًا قَلِقًا!

- ٢ -

الكِتابُ "مَغلَمةٌ" كاسْمِهِ، يُنْبِئُكَ بفخامتِهِ، منذُ تُطَالِعُهُ في منشوراتِ الأصدقاءِ، فلَمَّا أَقْبَلْتُ عَلَى "المِنهاجِ" دَفَعْتُ البابَ دَفْعًا، وكأنَّ أَحَدًا يُطارِدُني، ولا أدري أَبَدَأْتُ البائِعَ بالسَّلامِ أَمْ لا، وقُلْتُ مِنْ فَوْري: أينَ **مَغلَمةُ المَناهِجِ الأزهريَّةِ**؟!

- ٣ -

كانَتْ هيئتي هيئةَ إنسانٍ ضَلَّ طريقَهُ، فلَمَّا خافَ الضَّيَاعَ اهتدَى إلى السَّبيلِ؛ أَوْ جائعٍ في مَطْعَمٍ طعامُهُ لذيذٌ شَهِيٌّ!

قابَلَني البائعُ بابتسامةٍ طبيعيَّةٍ، لكنَّها لا تَدُلُّ عَلَى أنَّه يَحْتَفِلُ لِـ **المَغلَمةِ** الَّتي كُنْتُ أُسابِقُ ظِلِّي للظَّفرِ بها، وإمتاعِ عَيْنَيَّ بتأمُّلِها وتَذَوُّقِها!

وأَشَارَ إلى صُندوقٍ وَسَطٍ مِّنَ الوَرَقِ المُقَوَّى، وقالَ: ها هِيَ ذِي!

- ٤ -

كانَ السُّرُورُ بادِيًا عَلَى وَجْهي، وأنا أَنْظُرُ إلى المُجَلَّداتِ، ذاتِ العَبَقِ المُنْعِشِ، ورَجَوْتُهُ أن يُطْلِعَني عَلَى المُجَلَّدِ الأَوَّلِ.

أَمْسَكْتُ المُجَلَّدَ بِكِلْتا يَدَيَّ!

الله! ما أَجْمَلَهُ وما أَعْظَمَهُ!

قُلْتُ في نَفْسِي، وقَدْ كانَ اليومُ خَمِيسًا: حَقًّا هذا هو "الخَمِيسُ الوَنِيسُ"، وما هي حتَّى أَخَذْتُ مِقْعَدِي، وشَرَعْتُ أَقْرأُ العِنْوانَ، وصَفْحَةَ البَيَانَاتِ، واسْمَ العَلَّامةِ الْجليلِ الإمامِ الأكبرِ الشَّيخِ أحمدَ الطَّيِّبِ - حَفِظَهُ اللهُ - وإذا بتقديمٍ فَخْمٍ يَلِيقُ بِشَيْخِ الْجامِعِ الأزهرِ، وعالِمٍ مُحِيطٍ هو البَقِيَّةُ الباقِيَةُ، ثُمَّ ظَهَرَتْ عَلَى صَفَحَاتٍ رصينةٍ عنِ التَّعليمِ الأزهريِّ ومَنَاهِجِهِ ومُقَرَّراتِهِ!

- ٥ -

ولا تَعْجَبْ مِنْ فَرَحِي؛ فأنا أُعَوِّضُ ما افْتَقَرَ إليهِ التَّعليمُ الْجامِعيُّ الْحديثُ بهذا اللَّوْنِ مِنَ الكُتُبِ، وأنا أَصِلُ اسْمِي - أنا الفقيرُ إلى اللهِ - بتلك الطَّبَقةِ المُبارَكةِ مِنْ عُلماءِ أُمَّتِي، لا فَرْقَ عِنْدِي بينَ ناحِيَةٍ وأُخرَى ما دامَ أولئك العُلَماءُ الأعلامُ يَنتمونَ إلى أُمَّتِي وثقافتي، وما الْجامِعُ العتيقُ في مِصْرَ القديمةِ، والْجامِعُ الأَقْصَى، وجامِعُ بني أُمَيَّةَ في دمشقَ، وجامِعُ المنصورِ في بغدادَ، والقيروانُ، والقرويين، والْجامِعُ الأزهرُ، وكُلُّ معهدٍ مِّنْ مَّعاهِدِ العِلْمِ في دُنيا الإسلامِ الواسِعَةِ الفسيحةِ = إلَّا جَدَاوِلُ مِنْ نَّهرٍ زاخِرٍ عظيمٍ مَنْبَعُهُ المسجدانِ الشَّريفانِ في المدينتينِ المُشَرَّفَتَيْنِ.

- ٦ -

مَعْلَمَةُ المَناهِجِ الأزهريَّةِ كِتابٌ نافِعٌ عظيمٌ، يَجْلُو لنا عُلُومَ الإسلامِ، عَلَى اختلافِها، في معهدٍ مِنْ مَعاهدِها، كُنْتُ، وأنا أُمَتِّعُ ناظِرَيَّ، بصفحاتِهِ الزَّكيَّةِ، كَمَن يُشاهدُ فِيلْمًا قديمًا بآلةٍ قديمةٍ، تَسِيرُ مُتَأَنِّيَةً مُبْطِئةً لِتَرَى المَنْظَرَ، ثُمَّ إذا بِكَ إزاءَ مَنْظَرٍ آخَرَ، تَتْبَعُهُ مِئَاتٌ بَلْ أُلُوفٌ مِّنَ المَناظِرِ، لكنَّها، هُنا، كُتُبٌ، وشُرُوحٌ، ومُخْتَصَراتٌ، ومُلَخَّصاتٌ، ومُتُونٌ، ومَنْظُوماتٌ، وأَراجيزُ، وحَوَاشٍ، وتعليقاتٌ، وتقاريرُ... وما شِئْتَ مِنْ فُنُونِ التَّأليفِ في ثقافتِنا!

- ٧ -

و**مَعْلَمَةُ المَناهِجِ الأزهريَّةِ** أَلِفْبَائِيَّةُ المُحْتوَى، تنطوِي عَلَى تعريفٍ وَّافٍ للمؤلِّفِ، أوِ الماتِنِ، أوِ الشَّارِحِ، أوِ المُحَشِّي، أوِ المُعَلِّقِ، ويمتازُ التَّعريفُ أوِ التَّرجمةُ بالوفاءِ لذلك العَلَمِ، كما هو معروفٌ ومألوفٌ في كُتُبِ التَّراجِمِ، ثُمَّ تَقْرأُ تقريرًا جَيِّدًا عنِ الكِتابِ أوِ الشَّرْحِ أو المَتْنِ... إلخ، يأخُذُ بِيَدِكَ إلى موضوعِهِ، ومَقَامِهِ، وتاريخِهِ، ويُلِمُّ بنُسَخِهِ وطَبعاتِهِ، في تفاصِيلَ ماتِعةٍ رصينةٍ يَتَعَشَّقُها طَلَبَةُ العِلْمِ والعُلَماءُ والباحِثونَ.

- ٨ -

كأنِّي كُنْتُ، وأنا أَظْهَرُ عَلَى شيْءٍ مِمَّا انطوَتْ عليهِ **المَعْلَمَةُ** = كأنِّي كُنْتُ أَقْرأُ **كَشْفَ الظُّنُونِ** للعَلَّامةِ حاجِّي خليفة - رَحِمَهُ اللهُ - أوْ **جامِعَ الشُّرُوحِ والحَوَاشِي** للعَلَّامةِ السَّيِّدِ عبدِ الله الحِبْشِيّ - حَفِظَهُ اللهُ - ولا غَرَابَةَ في ذلك؛ فالمَعْلَمَةُ الأزهريَّة الفَخْمَةُ يَرْتَفِعُ نَسَبُها إلى هذهِ الشَّجَرةِ العِلْمِيَّةِ المُبارَكةِ.

- ٩ -

ستُفْرِحُ **المَعْلَمَةُ** كُلَّ باحِثٍ في التُّراثِ العربيِّ الإسلاميِّ، وكُلَّ قارِئٍ يَتَّصِلُ بِعُلُومِ الإسلامِ بِسَبَبٍ، وستُبْهِجُ المُستعرِبِينَ والمُستشرِقِينَ، وسَيُقْدِرُونَها حَقَّ قَدْرِها!

أَمَّا أنا!

فماذا أُحَدِّثُ عنْ فَرَحِي؟ وماذا أَقُولُ عنِ ابتهاجِي؟ وحَسْبِي أنَّ شُعُورًا بالفَخْرِ داخَلَني، وأنا أُمْسِكُ **المَعْلَمَةَ الأزهريَّةَ** بِكِلْتا يَدَيَّ!

ويَكْفِينِي أنْ أُحِبَّ الأزهرَ وأمثالَهُ مِنْ مَّعاهِدِ العِلْمِ لِأُحِبَّ دُرُوسَها وبَرامِجَها، وحَسْبِي أنْ أُعَوِّضَ ما حَرَمَنِي إيَّاهُ التَّعليمُ الْجامِعيُّ الْحديثُ مِنْ عُلُومِ أُمَّتي وثقافتي بتجديدِ العهدِ بهذا اللَّوْنِ الْجليلِ مِنَ التَّأليفِ!

- ١٠ -

لا أُخْفِيك - أيُّها القارِئُ الكريمُ وأَيَّتُها القارِئةُ الكريمةُ - أنَّني فَرِحٌ ومُبْتَهِجٌ!

لكنِّي...!

لَسْتُ أُخفيكُما أنَّني - عَلَى فَرَحِي بِهذهِ **المَعْلَمَةِ** الفاخِرةِ - حزينٌ، جِدُّ حزينٍ!

فقدْ حِيلَ بَيني وبينَ **الْمَعْلَمَةِ**، ورَجَعْتُ إلى ضاحِيَتي دُونَها، وكأنَّ كُلَّ ما بَلَغْتُهُ مِنْها أنْ أنْظُرَ إليها وأُحَيِّيها! وكانَ حالِي يُشْبِهُ حالَ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ المَوْصِلِيِّ - رَحِمَهُ الله - حِينَ قالَ [مِنَ الطَّويل]:

سَلَامُ امْرِئٍ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ سِوَى نَظَرِ الْعَيْنَيْنِ أَوْ شَهْوَةِ الْقَلْبِ!

وهَلْ بِوُسْعِي أنْ أَنْقُدَ البائعَ أَلْفًا ومِئَتَيْ رِيالٍ (١٢٠٠ رِيالٍ!) هي قِيمةُ **الْمَعْلَمَةِ** الفاخِرةِ؟!

لا، ورَبِّي لا أستطيعُ!

فِي صُحْبةِ أَعْلامِ الزِّرِكْلِيِّ

عَرَفْتُ كُتُبَ العَلَّامةِ خَيْرِ الدِّينِ الزِّرِكْلِيِّ في عَهْدٍ مُبَكِّرٍ مِّن حياتي، وأَذْكُرُ أنَّني ابْتَعْتُ كِتابَيْهِ **شِبْهَ الجزيرةِ العربيَّةِ في عَهْدِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ**، و**الوَجيز في سِيرةِ المَلِكِ عبدِ العزيز**، في أثناءِ دِراستي الثَّانويَّةِ، وكانَ يَلَذُّ لِي في تلك المُدَّةِ قِراءةُ فُصُولٍ مِّنْ هذينِ الكِتابَيْنِ، ثُمَّ ازددتُّ قُرْبًا مِنْهُ حِينَ اتَّصَلَتْ أسبابي بِشِعْرِهِ، فاقتنيْتُ، بَعْدَها بقليلٍ، دِيوانَ شِعْرِهِ، وراقَني ما جُبِلَتْ عليهِ قصائِدُهُ، مِنْ مَّتَانَةِ لُغَةٍ، وإحكامِ أُسلوبٍ، وبِتُّ مشغوفًا بآثارِ هذا الأديبِ العالِمِ، أَتَتَبَّعُها، وأَقْتَنِي مِنْها ما تَصِلُ إليهِ يَدِي.

وحِينَ اختلَفْتُ إلى الجامِعةِ كانَ مِنْ أَعْظَمِ مُقْتَنَيَاتِي كِتابُهُ الباذِخُ **الأعلامُ؛ قامُوسُ تراجِمَ لأَشْهَرِ الرِّجَالِ والنِّساءِ مِنَ العَرَبِ والمُستعرِبِينَ والمُستشرِقِينَ**، وشُغِفْتُ بهذا الكِتابِ المُحِيطِ شَغَفًا عظيمًا، حتَّى باتَ سَميري، في نَهاري ولَيْلِي، أقرأُهُ فأَجِدُ فيهِ لَذَّةً ومَتَاعًا، وأُدِيمُ النَّظَرَ في تَراجِمِهِ ساعاتٍ لا أُحْصِي لَها عَدًّا، حتَّى لكأنِّي وَقَفْتُ عَلَى مُخَبَّآتِهِ، وفَسَحَ لِي معرفةً وَّاسِعةً لِمَنْ تَرْجَمَ لَهُمْ مِّنَ الأعلامِ، في تاريخِنا القديمِ، وحتَّى زمنِ المُؤَلِفِ.

والْحَقُّ أنَّ كُلَّ الأسبابِ قدِ اجْتَمَعَتْ لِتَجْعَلَ مِنْ **أعلامِ** الزِّرِكْلِيِّ أثرًا مِّنَ الآثارِ التَّاريخيَّةِ العظيمةِ في حركةِ التَّأليفِ العربيِّ في العَصْرِ الحديثِ؛ فالرَّجُلُ أَنْفَقَ في تأليفِهِ عُمْرَهُ كُلَّهُ، وظَلَّ يُعِيدُ النَّظَرَ في أثنائِهِ، ويُهَذِّبُهُ ويُشَذِّبُهُ، إلى أنْ تَوَفَّاهُ اللهُ، وأَلْفَى فيهِ الأُدباءُ والمُؤَلِّفونَ وعامَّةُ القُرَّاءِ ما يُريدونَهُ مِنْ جَمْهَرَةٍ ضَمَّتْ في أجزائِها كُلَّ مَنْ دُوِّنَ لهُ اسْمٌ في تاريخِ العَرَبِ والمُستعرِبِينَ، ورَضِيَهُ الأُدباءُ والقُرَّاءُ، واتَّخَذُوهُ سميرَهُمْ، وأَشْبَعُوهُ قِراءَةً وتفتيشًا، ومَعَ أَنَّهُم استدرَكُوا عليهِ ما فاتَهُ، وصَحَّحُوا ما وَقَعَ فيهِ مِنْ سَهْوٍ، فلَمْ يَزِدْهُمْ ذلك إلَّا قُرْبًا مِنْهُ، وإعجابًا بِهِ لَمْ تُبْلِهِ الأيَّامُ.

نَقْرَأُ في قامُوسِ **الأعلامِ** تراجِمَ لأُناسٍ نَعْرِفُهُمْ، وتَمُرُّ أَعْيُنُنا بأُخرَى لأُناسٍ لا نَعْرِفُهُمْ، ونَفْزَعُ، مِنْ حِينٍ إلى حِينٍ، إليهِ، نَسْتَخْبِرُهُ، ونُفَتِّشُ فيهِ عنِ اسْمٍ اتَّفَقَ أنْ مَرَرْنا بِهِ في هذه الحادثةِ

أوْ تلك، ونَهِشُّ إذا ظَفِرْنا بِهِ، ونطمئِنُّ كُلَّ الاطمئنانِ أنْ سنَفُوزُ بترجمةٍ وافيةٍ، يُتْبِعُها العَلَّامةُ الزِّرِكْلِيُّ برأْيٍ نَثِقُ بِهِ كُلَّ الثِّقَةِ؛ فالرَّجُلُ أديبٌ شاعِرٌ مُؤَرِّخٌ عَلَّامةٌ مُحَقِّقٌ، عُرِف بِشِدَّةِ تَوَقِّيهِ، وعَدَالَةِ رأْيِهِ، وهذا وَحْدَهُ يَكْفِي.

ولِخَيْرِ الدِّينِ الزِّرِكْلِيِّ، كما لغيرِهِ مِنْ مُؤَلِّفِي السِّيَرِ والتَّراجِمِ في تُراثِنا القديمِ، مُفرداتٌ ومُصطلحاتٌ تَسْبِقُ أوْ تَتْبَعُ اسْمَ المُتَرْجَمِ لهُ؛ فالعالِمُ، في كِتابِهِ، غيرُ الفاضِلِ، والشَّاعِرُ غيرُ النَّاظِمِ، والأديبُ غيرُ المُتَأَدِّبِ. وقارِئُ **أَعْلامِهِ**، إنْ أَدامَ النَّظَرَ فيهِ، يَعْرِفُ أنَّ هذا الكَلِمَ وما يُشْبِهُهُ، إنَّما ينطوِي عَلَى رأْيِ الزِّرِكْلِيِّ في هذا العَلَمِ أوْ ذلك، وأَغْلَبُ الظَّنِّ أنَّ القارِئَ سيَتْبَعُ صاحِبَ **الأعلامِ** في الَّذي ذَهَبَ إليهِ، ويَسْتَقِيدُ إلى ما أَخَذَ بِهِ، ومَقَامُهُ في ثقافةِ العَرَبِ المُحْدَثِينَ جليلٌ وعظيمٌ.

ومِنْ عادتي أنَّني لا أترَدَّدُ في الأَخْذِ بِرَأْيِهِ في تراجِمِهِ، وهو عندي الثِّقَةُ. وبينما يَصِفُ حَسَن بنَ عَلِيٍّ الآلاتِيَّ الحَكَوَاتِيَّ، بأنَّهُ "مُتأَدِّبٌ مِصْرِيٌّ"، وأنا لا أَعْرِفُ هذا الآلاتِيَّ الحَكَوَاتِيَّ = لا أَمْلِكُ إلَّا أنْ أَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ! وكذلك الشَّأْنُ في حَسَن قُوَيْدِر وحَسَن بنِ عَلِيٍّ حِرْزِ الدِّين، يَصِفُهُما بِـ "الفاضِلَيْنِ"، فإذا وَقَفْتُ على ترجمةٍ لبعضِ مَنْ ذاعَتْ شُهْرَتُهُ، فلا يُخَالِجُنِي شَكٌّ في أنَّني سأُوَافِقُهُ كُلَّ المُوَافَقَةِ؛ فالأَخْطَلُ الصَّغيرُ بِشَارَةُ الخُورِيُّ "أشهرُ شُعَراءِ لُبْنَانَ في العَصْرِ الحديثِ"، وعَلَى ذلك رَأْيُهُ في إلياس طُعْمَةَ وإيليًّا أبي ماضي. وأينما مَضَيْنا في **أعلامِهِ** فثَمَّ رأْيٌ وحُكْمٌ، مَدَارُ الأمرِ فيهما معرفةٌ واسِعةٌ وثقافةٌ مَّتينةٌ، وإسنادٌ إلى أَهْلِ العِلْمِ، وهو دَقِيقٌ في عِبارَتِهِ، لا يَسُوقُ كلماتِهِ كيفما اتَّفَقَ؛ فعَمْرُو بنُ كلثومٍ شاعِرٌ جاهِلِيٌّ مِّنَ الطَّبَقَةِ الأُولَى، والشَّنْفَرَى شاعِرٌ جاهِلِيٌّ مِّنْ فُحُولِ الطَّبقةِ الثَّانيةِ، وعَمْرو بنُ مالِك بنِ زَيْد شاعِرٌ جاهِلِيٌّ قديمٌ، والقُطَامِيُّ شاعِرُ غَزَلٍ فَحْلٌ، ولا نكادُ نقرأُ صفحةً مِنْ صفحاتِ قامُوسِهِ إلَّا ولهُ فيها رأْيٌ في العُلَماءِ والأُدباءِ والسَّاسةِ وكِبَارِ القَوْمِ.

السَّيَّابُ وأعلامُ الزِّرِكْلِيِّ

اكتشفْتُ، وأنا أقرأُ كِتابَ **الأَعلامِ** لِخَيْرِ الدِّينِ الزِّرِكْلِيِّ أنَّ آراءَهُ في أَعلامِهِ ليستْ سَواءً، ورُبَّما اتَّفَقَ لِي أنْ قَرَأْتُ لديهِ ترجمةً مُخْتَصَرَةً لِمَنْ حَقُّهُ أن يَبْسُطَ فيهِ الكلامَ، ويَظْهَرُ لِي أنَّهُ وَجَدَ في كِتابَتِهِ عنْ نَفَرٍ مِّمَنْ عاصَرَهُمْ مِّنَ الأعلامِ، ما يَنْزِلُ فيهِ مِنْ أقدارِهِمْ؛ فاقتصَدَ في كلامِهِ، أوْ تَعَمَّدَ إدراجَ لَفْظٍ مَّكانَ لَفْظٍ، وعسَى أن يَكُونَ مَذْهَبُ الزِّرِكْلِيِّ في الأدبِ والثَّقافةِ والسِّياسةِ باعِثًا لَّهُ عَلَى الْحَطِّ مِنْ أقدارِ أُناسٍ كانَ حقيقًا بِهِ أن يُنْزِلَهُمْ مَنازِلَهُمْ في العِلْمِ والأدبِ والسِّياسةِ والاجتماعِ، والأمثلةُ ليستْ بالقليلةِ، ولكنَّها كثيرةٌ كثرةً ظاهرةً، ويَكْفِي، هُنا، أنْ أَسُوقَ رأْيَهُ في كوكبةٍ مِّنَ الأَعلامِ: فحَسْبُ أمين الخولِيِّ أن يَكُونَ في **أَعلامِهِ** "مِنْ أعضاءِ المَجْمَعِ اللُّغَوِيِّ بِمِصْرَ"، ثُمَّ لا نَظْفَرُ بشيْءٍ، بَعْدَ ذلك، يُبِينُ مِّقدارَ سُهْمَتِهِ في تجديدِ النَّظَرِ في البلاغةِ والتَّفسيرِ، ولمْ يَفُزْ إلياس أبو شَبَكَة إلَّا بِأَسْطُرٍ خَجْلَى، هو فيها مُتَرْجِمٌ يُحْسِنُ الفرنسيَّةَ، كثيرُ النَّظْمِ بالعربيَّةِ، ونَشَرَ مجموعاتٍ مِّنْ نَظْمِهِ! ولَوْلا أنَّني أَعْرِفُ أنَّ إلياس أبا شَبَكَة شاعِرٌ، مِّنْ كِبارِ الشُّعَراءِ اللُّبنانِيِّينَ المُجَدِّدِينَ، ولَوْلا أنَّني أَعْرِفُ أنَّ كوكبةً مِّنَ النُّقَّادِ قدْ صَنَّفُوا في شِعْرِهِ كُتُبًا لها شأْنُها = لَظَنَنْتُ أنَّ أبا شَبَكَة لَيْسَ إلَّا رَجُلًا مِّن غِمَارِ النَّاسِ، وأنَّه كثيرُ النَّظْمِ بالعربيَّةِ! ولا يَعتريني شَكٌّ في أنَّ خَيْرَ الدِّينِ الزِّرِكْلِيَّ لَمْ يَشَأْ أن يُكْرِمَ صاحِبَ **أَفَاعِي الفِرْدَوْسِ** بِلَقَبِ "شاعِرٍ"!

تَتَكَرَّرُ هذهِ الآراءُ في طُولِ قامُوسِ **الأَعلامِ** وعَرْضِهِ، ولا تكادُ تَخْلُو صفحةٌ مِّنْ صفحاتِهِ مِنْ حُكْمٍ غريبٍ في مَنْ تَرْجَمَ لَهُمْ، وبينما خَصَّ إلياس أبا شَبَكَة وأَنِيس الخُورِيَّ المَقْدِسِيَّ وحمزةَ شِحَاته بأَسْطُرٍ هزيلاتٍ = فَسَحَ لأمين ناصِر الدِّينِ نَهرًا كامِلًا مِنْ كِتابِهِ ذِي القَطْعِ الكبيرِ، ولَمْ يَنْسَ أن يَخُصَّهُ بِلَقَبٍ عزيزٍ صَعْبٍ، وهو "شاعِرٌ مُّجِيدٌ"، وفي الصَّفحةِ نَفْسِها نقرأُ كلامًا واسِعًا مبسوطًا في أمين الرَّيْحَانِيِّ، ولكنَّنا لا نقرأُ فيهِ إلَّا أنَّهُ "كاتِبٌ خَطِيبٌ"، عاشَ حِينًا مِّنَ الدَّهرِ في أمريكةَ، ثُمَّ عادَ إلى وَطَنِهِ لُبْنَانَ، وفيهِ دَرَسَ شيئًا مِّنْ قواعِدِ

العربيَّة! وتَمْضِي السُّطُورُ تتلوها سُطُورٌ ونَخْرُجُ مِنَ التَّرجمةِ، ولا أَثَرَ فيها لكلمةِ "أديبٍ" أوْ "شاعِرٍ"!

ونَلْقَى الأمرَ نَفْسَهُ يتكرَّرُ في ترجمةِ الشَّاعِرِ العِراقيِّ بَدْر شاكِرِ السَّيَّابِ، الَّذي شَقَّ للشِّعْرِ العربيِّ طريقًا جديدًا. كانَ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أن يُوْمِئَ إلى ما لهُ مِنْ سَهْمٍ في الشِّعْرِ الجديدِ، سواءً أَعْجَبَهُ شِعْرُهُ أَمْ لَمْ يُعْجِبْهُ، وأن يَحْفَظَ لهُ مَقامَهُ الَّذي رَفَعَهُ إليهِ الشُّعَراءُ والنُّقَّادُ والقُرَّاءُ في الأدبِ العربيِّ الحديثِ. كان ذلك هو الغالِبَ عَلَى الظَّنِّ، ولكنَّنا لا نَقَعُ عَلَى شيْءٍ مِّنْ ذلك، لا مِنْ قريبٍ ولا مِنْ بعيدٍ، وحَسْبُ السَّيَّابِ أن يَظْفَرَ بِسُطُورٍ هزيلاتٍ هو فيها "أديبٌ عِراقِيٌّ، كثيرُ النَّظْمِ... نَشَرَ مجموعاتٍ مِّن نَظْمِهِ"! ولمْ يَظْفَرْ مِنْهُ بكلمةِ "شاعِر"، وهي مِنَ الكَلِمِ الشَّائِعِ في **أعلامِهِ**، خَصَّ بِها شُعَراء، وحَرَمَ مِنْها آخَرِينَ، وأَطْنَبَ حِينًا فقالَ في غيرِ مُتَرْجَمٍ: "شاعِرٌ أديبٌ"، فصاحِبُ **الأَعلامِ** يَعْرِفُ مُصطلحاتِهِ جَيِّدًا، وإلَّا ما قالَ عنْ خالِدٍ الفَرَج: "شاعِرٌ أديبٌ مُؤَرِّخٌ"، وعنْ خليل شَيْبُوب: "شاعِرٌ، مِّنْ أُدباءِ الكُتَّابِ"، وعنْ خليل مَطْرَان: "شاعِرٌ، غَوَّاصٌ عَلَى المَعانِي، مِنْ كِبَارِ الكُتَّابِ"، أَمَّا بَدْر شاكِر السَّيَّاب الَّذي قالَ الزِّرِكْلِيُّ في ترجمتِهِ: "أُقِيمَ لهُ "تِمْثالٌ" في إحدَى ساحاتِ البَصْرَةِ" = فأَحْسَبُ أنَّ قارِئَ التَّرجمةِ، إن لَمْ يَعْرِفْهُ، يَخْرُجُ مِنْها وقدْ عَرَفَ أنَّ السَّيَّابَ ناظِمٌ لا شاعِرٌ، ورُبَّما تَعَجَّبَ القارِئُ وسأَلَ: كيفَ يُقَامُ لِـ "ناظِمٍ" تِمْثَالٌ في البَصْرَةِ؛ مدينةِ العربيَّةِ والشِّعْرِ؟! وكيفَ غَفَلَ الزِّرِكْلِيُّ، وهو شاعِرٌ عظيمٌ، عنْ ذلك، أَوَلَمْ يَرَ في الصُّحُفِ الَّتي نَعَتْهُ، والمَجَلَّاتِ الَّتي وَقَفَتْ أعدادًا كامِلةً مِنْها للحديثِ عنهُ = وفي النُّقَّادِ الَّذينَ صَنَّفُوا فيهِ جَمْهَرَةً مِّنَ المُؤَلَّفاتِ.. = أَوَلَمْ يَرَ في كُلِّ ذلك ما يَسْتَجْلِبُ نَظَرَهُ إلى أنَّهُ إنَّما يَكْتُبُ عنْ شاعِرٍ عربيٍّ عظيمٍ! أَمْ أنَّه الهَوَى والتَّعَصُّبُ، وقَلَّما سَلِمَ مِنْهما أفذاذُ العُلَماءِ والأُدباءِ.

تَصْحِيحُ وَهْمٍ

يقولُ الدُّكتور مُحْيِي الدِّينِ صُبْحِي عن الشَّاعِرِ أبي تَمَّامٍ:

"وأَعْتَقِدُ أنَّ مُعْظَمَ قصائِدِهِ في الفَخْرِ والزُّهْدِ، وقصيدتَهُ في مَديحِ آلِ البَيْتِ تَعُودُ إلى هذه الفَتْرَةِ المِصْرِيَّةِ، فهي ضعيفةٌ في مَعانيها وصُوَرِها، بَلْ إنَّها تمرينٌ عَلَى النَّظْمِ نَجِدُ مِنْ بَيْنِها قصيدةً عارَضَ فيها أبو تَمَّامٍ قصيدةَ أبي فِرَاسٍ الحَمْدَانِيِّ "أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ"، ومطلعُها [مِنَ الطَّويل]:

تَصَدَّتْ وحَبْلُ الْبَيْنِ مُسْتَحْصَدٌ شَزْرُ وَقَدْ سَهَّلَ التَّوْدِيعُ ما أَوْعَزَ الْهَجْرُ

(...)

بَلْ إنَّ نظرةً مُدَقِّقةً تَكْشِفُ أَبْعَدَ مِنْ هذه المُعَارَضةِ. ففي قصائدِ فَخْرِهِ تَشَوُّقٌ إلى أَهْلِهِ وحنينٌ يُحاكِي بِهِ ما في الرُّومِيَّاتِ"!!!

ويقولُ:

وفي ظَنِّي أنَّ طُولَ أُلْفَتِهِ لِشِعْرِ أبي فِرَاسٍ قدْ عَلَّمَتْهُ مِثْلَ هذهِ المَوَاقِفِ، ولا سِيَّما أنَّ شِعْرَ الحَمَاسةِ الَّذي كانَ يَرْوِي قِسْمًا كبيرًا مِّنهُ حافِلٌ بِها. ورَوْعَةُ قصيدةِ "أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ" أنَّها سِلسلةٌ مِّنْ هذه المَوَاقِفِ الإشكاليَّةِ في الحُبِّ والحَرْبِ مَعًا[90]

يقولُ أبو هاشِمٍ كانَ اللهُ لهُ: رَحِمَ اللهُ مُحْيِي الدِّينِ صُبْحِي ما أَشَدَّ وَهْمَهُ! ذلك أنَّ أبا تَمَّامٍ تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٣٢هـ في أَغْلَبِ الأقوالِ، ووُلِدَ أبو فِرَاسٍ سَنَةَ ٣٢٠هـ، أَيْ بَعْدَ نَحْوِ تِسْعِينَ سَنَةً مِّنْ وَفاةِ الأَوَّلِ، فعَنْ أيِّ تَأَثُّرٍ يَتَحَدَّثُ؟!

تصحيحُ خَطَإٍ وَقَعَ فيهِ الدُّكتور شُكْرِي المَبْخُوت!

-١-

أَيْسَرُ ما يُطْلَبُ مِمَّن يَتَصَدَّى للتَّأليفِ في صِلَةِ البلاغةِ بالمَنْطِقِ = أن يَكُونَ عِلْمُهُ بالمَنْطِقِ مُضارِعًا لعِلْمِهِ بالبلاغةِ، وأَدْنَى دَرَجاتِ الباحِثِ في عُلُومِنا القديمةِ معرِفةُ الأُصُولِ الَّتي قامَ عليها هذا العِلْمُ أوْ ذاك، وعليهِ؛ فواجِبٌ عَلَى مَنْ قَرَأَ في البلاغةِ، عامَّةً، وبلاغةِ السَّكَّاكِيِّ وشُرَّاحِ **التَّلخيصِ** خاصَّةً = أن يُلِمَّ إلمامًا جَيِّدًا بمبادِئَ لا غِنًى للقارِئِ - أوْ طالِبِ العِلْمِ - عَنْها، في "أُصُولِ الفِقْهِ"، و"عِلْمِ الكلامِ"، و"المَنْطِقِ"، وأن يَعُدَّ معرفتَهُ بهذا الأخيرِ كمعرفةِ التَّلامِذةِ - أَوَّلَ عَهْدِهِمْ بالدَّرْسِ - بِـ "جَدْوَلِ الضَّرْبِ"، أَمَّا إذا اقْتَحَمَ سبيلَ التَّأليفِ في بلاغةِ السَّكَّاكِيِّ و**شُرُوحِ التَّلْخِيصِ** = فلا بُدَّ أن يَكُونَ عالِمًا عارِفًا بكلامِ القَوْمِ ومُصْطَلَحِهِمْ في "المَنْطِقِ"، و"عِلْمِ الكلامِ"، و"أُصُولِ الفِقْهِ"، وحَسْبُنا أنْ نَعْرِفَ أنَّ السَّعْدَ التَّفْتَازَانِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ - كان إمامًا في البلاغةِ، والمَنْطِقِ، وعِلْمِ الكلامِ. وإنْ لمْ نَسْتَعِدَّ لذلكَ عظيمَ الاستعدادِ، فالانصرافُ إلى شُؤونٍ نُحْسِنُها أَسْتَرُ لنا وأَجْمَلُ!

هذهِ كَلِمةٌ عامَّةٌ هي نِتاجُ تَجْرِبةٍ ومُكابَدةٍ في قِراءَةِ البلاغةِ والتَّهدِّي إلى مَقاصِدِها.

-٢-

كِتابُ **الاستدلالِ البلاغيِّ** للدُّكتور شُكْرِي المَبْخُوت مِثالٌ طَيِّبٌ للوَشِيجَةِ الَّتي تَصِلُ البلاغةَ بعِلْمِ المَنْطِقِ[91]، ولا رَيْبَ في أنَّ الكِتابَ أَفْلَحَ فَلاحًا كبيرًا في تمييزِ الاستدلالِ البلاغيِّ مِنَ الاستدلالِ المَنْطِقيِّ، بَعْدَ أنْ وُسِمَتِ البلاغةُ العربيَّةُ، وبخاصَّةٍ بلاغةُ السَّكَّاكِيِّ و**شُرُوحُ التَّلْخِيصِ**، بالجُمُودِ، والتَّحجُّرِ، والعَجْزِ، والمَوْتِ، وما ذلك إلَّا لاصطناعِ الرَّازِيِّ والسَّكَّاكِيِّ والقَزْوِينِيِّ وشُرَّاحِهِ المَنْطِقَ - الَّذي كانَ في عَصْرِهِمْ كالرِّياضِيَّاتِ في عَصْرِنا - وتَعْليلُ

المَبْخُوتِ لاصطناعِهِ جِدُّ ذَكِيٍّ؛ فالمسألةُ، عِنْدَهُ، "مسألةٌ إبستيمولوجيَّةٌ مَّحْضَةٌ لا تُدْرَكُ إلَّا إذا استحضَرْنا السَّبَبَ الَّذي جَعَلَ القُدَماءَ يَعْتَبِرُونَ المَنْطِقَ "خادِمَ العُلُومِ".

إِذَنْ، ليسَ مِنْ سبيلٍ إلى اكتسابِ "البلاغةِ" صِفَةَ "العِلْمِ" بِما سِوَى "المَنْطِقِ"، وبينما أَفْلَحَتِ "البلاغةُ" في ذلك، لَمْ يَرْقَ "النَّقدُ الأدبيُّ"، المَنُوطُ بِهِ حُكْمُ القِيمةِ، إلى اكتسابِ هذهِ الصِّفَةِ، و"لَمْ يُعَدَّ، في تصنيفِ القُدَماءِ، عِلْمًا لقُصُورِهِ عنِ استيعابِ المَبادِئِ المَنْطِقِيَّةِ في بِناءِ مَفاهِيمِهِ وطُرُقِهِ في الإجراءِ".

وأقولُ، صادِقًا: إنَّ مُعالَجةَ المُؤَلِّف لهذا المَبْحَثِ في بلاغةِ السَّكَّاكِيِّ و**شُرُوحِ التَّلْخِيصِ** = أَعْمَقُ ما قَرَأْتُه حتَّى الآن! وأَعْجَبَنِي أنَّ المَبْخُوتَ هَدَاهُ بَحْثُهُ في "الشُّرُوحِ" و"الْحَوَاشِي" إلى الوُقُوفِ عَلَى لَطِيفةٍ مِّنْ لَّطائِفِ العِلْمِ العربيِّ الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ "الشُّرُوحَ" و"الْحَوَاشِيَ" - و"التَّعليقاتِ" و"التَّقارِيرَ" - تَنْطَوِي عَلَى قَدْرٍ مِّنَ الإبداعِ والتَّجديدِ، مهما أَوْحَتْ بغيرِ ذلك، وعَسَاهُ لَمَّا لابَسَ هذا اللَّوْنَ مِنَ التَّأليفِ ودَاخَلَهُ = تَكَشَّفَ لهُ عنْ رَّأْيٍ مُبايِنٍ لِّلآراءِ الَّتي تَرْمِيهِ بالتَّخَلُّفِ، والتَّأَخُّرِ، والْجُمُودِ!

يقولُ شُكْرِي المَبْخُوت:

إنَّ هذهِ الشُّرُوحَ والْحَوَاشِيَ تُمَثِّلُ في تقديرِنا أَرْقَى ما وَصَلَتْ إليهِ المنظومةُ المعرفيَّةُ القديمةُ مِنْ رَّبْطٍ مُّحْكَمٍ بينَ العُلُومِ المُخْتَلِفةِ مِنْ مَّنطِقٍ وعُلُومٍ لُغَوِيَّةٍ وعِلْمِ كلامٍ وأُصُولِ فِقْهٍ وبلاغةٍ

لِكُلِّ ذلك أنا حَفِيٌّ بهذا الكِتابِ سعيدٌ بِهِ؛ لأنَّه مِثَالٌ للتَّأليفِ الرَّصِينِ الَّذي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ؛ ولأنَّهُ يَقْرَأُ البلاغةَ العربيَّةَ دُونَ أن يُقْحِمَ عليها ما يُخالِفُ أُصُولَ المنهجِ العربيِّ الإسلاميِّ في التَّفكيرِ والاستدلالِ؛ ولأنَّهُ أَدْرَكَ "شَجَرِيَّةَ" عُلُومِنا وارتفاعَها إلى مَنازِعَ مُتَشابِهةٍ؛ ولأنَّ إدراكَ هذا الأَصْلِ هَدَاهُ إلى الانتصارِ للبلاغةِ العربيَّةِ والدِّفاعِ عنها. ولَوْ سَلَكَ الدَّارِسُونَ سبيلَهُ فقرأوا مِنْ مُّتُونِ عُلُومِنا ما قَرَأَ، وصَبَرُوا عليها مِثْلما صَبَرَ، واستأْنَوْا في أحكامِهِمْ ولَمْ يتعجَّلُوا = لكانَ لنا مِنْ ذلك فَهْمٌ صحِيحٌ لعُلُومِنا، لكنْ، للهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، قَدِ

ابتُلِيَتْ عُلومُنا بِمَنْ تَناوَلُوها بأَرْذَلِ العِبَاراتِ، وبِمَنْ خُيِّلَ إليهِ أنَّ "الخِلابةَ" وزُخْرُفَ القولِ يُغْنِيَانِ عنِ التَّحقيقِ والاستدلالِ، فأَماتَ النَّقْدَ الأدبيَّ - وقَبْلَ أن يَنْفُضَ كَفَّيْهِ مِنْ تُرَابِ رَمْسِهِ = أَمَاتَ البلاغةَ، في حديثٍ بائِسٍ مُمِلٍّ!

- ٣ -

لماذا أقولُ ذلك؟

لَعَلَّكَ أيُّها القارِئُ الكريمُ وأيَّتها القارِئَةُ الكريمةُ تَتَرَقَّبانِ تنبيهي عَلَى خَطَإِ شُكْرِي المَبْخُوت، وها أَنَذا أَسُوقُهُ إِلَيْكُما، وأقولُ:

مَرَّ بِي في الفَصْلِ الَّذي دَعَاهُ "بعض خصائصِ اللُّزُومِ البلاغيِّ مِنْ خِلَالِ شُرُوحِ التَّلخيص" = كلامٌ لَخَّصَ فيهِ المُؤَلِّفُ أقوالًا في "الدِّلالاتِ" مبثوثةً في **شُرُوحِ التَّلْخِيصِ**، وخاصَّةً **مُخْتَصَرَ السَّعْدِ**، و**مُخْتَصَرَ المَغْرِبِيِّ**، و**حاشِيَةَ الدُّسُوقِيِّ** = هي مِنْ أَوَّلِ ما يقرأُهُ طالِبُ عِلْمِ المَنْطِقِ، ويَكْثُرُ دَوَرانُها في كُتُبِ أُصُولِ الفِقْهِ، والبلاغةِ في القُرُونِ المُتَأَخِّرةِ:

يُلَخِّصُ شُكْرِي المَبْخُوتُ أنواعَ الدِّلالاتِ إلى:

- دِلَالةِ مُطَابِقَةٍ: وأَساسُها تَطابُقُ اللَّفْظِ والمَعْنَى؛ أيْ أنَّ تَمَامَ اللَّفْظِ موضوعٌ لِتَمَامِ المَعْنَى. ومِثالُها دِلَالةُ الإنسانِ عَلَى الحَيَوانِ النَّاطِقِ،

- ودِلَالةِ تَضَمُّنٍ: وأَساسُها أن يَكُونَ جُزْءٌ في ضِمْنِ المَعْنَى الَّذي وُضِعَ لهُ اللَّفْظُ. ومِثَالُها دِلَالةُ الإنسانِ عَلَى الحَيَوانِ أوِ النَّاطِقِ،

- ودِلَالةِ التزامٍ: وأَساسُها أن يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَى خارِجٍ عَنْهُ لازِمٍ للمَعْنَى الَّذي وُضِعَ لهُ، وليسَ المقصودُ بالخَارِجِ هُنا الواقِعُ بَلْ خَارِجٌ عنْ مَعْنَى اللَّفْظِ. ومِثَالُها دِلَالةُ الإنسانِ عَلَى الضَّاحِكِ.

ثُمَّ يَمْضِي في تلخِيصِهِ لأنواعِ الدِّلَالاتِ، حَتَّى يَبْلُغَ "دِلَالَةَ الالتزامِ"، ويُفَصِّلُ الحديثَ فيها بَعْضَ تفصيلٍ، ويَكْتُبُ بِالْحَرْفِ:

ولِلُّزُومِ عُمُومًا صُوَرٌ ثَلَاثٌ إذْ يَكُونُ إمَّا خارِجِيًا مِنْ قَبِيلِ لُزُومِ السَّوَادِ للغُرَابِ، وإمَّا ذِهْنِيًا مِّنْ لُزُومِ البَصَرِ لِلْعَمَى الَّذي هو عَدَمُ البَصَرِ رُغْمَ ما بينَهُما في الخارِجِ (التَّفتازَانِيّ، المُخْتَصَر، ج ٣، ص ٢٧٢) وإمَّا ذِهْنِيًّا وخارِجِيًّا والمِثَالُ الَّذي يُقَدِّمه الدِّسُوقِيُّ (الحاشِيَة، ج ٣ ص ٢٧٠) لُزُومُ الزَّوْجِيَّةِ للأربعةِ (إذا كُنَّا في نِظَامٍ تشريعيٍّ يَسْمَحُ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ولا يَتَغَيَّرُ نَوْعُ اللُّزُومِ إذا كُنَّا في مُجْتَمَعٍ لا يَسْمَحُ إلَّا بالزَّوَاجِ بِوَاحِدةٍ فلُزُومُ الزَّوْجِيَّةِ حينئذٍ لواحِدةٍ كما هو حالُنا في تُونُسَ) [92]!!!!

لَعَلَّكَ تَسْأَلُ، بَعْدَ كُلِّ هذا: أينَ الخَطَأُ؟

وأُجِيبُكَ: إنَّه الْجُمْلَةُ الطَّويلةُ الَّتي حَصَرَها شُكْرِي المَبْخُوث بَيْنَ قَوْسَيْنِ كبيرَيْنِ ()، يَشْرَحُ بِها المقصودَ بالعِبَارَةِ الدَّارِجَةِ في مَبْحَثِ "الدِّلَالاتِ" في كُتُبِ عِلْمِ المَنْطِقِ، تلك الَّتي طالما تَكَرَّرَتْ في كُتُب أُصُولِ الفِقْهِ، وبابِ البَيَانِ في **شُرُوحِ التَّلْخِيصِ** = أَعْنِي "دِلَالَةَ الأَرْبعةِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ" يُمَثِّلُونَ بِها لِـ "دِلَالَةِ الالتزامِ".

يقولُ العَلَّامةُ الأَخْضَرِيُّ (ت ٩٨٣هـ) في مَتْنِ **السُّلَّمِ المُنَوْرَقِ**[93]:

[مِنَ الرَّجَز]

دِلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى ما وَافَقَهْ

يَدْعُونَهَا: "دِلَالَةَ المُطَابَقَهْ"

وَجُزْئِهِ: "تَضَمُّنًا" وما لَزِمْ

فَهُوَ "التِزَامٌ" إنْ بِعَقْلِ التُزِمْ

وتَعْنِي "دِلالَةُ الأَربعةِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ"، في "دِلَالةِ الالتزامِ": أنْ نَفْهَمَ مِنَ العَدَدِ "أَرْبَعة" مَعْنَى "الزَّوْجِيَّةِ" - أَيْ خِلَاف الفَرْدِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُ يَقْبَلُ القِسْمَةَ عَلَى اثنيَنِ = مِنْ خارِجِ اللَّفْظِ، كدِلَالة الثَّلاثةِ عَلَى الفَرْدِيَّةِ، لا كما فَهِمَ الدُّكتور شُكْرِي المَبْخُوتُ مِنَ "الزَّوْجِيَّةِ": زَوَاجَ رَجُلٍ بِامْرَأَةٍ، ومِنْ "أَرْبَعةٍ": أَرْبَع زَوْجاتٍ، وأنَّ النِّظَامَ في تُونُسَ لا يَسْمَحُ بالزَّوَاجِ مِنْ أَرْبَعِ زَوْجَاتٍ بَلْ بِوَاحِدةٍ!!!

الْحَقُّ أنَّ فَهْمَ شُكْرِي المَبْخُوتِ لِمَعْنَى "الزَّوْجِيَّةِ" في "دِلَالةِ الالتزامِ" يُحَيِّرُ ويُحْبِطُ؛ لأنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى فَهْمِهِ وعَدَمِهِ معرفةُ "عِلْمِ البَيَانِ" الَّذي "هو عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إيرادُ المَعْنَى الوَاحِدِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفةٍ في وُضُوحِ الدِّلَالةِ عليهِ"[94]، لِذَا كانَتِ الدِّلَالةُ الالتِزَامِيَّةُ مُصَوِّرةً لِمَعَانٍ لا سبيلَ إلى تَفَهُّمِها إلَّا بالعُرْفِ والثَّقافةِ وما يَحُفُّ بِهِما، وبِهذا اختلَفَ مَعْناها في البلاغةِ عَنْهُ في المَنْطِقِ.

والْحَقُّ، كذلكَ، أنَّ هذا الفَهْمَ الغريبَ يَزِيدُني حَيْرةً وعَجَبًا! فهذا المِثالُ يَتَكَرَّرُ في مَبْحَثِ الدِّلَالاتِ، وهو مِنَ الشَّائعِ المألوفِ عِنْدَ التَّلامِذَةِ الَّذِينَ يَحفظونَ مَتْنَ **السُّلَّمِ المُنَوْرَقِ**، فمَا ظَنُّكَ بالمُنْقَطِعِينَ لدِراسةِ عِلْمِ المَنْطِقِ، وأُصُولِ الفِقْهِ، والبلاغةِ؟ لا شَكَّ في أنَّ ذلك يُحَيِّرُ ويُحْبِطُ؛ فكيفَ تَعَدَّتْ "دِلَالةُ الأربعةِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ" مَعْنَى القِسْمَةِ عَلَى اثنيْنِ، وهو شيْءٌ خارجٌ عنْ لَفْظِ "أَربعة" = لِتُصْبِحَ - عِنْدَ شُكْرِي المَبْخُوتِ - أَدْخَلَ في "قانُونِ الأحوالِ الشَّخصيَّةِ" في تُونُسَ، ذلك الَّذي لا يَسْمَحُ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ!!!

- ٤ -

- كَلِمةٌ لَّا علَاقةَ لها بكِتابِ شُكْرِي المَبْخُوتِ:

إنَّ ثِقَتِي بِمَنْ لَّا يَعْرِفُ مَبادِئَ عِلْمِ المَنْطِقِ ثُمَّ يَدْرُسُ البلاغةَ، كثِقَتِي بِمَن يُخْطِئُ في "جَدْوَلِ الضَّرْبِ الصَّغيرِ" ثُمَّ يَتَصَدَّى لتأليفِ كِتابٍ في الرِّياضِيَّاتِ!

أحمد مَطْلُوب

قَرَأْتُ، قَبْلَ وَبَاءِ كُورُونا، كِتابَي العَلَّامةِ الجليلِ الدُّكتور أحمد مَطْلُوب - رَحِمهُ الله - **البلاغة عِنْدَ السَّكَّاكِيّ**[95]، و**القَزْوِينيّ وشُرُوح التَّلْخِيص**[96]، وهُما في الأَصْلِ رِسَالَتَانِ جامِعيَّتانِ نالَ بِهِما الباحِثُ الْجليلُ دَرَجَتَي الماجستير والدُّكتوراه في البلاغةِ العربيَّةِ مِنْ جامِعةِ القاهرةِ، بإشرافِ الدُّكتورةِ سَهِير القَلَمَاوِيِّ - رَحِمَها اللهُ –

وَقَعَ الدُّكتور أحمد مَطْلُوب في سِحْرِ العَلَّامةِ الشَّيْخِ أمين الخولِيّ - رَحِمَهُ اللهُ - ودِراساتُهُ في البلاغةِ العربيَّةِ مِنَ النَّمَطِ العالِي!

وَقَعَ في دائِرَةِ السِّحْرِ لأنَّ الرِّسَالَتَيْنِ - عَلَى ما فِيهما مِنْ تَعَبٍ - كأَنَّما كانتا بَسْطًا وتفصيلًا وتوسيعًا لِمَا قالهُ شَيْخُ الأُمناءِ مُخْتَصَرًا!

لا شَكَّ في أنَّ أحمد مَطْلُوب أَخْلَصَ في بَحْثِهِ، ولا شَكَّ، كذلك، في أنَّهُ رَكِبَ مَرْكَبًا صَعْبًا، ولكنْ مَّا النَّتيجةُ؟

النَّتيجةُ هي ما يَعْرِفُهُ قارِئُ البلاغةِ العربيَّةِ في العَصْرِ الْحاضِرِ مِنْ كلامٍ مُرَدَّدٍ مَّكْرُورٍ: "أَفْسَدَ السَّكَّاكِيُّ البلاغةَ العربيَّةَ بتقسيماتِهِ المَنْطِقِيَّةِ، وتَحَوَّلَ بِها مِنَ الذَّوْقِ الَّذي كانَتْ عليهِ في كِتابَيْ عبدِ القاهر = إلى الْجَفَافِ، والتَّقسيماتِ المَنْطِقِيَّةِ... إلخ"!

ونَقْرأُ الرَّأيَ نَفْسَهُ في كلامِهِ عنِ القَزْوِينِيِّ و**شُرُوحِ التَّلْخِيصِ**: "الجَفَافَ، والتَّقْسِيماتِ المَنْطِقِيَّةِ، وبلاغةَ العَرَبِ وبلاغةَ العَجَمِ، واستشرافَ بلاغةٍ جديدةٍ في زمنِنا هذا..."! إلى آخِرِ ما انْطَوَى عليه كلامُ أمين الخولِيّ مِنْ قَبْلُ!

مَعَ فارِقٍ مُّهِمٍّ!

ذلك أنَّ رَأْيَ الشَّيْخِ أمين الخولِيّ إنَّما هو ثَمَرَةُ ما هَدَاهُ إليه تفكيرُهُ، وما هكذا الدُّكتور أحمد مَطْلُوب الَّذي سارَ في رِكَابِ شَيْخِ الأُمَنَاءِ، ولَمْ يَجِدْ عَمَّا عَرَفْناهُ واعْتَدْناهُ!

وأنا لا أَطْلُبُ مِنَ الدُّكتور أحمد مَطْلُوب أن يُوَافِقَ هَوَايَ، ولكنَّني رَجَوْتُ لَوْ سَلَكَ طريقًا جديدًا.

وأَتَصَوَّرُ - أخيرًا - أنَّ الباحِثَ العِرَاقِيَّ الَّذي أَشْبَعَ البلاغةَ العربيَّةَ، فيما بَعْدُ، بَحْثًا ودَرْسًا وتأليفًا وتحقيقًا = حَكَمَ عَلَى كِتابَيْهِ بِـ "الْمَوْتِ" مُبَكِّرًا!

أورغانون محمَّد مندورا

لا يُشْبِهُ كِتابُ **في المِيزانِ الجديدِ** للدُّكتور محمَّد مندور الكُتُبَ النَّقْدِيَّةَ الَّتي أَلَّفَها أساتِذَةُ الأدبِ والنَّقْدِ في الْجامِعةِ.

أُسَمِّي **في المِيزانِ الجديدِ** "مَتْنًا نَقْدِيًّا"، وكُتُبَ أساتذةِ الْجامِعةِ "دِرَاساتٍ" أَوْ "بُحُوثًا".

مِنْ خصائصِ "الْمَتْنِ" خُلُودُهُ في التَّاريخِ، و**في المِيزانِ الجديدِ** خالِدٌ، ومِنْ خصائِصِهِ الإيجازُ وهو غيرُ مُتَرَهِّلٍ.

ليس محمَّد مندور دارِسًا متَى أَرَدْنا بالدَّرْسِ التَّقيُّدَ بالقواعِدِ والمنهجيَّاتِ. أَتَخَيَّلُهُ كأنَّهُ مُنْتَجٍ في قهوةٍ قديمةٍ في القاهرةِ، يُدَخِّنُ، ويَشْرَبُ الشَّاهِي، ويَرْمُقُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، بِبَصَرٍ كَلِيلٍ، وعَلَى المائدةِ أوراقٌ يَخُطُّ فيها تأمُّلاتِهِ النَّقْدِيَّةَ.

عِنْوَانُ الكِتابِ فريدٌ في نَوْعِهِ، دالٌّ. ولا أَشُكُّ في أنَّ محمَّد مندور أرادَهُ إرادةً، وكأنَّهُ "الأورغانونُ الجديدُ"، متَى أَحْسَنَ النُّقَّادُ تَمَثُّلَهُ عَرَفُوا مَعْنَى النَّقْدِ، ومتَى تَدَبَّرَ الأُدَباءُ المُنْشِئُونَ مَعانِيَهُ أنشأُوا أدبًا صحيحًا.

اِعْتَلَّ بَصَرُ محمَّد مندور وما اعْتَلَّتْ بَصِيرتُه، وكان أَوْحَدَ نُقَّادِ عَصْرِهِ في معرفةِ ما الأدبُ؟ وما النَّقْدُ؟ أَمَّا الأدبُ فصِياغةٌ جَمَالِيَّةٌ وليس "طَرْطَشَةً عاطِفِيَّةً" = وأَمَّا النَّقْدُ فـ "تمييزُ الأساليبِ".

واجَهَ محمَّد مندور تيَّارَاتِ الأدبِ والنَّقْدِ منذُ عَوْدَتِهِ إلى بِلادِهِ، دُونَ أن يَحْصُلَ عَلَى الدُّكتوراه مِنْ باريسَ؛ فالمُيُوعةُ والطَّرْطَشَةُ العاطِفِيَّةُ هُما أخطرُ ما يُصِيبُ الأدبَ في مَقْتَلٍ، ولا يستقيمُ للنَّقْدِ "مِيزانٌ" إلَّا بِـ "الذَّوْقِ"، ولا سَبِيلَ نَسْلُكُهُ إلى العَمَلِ الأدبيِّ إلَّا بِهِ.

أَدْرَكَ مندورٌ في شبابِهِ الأَدْوَاءَ الَّتي لَحِقَتِ النَّقْدَ، وخاضَ مَعَارِكَ وسِجَالاتٍ لِيُثْبِتَ بَدِيهَةً آمَنَ بِها، وهي أنَّ النَّقْدَ الأدبيَّ ليس "عِلْمًا"، لَكِنَّهُ "خِبْرَةٌ". رأى تَسَلُّطَ العُلُومِ الأجنبيَّةِ عليهِ فذادَ عنْ طبيعةِ الأدبِ، فلا مَعْنًى لِتَدَخُّلِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ في تفسيرِ الْعَمَلِ الأدبيِّ، ولا ينبغي أنْ نَغْلُوَ - كما غَلَا زكي نجيب محمود - فنَتَوَهَّمَ النَّقْدَ عِلْمًا كغَيْرِهِ مِنَ العُلُومِ.

وَحَّدَ ذَوْقُ محمَّد مندور بَيْنَ تُراثِ العربِ ونَقْدِ الغَرْبِ؛ ورَاقَهُ رَأْيُ غوستاف لانْسُون في النَّقْدِ، ورأى أنَّ ما يَجْمَعُ النَّاقِدَ الفرنسيَّ والنَّاقِدَيْنِ العربِيَّيْنِ الآمِدِيَّ والقاضِي الْجُرْجانِيَّ = إنَّما هو "الذَّوْقُ"، لَكِنَّهُ الذَّوْقُ المُدَرَّبُ الَّذي يُحْسِنُ صاحِبُهُ الاستدلالَ عليهِ.

ما أَشَدَّ حاجَةَ الْجامِعةِ اليومَ إلى محمَّد مندور، عَلَى أنَّ حاجَةَ أساتذةِ النَّقْدِ إليهِ لا تَعْنِي استنساخَهُ وتَكْرَارَهُ، بَلِ استلهامَ رُوحِهِ، والإفادةَ مِنْ عَقْلِهِ العبقريِّ الفَنَّانِ، والنَّقْدُ الَّذي يَكْتُبُهُ مندور - والأَصَحُّ أنْ نَقُولَ: الَّذي يُمْلِيهِ؛ لاعْتِلالِ نَظَرِهِ = شَرْقِيٌّ غَرْبِيٌّ، مُجْمَعٌ عليهِ ما دامَ قائِمًا عَلَى الذَّوْقِ المُدَرَّبِ، وقِرَاءَةُ الْمَتْنِ المَنْدُورِيِّ تُكْسِبُ ناقِدَ الأدبِ ذَوْقًا، وخِبْرَةً، ومعرفةً، ودِرَايَةً، وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ تَمَثُّلَ المنهجِ "المَنْدُورِيِّ"، بالْمُدَاوَمَةِ عَلَى تأمُّلِهِ وتَذَوُّقِهِ وتَدَبُّرِهِ = يَعُودُ عَلَى أُستاذِ النَّقْدِ الأدبيِّ في الْجامِعةِ بالنَّفْعِ، ولا أَرَانِي مُجانِبًا الصَّوَابَ حِينَ أقولُ: إنَّ المنهجَ المَنْدُورِيَّ أَحَقُّ بالتَّبَنِّي والأخْذِ مِنَ المناهِجِ الغربيَّةِ المُنْتَزَعَةِ مِنْ ثقافَتِها، وتاريخِها، وسِيَاقِها!

يَوْمِيَّاتُ القِرَاءَةِ

إفادةُ النَّصِيح بالتَّعريفِ بِسَنَدِ الْجامِعِ الصَّحِيح

قَرَأْتُ - بِفَضْلِ اللهِ – كِتابَ **إفادةِ النَّصِيح بالتَّعريفِ بِسَنَدِ الْجامِعِ الصَّحِيح** للعَلَّامةِ الْمُحَدِّثِ مُحِبِّ الدِّينِ أَبِي عبدِ الله محمَّد بْنِ عُمَرَ بْنِ محمَّد ابْنِ رُشَيْدٍ الفِهْرِيِّ السَّبْتِيِّ المَغْرِبِيِّ الأندَلُسِيِّ، صاحِبِ الرِّحْلةِ الحِجَازِيَّة المشهورة، المُتَوَفَّى سنة 721هـ، بتحقيقِ الشَّيْخِ العَلَّامةِ محمَّد الحَبِيب بلخوجه - رَحِمَهُما اللهُ –

الكِتابُ آيَةٌ في الطَّرافةِ: رَغِبَ ابْنُ رُشَيْدٍ الفِهْرِيُّ في إسماعِ ابْنِهِ محمَّدٍ الحديثَ مِنَ الأشياخِ، فصَنَّفَ كِتابَهُ هذا لِيُعَرِّفَهُ إسنادَ **الْجامِعِ الصَّحِيحِ** للإمامِ البُخَارِيِّ! بَعْدَ أنِ اختارَ لهذهِ الغايَةِ الشَّريفةِ أَسْنَدَ أهلِ المَغْرِبِ!

يقول:

ولَمْ أَزَلْ أَحْرِصُ عَلَى التَّبْكِيرِ بإسْماعِ بُنَيَّ محمَّدٍ – هَدَاهُ اللهُ وبَلَّغَ الأمَلَ فيهِ – وأَرُوضُ حَداثَتَهُ عَلَى تَعَلُّمِ الحديثِ وتَحَفُّظِهِ، وأُشْرِبُهُ في قَلْبِهِ وأَمْزُجُهُ بِطِبَاعِهِ، رَجَاءَ أن يَمُنَّ اللهُ الكريمُ عَلَيَّ وعَلَيْهِ باتِّباعِهِ، ويَجْعَلُنا مِنْ أَتْبَاعِهِ وأَشْيَاعِه

اِنْتَفَعْتُ بالكِتابِ في غيرِ ناحِيَةٍ؛ مِنْ بَيْنِها التَّعريف بِـ **الْجامِعِ الصَّحِيحِ** ورِواياتِهِ = والصِّلاتُ العِلْمِيَّةُ بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وانتهاءُ أسانيدِ **الْجامِعِ الصَّحِيحِ** (المَغْرِبِيَّةِ والأندَلُسِيَّةِ) إلى المُحَدِّثِ المَكِّيِّ الْجليلِ أبي ذَرٍّ الهَرَوِيِّ المَكِّيِّ السَّرَوِيِّ المُتَوَفَّى سنةَ 434هـ (السَّرَوِيُّ: نِسْبَةً إلى جِبَالِ السَّرَوَاتِ في الحِجَازِ، حيثُ تَزَوَّجَ امرأةً مِّنْ هُناك، وعاشَ في تلك النَّاحِيَةِ، فنُسِبَ إليها) = وشاقَني أنَّ الكِتابَ، عَلَى وَفْرَةِ مَنافِعِهِ، اِشْتَمَلَ عَلَى مَعْنًى تربويٍّ جَلِيلٍ، وتَقْلِيدٍ إسلامِيٍّ تَقُومُ عَلَيْهِ تَنْشِئةُ البَنِينَ تَنْشِئَةً صالِحةً.

رَحِمَهُمُ اللهُ أجمعينَ!

تحقيقٌ "نَظَر" فيهِ نَظَر!

حَدَّثْتُكُمْ، مِنْ قَبْلُ، حديثًا مُوْجَزًا عنْ كِتاب **إفادة النَّصِيحِ بالتَّعْرِيفِ بإسْنادِ الْجامِعِ الصَّحِيحِ** للعَلَّامةِ الْمُحَدِّثِ ابْنِ رُشَيْدٍ الفِهْرِيِّ السَّبْتِيِّ المَغْرِبِيِّ الأندلُسِيِّ.

قَرَأْتُ هذا الكِتابَ الجليلَ مُصَوَّرًا (pdf)، بتحقيقِ الشَّيْخِ العَلَّامةِ محمَّد الحبيب بَلْخُوجَه، وانتفَعْتُ بِهِ.

تحقيقُ العَلَّامةِ جَيِّدٌ ومُفِيدٌ.

عَلَى أنَّني اِقْتَنَيْتُ اليَوْمَ الكِتابَ بتحقيقِ نَظَر محمَّد الفاريابِيّ.

قالَ الفاريابِيُّ في تقديمِهِ: "وقدِ اِخْتَرْتُ إعادةَ نَشْرِ الكِتابِ لِنَدْرَتِهِ وانقطاعِهِ طويلًا عنِ المكتباتِ، واستفادةِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ هذا العِلْقِ النَّفِيسِ، وكذلك حُبِّي لكِتابِ "الْجامِعِ الصَّحيحِ...".

اعتمَدَ المُحِقِّقُ الجديدُ النُّسْخَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اعتمَدَ عليهِما المُحَقِّقُ القديمُ!

بِرَأْيِكُمْ:

هَلْ تَكْفِي نَدْرَةُ الكِتابِ المُحَقَّقِ مِنْ قَبْلُ تحقيقًا جَيِّدًا = لإعادةِ تحقيقِهِ مَرَّةً ثانيةً؟

ولِمَ لَمْ يُعِدْ نَظَر الفاريابِيُّ نَشْرَةَ العَلَّامةِ بَلْخُوجَه، ويُقَدِّمْ لها بمُقَدِّمةٍ، ويَتَوَلَّ مُراجعتَها، وحَسْبُ؟!

وَهْمٌ قَبِيحٌ وَقَعَ فيهِ نَظَر الفاريابِيُّ!

يقولُ الأستاذُ نَظَر محمَّد الفاريابِيُّ في تقديمِهِ كِتابَ **إفادَةِ النَّصِيحِ بالتَّعريفِ بإسنادِ الْجامِعِ الصَّحِيحِ** لابْنِ رُشَيْدٍ الفِهْرِيِّ السَّبْتِيِّ (ت ٧٢١هـ):

أَمَّا الفِهْرِيُّ: فهي - فبِكَسْرِ (كذا) الفاءِ، وسُكُونِ الهاءِ، بَعْدَها راءٌ - نِسْبَةً إلى فِهْر بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانةَ، وهُمْ بَطْنٌ مِّنْ كِنَانةَ الَّتي يُرْفَعُ نَسَبُها إلى مُضَر القحطانِيَّة [97]!!

يقولُ أبو هاشِمٍ كانَ اللهُ لَهُ: هذا وَهْمٌ قبيحٌ لا يَلِيقُ بأَهْلِ العِلْمِ، وبخاصَّةٍ مَن يَتَصَدَّى للتَّحقيقِ ونَشْرِ الكُتُبِ القديمةِ! فَـ "فِهْر بنُ مالِكِ بْنِ النَّضْر" جِمَاعُ قُرَيْشٍ، وبِهِ يَتَّصِلُ النَّسَبُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ = وهو ابْنُ مالكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنَانةَ! وكِنانةُ - وهذا معروفٌ - مِّنْ مُضَر، ومُضَر يَرتفِعُ نَسَبُهُ إلى عَدْنان لا إلى قَحْطَان!!

والمُشْكِلَةُ أنَّ نَظَر الفاريابِيّ - غَفَرَ اللهُ لهُ - يقولُ في خاتِمةِ مُقَدِّمتِهِ: "وسوفَ يَرَى الباحِثُ الْجادُّ هذا الْجُهْدَ واضِحًا مِّنْ خِلَالِ مُقارَنَتِهِ بينَ الطَّبعتينِ"! يَقْصِدُ طَبْعَتَهُ هذه والطَّبْعَةَ الَّتي اهتدَمَها ولَمْ يُحْسِنْ صِيانَتَها؛ طَبْعَةَ العَلَّامةِ الجليلِ الشَّيْخِ محمَّد الحبيب بَلْخُوجَه!

فعَنْ أَيِّ جُهْدٍ جادٍّ يَتَحَدَّثُ نَظَر الفاريابِيُّ، ونحنُ نقرأُ هذا الجَهْلَ الفاضِحَ؟! ومِنَ البَيِّنِ أنَّ الرَّجُلَ لا يَعْرِفُ أنَّ ابنَ رُشَيْدٍ فِهْرِيٌّ قُرَشِيٌّ! وكانَ حَرِيًّا بالأخِ الفاضِلِ نَظَر أنْ يَعْرِفَ قُدْرَاتِهِ، وأنْ لا يَهْجُمَ عَلَى ما لا يُحْسِنُهُ!

الأَدَبِيَّةُ لا تُنَافِي العِلْمِيَّةَ

قال الدُّكتور حَسَن البَنَّا عِزّ الدِّينِ في كِتابِهِ **شِعْرِيَّة الْحَرْبِ عِنْدَ العَرَبِ قَبْلَ الإسلامِ: قصيدةُ الظَّعَائِنِ نَمُوذَجًا**[98]: إنَّ الدُّكتور وَهْب رُومِيَّةَ قَدَّمَ موضوعَ "رِحْلَةِ الظَّعَائِنِ" في كِتابِهِ **الرِّحْلَةِ في القصيدةِ الْجاهِلِيَّةِ**[99] =

في صُورَةٍ أقربَ إلى الأدبِ مِنْها إلى "البَحْثِ الأدبيِّ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أنَّ عَمَلَهُ بَحْثٌ أكاديميٌّ في أَصْلِهِ. ولَعَلَّ البَحْثَ الحالِيَّ يستطيعُ أن يَنْجُوَ مِنْ هذهِ الإعادةِ النَّثْرِيَّةِ، الشَّيِّقَةِ مَعَ ذلك، للشِّعْرِ القديمِ، ويُوازِنُها بتقديمِ صُورةٍ بَحْثِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ حَسْبَما يَقْتَضِي مَجَالُ البحثِ العِلْمِيِّ!

ولِي عَلَى هذا الكلامِ استدراكاتٌ:

١- غَمَزَ الدُّكتور حَسَن مِنْ أُسْلُوبِ الدُّكتور وَهْب بِعَدِّهِ "أَقْرَبَ إلى الأدبِ" مِنْهُ إلى "البَحْثِ العِلْمِيِّ" مَعَ أنَّ الكِتابَ أُطْرُوحةٌ جامِعيَّةٌ! أمَّا الدُّكتور حَسَن فسَيَنْهَجُ مَنْهَجًا عِلْمِيًّا!

أَمَّا أنَّ أُسْلُوبَ الدُّكتور وَهْب أدبيٌّ فصحيحٌ، ولكنَّ منهجَهُ الَّذي أَخَذَ بِهِ عِلْميٌّ، قِوامُهُ القِرَاءَةُ النَّصِّيَّةُ لقصيدةِ الرِّحلةِ الجاهليَّةِ، ثُمَّ إنَّ النَّتائجَ الَّتي بَلَغَها لا تزالُ تَبْهَرُ وتُدْهِشُ رُغْمَ تَقادُمِ الكِتابِ الَّذي طُبِعَ للمَرَّةِ الأُولَى عامَ 1395هـ = ١٩٧٥م، وتَهَدَّى إلى نتائجَ تُدْنِينا مِنْ رُّوحِ الشِّعْرِ الجاهليِّ قَبْلَ أن يَعْرِفَ الأساتذةُ العربُ - ومِنهم صاحِبُنا حَسَن - المناهِجَ الحداثيَّةَ!

٢- أَمَّا "الإعادةُ النَّثْرِيَّةُ للشِّعْرِ" فهو زَعْمٌ باطِلٌ وادِّعاءٌ؛ فالكِتابُ يأْخُذُ بِيَدِ القارِئِ شيئًا فشيئًا، لِيَبْلُغَ بِهِ "المعنَى الرَّمزيَّ" - أوِ الكِنَائِيَّ - لقصيدةِ الرِّحلةِ.

3- وعندي أنَّ الدُّكتور حَسَن البَنَّا عِزّ الدِّينِ أَلْفَى نَفْسَهُ في وَرْطَةٍ! ماذا يَفْعَلُ إزاءَ عَمَلٍ نَقْدِيٍّ مُدْهِشٍ، هو كِتابُ الدُّكتور وَهْب رُومِيَّةَ؟! أَيَسْكُتُ عنهُ؟ كَيْفَ، والكِتابُ ذائعٌ مَّعروفٌ؟ إذنْ

ما عليهِ إلَّا أن يقولَ هذا الكلامَ المَغْسُولَ البارِدَ عنِ "المنهجِ العِلْمِيِّ" و"اللُّغةِ العِلْمِيَّةِ" و"الإعادةِ النَّثْرِيَّةِ"!

ويَظْهَرُ لِي أنَّ عَيْنَ حَسَن اليُمْنَى كانَتْ تَنْظُرُ في وَرَقَةِ البحثِ، وعَيْنَهُ اليُسْرَى تُسارِقُ النَّظرَ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، إلى كِتابِ وَهْبٍ، ولَمْ يستطِعْ عَلَى ذلك صَبْرًا؛ فكَشَفَتْ كلماتُه سِرَّهُ!

4- ومَأْزِقٌ آخَرُ تَجْلُوهُ لنا كَلِماتُ حَسَن، لا يَقِفُ عِنْدَهُ، وحَسْبُ، وإنَّما يتعدَّاهُ إلى أشباهِهِ مِنْ أساتذةِ الجامِعةِ؛ أولئك الَّذِينَ يُفْزِعُهُم الأُسْلُوبُ الأدبيُّ، وكأنَّ حَسَنًا وأمثالَهُ إنَّما يَكْتُبُونَ بَحُوثًا في الذَّرَّةِ لا في الشِّعْرِ!

وفازَ بِـ "الطَّبْعَةِ" الْجَسُورُ!

حَيَاةُ المَرْكَبِ الشِّراعِيِّ في البحرِ الأحمرِ: تاريخٌ ثقافيٌّ للاستكشافِ المَحْمُولِ بَحْرًا في العالَمِ الإسلاميِّ، ديونيسيوس أ. آجيوس، ترجمة أحمد إيبش، أبو ظبي: مشروع كَلِمة، ٢٠٢١م.

-1-

عُرِّفَ المُؤلِّفُ بأشياءَ، يُهِمُّني مِنْها أنَّهُ "أُستاذٌ مُسَاعِدٌ بجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ بجُدَّةَ، وبأنَّه إثنوغرافيٌّ ولُغَوِيٌّ، متخصِّصٌ في القَوَارِبِ البَحْرِيَّةِ الخَشَبِيَّةِ التَّقليديَّةِ".

ونَقْرَأُ في صَفْحَةِ "شُكْر وتقدير" أنَّ مِنْ بينِ مُمَوِّلِي العَمَلِ المَيْدانِيِّ للدِّراسةِ "الهيئةَ السُّعُوديَّةَ للسِّياحةِ والتُّراثِ الوطنيِّ"، وجامِعةَ المَلِكِ عبدِ العزيزِ، وفِيها شُكْرٌ لصاحِبِ السُّمُوِّ المَلَكِيِّ الأميرِ سُلطان بنِ سلمان - الأمينِ العامِّ للهيئةِ السُّعُوديَّةِ للسِّياحةِ والتُّراثِ الوَطَنِيِّ، آنذاك - ولعَدَدٍ مِّنَ الشَّخْصِيَّاتِ السُّعُوديَّةِ.

- ٢ -

انطوَى الكِتابُ - مِنَ النَّاحيةِ الَّتي تُطِلُّ فيها المملكةُ العربيَّةُ السُّعُوديَّةُ عَلَى البَحْرِ الأحمرِ = عَلَى دِراساتٍ ميدانيَّةٍ وثقافيَّةٍ مُهِمَّة لِـ جُدَّةَ، ويَنْبُع البحرِ، وجازانَ، وفَرَسانَ (يكتبُها المترجِمُ: فَرْسان!)، والقُنفُذةِ (يكتبُها المترجمُ: قُنفُذة!).

- ٣ -

الكِتابُ لَوْنٌ جديدٌ وطَرِيفٌ مِّنَ التَّأليفِ، ومُؤَلِّفُهُ جديرٌ بالتَّقديرِ والتَّكريمِ.

- ٤ -

فازَ "مشروعُ كَلِمة" بإمارةِ أبو ظبي، بِدَوْلةِ الإماراتِ العربيَّةِ المُتَّحِدَةِ = بترجمةِ هذا الكِتابِ المُهِمِّ ونَشْرِهِ!

- ٥ -

أسأَلُ:

- كَيْفَ فَرَّطَتِ المُؤَسَّساتُ الثَّقافيَّةُ والعِلْمِيَّةُ السُّعُوديَّةُ في ترجمةِ الكِتابِ ونَشْرِهِ - ومُؤسَّستانِ سُعُوديَّتانِ كُبْرَيَانِ مَوَّلَتا الدِّراسةَ الميدانيَّةَ، والمُؤَلِّفُ القديرُ أستاذٌ بجامِعةِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ، وأَطْوَلُ سَوَاحِلِ البحرِ الأحمرِ هي السَّواحِلُ السُّعُوديَّة؟! –

- أين جامِعةُ المَلِكِ عبدِ العزيزِ وهيئةُ السِّياحةِ عنْ كِتابٍ مَوَّلَتاهُ؟!

- وأين دارَةُ المَلِكِ عبدِ العزيزِ - المُؤسَّسةُ الثَّقافيَّةُ العِلْمِيَّةُ الكُبرَى - وأين رِئَتُها في النَّاحِيَةِ الغربيَّةِ مِنَ المملكةِ؛ أَعْنِي: مَرْكَز تاريخِ البَحْرِ الأحمرِ وغَرْبِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ؟!

- كيف نُمَوِّلُ دِرَاسةً عظيمةً كهذهِ، ثُمَّ يَحْظَى "مشروعُ كَلِمة" في أبو ظبي بِشَرَفِ ترجمتِها ونَشْرِها؟!

- ٦ -

أسئلةٌ أُقَدِّمُها إلى مُؤسَّساتِنا الثَّقافيَّةِ والعِلْمِيَّةِ الَّتي فَرَّطَتْ في عَمَلٍ يتحدَّثُ، في جانِبٍ عظيمٍ مِنهُ، عنْ بَحْرٍ هو بَحْرُنا! وثقافةٍ هي ثقافتُنا!

دِرَاسَةٌ أَمْ تَلْخِيصٌ

اِتِّجاهاتُ الدِّراساتِ اللِّسانيَّةِ المُعاصِرةِ في مِصْر؛ ١٩٣٢-١٩٨٥م

د. عبد الرَّحمن حَسَن العارِف (بيروت: دار الكِتاب الْجديد المُتَّحِدة، ٢٠١٣م).

الْحَقُّ أنَّني أُشفِقُ عَلَى المُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ يُؤَلِّفُونَ هذا النَّوْعَ مِنَ الكُتُبِ؛ ذلك أنَّ المُؤَلِّفَ - وأنا أتحدَّثُ عنْ هذا الكِتابِ - مَرْجُوٌّ مِنْهُ أن يَكُونَ لُغَوِيًّا عالِمًا باللُّغةِ، ومُؤَرِّخًا يَتَتَبَّعُ الْمَذاهِبَ أوِ الاتِّجاهاتِ، في مكانٍ مَّا وزمانٍ مَّا.

لَكِنَّ المُدَّةَ الطَّويلةَ (١٩٣٢-١٩٨٥) ظَهَرَ أَثَرُها في شيئينِ؛ عَدَدِ صَفَحَاتِ الكِتابِ، ومنهجِ الدَّرْسِ؛ أمَّا الصَّفَحَاتُ فبَلَغَتْ ٦٠٠ صفحةٍ مِنَ القَطْعِ الكبيرِ، وأَمَّا المنهجُ - وهو المُرَادُ مِنْ باحِثٍ في اللُّغةِ - فتَحَوَّلَ إلى شيْءٍ عجيبٍ، فلا هو مِنَ اللُّغةِ متَى أَرَدْنا الدَّرْسَ والفَحْصَ اللَّذَيْنِ لا يُعجِلُنا عنهما الوفاءُ لثلاثٍ وخمسينَ سَنَةً هي مادَّةُ الباحِثِ وحَقْلُهُ = ولا هو مِنَ التَّاريخ متَى فَهِمْنا مِنْهُ مُقَارَبَةَ العَصْرِ والبِيئَةِ والأحوالِ والتَّيَّاراتِ الَّتي أَلَمَّتْ بِمِصْرَ والعالَمِ العربيِّ، مُدَّةَ الدِّراسةِ.

نَهَكَتِ الثَّلاثُ والخمسونَ سَنَةً الباحِثَ، وجَعَلَتْهُ يَلْهَثُ، واضطرَّتْهُ إلى أن يَنْظُرَ في الكُتُبِ والبُحُوثِ والمُحاضَرَاتِ والمقالاتِ - وما أَكْثَرَها! - نَظْرةً عَجْلَى، وكان ينبغي لهُ أن يستأنِيَ، ويُدِيمَ التَّأَمُّلَ في "اتِّجاهاتِ الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ في مِصْرَ"، عَلَى أنَّ المُؤَلِّفَ الفاضِلَ كانَتْ عنايتُهُ بالكَمِّ فَوْقَ عِنَايَتِهِ بالْكَيْفِ، يُرِيدُ أن يَنْتَقِلَ مِنْ مَجالٍ إلى مَجالٍ، ومِنْ لُغَوِيٍّ إلى لُغَوِيٍّ، ومِنْ كِتابٍ إلى كِتابٍ، دُونَ أن يَفُوتَهُ شيْءٌ - ولقدْ فاتَتْهُ أشياءُ – واستبانَ أَثَرُهُ في كِتابِهِ كثيرِ الصَّفَحاتِ كبيرِ الحَجْمِ.

وأَقْرَبُ حَيِّزٍ أَضَعُ الكِتابَ فيهِ هو "العَرْضُ" و"التَّلخيصُ"؛ فالمُؤَلِّفُ يَعْرِضُ ويُلَخِّصُ، يَنْقُلُكَ مِنْ حَقْلٍ لُغَوِيٍّ إلى آخَرَ، ومِنْ كِتابٍ إلى كِتابٍ = يُلِمُّ بِها جميعًا وَّاحِدًا وَّاحِدًا، عَرْضًا

وتلخيصًا، وهكذا دَأْبُهُ في كُلِّ كِتابِهِ، في أُسْلُوبٍ يقترِبُ كثيرًا مِّنَ الأُسْلُوبِ الَّذي نَلْقَاهُ في أبوابِ الكُتُبِ وصَفَحَاتِها، في الصُّحُفِ اليوميَّةِ والمَجَلَّاتِ الأسبوعيَّةِ والشَّهريَّةِ = مِنْ ذلك اللَّوْنِ الرَّصِينِ الَّذي يَكْتُبُهُ صحفيُّونَ مختصُّونَ في عُرُوضِ الكُتُبِ، مَعَ فارِقٍ مُهِمٍّ هو أنَّ "العَرْضَ" و"التَّلخيصَ" شيئانِ مُستحَبَّانِ في الصَّحيفةِ والمَجَلَّةِ، لكنَّهما غيرُ مُسْتَحَبَّيْنِ - فيما أَظُنُّ - في أُطروحةٍ عِلْميَّةٍ عاليَةٍ أُرِيدَ مِنْها دِراسةُ "اتِّجاهاتِ الدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ المُعاصِرةِ في مِصْرَ".

تَفْسِيرٌ سَطْحِيٌّ لِعَبْقَرِيَّةِ البارودِيِّ

يُقَسِّمُ النَّاقِدُ اليَسَارِيُّ الدُّكتور عبدُ المُحْسِن طه بَدْر الشُّعراءَ في مِصْرَ في مُسْتَهلِّ بَعْثَ التُّراثِ إلى فريقين:

- فريقٍ يَرْجِعُ إلى أُصُولٍ مِصْرِيَّةٍ مِثْلَ عَلِيٍّ اللَّيْثِيِّ وعبد الله فِكْرِي وعبد الله النَّديمِ. وهؤلاءِ اتَّخذوا الشِّعْرَ أداةً للارتزاقِ، وقاوَمُوا الأرستقراطِيَّةَ التُّركِيَّةَ بوظيفةِ النَّديمِ، وخاضُوا في التَّشْطِيرِ والتَّرْبِيعِ والتَّخْمِيسِ...

- فريقٍ مِنْ أبناءِ الأرستقراطيَّةِ مِنَ المُغَامِرِينَ العسكريِّينَ الَّذِينَ حالَتْ قُوَّةُ الحُكُومةِ المركزيَّةِ بينهم وبينَ تحقيقِ الْمَجْدِ بالسَّيْفِ، فلَمْ يَبْقَ للجادِّينَ مِنْهُمْ إلَّا طَلَبُ الْمَجْدِ بالقَلَمِ، وكان هؤلاءِ الشُّعَراءُ يَمْلِكُونَ الْفَرَاغَ والمالَ والقُدْرَةَ عَلَى استجلابِ الأساتذةِ واقتناءِ المخطوطاتِ، وامتلاكَهُمْ للدَّافِعِ القَوِيِّ وإحساسَهُمْ بالاستغناءِ عنِ الأرستقراطيَّةِ الحاكمةِ، بَعْدَ أنْ أَحَسُّوا أنَّهم أندادٌ لَّها. وأهمُّ مُمَثِّلي هؤلاء الشُّعراءِ محمود سامي البارودِيّ وإسماعيل صبري وعائشة التَّيْمُورِيَّة[100]

النَّاقِدُ اليسارِيُّ مسكونٌ بالصِّراعِ فإنْ لَمْ يَجِدْهُ اخترعَهُ!

والمسألةُ سَهْلَةٌ يَسِيرةٌ: البارودِيُّ مِنْ بَقَايا المَماليكِ، ومِنْ ذوي المُغَامَرَاتِ العسكريَّةِ، حِيلَ بينهُ وبينَ تحقيقِ الْمَجْدِ بالسَّيْفِ، فلْيُحَقِّقْهُ، إذنْ، بالقَلَمِ! – هكذا، بِبَسَاطَةٍ!! –

لكنَّنا لا نَعْرِفُ، في ذلك العَهْدِ، شاعِرًا عبقريًّا إلَّا البارودِيَّ، ونراهُ بَلَغَ مِنَ المَجْدِ العسكريِّ والسِّياسيِّ أنْ سُمِّيَ وزيرًا للحربيَّةِ، ثُمَّ رئيسًا لِمَجْلِسِ النُّظَّارِ (مَجْلِسِ الوُزَراءِ)! وصارَ، بِحَقٍّ، رَبَّ السَّيْفِ والقَلَمِ!

يَرُوعُكَ النَّاقِدُ اليساريُّ بِكَلِمِهِ عنِ "الإقطاعِ"، و"نِظَامِ الالتزامِ"، و"الأرستقراطيَّةِ"، و"البُرْجُوَازِيَّةِ"، و"قُوَى الشَّعْبِ"... = فإذا أَيْأَسَهُ تفسيرُ عبقريَّةِ البارودِيِّ قالَ ما يَظُنُّهُ تفسيرًا "عبقريًّا"!

شوقي ضيف كان أكثرَ فَهْمًا للمسألةِ في كِتابِهِ **البارودي رائِد الشِّعْرِ الحديثِ**: رَدَّ عبقريَّةَ البارودِيِّ إلى "المَوْهِبَةِ"، واستثمارِها في القِرَاءَةِ العميقةِ، ونَشْأَتِهِ في كَنَفِ أَبٍ مُتَعَلِّمٍ مُثَقَّفٍ، وأُمٍّ رَّعَتِ ابْنَها وأَقْدَمَتْ مِنْ أَجْلِ تهذيبِهِ وتثقيفِهِ المُعَلِّمِينَ = وإلى عامِلٍ أُسْرِيٍّ؛ ذلك أنَّ محمودًا البارودِيَّ لهُ خالٌ شاعِرٌ يُدْعَى إبراهيم، وكان يُخَيَّلُ إليهِ أنَّهُ وَرِثَ الشِّعْرَ عنْ خالِهِ هذا [مِنَ مَجْزُوءِ الرَّمَلِ]:

أَنَا فِي الشِّعْرِ عَرِيقٌ

لَمْ أَرِثْهُ عَنْ كَلَالَهْ(101)

كانَ إِبْرَاهِيمُ خَالِي

فِيهِ مَشْهُورَ الْمَقَالَهْ

ويَنْقُلُ شوقي ضيف عنِ الشَّيْخِ حُسَيْن المَرْصفِيِّ صاحِبِ **الوَسِيلَةِ الأدبيَّةِ** أنَّ البارودِيَّ أَكَبَّ عَلَى الشِّعْرِ القَدِيمِ لَمَّا بَلَغَ سِنَّ التَّعقُّلِ "حتَّى تَصَوَّرَ في بُرْهَةٍ يَّسِيرةٍ هيئاتِ التَّراكيبِ العربيَّةِ...".

وعِندي أنَّ شوقي ضيف، ومِنْ قَبْلِهِ الشَّيْخُ حُسَيْن المَرْصَفِيُّ أَصَحُّ فَهمًا لتفسيرِ عبقريَّةِ البارودِيِّ مِنْ حَذْلَقَةِ النَّاقِدِ اليساريِّ الدُّكتور عبدِ المُحْسِن طه بدر!

عَلَى خُطَى ابْنِ القُوطِيَّةِ

مُعجَمُ أُمّهاتِ الأفعالِ؛ مَعانِيها وأَوجُهُ استعمالِها لِـ أحمد عبد الوهَّاب بَكير[102] = إحياءٌ لِفَنٍّ تُراثيٍّ وتطويرٌ لَّهُ؛ ذلك أنَّهُ استوحَى **كِتابَ الأفعالِ** لِابْنِ القُوطِيَّةِ، أبي بَكْرٍ محمَّد بن عُمَر بن عبد العزيز بن إبراهيم الأندلُسِيِّ (ت ٣٦٧هـ)، واتَّبَعَ منهجَهُ.

يَشْتَمِلُ المُعْجَمُ عَلَى مجموعةٍ كبيرةٍ مِنَ الأفعالِ. وطريقتُهُ أن يُوْرِدَ الفِعْلَ الواحِدَ في استعمالاتٍ مُخْتَلِفَةٍ يَدُلُّنا عليها السِّيَاقُ.

رَجَعَ المُؤَلِّفُ الجليلُ إلى مَصادِرَ ذواتِ عددٍ أهمُّها القُرْآنُ الكريمُ، والحديثُ الشَّرِيفُ، ويَسُوقُ أمثلةً تُؤَدِّي المَعانِي مِنْ كلامِ فُصَحَاءِ العربِ، والشِّعْرِ القديمِ، ونَثْرِ ابْنِ المُقَفَّعِ، والجاحِظِ، وابْنِ قُتَيْبَةَ، وأبي الفَرَجِ الأصبهانيِّ، وأبي حَيَّانَ التَّوحيديِّ، وابْنِ خَلْدُونَ... إلخ، ولا يكتفي بذلك بَلْ يُوْرِدُ الاستعمالاتِ الحديثةَ للأفعالِ في كلامِ الأُدباءِ العربِ المُحْدَثِينَ، كالمَنْفَلُوطِيِّ، ومحمَّد كُرْد عَلِيّ، وطه حُسَيْن، والعَقَّاد، وأحمد أمين، وميخائيل نُعَيْمَه، والشَّابِّيِّ، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ... وآخَرِينَ.

ومِنْ عادتي أنَّنِي أَلُوذُ بهذا المُعْجَمِ الفاخِرِ، وأقرأُ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، في مُجَلَّدَاتِهِ الثَّلاثةِ، وأَسْتَلْهِمُ ما فيهِ مِنِ استعمالاتٍ ودِلالاتٍ.

ذِكْرَى

رَأَيْتُ صُورةَ ميخائيل نُعَيْمَه فتَذَكَّرْتُ ثلاثةَ أَشْهُرٍ قَضَيْتُها مَعَ كُتُبِهِ، وأعادَتْنِي ذِكْراهُ إلى ما أَظُنُّهُ خَيْرَ ما يَفْعَلُهُ الأدبُ فينا: أن يُطَهِّرَنا، ويُنَقِّيَنا.

قَوَّتْ كُتُبُ نُعَيْمَه إيماني باللهِ، وبالخَيْرِ، وبالْجَمَالِ، وبالإنسانِ!

لا تَسْتَغْرِبُوا!

بَثَّ في نَفْسِي صَفَاءً لا عَهْدَ لِي بِهِ.. حتَّى كُنْتُ أَنْتَظِرُ اللَّحْظَةَ الَّتي أَنْتَبِهُ فيها مِنْ نَوْمِي لِأَعُودَ، مِنْ جديدٍ، إلى صديقي مِيشَا!

مِيشَا

ما زِلْتُ دَهِشًا يا مِيشَا..

أَشعُرُ كأنَّني أَذنَبْتُ إذِ ابْتَعَدْتُّ عَنْكَ!

كان مِيشَا - يا أصحابِي - أَكْبَرَ مِنْ أديبٍ، وأَنْقَى مِنْ مُتَصَوِّفٍ، كان ما لا أُسَمِّيهِ..!

مِيشَا أَكْبَرُ مِنْ أن يُكْتَبَ فيهِ نَقْدٌ! ما أَتْعَسَ كَلِمَةَ "ناقِد"! إنَّها لا تَرْقَى إلى ذُرَى مِيشَا..

القِرَاءَةُ خِبْرَةٌ

اِخْتَصَرَ الأدبُ العربيُّ الحديثُ ميخائيل نُعَيْمَه في كِتابِهِ النَّقْدِيِّ **الغِرْبالِ**، وفي كَلِمَتَيْنِ تُقالُ عنْ تجديدِهِ الشِّعْرِيِّ مَنْقُولَتَيْنِ - أوْ مَسْلُوخَتَيْنِ في الغالِبِ - مِنْ كِتابِ **في المِيزانِ الجديدِ** للنَّاقدِ الكبيرِ الدُّكتور محمَّد مندور.

لميخائيل نُعَيْمَه ثلاثونَ كِتابًا، وكُنْتُ قدْ أَخْذَتُّ نَفْسِي بِقِرَاءَةِ أعمالِهِ دُونَ وسيطٍ؛ فاتَّجَهْتُ إلى كُتُبِهِ، وداخَلَني شُعُورٌ بأنَّ صاحِب **مِرْدَاد** غَيَّرَني، وغَيَّرَ نظرتي إلى الحياةِ.

جَرِّبُوا أنْ تقرأوا مَنْ تُحِبُّونَ وما تُحِبُّونَ دُونَ وسيطٍ، ولا تستهينوا بقُدْرَاتِكُمْ، فالقِرَاءَةُ خِبْرَةٌ!

كِتابٌ في فِقْهِ اللُّغةِ

أَصْلُ كِتابِ **حَيَاةِ اللُّغَةِ العربيّة** دُرُوسٌ ألقاها العَلَّامةُ حفني ناصِف (ت ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م) عَلَى طَلَبَةِ الْجامِعةِ المِصْرِيَّةِ القديمةِ - وكان طه حُسَيْن مِنْ أولئك الطَّلَبَةِ -.

والكِتابُ، عَلَى أنَّهُ ضارِبٌ في القِدَمِ(103)، جديرٌ بأن يُعَادُ نَشْرُهُ في طَبْعَةٍ حديثةٍ، بَدَلَ الطَّبْعَةِ الْمُصَوَّرَةِ الرَّدِيئةِ، وأن يُقَرَّرَ في مَرَاجِعِ مادَّةِ "فِقْهِ اللُّغةِ"؛ لاشتمالِهِ عَلَى أَهَمِّ مَسَائِلِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وبِخَاصَّةٍ أَصْلُ حُرُوفِها، وطبيعةُ أصواتِها، وتَرَقِّي شَكْلِها الكِتَابِيِّ...

نَقْرَأُ في الكِتابِ لَوْنًا جديدًا وبَعِيدَ الغَوْرِ في البحثِ والنَّظَرِ، لا أكادُ أَجِدُ لهُ مَثِيلًا فيما بينَ يَدَيَّ مِنْ كُتُبٍ. وأسألُ، اليومَ: لِمَ لَمْ يُقَرَّرْ علينا هذا الكِتابَ في الْجامِعةِ؟

فِقْهُ اللُّغَةِ عَلَى أُصُولِهِ

وعِنْدِي أنَّ الدُّكتور لُطْفِي عبد البديع - رَحِمَهُ اللهُ - ما جاوَزَ الحَقَّ حِينَ وَصَفَ كِتابَهُ **عَبْقرِيَّةَ العربيَّةِ**[104] بِقَوْلِهِ:

وهذا بَحْثٌ نَفْتَتِحُ بِهِ في فِقْهِ اللُّغَةِ أُفُقًا جديدًا مِّنَ النَّظَرِ، مَبْناهُ عَلَى رُؤْيَةِ الإنسانِ للعالَمِ في اللُّغَةِ مُفْرَدَاتٍ وتراكيبَ، وقدْ عَوَّلْنا في المادَّة اللُّغويَّةِ الَّتي عَرَضْناها بالتَّحليلِ عَلَى ما يَضُمُّهُ (المُخَصَّص) لِابْنِ سِيدَهْ، و(لِسَانُ العربِ) لِابْنِ مَنْظُورٍ

كان بَحْثُ لُطْفِي عبدِ البديعِ "في" اللُّغةِ، لا "عَنِ" اللُّغةِ، وكان المُؤَلِّف يُدْرِكُ أنَّ عَمَلَهُ مُبَايِنٌ لِمَا يَقُولُهُ زُمَلاؤُهُ في الْجِوَارِ، مِنْ كلامٍ مُّفِيدٍ، ولكنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِقْهِ اللُّغةِ.. يَقُولُ:

وفِقْهُ العربيَّةِ جازَ فيهِ لِعَهْدِنا كُلُّ شَيْءٍ إلَّا أن يَكُونَ فِقْهَ العربيَّةِ؛ فقدْ تَحَوَّلَ إلى شَذَرَاتٍ مِّنَ السَّامِيَّاتِ والكلامِ في الأصواتِ، استحالَتْ مَعَها اللُّغةُ إلى فقاقِيعَ تتطايَرُ في الْمَعَاهِدِ والْجامِعاتِ. وكان هذا العِلْمُ هو العِلْمَ الْمُقَدَّمَ عِنْدَ الأوَّلِينَ يَعُدُّونَهُ الأَصْلَ الَّذي تُبْنَى عليهِ سائِرُ العُلُومِ، وتاريخُ البحثِ فيهِ يَمْتَدُّ إلى تاريخِ جَمْعِ اللُّغةِ وتدوينِها وما يَتَّصِلُ بذلك مِنْ شُعُورٍ غريبٍ، ثُمَّ تَتَابَعَتْ حَلَقاتُ البحثِ بِكُتُبِ اللُّغةِ والمُعْجَماتِ. وما صَنَّفَهُ عُلَماءُ العربيَّةِ في هذا البابِ لا يَعْدِلُهُ ما صَنَّفَهُ غَيْرُهُمْ مِنْ أبناءِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وقَلَّ أن يُوْجَدَ مُعْجَمٌ كالصِّحَاحِ لِلْجَوْهَرِيِّ في عَهْدِ الْجَوْهَرِيِّ، أوْ مُعْجَمٌ كَلِسَانِ العربِ لِابْنِ مَنْظُورٍ في عَصْرِ ابْنِ مَنْظُورٍ!

بَقِيَ أنْ أقولَ:

إنَّ **عبقريَّةَ العربيَّةِ** هو خَيْرُ مُؤَلَّفاتِ الدُّكتور لُطْفِي عبدِ البديعِ، وأَدَلُّها عَلَى ذكائِهِ وأَلْمَعِيَّتِهِ، وهو يَفُوقُ كِتابَيْهِ **التَّركيبَ اللُّغَوِيَّ للأدبِ**، و**فلسفةَ المَجَازِ** دِقَّةً وإحكامًا، وتَخَلُّصًا مِّنَ الهَوَى والاستخفافِ بالتُّراثِ!

مُقَدِّمةُ الْعَلَّامةِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ

دَرَسْتُ مُقَرَّرَ "فِقْهِ اللُّغَةِ"، في الْجامِعةِ، عَلَى إمامٍ جليلٍ مِّنْ أَئِمَّةِ اللُّغةِ هو العَلَّامةُ الدُّكتور محمَّد يعقوب التُّرْكِستانيّ - حَفِظَهُ اللهُ –

وفِقْهُ اللُّغةِ مِنْ أحَبِّ العُلُومِ عِنْدِي، قَرَأْتُ فيهِ - بِفَضْلِ اللهِ - كثيرًا، ولَوِ اكتفَيْتُ بِمَا تَلَقَّيْتُهُ في دُرُوسِ الْجامِعةِ لكانَ في ذلك خَيْرٌ كثيرٌ؛ ذلك أنَّني وزُمَلائي اتَّصلْنا بِمُدَوَّناتِ التُّراثِ، في ذلك الْعَهْدِ مِنْ عامِ ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، بِفَضْلِ أُستاذِنا العالِمِ الجليلِ.

أَنْفَقْتُ، اليومَ، ساعةً في صُحْبةِ كِتابِ **الإِبْدَالِ** لأبي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ الْحَلَبِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ([105]) - ولا أَعْرِفُ مَصْدَرَ الْمُتْعَةِ الَّتي لَحِقَتْنِي: أكانَ مَصْدَرُها مَتْنَ الكِتابِ، أَمِ الْمُقَدِّمةَ الباذِخَةَ الَّتي امتلأَتْ عِلْمًا وفَهْمًا وبَصَرًا؟ وأَظْهَرَتْ مَقَامَ مُحَقِّقِ الكِتابِ، العَلَّامةِ الجليلِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - في اللُّغةِ، وتحقيقِ التُّراثِ!

تَذَكَّرْتُ - وأنا أَقْرَأُ الْمُقَدِّمةَ العظيمةَ - مُقَرَّرَ "فِقْهِ اللُّغةِ" وأُستاذَنا التُّرْكِستانيَّ، وقُلْتُ في نَفْسِي: لَوْ أنَّ أُستاذَنا قَرَّرَ علينا مُقَدِّمةَ الْعَلَّامةِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ، دُونَ غَيْرِها مِنَ الكُتُبِ؛ قديمِها وحديثِها = لَكانَ فيها كِفَايَةٌ!

ضَبْطُ الأسماء

لا أُبالِغُ في إظهارِ الضِّيقِ إذا أَخْطَأَ أَحَدٌ في ضَبْطِ اسْمِ عَلَمٍ مِّنَ الأعلامِ، ولا أَعُدُّ ذلك مَطِيَّةً للقَدْحِ في عِلْمِهِ والْحَطِّ مِنْ ثقافتِهِ؛ ذلك أنَّ الخَطَأَ في ضَبْطِ الأسماءِ وارِدٌ، ولا نَزالُ، إلى اليومِ، نَحارُ في ضَبْطِ أسماءِ أَعلامٍ ومُدُنٍ وأمكنةٍ وآلاتٍ وخَضْرَاوَاتٍ وفَوَاكِهَ....

أَدْرَكَ عُلَماؤنا ذلك، قديمًا، فتَكَلَّفُوا ضَبْطَ مُشْتَبهِ النِّسْبَةِ، وقَيَّدُوا الأسماءَ، حتَّى إذا تُرْجِمَ لعَلَمٍ مِّنَ الأَعلامِ، ضُبِطَ الاسْمُ، وبُولِغَ في ضَبْطِهِ، بَلْ إنَّ جَمَاعةً مِّنْ أَهْلِ العِلْمِ عُرِفُوا بالتَّأليفِ في هذا الفَنِّ: (مُشْتَبَهِ النِّسْبةِ، والمُؤْتَلِفِ والمُخْتَلِفِ...)، واشتَهَرَ ابنُ خَلِّكانَ - وضَبْطُ اسْمِهِ مُشْكِلٌ! - بِمُقَيَّداتِهِ، آخِرَ كُلِّ ترجمةٍ؛ يُقَيِّدُ أسماءَ الأعلامِ، والقبائلِ، والأمكنةِ بالضَّبْطِ والشَّكْلِ، واستخْرَجَ بعضُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ مُّقيَّدَاتِهِ فوائدَ، مِنْها "فِهْرِسُ التَّقييداتِ" الَّذي صَنَعَهُ العَلَّامةُ محمَّد مُحْيِي الدِّينِ عبدِ الحَمِيد لكِتابِ **وَفَيَات الأعيان** لابْنِ خَلِّكَان، مِنْ تحقيقِهِ، وكِتابُ **مُعْجَمِ مُقَيَّدَاتِ ابْنِ خَلِّكان**، صَنَعَهُ العَلَّامةُ عبدُ السَّلام هارون، ونَظْهَرُ عَلَى ذلك في مَعْلَمَةِ **الأنساب** للسَّمْعانِيِّ، و**اللُّبَابِ** لابْنِ الأثيرِ، ومُعْجَمِ **تاجِ العَرُوسِ** للسَّيِّد محمَّد المُرْتَضَى الزَّبِيديِّ.

اعتدْتُ أنْ أَرْجِعَ في ضَبْطِ الأسماءِ إلى طائفةٍ مِّنَ الكُتُبِ، وهي عِندي "عُدَّةُ البحثِ"، لا فَرْقَ كبيرًا بينَها وبينَ المُعْجَماتِ، وكُتُبِ الرَّسْمِ الإملائيِّ، أَلُوذُ بِهِنَّ كثيرًا، وهي بينَ يَدَيَّ، حِينَ أَكْتُبُ، ولا أعتمِدُ، كثيرًا، عَلَى ذاكِرتي؛ فالخَطَأُ وَارِدٌ، وللاعتيادِ سُلْطانُهُ. وأَذْكُرُ، في الأمسِ القريبِ، أنَّني استأْنَسْتُ بِقامُوسِ **الأعلام** لِخَيْرِ الدِّينِ الزِّرِكْلِيِّ لمعرفةِ ضَبْطِ الأسماءِ، ولَمْ يُفِدْنِي، ففَزِعْتُ إلى كِتابَيْنِ لطيفَيْنِ في ضَبْطِ الأسماءِ؛ أَحَدِهما لأحمد تيمور، والآخِرِ لمحمود مصطَفى.

تَذَكَّرْتُ هذا وأنا أَقْرَأُ ترجمةَ الحافِظِ المُعَمَّرِ أبي طاهِر السِّلَفِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - (ت ٥٧٦هـ) في **سِيَرِ أَعلامِ النُّبَلاءِ** للإمامِ الذَّهَبِيِّ؛ فالسِّلَفيُّ "يُلَقَّبُ جَدُّهُ أحمدُ سِلَفَة، وهو الغَلِيظُ الشَّفَةِ،

وأَصْلُهُ بالفارِسيَّةِ سِلَبَة، وكثيرًا مًّا يَمْزُجُونَ الباءَ بالفاءِ، فالسِّلَفِيُّ مُستفادٌ مَعَ السَّلَفِيِّ - بِفَتْحَتَيْنِ - وهو مَنْ كان عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ (...) والسُّلَفِيُّ - بِضَمٍّ ثُمَّ فَتْحٍ - قَيْسُ بنُ الحَجَّاجِ السُّلَفِيُّ (...) وبِكَسْرٍ وسُكُونٍ: إسماعيلُ بنُ عَبَّادٍ السِّلْفِيُّ القَطَّانُ (...) منسوبٌ إلى دَرْبِ السِّلْفِيِّ، وهو مِنْ قَطِيعَةِ الرَّبِيع ببغداد، وبِفَتْحَتَيْنِ وقافٍ: أبو عَمْرٍو أحمدُ بنُ رَوْحِ السَّلَقِيُّ، هَجَاهُ البُحْتُرِيُّ، وبِزِيَادَةِ ياءٍ: إسماعيلُ بنُ عَلِيٍّ السَّلِيقِيُّ مِنْ كِبارِ مَشْيَخَةِ السِّلَفِيِّ صاحِبِ التَّرجَمةِ"[106]!

ومَرَّ بي قَبْلَ أُسبوعٍ اسْمُ حماس بنِ قَيْسٍ، ولمْ أَهتدِ إلى ضَبْطِهِ، وكان الخَبَرُ ذا صِلَةٍ بِجَبَلِ "خَنْدَمَةَ" بمكَّةَ المُشَرَّفةِ - حَرَسَها اللهُ - فرَجَعْتُ إلى **مُعْجَمِ البُلْدَانِ** لياقوت الحَمَوِيّ؛ فإذا هو "حِمَاس" - بِكَسْرٍ ففتْحٍ - وخَبَرُهُ في فَتْحِ مَكَّةَ يستحِقُّ أن يُرْوَى، لِمَا فيهِ مِنْ طَرَافَةٍ[107]:

كان لَمَّا وَرَدَ النَّبيُّ، صلَّى الله عليه وسَلَّم، عامَ الفَتْحِ، جَمَعَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ وعِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو جَمْعًا بالخَنْدَمَةِ ليُقَاتِلُوهُ، وكان حِمَاسُ بنُ قَيْسِ بنِ خالِدٍ أَحَدُ بَنِي بَكْرٍ قدْ أَعَدَّ سِلاحًا، فقالَتْ لهُ زوجتُهُ: ما تَصْنَعُ بهذا السِّلاحِ؟ فقالَ: أُقاتِلُ بهِ محمَّدًا وأصحابَهُ، فقالَتْ: واللهِ ما أَرى أنَّ أَحَدًا يَقُومُ لمحمَّدٍ وأصحابِهِ! فقالَ: واللهِ إنِّي لَأَرْجُو أنْ أُخْدِمَكِ بعضَهُمْ! وخَرَجَ فقاتَلَ مَعَ مَنْ بالخَنْدَمَةِ مِنَ المشرِكِينَ فمالَ عليهم خالِدُ بنُ الوليدِ فقَتَلَ بعضَهُمْ وانهزَمَ الباقونَ، وعادَ حِمَاسٌ مُنْهَزِمًا وقالَ لِامْرَأَتِهِ: أَغْلِقِي عَلَيَّ بابي! فقالَتْ: أين ما كُنْتَ تقولُ؟! فقالَ: [مِنَ الرَّجَز]

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِّ يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ

إذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

وَحَيْثُ زَيْدٌ قائِمٌ كالمُؤْتِمَهْ

وَاسْتَقْبَلَتْنا بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ

يَقْطَعْنَ كُلَّ ساعِدٍ وَجُمْجُمَهْ

ضَرْبًا، فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ

لَمْ تَنْطِقِي بِاللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ!

مُرَاجَعاتُ حَمْزَةَ المُزَيْنِيِّ

فاتَنِي - لَمَّا التحَقْتُ ببرنامِجِ الدِّرَاساتِ العُلْيا بجامِعة المَلِكِ سُعُود بالرِّياض، سنةَ ١٤١٨هـ = التَّلْمَذَةُ للعالِمِ الجليلِ الدُّكتور حَمْزَةَ المُزَيْنِيِّ، في مادَّة "عِلْمِ اللُّغةِ"، ومادَّةِ "مَناهِجِ البَحْثِ"؛ لِتفَرُّغِهِ للبحثِ العِلْمِيِّ آنَئِذٍ.

وكانَ مِنْ عادةِ الدُّكتور حَمْزَةَ المُزَيْنِيِّ أنْ أجتمِعَ بِهِ في مَكْتَبِهِ، مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، رُغْمَ تَفَرُّغِهِ العِلْمِيِّ، وكان يَطِيبُ لِي أنْ أَزُورَهَ، وأُبادِلَهُ الأحاديثَ المُعْتادةَ عنِ الْجامِعةِ، والدُّرُوسِ، والصِّحافةِ، وكان المُزَيْنِيُّ واحِدًا مِّنْ نُجُومِها، بِفُصُولِهِ الَّتي يُسَاجِلُ بِها كُلَّ النَّاسِ: عبدَ الله الغذَّاميَّ، وحَسَن الهُوَيْمِل، والمُحافِظِينَ والحداثيِّينَ، وكان في الرَّجُلِ جَلَدٌ عَلَى المُسَاجَلَةِ والمُبَارَزَةِ، وقُدْرةٌ عَلَى التَّنقيبِ والبحثِ والتَّفتيشِ والحِجَاجِ، ولا يزالُ القُرَّاءُ والمثقَّفُونَ يستذكرونَ طَرَفًا مِّنْ مَّقالاتِهِ الحَوْلِيَّةِ عنِ "الأَهِلَّةِ"، وهو ماضٍ في ما قَصَدَ إليهِ، لا يَصْرِفُهُ عَمَّا يُرِيدُ ما يَلقاهُ مِنْ عَنَتِ الخُصُومِ، ولا تَخْدَعُهُ عنْ سبيلِهِ مُؤَازَرَةُ الأحبابِ والأصحابِ.

عُرِفَ حَمْزَةُ المُزَيْنِيُّ بالتَّرجمةِ، وهو معدودٌ في الطَّبَقَةِ العُلْيا مِنَ المُتَرْجِمِينَ العربِ المُعاصِرِينَ، لا سِيَّما ما اتَّصَلَ بِصَنْعَتِهِ في اللُّغةِ، ويمتازُ أُسلوبُهُ بالوُضُوحِ، والاقتصادِ، ومَتَانَةِ التَّركيبِ، فإذا عَدَوْنا الفُصُولَ الَّتي أذاعَها في الصِّحافةِ يُرِيدُ بِها السِّجَالَ والخِصَامَ، رَأَيْنا مَزِيَّتَهُ في مُرَاجَعةِ الكُتُبِ ونَقْدِها، ولهُ في ذلك جمهرةٌ واسِعةٌ مِّنَ المَقالاتِ العِلْمِيَّةِ الرَّصِينةِ، تَنَاثَرَتْ في غيرِ كِتابٍ مِنْ كُتُبِهِ[108]، وغايَتُهُ الَّتي يَرْمِي إليها تصحيحُ أوهامِ اللُّغويِّينَ المُحْدَثِينَ في دَرْسِ اللُّغةِ.

لا أستطيعُ أنْ أَخْرُجَ مِنْ مُّراجعاتِ حَمْزَةَ المُزَيْنِيِّ كما وَلَجْتُ إليها؛ إنَّ أَظْهَرَ مَزِيَّةٍ فيهِ تبديدُهُ أوهامَ اللُّغويِّينَ العربِ المُحْدَثِينَ، مهما ادَّعَى بعضُهم "التَّحديثَ" أَوْ تَوَهَّمَ ذلك، وتلك مُهِمَّةٌ ليستْ باليسيرةِ: تبديدُ الأوهامِ في دَرْسِ اللُّغةِ العربيَّةِ، ونَقْضُ الأساسِ الَّذي يَلُوذُ بِهِ هذا الدَّارِسُ أوْ ذاك، مهما أُوْهِمْنا بحداثةِ تلك الدِّراساتِ!

كِتابٌ مُمِلٌّ!

رُبَّما كان كِتابُ **مُقَدِّمةٍ في نظريَّةِ الأدبِ** للدُّكتور عبدِ المُنْعِم تُلَيْمَة[109] = أَكْثَرَ الكُتُبِ الَّتي اطَّلعْتُ عليها جَلْبًا للمَلَلِ!

وهَدَتْني تجرِبتي في القِراءَةِ إلى أنَّ الماركسيَّ السَّلَفِيَّ يُصْبِحُ، متَى كَتَبَ، إنسانًا مُمِلًّا! داخَلَني هذا الشُّعُورُ حِينَ قَرَأْتُ كِتابَ **مشروع رُؤْيةٍ جديدةٍ للفِكْرِ العربيِّ في العَصْرِ الوسيطِ** للدُّكتور طَيِّب تِيزينيّ، وها أَنَذَا أَتَجَرَّعُ المَلَلَ نَفْسَهُ في كِتابِ تُلَيْمَة!

ومَصْدَرُ المَلَلِ أنَّ كِتابَ تُلَيْمَةَ - وهو معدودٌ في نظريَّةِ الأدبِ - بالَغَ في التَّصَوُّرِ المادِّيِّ للأدبِ والثَّقافةِ، فإذا بأُستاذِ النَّقْدِ الأدبيِّ الحديثِ يُلَخِّص لقارئِهِ كلامًا بائِتًا عنِ "العَمَلِ"، وجَعَلَ يَبْدَأُ القَوْلَ فيهِ ويُعِيدُهُ، ثُمَّ عَرَّجَ عَلَى اللُّغةِ الإنسانيَّةِ عِنْدَ "الإنسانِ البِدَائِيِّ"، وفي "العَصْرِ الحَجَرِيِّ"! في ضَرْبٍ مِّنْ ضُرُوبِ الاستعراضِ، مَعَ أنَّ هذا النَّمَطَ مِنَ التَّفكيرِ يَأْبَاهُ الدَّرْسُ اللُّغويُّ الحديثُ؛ فَمِنْ أين عَرَفَ أُستاذُ النَّقْدِ الأدبيِّ الحديثِ لُغَةَ الإنسانِ البدائيِّ؟ وكَيْفَ انساقَ وراءَ افتراضاتِ عُلَماءِ الإناسةِ والحضارةِ، وكَيْفَ استسهَلَ فكانَ سَخِيًّا في عَدِّ السِّنِينَ فبَلَغْنَ عِنْدَهُ، غيرَ مَرَّةٍ، ملايينَ السِّنِينَ؟! في كلامٍ مَسِيخٍ يُوهِمُ بالأصالةِ، فإذا احْتَمَلْتَ ما فيهِ مِنْ مَّلَلٍ لا مَثِيلَ لهُ؛ لَمْ يَصْعُبْ عليكَ رَدُّ وَهْمِ التَّعالُمِ والإيهامِ بالتَّفَلْسُفِ = إلى أنَّ الكِتابَ المعدودَ في نظريَّةِ الأدبِ ليس سِوَى تلخيصٍ مَدْرَسِيٍّ بائِسٍ ومُمِلٍّ!

عَلِيّ جَوَاد الطَّاهِرُ ومُفَكِّرَةُ الْجَيْبِ!

لا تستهينُوا بالمَحَبَّةِ ولا بِمُفَكِّرَةِ الجَيْبِ!

مهما قِيلَ عنْ صِلَةِ العَلَّامةِ العِراقِيِّ الجليلِ الدُّكتور عَلِيّ جَوَاد الطَّاهِر (1338-1417هـ = ١٩١٩-١٩٩٦م) بالأدبِ والثَّقافةِ والفِكْرِ والتَّأليفِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ = فليسَ سِوَى "المَحَبَّةِ" الَّتي رَبَطَتِ الأُستاذَ العِراقِيَّ بهذهِ البِلادِ لَمَّا هَبَطَها، أَوَّلَ مَرَّةٍ، سنةَ ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م، واستقَرَّ في عاصِمَتِها الرِّياضِ، أُستاذًا في جامِعتِها النَّاشِئَةِ جامِعةِ المَلِكِ سُعُود، وهي، آنَئِذٍ، طِفْلَةٌ في عامِها السَّادِسِ.

لكنَّ العاشِقَ العِرَاقِيَّ الَّذي عُهِدَ إليهِ بتدريسِ مادَّةِ "الأدبِ العربيِّ الحديثِ" = هالَهُ أن يُدَرِّسَ الأدبَ في العِرَاقِ ومِصْرَ ولُبْنَانَ... ولا يُدَرِّسُ الأدبَ في بِلادٍ هو أُستاذٌ في جامِعتِها! فَشَرَعَ يَبْحَثُ ويُفَتِّشُ في مكتباتِها، ودُورِ عُلَمائِها وأُدبائِها وأعيانِها، عنْ كِتابٍ أوْ مَجلَّةٍ أوْ مَلْزَمَةٍ فيها شيْءٌ مِّنَ النِّتَاجِ الفِكْرِيّ لأبنائِها، وأَخَذَ يَتَنَقَّلُ في غيرِ مدينةٍ سُعُودِيَّةٍ، وفي "جَيْبِ" بَدْلَتِهِ "مُفَكِّرَةٌ" صغيرةٌ يُقَيِّدُ فيها ما ظَفِرَ بِهِ، وكَبُرَتِ "المُفَكِّرَةُ" وصارَ لها "أَخَوَاتٌ"، وبَدَأَ يَنْشُرُ في مَجلَّةِ **العَرَب**؛ مَجلَةِ صديقِهِ العَلَّامةِ الشَّيْخِ حمد الجاسِر = فُصُولًا عن النِتَاجِ الفِكْرِيِّ لهذهِ البِلادِ، وحِينَ عادَ إلى وَطَنِهِ العِرَاقِ واصَلَ المَسِيرَةَ، فَوَلَدَتْ "مُفَكِّرَةُ الجَيْبِ" عَمَلَهُ الباذِخَ العظيمَ **مُعْجَمَ المطبوعاتِ العربيَّةِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ**(110)!

خَلِّ بالَك مِنَ المُرْتضَى الزَّبِيدِيِّ!

تُوُفِّيَ السَّيِّدُ محمَّد المُرْتَضَى الزَّبِيدِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - في القاهرةِ المحروسةِ، سنةَ ١٢٠٥هـ.

والمُرْتَضَى الزَّبِيدِيُّ هِنْدِيُّ المَوْلِدِ والدَّارِ، عَرَبِيُّ النِّجَارِ، هاشِمِيٌّ إذا دُعِيَ إلى الفَخَارِ!

عاشَ في مدينةِ زَبِيد في اليَمَنِ ونُسِبَ إليها، وتَكَرَّرَتْ زِياراتُهُ للحِجَازِ الشَّرِيفِ، وفيهِ أشارَ عليهِ شَيْخُهُ السَّيِّدُ عبدُ الرَّحمنِ العَيْدَرُوسُ الحَضْرَمِيُّ ثُمَّ المِصْرِيُّ، أن يَتَّخِذَ مِصْرَ القاهرة مَحَلَّ إقامتِهِ، فنَزَلَها وعاشَ فيها نَحْوًا مِنْ أربعينَ عامًا، حتَّى صارَ مِصْرِيًّا بالهِجْرَةِ والإقامةِ والوَفاةِ.

يُهِمُّني مِنْ سِيرتِهِ العَطِرَةِ أنَّهُ كان، وهو نَزِيلُ القاهرةِ، حَلْقةَ وَصْلٍ بَيْنَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ؛ يَقصِدُهُ العُلماءُ والمُتَعَلِّمونَ، والأُمراءُ والكُبراءُ، لِيَرْوُوا عنهُ الحديثَ، ويَنْهَلُوا مِنْ عِلْمِهِ، ويَقْتَبِسُوا مِنْ بَرَكَتِهِ.

يقولُ تِلْمِيذُهُ عبدُ الرَّحمنِ الجَبَرْتِيُّ، صاحِبُ التَّاريخِ الشَّهِيرِ: إنَّ الحُجَّاجَ المَغَارِبَةَ يُلِمُّونَ بِهِ، ويَنْزِلُونَ بِساحَتِهِ، في طريقِ حَجِّهِمْ، ذَهَابًا وإيابًا، وكانَ لَهُمْ فيهِ اعتقادٌ عظيمٌ، حتَّى كأنَّ حَجَّهُمْ لا يَتِمُّ إلَّا بِهِ

وصارَ لهُ عِنْدَ أَهْلِ المَغْرِبِ شُهْرَةٌ عَظيمةٌ وَّمَنْزِلَةٌ كبيرةٌ وَّاعتقادٌ زايِدٌ، ورُبَّما اعتقدُوا فيهِ القُطْبانِيَّةَ العُظْمَى، حتَّى إنَّ أَحَدَهُمْ إذا وَرَدَ إلى مِصْرَ حاجًّا وَّلَمْ يَزُرْهُ ولَمْ يَصِلْهُ بِشَيْءٍ = لا يَكُونُ حَجُّهُ كامِلًا[111]!

نَقْد حِجَازِيّ!

بمقاييسِ عَرُوسِ المَدائنِ جُدَّةَ المُناخُ، اللَّيلةَ، بارِدٌ!

وأنا أَعِيشُ، مِنْ جديدٍ، مَعَ الشَّاعِرِ أحمد عبد المُعْطِي حِجَازِيّ، ومَعَ كِتابِه البديعِ عِنوانًا وموضوعًا **أحفاد شوقيّ**(112)!

الله! ما أَجْمَلَ أحمدَ شوقيّ وأَعْظَمَهُ!

مَرَّ عَلَى قِراءَتي لهذا الكِتابِ الحبيبِ ٣١ عامًا (١٤١٣ - ١٤٤٤هـ)! ولا زالَتْ حلاوتُهُ عالِقةً بِذَوْقِي ووِجداني!

أحمد عبد المُعْطِي حِجَازِيّ شاعِرٌ رائِدٌ، واسْمٌ مُثيرٌ، ومُحَيِّرٌ، ومُسْتَفِزٌّ، وأحيانًا أَرْعَنُ!

وهو - عِندي - مِنْ أَجْمَلِ مَن يَكْتُبُ في نَقْدِ الشِّعْرِ، ومِنْ أَعْذَبِ مَنْ يُنْشِئُ فَصْلًا مِّنَ النَّثْرِ، ولا عليكَ إنْ لَمْ تُحِبَّ شِعْرَهُ، لكنَّكَ ستَخْسَرُ، كثيرًا، إنْ فاتَكَ أنْ تَقْرأَ نَثْرَهُ!

أَتُرِيدُ الْجَمَالَ؟ مَحبَّةَ الشِّعْرِ؟ النَّقْدَ الصَّافِيَ المُبَرَّأَ مِنِ ادِّعاءِ الأكاديميِّينَ وتَعَالُمِهِمْ؟

أَتُرِيدُ كُلَّ ذلك؟

إذَنِ اِقْرَأْ نَقْدَ حِجَازِيٍّ، واشْكُرْ لهُ أنْ مَّنَحَنا هذا الشَّاعِرُ الصَّلِفُ المغرُورُ = كُلَّ هذا القَدْرِ مِنَ البَهَاءِ!

التَّغريبةُ الأندلُسِيَّةُ

أنا مُحِبٌّ للعَلَّامةِ المَقَّرِيِّ التِّلْمِسَانيِّ صاحِبِ **نَفْحِ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأندلُسِ الرَّطِيبِ**، وأُحِسُّ أنَّهُ شَيْخِي وصديقي.

عاشَ المَقَّرِيُّ مُعْظَمَ حياتِهِ في المَشْرِقِ (مِصْر - سُوْرِيَة - الحِجَاز)، واتَّخَذَ مِصْرَ دارَ إقامةٍ، وأَحَبَّ الشَّامَ، وتَوَلَّهَ بالحِجَازِ.

كأنَّما **نَفْحُ الطِّيبِ** و**أزهارُ الرِّياضِ** لَحْنانِ أندَلُسِيَّانِ بديعانِ، أوْ كأنَّهما هَدِيَّةُ المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ، وهُما، عِندي، دليلُ انتماءٍ واتِّصالٍ بينَ جناحَيِ الأُمَّةِ، وكأنَّما كان المَقَّرِيُّ سفيرَ المَغَارِبَةِ في المَشْرِقِ، وكأنَّهُ، كذلك، رسُولُهُمْ إليهِمْ يَقُصُّ عليهم "التَّغريبةَ الأَندلُسِيَّةَ".

هَلِ احْتَفَلَ المُسلِمونَ بأعيادِ النَّصارَى؟

مِنْ أَطْرَفِ ما مَرَّ بِي بَحْثٌ مُمْتازٌ للدُّكتور صلاح جَرَّار عِنْوَانُه "احتفاءُ مُسْلِمي الأندلُسِ بأعيادِ المسيحيِّينَ"، في كِتابِهِ اللَّطيفِ **زَمان الوَصْلِ؛ دِراساتٌ في التَّفاعُلِ الحضاريِّ والثَّقافيِّ في الأندلُسِ** (٢٠٠٤م)[113].

وها أَنَذا أُلَخِّصُهُ بألفاظِهِ وعِبَاراتِهِ في هذهِ النِّقَاطِ:

-١-

وخُلاصَةُ البَحْثِ المُستَقَى مِنْ مَّصادِرِ التَّاريخِ والأدبِ، وكُتُبِ النَّوَازِلِ الفِقْهِيَّةِ = أنَّ مُجْتَمَعَ الأَنْدَلُسِ إبَّانَ الحُكْمِ العربيّ (٩٢-٨٩٧هـ) امتازَ بالتَّنوُّعِ الثَّقافيِّ، وتآلُفِ العناصرِ المُكوِّنةِ لهُ مِنْ عَرَبٍ وبَرْبَرٍ وإسبانٍ وصقالبةٍ ومسيحيِّينَ ومُسْلِمِينَ ويَهُودٍ وغيرِهِمْ، وأنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِّيَتَسَنَّى ذلك لَوْلا سِياسةُ حُكَّامِ الأندلُسِ القائمةِ عَلَى العَدَالةِ والتَّسامُحِ واحترامِ الهُوِيَّاتِ الثَّقافيَّةِ لِمُخْتَلِفِ عناصِرِ المُجْتَمَعِ الأندلُسِيِّ.

-٢-

ولَمْ يَقِفِ المسلمونَ عِنْدَ هذا الحَدِّ، بَلْ إنَّهُمْ لَيُشارِكُونَ النَّصَارَى أعيادَهم؛ مِثْلَ مِيلادِ السَّيِّدِ المَسِيحَ - عليه السَّلامُ - وعِيدِ العنْصَرَةِ، وخَمِيسِ أبريل، وغيرِها مِنَ الأعيادِ.

-٣-

احتفَلَ الأندلُسِيُّون بِمُخْتلِفِ طَبَقاتِهِمْ بأعيادِ النَّصارَى؛ الرِّجَالِ، والنِّساءِ، والصِّغَارِ، والكِبارِ، والرَّعِيَّةِ، والحُكَّامِ، والأُدباءِ، والْجَوَارِي، والْحَرَائِرِ، باستثناءِ حالاتٍ مَّحْدُودةٍ مِّنَ الفُقَهاءِ المُتَشَدِّدِينَ.

-٤-

تَفَنَّنَ الأندلُسِيُّونَ في الاحتفالِ بهذهِ الأعيادِ؛ نَصَبُوا المَوَائِدَ، وتَخَيَّروا أصنافَ الفواكِهِ وأنواعَ الطُّرَفِ، وتَهَادَوْا فيها بالتُّحَفِ... وبَلَغَ بِهِمْ أنْ تَواطَؤُوا عَلَى إعظامِ هذهِ الأعيادِ، واستسهلوها، حتَّى صارَتْ عِندَهُمْ كالسُّنَّةِ المتَّبَعةِ، وسَكَتَ العُلماءُ عن الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ فيها، وتَأَنَّى السُّلْطانُ في تغييرِها!

-٥-

وكانَ النَّاسُ في هذهِ الأعيادِ يتبادلُونَ الهَدَايا، حتَّى إنَّ الطَّلَبَةَ كانوا يُهْدُونَ شُيُوخَهم، كما كانوا يَذْبَحُونَ الذَّبائحَ!

-٦-

ويُفْهَمُ مِنْ بعضِ المَصادِرِ أنَّ الطَّلَبَةَ كانوا يُعطِّلُونَ عنِ الذَّهاب إلى المَدارِسِ، في تلك الأعيادِ!

سِيرةٌ ذاتِيّةٌ.. أَمْ نَمِيمةٌ ثقافِيّةٌ؟

لَمْ يَخْرُجِ الدُّكتور حُسَيْن نَصَّار - رَحِمَهُ اللهُ - عنْ شَرْطِهِ حينما أضافَ إلى العِنْوَانِ الكبيرِ لكِتابِهِ **التَّحدُّث بِنِعْمَةِ اللهِ** عِنْوَانًا شارِحًا صغيرًا: **سِيرة عِلْمِيّة** (١٤٣٩هـ = ٢٠١٧م)([114]).

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّ السِّيرةَ أصابَها شيْءٌ ليس بقليلٍ مِّنْ جَفَافِ العِلْمِ، وكان قَمِينًا أنْ تُطَرَّى بالأدبِ؛ فالدُّكتور حُسَيْن نَصَّار ليس عالِمَ لُغةٍ، وحَسْبُ، ولكنَّهُ باحِثٌ لَّهُ مقامُهُ في دَرْسِ الأدبِ الشَّعْبِيِّ والفُنُونِ.

رُبَّما أَعْجَلَتْهُ سِنُّهُ العالِيَةُ، يَوْمَ وَضَعَ سِيرتَهُ، عنْ أن يستأْنِيَ فيها، فيُلِمَّ بِنَفْسِهِ، فتُصْبِحَ أدبيَّةً، أوْ قريبةً مِّنَ الأدبيَّةِ، وعَسَاهُ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بأنَّهُ "ذُو عَقْلٍ عِلْمِيٍّ"، وَقَفَ عَقْلُهُ في طريقِ نَفْسِهِ، ولَيْتَهُ رأى كَيْفَ مَنَحَنا فيلسوفُ الوَضْعِيَّةِ المَنْطِقِيَّةِ الدُّكتور زكي نجيب محمود = ذَوْبَ نَفْسِهِ، وأَظْهَرَنا عَلَى صَوْبِ عَقْلِهِ في سِيرتَيْنِ بديعتَيْنِ، هُما **قِصَّةُ نَفْسٍ**، و**قِصَّةُ عَقْلٍ**.

بَدَا لِي الدُّكتور حُسَيْن نَصَّار جافَّ العواطِفِ، يابِسًا، وكُنْتُ كأنَّما أَقْرَأُ "نَمِيمةً ثقافيَّةً"، مِّنْ تلك الَّتي تُسْمَعُ، كثيرًا، في مَجَالِسِ الأساتذةِ والمُثَقَّفِينَ، أوْ كأنَّما أرادَ المُؤَلِّفُ - وقَدْ نَسَأَ اللهُ - تَبارَكَ وتعالَى - في عُمْرِهِ - أن يَثْأَرَ لِنَفْسِهِ مِنْ مُّنَافِسِيهِ وخُصُومِهِ، أيَّامَ الطَّلَبِ، وفي الجامِعةِ، وفي الحياةِ العامَّةِ، وحَيْثُ تَنَقَّلَ. نَعَمْ، قالَ حُسَيْن نَصَّار في مُقَدِّمةِ سِيرتِهِ: إنَّهُ يَتَّسِمُ بالصَّراحةِ، ولكنَّهُ كان يُناطِحُ طَوَاحِينَ الهواءِ، ويَطْلُبُ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالَ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ نَّازَلَهُمْ وأَظْهَرَ الشَّجاعةَ تُجَاهَهُمْ، ومِنْهم مَّنْ طَعَنَ في أخلاقِهِ وسُلُوكِهِ = هُمْ بَيْنَ يَدَيِ البارِي - جَلَّ في عُلاهُ –

إذنْ، كانَتْ سِيرةُ الأستاذِ الجليلِ جافَّةً، شاحِبَةً، يَلْهَثُ صاحِبُها وكأنَّهُ يُرِيدُ أنْ لا يُدْرِكَهُ أَجَلُهُ - رَحِمَهُ اللهُ - قَبْلَ أن "يُسَوِّيَ حِسَابَهُ"، بِأُسْلُوبٍ دِنْكِشُوتِيٍّ، مَعَ أساتذتِهِ وزُملائِهِ وأندادِهِ!

النُّبُوغُ الأَنْدَلُسِيُّ

أَوَّلُ عهدي برسالةِ العَلَّامةِ ابْنِ حَزْمٍ الظَّاهِريِّ الأندلُسِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - "فَضْل الأندلُس وذِكْر رِجَالِها" = عامَ ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

كُنْتُ أُعِدُّ بَحْثًا عنِ "الصِّلاتِ الثَّقافيَّةِ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ"، فلَقِيْتُ كلامًا عالِيًا عنِ الرِّسالةِ، في كِتابِ العَلَّامةِ إحسان عَبَّاس **الأدبِ الأندلُسِيِّ**، فلَمَّا رَجَعْتُ إلى **رسائِلِ ابنِ حَزْمٍ** مِنْ إخراجِ إحسان عَبَّاس[115] = قَرَأْتُ الرِّسالةَ بِتَمَامِها، وكان العَلَّامةُ الفلسطينِيُّ الجليلُ قدِ استخرَجَها مِنْ كِتابِ **نَفْحِ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأندلُسِ الرَّطِيبِ** للمَقَّرِيِّ التِّلْمِسَانِيِّ.

وعلينا أنْ نقرأَ الرِّسالةَ ونَتَفَهَّمَ الأحوالَ الَّتي أَدَّتْ إليها؛ فابْنُ حَزْمٍ أندلُسِيٌّ مُتَعَصِّبٌ لبلادِهِ وناحِيَتِهِ، وما هانَ عليهِ أن يَعْنُوَ أَهْلُ ذلك الإقليمِ القَصِيِّ لِعِلْمِ المَشارِقَةِ وأَدَبِهِمْ وفِقْهِهِمْ، فأنشأَ رِسالتَهُ هذهِ للكشفِ عنْ "نُبُوغِ الأندلُسِيِّينَ"، هذه العِبَارةِ الَّتي سنلقاها في العَصْرِ الحديثِ جَلِيَّةً واضِحَةً في كِتابِ العَلَّامةِ الجليلِ عبدِ الله كَنُّون الحَسَنِيِّ **النُّبُوغ المَغْرِبيّ**[116].

كان "النُّبوغُ الأندلُسِيُّ" - ومِنْ وَّرَائِهِ النُّبُوغُ المَغْرِبِيُّ - هَمًّا يُؤَرِّقُ أبناءَ تلك الأصقاعِ القَصِيَّةِ، وكان تَعَصُّبُ الأندلُسِيِّينَ لِجَزيرتِهِمْ بَيِّنًا في غيرِ كِتابٍ ورِسالةٍ، لا تُخْطِئُهُ العَيْنُ، وما كِتابُ **الذَّخِيرةِ في مَحاسِنِ شُعَراءِ أَهْلِ الجزيرةِ** (الأندلُسِيَّةِ) لابْنِ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيِّ إلَّا حَلْقةٌ مِّنْ حَلَقاتِ التَّدليلِ عَلَى نُبُوغِهِمْ، وتُطالِعُنا مُقَدِّمةُ الكِتابِ بِمَا يُشْبِهُ الحِجَاجَ أوِ المُرَافَعَةَ، يَسْتَدِلُّ بِهِما ابنُ بسَّامٍ عَلَى نُبُوغِ أَهْلِ صُقْعِهِ وناحيتِهِ!

لا تستوعِبُ هذهِ الكَلِمةُ كُلَّ ما قِيلَ، وحَسْبِي أنْ أُشِيرَ إلى أنَّ "النُّبُوغَ الأندلُسِيَّ" شَغَلَ أذهانَ جَمْهَرَةٍ مِّنَ الأندلُسِيِّينَ الَّذين ساحُوا في المَشْرِقِ، وأَهَمُّهُمُ ابْنُ سَعيدٍ المَغْرِبِيُّ الأندلُسِيُّ، وابْنُ دِحْيَةَ الكَلْبِيُّ.

إحسان عَبَّاس والسَّيَّاب

قَرَأْتُ كِتابَ **بَدْر شاكِر السَّيَّاب؛ دِرَاسةٌ في حياتِهِ وشِعْرِهِ** للنَّاقِد الدُّكتور إحسان عَبَّاس مَرَّتينِ(117)، في زمنينِ مُخْتَلِفَيْنِ.

صَدَرَ الكِتابُ سنةَ 1389هـ = ١٩٦٩م.

ومَنْهَجُهُ في الكِتابةِ مُبايِنٌ للمنهجِ المُتَّبَعِ في الكُتُبِ النَّقْدِيَّةِ، فلا حديثَ عنِ الصُّورةِ، ولا البِنَاءِ، ولا مُوسيقا الشِّعْرِ... وأمثالِها مِنَ التَّبويبِ المدرسِيِّ، وإنَّما قِوَامُهُ تَتَبُّعٌ لِتَطَوُّرِ حياةِ السَّيَّابِ وحياةِ شِعْرِهِ مَعًا، يَتَخَلَّلُها حديثٌ بعيدُ الغَوْرِ عنْ شِعْرِ الشَّاعِرِ.

اِسْتَجْلَبَ نظري أنَّ النَّاقِدَ الجليلَ لَمْ يُصَانِعِ الشَّاعِرَ الكبيرَ، بَلْ نراهُ يَصِفُ شيئًا مِّنْ شِعْرِهِ بِـ "العَبَثِ"، و"الأُسْلُوبِ الصِّبْيانِيِّ"، ونراهُ يَتَعَمَّقُ الشِّعْرَ، حتَّى لَيَظْهَرُ لنا ما انطوَى عليهِ مِنْ قُوَّةٍ أوْ ضَعْفٍ.

عَلَى أنَّ النَّاقِدَ - وهذا ظاهِرٌ في الكِتابِ - لمْ يُعامِلِ الشَّاعِرَ بِقَدْرٍ مُتَكَلَّفٍ مِّنَ الانبهارِ، بَلْ عَسَاهُ فاجأَنا، في جُلِّ الكِتابِ، أنَّنا إنَّما نَقْرَأُ السَّيَّابَ دُونَ أن يُحاطَ بألوانٍ مِّنَ التَّهويلِ والوَصْفِ بالنُّبُوغِ، إلى آخِرِ العِبَارَاتِ الَّتي تَحُولُ دُونَ الحُكْمِ عليهِ حُكْمًا صحيحًا، فإذا قِسْنا كلامَ إحسان عبَّاس بمعاييرِنا "العامِّيَّةِ" رُبَّما رَجَّحْنا أنَّ كِتابَهُ كان في "ذَمِّ" السَّيَّابِ لا في "مَدِيحِهِ"!

وأَيًّا كان مَوْقِفُنا مِنْ كِتابِ إحسان عَبَّاس، وهو ناقدٌ ليس مِنْ غِمَارِ النُّقَّادِ = فَيَكْفِيهِ مَحْمَدَةً دَرْسُ شاعِرِهِ دُونَ تهويلٍ ولا مُبَالَغةٍ!

الابتلاءُ بالتَّغَرُّبِ لِجَلَال آل أحمد!

قالَ الدُّكتور سَعْدٌ البازِعِيُّ في مَقالِهِ "نَقْد المُسْتَعْمَر... غِيَابُ النَّظريَّاتِ المُتَمَاسِكة" [118]:

«غَرْب زاديغي» عِنْوَانُ كِتابٍ لباحِثٍ إيرانيٍّ اسْمُهُ جَلَال الأحمد (كذا). العِبَارةُ تَعْنِي بالفارِسِيَّةِ «الثَّمَل بالغَرْبِ». يُخْبِرُنا عنْ ذلك الباحِثُ الإيرانيُّ حامِد دباشي في كِتابِهِ الصَّادِرِ بالإنجليزيَّةِ «أوروبَّا وظِلَالها»، فهو يُتَرْجِمُ العِبَارةَ الفارِسِيَّةَ إلى المُفْرَدَةِ الإنجليزيَّةِ المُرَكَّبَةِ «Westoxication» المُشْتَقَّةِ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ كَلِمتينِ، تَعْنِي الأُولَى «الغَرْب» والثَّانِيَةُ «الثَّمَل» أوِ السُّكر (Intoxication). أَمَّا جَلَال الأحمد فَلَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلَ الاطِّلاعِ عَلَى كِتابِ دباشي الَّذي يُعَرِّفُ بالكِتابِ ويناقِشُ أهميَّتَهُ، والأَرْجَحُ أنَّ كثيرًا مِّنَ القُرَّاءِ العَرَبِ لَم يَسْمَعُوا لا بالكِتابِ ولا بالمُؤَلِّفِ. ولا يُلَامُ القارِئُ العربيُّ إنْ لَّمْ يَعْرِفْ أَيًّا مِنْهُما لأنَّ الكِتابَ لَمْ يُتَرْجَمْ، كما يَبدُو، إلى لُغَةٍ أُوروبِّيَّةٍ فَضْلًا عنْ أن يُتَرْجَمَ إلى العربيَّةِ، وعَدَدُ مَن يَّعْرِفُ الفارِسِيَّةَ بَيْنَ المُثَقَّفِينَ أوِ الباحِثِين العرب قليلٌ جِدًّا فيما أَظُنُّ. إنَّها المُشْكِلَةُ الَّتي تَعِيشُها الشُّعُوبُ والثَّقَافاتُ الَّتي تَرْكَنُ في مَعارِفِها إلى ما يأتيها مِنَ الغَرْبِ: إنْ لَمْ يُتَرْجَمِ الكِتابُ إلى لُغَةٍ غربيَّةٍ فَحَرِيٌّ بِهِ وبِمُؤَلِّفِهِ أَلَّا يُعْرَفَ عِنْدَ غيرِ أَهْلِهِ

يقولُ أبو هاشِمٍ - كانَ اللهُ لهُ -: المُفَكِّرُ الإيرانيُّ جَلَال آل أحمد تَعْرِفُهُ جَمْهَرَةٌ وَّاسِعةٌ مِّنَ المُثَقَّفِينَ والقُرَّاءِ العَرَبِ، منذُ عَهْدٍ بعيدٍ. قَرَأُوهُ مُتَرْجَمًا مِّنَ اللِّسانِ الفارِسِيِّ إلى اللِّسانِ العربيِّ!

وأَذْكُرُ أَنَّني عَرَفْتُ اسْمَ جَلَال آل أحمد وعَدَدًا مِّنْ مُؤَلَّفاتِهِ المنقولةِ مِنَ الفارِسِيَّةِ رَأْسًا إلى العربيَّة = عام 1424هـ = ٢٠٠٣م، وكُنْتُ، آنَئِذٍ، رئيسَ تحريرٍ لِمَجَلَّةِ **الحَجِّ والعُمْرةِ**.

ويَعُودُ الفَضْلُ في تعريفي أعمالَ جَلَال آل أحمد إلى المُفَكِّرِ العِراقيِّ الكبيرِ الأستاذ عبد الجبَّار الرِّفاعِيِّ.

عَرَفْتُ الأستاذَ القديرَ عبدَ الجبَّار في مَوْسِمَيْنِ مِنْ مَّوَاسِمِ الحَجِّ - آنذاك - كان ضَيْفًا عَلَى وِزارةِ الحَجِّ والعُمْرةِ، ومُشارِكًا في "نَدْوَةِ الحَجِّ الكُبْرَى"، الَّتي أَشْرَفَ عليها، في تلك المُدَّةِ، الأُستاذُ الدُّكتور أبو بَكْر باقادِر.

قَدَّمَ الأُستاذُ عبدُ الجبَّار الرِّفاعيُّ وَرَقَةً بديعةً عنْ رِّحْلةِ جَلَال آل أحمد إلى الْحَجِّ **قَشَّة في المِيقَاتِ**، وأَفْضَلَ الأُستاذُ الرِّفاعيُّ فأَهداني الرِّحْلةَ منقولةً إلى العربيَّةِ، تَرْجَمَها حيدر نَجَف وراجَعَ التَّرجمةَ وقَدَّمَ لها الأستاذُ الرِّفاعيُّ = وكِتابًا آخَرَ عِنْوَانُهُ **نَزْعَةُ التَّغريبِ** تَرْجَمَهُ حيدر نَجَف وراجَعَ التَّرجمةَ وقَدَّمَ لها الأستاذُ الرِّفاعيُّ، أيضًا، وحَصَلْتُ، بَعْدَ مُدَّةٍ يسيرةٍ، عَلَى ترجمةٍ أُخرَى للكِتابِ نَفْسِهِ، عِنْوَانُها **الابتلاءُ بالتَّغَرُّبِ**، نَقَلَهُ مِنَ الفارِسِيَّةِ إلى العربيَّة المُتَرْجِمُ المِصْرِيُّ القديرُ إبراهيم الدِّسُوقيّ شَتَا، وكِلْتا التَّرجمتينِ (ترجمةُ حيدر نَجَف وترجمةُ شَتَا) هي كِتابُ **غَرْب زدگي** الَّذي يَعْنِيهِ الدُّكتور البازِعيُّ في مقالِهِ.

وفي مكتبتي كِتابٌ آخَرُ لِجَلال آل أحمد عِنْوَانُهُ **نُون والقَلَم**، وهو رِوايةٌ نَقَلَتْها إلى العربيَّةِ ماجِدةُ العنانِيُّ، وراجَعها إبراهيم الدِّسُوقيّ شَتَا. والَّذي أَعْرِفُهُ أنَّ كُتُبًا أُخرَى لَيْسَتْ بالقليلةِ لجَلَال آل أحمد نُقِلَتْ إلى العربيَّةِ، وذلك يَعْنِي أنَّ قولَ الدُّكتور سَعْد البازِعيّ: "أَمَّا جَلَال الأحمد فَلَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلَ الاطِّلاعِ عَلَى كِتابِ دباشي الَّذي يُعَرِّفُ بالكِتابِ ويناقِشُ أهميَّتَهُ، والأَرْجَحُ أنَّ كثيرًا مِنَ القُرَّاءِ العَرَبِ لَمْ يَسْمَعُوا لا بالكِتابِ ولا بالمُؤَلِّفِ. ولا يُلَامُ القارِئُ العربيُّ إنْ لَّمْ يَعْرِفْ أَيًّا مِنْهُما لأنَّ الكِتابَ لَمْ يُتَرْجَمْ، كما يَبدُو، إلى لُغَةٍ أُوروبِّيَّةٍ فَضْلًا عنْ أن يُتَرْجَمَ إلى العربيَّةِ" = يَصْدُقُ هذا القَوْلُ عَلَى البازِعِيِّ وَحْدَهُ؛ ذلك أنَّ قُرَّاءَ الأديبِ والمُفَكِّرِ الإيرانيِّ مِنَ العَرَبِ = كثيرٌ عَدِيدُهُم، لا كما تَوَهَّمَ ناقدُ نَظَرِيَّاتِ ما بَعْدَ الاستعمارِ!

دُرُوسُ العاسِمِيِّ

تَحَدَّثْتُ مِنْ قَبْلُ عنْ تَجْرِبتي في تَعَلُّمِ مَبادِئِ المَنْطِقِ، وذَكَرْتُ شُيُوخًا أجلَّاءَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ - بَعْدَ اللهِ تَبارَكَ وتَعَالَى - مِنْهُمْ فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ الشَّيْخِ أحمدَ الطَّيِّب، وفضيلةُ الشَّيْخِ أُسامة الأزهريِّ، وفضيلةُ الشَّيْخِ أَدْهَم العاسِمِيِّ - حَفِظَهُمُ اللهُ –

وقُلْتُ: إنَّني وَاظَبْتُ عَلَى مُشَاهَدَةِ دُرُوسِ الشَّيْخِ العاسِمِيِّ وسَمَاعِها، ومعي وَرَقَةٌ وَقَلَمٌ، وكأنِّي حاضِرٌ في دَرْسِهِ؛ فعِلْمُ المَنْطِقِ لا يَصْلُحُ أن يُسْمَعَ في السَّيَّارةِ، أوْ في أثناءِ المَشْيِ، حتَّى يَسَّرَ اللهُ لِي فَفَهِمْتُ القَدْرَ الَّذي أحتاجُهُ في دِراسةِ عُلُومِ العربيَّةِ، وبخاصَّةٍ البلاغةُ.

والشَّيْخُ أَدْهَمُ العاسِمِيُّ مكتبةٌ في رَجُلٍ، ودُرُوسُهُ مُتَنَوِّعةٌ تَشْمَلُ العُلُومَ الإسلاميَّةَ والعربيَّةَ كُلَّها: القرآنَ، والحديثَ، والفِقْهَ، والتَّفسيرَ، والأُصولَ، والعقائدَ، والآدابَ الشَّرعيَّةَ، والنَّحْوَ، والبلاغةَ، والمَنْطِقَ، والسِّيرةَ النَّبَوِيَّةَ.

وأنا - بِفَضْلِ اللهِ - مُوَاظِبٌ عَلَى مُشَاهَدَةِ الدُّرُوسِ، والمُحَاضَراتِ الثَّقافيَّةِ في "اليُوتيوب"، وأَعُدُّهُ بابًا مِّنْ أبوابِ التَّعَلُّمِ والتَّثَقُّفِ وتَذَوُّقِ الفَنِّ والْجَمَالِ والتَّنَعُمِ بِهِما، وطالما شاهَدْتُ أحاديثَ لأعلامٍ لَهُمْ مقامُهم؛ كالدُّكتور عبدِ الله الطَّيِّب، والدُّكتور عبد الهادي التَّازِيّ، والدُّكتور أحمد الطَّيِّب، والدُّكتور رِضوان السَّيِّد، والدُّكتور محمَّد أبو موسى، والدُّكتور جورج صليبا، وبرامج الأستاذ الكبير محمَّد رِضا نَصْر الله.

ومِمَّا لَسْتُ أنساهُ أنَّني انقطعْتُ، مُدَّةَ أُسبوعٍ، لِمُشاهَدةِ دُرُوسٍ ومُحاضراتٍ عِلْمِيَّةٍ في النَّحْوِ التَّوليديِّ لأعلامِ هذا الفَرْعِ مِنَ المعرفةِ، وعادَ عَلَيَّ ذلك - بفضلِ اللهِ - بالخَيْرِ والنَّفْعِ.

وطالَما قُلْتُ: إنَّني أدْرَكْتُ نَقْصَ تعليمِنا في الْجامِعةِ، وافتقارَهُ إلى العُلُومِ الشَّرعيَّةِ؛ لأنَّ عُلُومَنا - كما يقولُ العَلَّامةُ محمود محمَّد شاكر - لَكالكِتابِ الواحِدِ، وقَوِيَ عِندي أنْ سيَفُوتُني معرِفةُ تَخَصُّصِي اللُّغويِّ ما لَمْ أَعْرِفْ شيئًا، ولَوْ كان مبادِئَ، مِنَ العُلُومِ الشَّرعيَّةِ؛

فقَرَأْتُ كُتُبًا في عُلُومِ القُرآنِ، ومُصْطَلَحِ الحديثِ، والعقيدةِ، وأُصُولِ الفِقْهِ = حتَّى أَفْهَمَ كلامًا لابْن جِنِّي في **الخَصائِصِ** و**المُحْتَسَبِ**، ويَتَيَسَّرَ لِي معرفةُ أُصُولِ النَّحْوِ، وأَعانَني، عَلَى ذلك، ما كَتَبَهُ الدُّكتور صُبْحِي الصَّالِحُ - رَحِمَهُ اللهُ - في عُلُومِ القُرآنِ ومُصْطَلَحِ الحديثِ، ومَضَيْتُ أقرأُ جُمْلَةً مِّنْ كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ أستعِينُ بِها عَلَى قِراءَةِ ما تَعَلَّمْتُه في الْجامِعةِ مِنْ عُلُومِ العربيَّةِ.

بَقِيَ أنْ أقولَ:

بَدَأْتُ، صَبَاحَ اليومِ، الاستماعَ إلى دُرُوسِ الشَّيْخِ الْجليلِ أَدْهَمَ العاسِمِيِّ في عُلُومِ الحديثِ، ولمْ يُكَلِّفْني ذلك مَشَقَّةً؛ لأنَّني أُنْصِتُ إلى دَرْسِه المُفِيدِ النَّافِعِ، وأنا أقُودُ سَيَّارتي، فالْحَمْدُ للهِ عَلَى ما أَنْعَمَ.

مُؤَلَّفَاتُ لويس عَوَض

كان مُقَدَّرًا لِي لَوْ مَضَيْتُ في التَّسليمِ بِكُلِّ ما يقولُهُ محمود محمَّد شاكِر ومحمود الطَّناحِيُّ وأنور الجُنْدِيُّ ومحمَّد محمَّد حُسَيْن = كان مُقَدَّرًا لي أنْ لا أَقْرَأَ لِأَحَدٍ إلَّا ما أَذِنَ بِهِ واحِدٌ مِّنْ هؤلاءِ!

كان مُقَدَّرًا لِي أنْ أَصْطَفَّ مَعَ الغَوْغاءِ أَرْمِي ناقِدًا كبيرًا مِثْلَ الدُّكتور لويس عَوَض بالحِجَارةِ، لا لشيْءٍ إلَّا لأنَّ أولئك الأشياخَ وغِلْمانَهُمْ نالُوا مِنْهُ!

ولأنِّي لا أُقَدِّسُ مُؤَلِّفًا، مهما أحبَبْتُهُ، تَحَرَّرْتُ مِنْ سطوةِ أَحَدٍ عَلَى عَقلي ووِجداني، وصِرْتُ وَصِيًّا عَلَى نَفْسِي، أَمَّا "السُّفَهاءُ" فواجِبٌ أن يَكُونَ عليهِمْ أَوْصِياء!

قَرَأْتُ لويس عَوَض ناقِدًا، ومُتَرْجِمًا، ومُفَكِّرًا.. قَبِلْتُ مِنْهُ أشياءَ، ورَفَضْتُ أشياءَ.. أَعْجَبَنِي منهجُهُ في النَّقْدِ الأدبيِّ، ومُنَاوَأَتُهُ للماركسيِّينَ التَّقليديِّينَ باشتراكيَّتِهِ الإنسانيَّةِ.. نادَوْا بِـ "الأدبِ في سبيلِ المُجْتَمَعِ"، فنادَى بِـ "الأدبِ في سبيلِ الحياةِ"، وشَتَّانَ ما هُما.. أَحْبَبْتُ كِتابَهُ **الأدبَ الإنكليزيَّ**، وكِتابَهُ **الأدبَ والثَّوْرَةَ**، وشُغِفْتُ بترجمتَيْهِ البديعتيْنِ **فنَّ الشِّعْرِ** للشَّاعِرِ والنَّاقِدِ اللَّاتينيِّ هُوراس، و**بروميثيوس طَلِيقًا** للشَّاعِرِ والنَّاقِدِ الإنكليزيِّ شِلِّي، وأَفَدْتُ كثيرًا مِّنَ المقدِّمتينِ الواسِعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ مَهَّدَ بِهِما للتَّرجمتينِ، واعتدَتُّهما مِنْ أَزْكَى ما خَلَّفَهُ الرُّوَّادُ في النَّقْدِ الأدبيِّ.

اِسْتَهْوَتْني سِيرتُهُ الذَّاتيَّةُ الجريئةُ المختلِفةُ **أوراقُ العُمْرِ**! ولَمْ أَقْبَلْ دَعْوَتَهُ إلى العامِّيَّةِ، ولا تَحَسُّسَهُ مِنَ الإسلامِ والثَّقافةِ العربيَّةِ، وأُصَنِّفُهُ - رُغْمَ شعبيَّتِهِ عِنْدَ المُثَقَّفِينَ العَرَبِ - يَمِينِيًّا رجْعِيًّا استعلائيًّا، مَعَ ما في شَخْصِيَّتِهِ مِنْ بساطةٍ وإسماحٍ! وأَتَحَفَّظُ عَلَى كثيرٍ مِّما أَوْرَدَهُ في كِتابِهِ **الفِكْرِ المِصْرِيِّ الحديثِ**، وأرى فيهِ نَفَسًا لا يختلِفُ كثيرًا عنِ النَّزَعاتِ الاستعماريَّةِ! وأَسْتَخِفُّ بكِتابِهِ **مُقَدِّمة في فِقْهِ اللُّغةِ العربيَّةِ**، وأرى فيه دعوةً بائِسةً لتجريدِ العَرَبَ مِنْ

مُقَوِّماتِهِمْ، وضَرْبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، بَلْ والاستهتارِ بِها، وأرى فيهِ، كذلك، تصويرًا لأزمةٍ حادَّةٍ لَمْ يُشْفَ مِنْها تُجَاهَ الإسلامِ والثَّقافةِ العربيَّةِ.

عَلَى أنَّ هذهِ النَّزْعَةَ اليَمِينِيَّةَ ذاتَ النَّفَسِ الْعُنْصُرِيِّ العَفِنِ = تَقْتَضينا الأمانةُ العِلْمِيَّةُ أنْ لا نَقْصِرَها على نَفَرٍ مِّنَ المُثقَّفِينَ الأقباطِ! فالنَّاقِدُ غالِي شُكْرِي عُرُوبِيُّ المُتَّجَهِ، وهو مَسِيحِيٌّ، وتوفيق الحكيم، وحُسَيْن فوزي، وخليل عبد الكريم، وسَيِّد القِمَنِيّ، ونِعْمَات أحمد فؤاد = لَمْ يَنْجُوا مِنْ هذهِ النَّزْعةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ المُعادِيَةِ للثَّقافةِ العربيَّةِ، وهُمْ مُسْلِمُونَ، وإنِ اختلفُوا في الدَّرَجَةِ؛ فكراهِيَةُ العَرَبِ والثَّقافةِ العربيَّةِ - بَلْ والإسلام! - بَيِّنةٌ لَدَى خليل عبد الكريم وسَيِّد القِمَنِيّ، والاستهتارُ بالأدبِ العربيِّ والثَّقافةِ العربيَّةِ ليس بِخَافٍ عند توفيق الحكيم وحُسَيْن فوزي، أَمَّا نِعْمات أحمد فؤاد - عَلَى تَدَيُّنِها! - فالنَّزْعَةُ اليَمِينِيَّةُ الرَّجْعِيَّةُ الفِرْعَوْنِيَّةُ بَيِّنَةٌ في كِتاباتِها، وفَرْقٌ كبيرٌ بَيْنَ حُبِّ الوطنِ والذَّودِ عنهُ = والمُبالَغةِ في الْحَطِّ مِنَ الشُّعُوبِ الأُخرَى!

ثَبَتُ الشَّيْخِ حَسَن المَشَّاط

الثَّبَتُ الكبيرُ في مَشْيَخَةِ وأَسانِيدِ وإجازاتِ العَلَّامةِ المُحَدِّثِ المُسنِدِ الأُصُولِيِّ الفقيهِ الشَّيْخِ حَسَن بن محمَّد المَشَّاطِ المَكِّيِّ، ومَعَهُ بَحْثُ الحَلَقاتِ العِلْميَّةِ في المسجدِ الحَرَامِ للمُحَقِّقِ.
دِراسةُ وتحقيقُ الدُّكتور محمَّد بن عبد الكريم بن عُبَيْد، جامِعة أُمِّ القُرَى، أوقافُ الشَّريفِ أبو ريَّاش، ١٤٤٤هـ = ٢٠٢٣م.

خَرَجَ هذا الكِتابُ الْجليلُ مِنَ المطبعةِ حديثًا، فهو، بهذا المَعْنَى، طَرِيٌّ (طازج!).

وأنا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى أنَّني أدركْتُ قِيمةَ كُتُبِ الفهارِسِ والمَشْيَخاتِ والبرامجِ والأثباتِ = منذُ عَهْدٍ مُبَكِّرٍ.

أَدْمَنْتُ قِرَاءَةَ هذا اللَّوْنِ الطَّريفِ مِنَ التَّأليفِ، ولِي مَعَهُ قِصَّةٌ طريفةٌ رَوَيْتُ طَرَفًا مِنْها قَبْلَ حِين، ونَفَعَني اتِّصالي الوثيقُ بهذه الكُتُبِ، وقَرَأْتُ - بِفَضْلِ اللهِ - عَشَرَاتٍ مِنْها، في القديمِ والحديثِ.. عَرَفْتُ غايتَها، وشَرَفَها، وصِرْتُ أقرأُها، وأَجِدُ في قِراءَتِها إمتاعًا ومُؤَانَسةً، وهي، عِندي، ضَرْبٌ مِّنَ التَّرجمةِ الشَّخصيَّةِ، ولَها مَقامٌ كبيرٌ في تاريخِ عُلُومِنا.

وعِندما أَلَّفْتُ كِتابي **ذاكِرة الرِّواقِ وحُلْم المَطْبَعَةِ؛ أُصُولُ الثَّقافةِ الحديثةِ في مَكَّةَ المكرَّمة** (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م) = كان لِهذا اللَّوْنِ مِنَ الكُتُبِ أَثَرٌ أَيُّ أَثَرٍ في فَهْمِ الثَّقافةِ العالِمةِ في البَلَدِ الحَرَامِ، وتَقَصِّي مَضَايِقِها وتَفاصِيلِها!

كِتابُ إحسان عَبَّاس في النَّقْدِ الأدبيِّ

أَقْرَأُ كِتابَ **تاريخِ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ** للعَلَّامةِ الكبيرِ إحسان عَبَّاس[119] = لا لِأُفِيدَ "معلومةً"؛ فكِتابٌ مَدْرَسِيٌّ في تاريخِ النَّقْدِ، ومُحَرِّكُ البَحْث (google) يُؤَدِّيَان ذلك!

أَقْرَأُ الكِتابَ وأتأمَّلُ عِباراتِهِ؛ لِأَقِفَ عَلَى العَقْلِ النَّقْدِيِّ عِنْدَ العَرَبِ، ولِأَصِلَ النَّقْدَ بالأدبِ والتَّاريخِ، ولِأُدْرِكَ النَّسِيجَ الَّذي يَصِلُ هذا بِذَيْنِكَ.

سأَضْرِبُ مِثالًا عَلَى الوَشِيجَةِ الَّتي يَرَاها إحسان عَبَّاس بينَ مَسائِلِ النَّقْدِ والأنواعِ الشِّعْرِيَّةِ المُسْتَحْدَثةِ:

رأى النَّاقِدُ البَصِيرُ - وهو في الأصْلِ مُؤَرِّخُ أدبٍ - الآصِرةَ الَّتي تَصِلُ النَّقْدَ بتاريخِ الأنواعِ الشِّعْرِيَّةِ، ولاحَظَ أنَّ الأدبَ العربيَّ في القَرْنَيْنِ السَّادِسِ والسَّابِعِ الهِجْرِيَّيْنِ = عَرَفَ أنواعًا شِعْرِيَّةً شعبيَّةً؛ فالمِصْرِيُّونَ تأثَّروا بالمَغَارِبةِ وتَقَبَّلوا "المُوَشَّحَ"، أَمَّا أُدَباءُ الشَّامِ والعِراقِ فتَقَيَّلا الأَثَرَ الفارِسِيَّ، وخاصَّةً "الدُّوبَيْت"، وشَهِدَ هذانِ القَرْنانِ ازدهارَ فَنِّ "الزَّجَلِ".

هذا مِثَالٌ وَّاحِدٌ يَدُلُّنا عَلَى أنَّ التَّأليفَ في تاريخِ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَبِ ليس بالأمرِ اليسيرِ = وأنَّهُ لن يَّستقِيمَ لَنا فَهْمٌ بِهِ، دُونَ معرِفةٍ مَّتِينةٍ بتاريخِ الأدبِ.

المُصْطَلَحاتُ الأدبيَّةُ الْحديثةُ

اِنْتَفَعْتُ كثيرًا بِكُتُبِ المُتَرْجِمِ الجليلِ الدُّكتور محمَّد عنانِيّ - رَحِمَهُ اللهُ –

كان مُتَرْجِمًا وباحِثًا كثيرَ التَّأليفِ، مُجَوِّدَهُ، وكانَ مِمَّا شَدَّنِي إليهِ المُقدِّماتُ الَّتي يَضَعُها بينَ يَدَيْ ترجماتِهِ، يَبْسُطُ فيها القَوْلَ في مَسائِلَ تَشْغَلُ ذِهنَهُ المُتَوَقِّدَ، وكأنَّهُ يَلْقَى في تلك المُقَدِّماتِ فُسْحَةً لِقَلَمِهِ، وبابًا للحديثِ عنْ آخِرِ هُمُومِهِ في التَّرجمةِ والنَّقْلِ والتَّعريبِ، فإذا بِهِ يأخُذُ بِيَدِ قارِئِهِ إلى هذه المسألةِ أوْ تلك، ويَجُولُ بِهِ في المُعْجَماتِ وكُتُبِ الأدبِ والثَّقافةِ والتَّاريخِ، وتَرَاهُ يَتَجَلَّى ويُبدِعُ متَى خاضَ في العِبَارَاتِ الاصطلاحِيَّةِ في اللُّغَتَيْنِ الإنكليزيَّةِ والعربيَّةِ، ومِنْ عادتِهِ أن يُثِيرَ المُعْجَمَ العربيَّ، وكُتُبَ الدِّينِ والنَّوادِرِ والأخبارِ، فعَسَى أن يَظْفَرَ بِعِبَارَةٍ عربيَّةٍ عَرْباءَ تُؤَدِّي ما يُقَابِلُها، وفي هذا مِنَ المُتْعَةِ والفائدةِ ما لا يَلْقَاهُ القارِئُ إلَّا في القليلِ النَّادِرِ مِنَ المُؤَلَّفاتِ.

اِعْتَدْتُ أنْ أقرأَ كُتُبَهُ الَّتي كَسَرَها عَلَى فَنِّ التَّرجمةِ، وكان يَحْدُوني إليها حديثُهُ المُتَشَعِّبُ الماتِعُ المُفِيدُ في فِقْهِ اللُّغةِ، ولطائفِ التَّرجمةِ ودقائقِها، وأَشْهَدُ أنَّني انتفعْتُ بِكُتُبِهِ ومُقدِّماتِهِ كثيرًا.

لنْ أَخُوضَ في ترجماتِه، فهذا شَأْنُ أَهْلِ الصَّنْعَةِ، ولكنَّني أقولُ: حِينما صَدَرَ كِتابُهُ **المُصْطَلَحات الأدبيَّة الحديثة** بِمُقدِّماتِهِ المُحِيطةِ الواسِعَةِ[120] = فَرِحْتُ بِهِ أَيَّ فَرَحٍ؛ ذلك أنَّ المُقَدِّماتِ ومُعْجَمَ المُصْطَلَحَاتِ كانَتْ شيئًا جديدًا طَرِيفًا؛ فالمُتَرْجِمُ الجليلُ يَكْتُبُ في موضوعٍ يختلِفُ عَمَّا انتهَجَهُ مِنْ قَبْلُ؛ فنَسَبُهُ العِلْمِيُّ والنَّقْدِيُّ يَرْتَفِعُ إلى مدرسةِ "النَّقْدِ الجديدِ" الأمريكيَّةِ الإنكليزيَّةِ، وهو، كذلك، تِلميذٌ نجيبٌ في مدرسةِ أستاذِهِ المُثِيرِ لِلْجَدَلِ الدُّكتور رشاد رُشْدِي - وتلاميذُهُ يُشْبِهُونَ، عَلَى نَحْوٍ مَّا، في التفافِهِمِ حَوْلَ أُستاذِهِمْ = تلامِذَةَ الشَّيْخِ أمين الخوليّ –

قُلْتُ: إنَّ في كِتاب **المُصْطَلَحاتِ الأدبيَّةِ الحديثةِ** ومُقَدِّماتِهِ شيئًا جديدًا، وها أَنَذَا أَذْكُرُ أنَّ الجديدَ هو حديثُهُ البعِيدُ الغَوْرِ عنِ الكَلِمِ الْحَدَاثِيِّ وما بَعْدَ الْحَدَاثِيِّ، في النَّقْدِ المُعاصِرِ، ومَسائِلِ القِرَاءَةِ والتَّلقِّي والتَّأوِيلِ، مِمَّا نَلْقَاهُ شائِعًا في البِنيويَّةِ والتَّفكيكيَّةِ والتَّأويليَّةِ.

كان حديثُهُ في المُعْجَمِ والمُقَدِّماتِ بَعِيدَ الغَوْرِ، حَسَنَ العِبَارةِ، دقيقًا، فيهِ أَنَاةُ الباحِثِ، ورُوحُ العالِمِ، وذكاءُ اللُّغَوِيِّ، وبَيَانُ الكاتِبِ، ولَعَلَّ هذهِ المَزَايا، مُجْتَمِعةً، هي الَّتي حَبَّبْنَ إِلَيَّ هذا الكِتابَ النَّافِعَ المُفيدَ.

يَوْمٌ في حياتِي

كانَ اليَوْمُ شاقًّا لكنَّهُ مُمْتِعٌ.

قَصَدْتُ عِيَادةَ الأسنانِ، ولَمْ أَلْبَثْ فيها طويلًا.

وزُرْتُ، قَبْلَ الظُّهْرِ، الشَّاعِرَ والوزِيرَ والسَّفِيرَ الدُّكتورَ عبدَ العزيز خُوجَه - حَفِظَهُ الله –

كان الدُّكتور عبدُ العزيز الرَّئِيسَ الأَعْلَى لِي عِندما كانَ وزيرًا للثَّقافةِ والإعلامِ، ولَقَدْ أَكْرَمَنِي وشَرَّفَنِي حِينما سَمَّانِي صديقًا لَّهُ.

مِنْ عادَتِي أنْ أَزُورَهُ، في بيتِهِ العامِرِ، مَرَّةً في الأُسبوعِ، لكنَّ الاتِّصالَ الهاتِفِيَّ بيننا لا يَتَوَقَّفُ.

وَدَّعْتُهُ ظُهْرًا، ورَجَعْتُ إلى البَيْتِ، واتَّجَهْتُ، بَعْدَ حِينٍ، إلى القَهْوَةِ (وأنا لا أُحِبُّ كَلِمَةَ "مَقْهَى"؛ فهي ثقيلةٌ مُتَكَلَّفةٌ!)، وصدِيقِي، هذهِ المَرَّةَ، كِتابُ **الذَّخيرة في مَحاسِنِ شُعَرَاءِ الْجَزِيرةِ** (الأندلُسِيَّةِ) لابْنِ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيِّ، وتحقيقِ العَلَّامةِ إحسان عَبَّاس[121].

عهدي بِـ **الذَّخِيرةِ** قديمٌ. اِنْتَفَعْتُ بِهِ كثيرًا.

طَلَبْتُ مِنَ النَّادِلِ قَهْوَةَ كابتشينو - ولِي قِصَّةٌ طريفةٌ مَعَ الكابتشينو ستَقْرَأُونَها قريبًا - وانْصَرَفْتُ بِكُلِّيَّتِي إلى كِتابي الحبيبِ، مَعَ أنَّ المَكَانَ مُزْدَحِمٌ بالنَّاسِ.

عادتي في قِرَاءَةِ الكُتُبِ التُّراثِيَّةِ لا تَتَغَيَّرُ. أَتَذَوَّقُ الكَلِماتِ، وأتأمَّلُ العِبَارَاتِ، وأُجِيلُ فِكْرِي في الفرائدِ اللُّغَوِيَّةِ، وكُنْتُ قدْ حَدَّثْتُكُمْ، مِنْ قَبْلُ، أنَّني أَقْرَأُ مُسْتَأْنِيًا مُتَمَهِّلًا، فلا أَحَدَ - بِحَمْدِ اللهِ - يُطَارِدُني، فأُسْرِعُ وأَعْدُو!

أَتَذْكُرُونَ وَصْفِي للقِراءَةِ الَّتي تُشْبِهُ أَكْلَ الآيسكريم؟! إنَّها القِراءَةُ المُفَضَّلةُ عِندي.

أَشْعَرُ – بِفَضْلِ اللهِ - أَنَّني أَتَقَدَّمُ، شيئًا فشيئًا، في قِرَاءَةِ الأدبِ في الأَنْدَلُسِ وتاريخِها وأعلامِها.

أَهْتَمُّ بالقِراءَةِ الَّتي تَرْقَى بِي، ولا يُهِمُّنِي أنْ أُسابِقَ أَحَدًا في مِقدَارِ ما أَقْرَأُهُ مِنْ صَفَحَاتٍ، وأَحْمَدُ اللهَ أنَّ مَرْتَبَتِي في القِراءَةِ جَيِّدةٌ، ما دُمْتُ مُوَاظِبًا عَلَى قِراءَةِ الكُتُبِ الَّتي أُحِبُّها، وأنا، هُنا، أُحَدِّثُكُمْ عن القِراءَةِ الحُرَّةِ؛ القِراءَةِ مِنْ أَجْلِ القِراءَةِ، وهي أَجْمَلُ أنواعِها!

دِرَاسَةُ الأدبِ العربيِّ

أَعُودُ إلى كِتابِ **دِرَاسةِ الأدبِ العربيِّ** للدُّكتور مصطفَى ناصِف[122]، حِينًا بَعْدَ حِينٍ.

أَقْرَأُهُ مُسْتَأْنِيًا، أَذُوقُ كَلِماتِهِ، وأَتَأَمَّلُ عِبارَاتِهِ.

وطالما قَرَأْتُ عِبَارَةً، أوْ فِقْرةً مِنْهُ، ووَضَعْتُ الكِتابَ جانِبًا، وأَنْشَأْتُ أُفكِّرُ فيما قَرَأْتُ!

النَّقْدُ الأكاديميُّ لَمْ يُنْصِفْ "ناصِفًا"؛ وَضَعَهُ مَعَ غَيْرِهِ في مَنْهَجٍ وَّاحِدٍ، وهو "الْجَمَالِيُّ"، واستراحَ؛ لأنَّ النَّقْدَ الأكاديميَّ بَلِيدٌ، تَستهوِيهِ القَوَالِبُ، ومصطفَى ناصِف عَصِيٌّ عَلَى القوالِبِ!

رَصَّ النَّقْدُ الأكاديميُّ - بِمَدْرَسِيَّتِهِ وشَكْلِيَّتِهِ البائِسَةِ - مصطفَى ناصِف، ورشاد رُشْدِي، ومحمود الرَّبيعيّ = في صَفٍّ وَاحِدٍ، ودَعَاهُمْ لِيَرْتاحَ "نُقَّادًا جَمَالِيِّينَ"!

لا يَكْفِي في النَّقْدِ أنْ نَقُولَ: مصطفَى ناصِف ناقِدٌ جَمَالِيٌّ ثُمَّ نَقِفُ!

وما أَبْعَدَ مصطفَى ناصِف عنْ رَّشاد رُشْدِي ومحمود الرَّبيعيّ!

قُلْتُ مَرَّةً: كأنَّما مصطفَى ناصِف مُتَصَوِّفٌ!

أَعُودُ إلى كِتابِ **دِراسةِ الأدبِ العربيِّ** وأَقُولُ:

هذا الكِتابُ مِنْ أَعْظَمِ ما كُتِبَ في النَّقْدِ العربيِّ الْحديثِ، ومِنْ أَقَلِّ كُتُبِ مصطفَى ناصِف ذُيُوعًا!

أَسَد رُسْتُم وتاريخُ الرُّومان

قَرَأْتُ كِتابَ **مُصْطَلح التَّاريخِ** للعَلَّامة الدُّكتور أَسَد رُسْتُم = منذُ زمنٍ بعيدٍ، وكُنْتُ كُلَّما مَرَّ بِي اسمُهُ أوْ عِنْوَانُ كِتابٍ مِّنْ كُتُبِهِ = أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالظَّفَرِ بِسَائِرِ مُؤَلَّفاتِهِ.

في الأمسِ قَصَدْتُ مكتبةَ جَرير لأرى جديدَها - وما أَكْثَرَ جديدَ جريرٍ وما أَنْفَسَهُ! - وبينما كُنْتُ أُطالِعُ قِسْمَ التَّاريخِ إذا بِي إِزَاءَ كِتابٍ للعَلَّامةِ الْجليلِ عِنْوَانُه **الرُّومُ في سِيَاسَتِهِمْ، وحَضَارَتِهِمْ، ودِينِهِمْ، وثَقافَتِهِمْ، وصِلَاتِهِمْ بالعربِ**([123])؛ ففَرِحْتُ بِهِ فَرَحًا عظيمًا.

وراعَنِي ما انْطَوَتْ عليهِ مُقَدِّمةُ الكِتابِ مِنْ إحالاتٍ إلى سِجِلَّاتٍ تَرْقَى إلى قُرُونٍ مَّضَيْنَ، وكُتُبٍ ذواتِ مُجَلَّداتٍ كثيرةٍ، ومحفوظاتٍ في المتاحِفِ، والكنائسِ، والأَدْيِرَةِ، واستوقَفَنِي أَمْرٌ ذو بالٍ، هو فخامةُ لُغَةِ أَسَد رُسْتُم، ورَوْعَةُ أُسْلُوبِهِ، ومَتَانَةُ تراكيبِهِ، واسْتَجْلَبَ نَظَرِي استعمالُهُ الرَّصِينُ للأفعالِ المَبْنِيَّةِ للمجهولِ "حُفِظَتْ، وُضِعَتْ، جُدِّدَتْ..."! وكُنْتُ أقرأُها مُتَلَذِّذًا، بَعْدَ أنْ مُّسِخَتْ عَرَبِيَّتُنا، اليَوْمَ، بِفُشُوِّ الفِعْلِ المُساعِدِ "تَمَّ"، يَحتالُونَ بِهِ عَلَى الفِعْلِ المَبْنِيّ للمجهولِ؛ فشاعَتِ الرَّكَاكَةُ حتَّى استسلمْنا لها: "تَمَّ وَضْعُ، تَمَّ حِفْظُ، تَمَّ افتتاحُ، تَمَّ قِرَاءَةُ..."!!

لا اهتمامَ بَحْثِيًّا لَدَيَّ بِـ "الرُّومِ"، ولكنْ هي المَحَبَّةُ لِعَلَّامةٍ عربيٍّ جليلٍ، لهُ فَضْلٌ عَلَى تاريخِنا وثقافتِنا!

الْحَمْدُ للهِ قَرَأْتُ النَّفْحَ؟

أَقْرأُ **نَفْحَ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأندلُسِ الرَّطِيبِ** للمَقَّرِيِّ التِّلْمِسَانِيِّ([124])، بِمُجَلَّداتِهِ الثَّمانِيَةِ، بِأَنَاةٍ وَّمَهَلٍ. أَنْتَقِلُ مِنْ تاريخٍ إلى خَبَرٍ، ومِنْ خُطْبَةٍ إلى شِعْرٍ... أَقْرَأُ التَّاريخَ بِتَمَامِهِ، والخُطْبَةَ والشِّعْرَ، وما كُنْتُ لِأَجُوزَ صَفَحَاتِهِ حتَّى أَظْفَرَ بِخَبَرٍ مَّا، فغايَتِي أنْ أُفِيدَ عِلْمًا جديدًا، ونَبَأً طريفًا، وأنْ أَقِفَ عَلَى منهجِ الشَّيْخِ في كِتابِهِ، ولن يَتَأَتَّى لِي ذلك إلَّا بِقِراءَةٍ مُّتَأَنِّيَةٍ مُّتَمَهِّلَةٍ.

لَمْ تَكُنْ صِلَتِي بالأندلُسِ جَيِّدَةً، فإذا بِها بِـ **النَّفْحِ** تَقْوَى وتَتَأَكَّدُ، وما كُنْتُ لِأَستطِيعَ أنْ أَغُشَّ نَفْسِي، فأَقْرَأَ قِراءَةَ مَنْ لا يَدْرِي مِمَّا قَرَأَ شيئًا، ثُمَّ يُقَرِّرُ أنْ كان هذا الكِتابُ أَوْ ذاكَ مِنْ قِراءَاتِهِ!

ومِنْ عادتي في القِراءَةِ الحُرَّةِ أنْ أُقَيِّدَ وأُكَنِّشَ، وعَلَى ذلك سِرْتُ في قِراءَتي لـ **النَّفْحِ**؛ قَيَّدْتُ وكَنَّشْتُ، ودَلَّنِي المُؤَلِّفُ العَلَّامةُ عَلَى الصِّلاتِ الَّتي وَصَلَتِ الأندلُسَ بالمَشْرِقِ: عَرَفْتُ مَنْ رَّحَلَ مِنَ الأندلُسيِّينَ إلى المَشْرِقِ، ومَنْ قَصَدَ الأندلُسَ مِنَ المَشارِقَةِ، ووَقَفْتُ عَلَى الكُتُبِ الَّتي هاجَرَتْ مِنْ هُنا إلى هُناك، ومِقْدارِ عِنَايَةِ الخُلفاءِ، والأُمَراءِ، والوُزَراءِ، والأَثْرِياءِ، بالعِلْمِ والأدبِ والمعرفةِ.

لِكُلِّ ذلك أَقْرَأُ **نَفْحَ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأندلُسِ الرَّطيبِ** مُتَمَهِّلًا مُسْتَأْنِيًا = ولشيءٍ آخَرَ هو أنْ يُصِيبَ أُسْلُوبي شيْءٌ مِّنْ أساليبِ أولئك الفُصَحَاءِ، بِمَا يُشْبِهُ العَدْوَى، فتَعُودَ تلك العَدْوَى عَلَيَّ بالنَّفْعِ!

ولَعَلَّكَ تَسْأَلُنِي، بَعْدَ ذلك: ما مِقدارُ ما أَقْرَأُهُ مِنَ **النَّفْحِ** كُلَّ يَوْمٍ، بهذا الشَّرطِ الَّذي اشترَطْتُهُ عَلَى نَفسي، وهو أنْ أَقْرَأَهُ بِأَنَاةٍ وَّمَهَلٍ؟

وأُجِيبُك: إنَّ مِقْدَارَ ما أَقْرَأُهُ ثَلاثونَ صَفْحَةً في اليومِ، وتِسْعُمِئَةٍ في الشَّهْرِ! ويَعْنِي ذلك أنَّني أَقْرَأُ كُلَّ شَهْرٍ مُجَلَّدًا وَّنِصْفَ مُجَلَّدٍ مِّنْ أَجْزَائِهِ الثَّمانِيَةِ الكبيرةِ الضَّخْمَةِ، وعليكَ أنْ تَحْسِبَ

المُتَبَقِّيَ!

وبِهَذا - يا أصحابي - أَكُونُ صادِقًا إذا قُلْتُ: الْحَمدُ للهِ قَرَأْتُ **النَّفَحَ**!

محمَّد عبد الْخالِق عُضَيْمَة يُعِيدُ إلَيَّ البِشْرَا!

مِنْ عادَتِي أنَّني متَى ما أَجَمْتُ القِراءَةَ الرَّاتِبَةَ المُنْتَظِمَةَ = أَدفَعُ المَلَلَ بالنَّظَرِ في خِزَانَةِ كُتُبي، أَتَأَمَّلُ كِتابًا، وأَمْسَحُ الغُبَارَ عنْ آخَرَ.. أَقْرَأُ مُقَدِّمةً هُنا، وصَفَحَاتٍ هُناكَ، ثُمَّ أَحْمِلُ ما تَيَسَّرَ حمْلُهُ مِنَ الكُتُبِ، طَمَعًا في دَفْعِ المَلَلِ، ورَغْبَةً في استئنافِ نَشَاطِي.

قَرَأْتُ صَفَحَاتٍ مِّنْ كِتابِ **دِرَاسَات في عِلْمِ اللُّغةِ** للدُّكتور كمال بِشْر، وكانَ مِنْ مَّرَاجِعِ دُرُوسِنا الْجامِعِيَّةِ في مُقَرَّرِ "عِلْمِ اللُّغةِ" = فغَمَّنِي ما فيهِ مِنْ تَنَاوُلٍ لا يَعْدُو السَّطْحَ إلى الأعماقِ، وكلامٍ أَعْجَبُ كيفَ كان يُحاضِرُ بِهِ المُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللهُ – طُلَّابَهُ في دارِ العُلُومِ؟! فعِفْتُ القِراءَةَ والكُتُبَ لَوْلا أنَّ يَدِي امتدَّتْ إلى كِتابِ **المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ** لأبي بَكْرٍ الأنباريِّ (ت ٣٢٨هـ)، وتحقيقِ الشَّيْخِ محمَّد عبد الخالِق عُضَيْمَةَ (ت ١٤٠٤هـ) - رَحِمَهُما اللهُ[125] –

سَمِعْتُ بِاسْمِ محمَّد عبد الخالِق عُضَيْمَةَ في دُرُوسِ أُستاذِنا الدُّكتور عبد الله سالِم المَعْطَانِيِّ - حَفِظَهُ اللهُ - وفي دَرْسِ "النَّقْدِ الأدبيِّ القديمِ" خاصَّةً. تَحَدَّثَ عنْ كِتابِهِ **دِراسات لأسْلُوبِ القُرآنِ الكريمِ** بِنَبْرةٍ لَّا تَخْلُو مِنَ التِّيهِ والإكبارِ اللَّذَيْنِ يُحِسُّهُما كُلُّ مَنْ تَحَدَّثَ عنْ كِتابٍ أَحَبَّهُ، فاستقرَّ في عَقْلِي ووِجداني، منذُ ذلك اليَوْمِ مِنْ أيَّامِ سَنَةِ ١٤٠٦هـ = 1986م = إجلالٌ لِّذلك الشَّيْخِ الأزهريِّ الجليلِ ولكِتابِهِ، وقدْ عَلَّمَتْنِي الأيَّامُ أنَّ أُستاذَنا المَعْطَانِيَّ يَعْرِفُ أَقْدَارَ الكُتُبِ والمُؤَلِّفِينَ، ولِي مَعَهُ ومَعَ الكُتُبِ الَّتي أَحبَّها، وتَحَدَّثَ عنها في تِيهٍ وعُجْبٍ = قِصَصٌ وَّحِكاياتٌ، وما كانَ أُستاذُنا - وهو نَقَّادَةٌ لَّا يُعْجِبُهُ الْعَجَبُ - لِيَخْتَصَّ كِتابًا بِمَحَبَّتِهِ لَوْلا أنَّهُ جَدِيرٌ بذلك!

أَخْرَجَتْنِي مُقَدِّمةُ الشَّيْخِ محمَّد عبد الخالِق عُضَيْمَةَ مِنَ الغَمِّ الَّذي أَلْحَقَهُ بِي كِتابُ كَمَال بِشْر، فعادَ إلَيَّ البِشْرُ! وعَرَفْتُ أنَّني لا أَقْرَأُ سَوَادًا في بَيَاضٍ، ولا كَلِمَاتٍ في مُذَكِّرَةٍ جامِعِيَّةٍ انْقَلَبَتْ، بِقُدْرَةِ قادِرٍ، إلى كِتابٍ = إنَّما أَقْرَأُ دَرْسًا بَعِيدَ الغَوْرِ في تاريخِ العِلْمِ يَسُوقُهُ الشَّيْخُ إلى قارِئِهِ، في تَوَاضُعٍ جَمٍّ، حتَّى إذا ما أَتَمَّ القارِئُ المُقَدِّمةَ داخَلَهُ شُعُورٌ بالاكتفاءِ، وأَدْرَكَ مِنْ

تاريخِ العِلْمِ، ودَرْسِ اللُّغةِ، وبَيَانِ مَذْهَبِ أبي بَكْرٍ الأنباريِّ في النَّحْوِ واللُّغةِ = القَدْرَ النَّافِعَ الأَصِيلَ.

لِبَعْضِ هذا أَحْبَبْتُ كُتُبَ عُمَرَ فَرُّوخ!

رُزِقَ العَلّامةُ الجليلُ الدُّكتور عُمَر فَرُّوخ - رَحِمَهُ اللهُ - البَرَكَةَ والسَّعَادةَ في مُؤَلَّفاتِهِ، في حياتِهِ، وبَعْدَ وَفَاتِهِ!

كانَتْ غايتُهُ أن يَكُونَ مُثَقِّفًا - بالبِنَاءِ للفاعِلِ - وامتازَتْ كُتُبُهُ بالإحاطةِ، والشُّمُولِ، وعُرِفَ بِلُغَتِهِ الرَّصِينةِ، واقتصادِهِ في الأُسلوبِ.. كان مُبينًا، واضِحًا، حاضِرًا فيما يَكْتُبُهُ، تَقْرَأُهُ مَتْنًا، وحاشِيَةً، ويَفُوتُكَ عِلْمٌ وَّافِرٌ لَّوْ قَفَزْتَ عَلَى مُقَدِّماتِهِ، وهي مُفِيدةٌ، ثَرِيَّةٌ، مَّلْأَى بالتَّجَارِبِ.

قَضَى الأُستاذُ الكبيرُ عُمْرَه مُعَلِّمًا يُصَحِّحُ الدَّفَاتِرَ ويُقَوِّمُ أخلاقَ تلاميذِهِ، وكان عالِمًا مِنْ كِبارِ العُلَماءِ، لَمْ يُقْعِدْهُ عن التَّأْليفِ - وهو غَزِيرُهُ - أنْ دَرَّسَ في مَعْهدٍ ثانَوِيٍّ هو **مَدَارِسُ جَمْعِيَّةِ المَقَاصِدِ الخَيْرِيَّةِ الإسلامِيَّةِ**، وكان لَقَبُ "مُعَلِّمٍ" أَفْخَرَ ألقابِهِ وأَقْرَبَها إلى شَخْصِيَّتِهِ.

عَرَفَتْهُ المَجَامِعُ العِلْمِيَّةُ والأكادِيمِيَّاتُ، فكان مُعَلِّمُ الثَّانَوِيَّةِ عُضْوًا في مَجْمَعِ القاهِرَةِ، والْمَجْمَعِ العِلْمِيِّ بدمشقَ، ومَجْمَعِ بغدادَ، وجَوَّدَ في مُؤَلَّفاتِهِ ونَوَّعَ فشَمِلَتْ أَوْجُهَ الثَّقافةِ العربيَّةِ كافَّةً: الإسلاميَّاتِ، واللُّغَةَ العربيَّةَ وآدابَها، والتَّاريخَ، والحضارةَ، والعُلُومَ، والاجتماعَ، والفلسفةَ، والشَّخْصِيَّاتِ... وكان مُتَرْجِمًا مُقْتَدِرًا، عالِمًا بالآدابِ الأجنبيَّةِ، باحِثًا في الآدابِ المُقَارَنَةِ، وبالجُملةِ كان - كما يَدْعُوهُ صديقُهُ ومُرِيدُهُ الدُّكتور عَلِيّ زَيْعُور - "إمامًا"!

اِتَّصَلْتُ بمُؤَلَّفاتِ عُمَرَ فَرُّوخ سَنَةَ ١٤٠٦هـ، وكان كِتابُهُ الفَرِيدُ **هذا الشِّعْرُ الحديث!** أَوَّلَ ما قَرَأْتُ مِنْها، وعَلَى أنَّ الكِتابَ سِجَالٌ لِّلشِّعْرِ الحديثِ - الَّذي لا يُسِيغُهُ ذَوْقُهُ ولا يَتَقَبَّلُهُ - فإنَّهُ ينطوِي عَلَى عِلْمٍ وَّاسِعٍ بآدابِ اللُّغَاتِ الإسلاميَّةِ والأُورِبِّيَّةِ، ولا عَجَبَ والعَلَّامةُ الجليلُ يُحْسِنُ سِتًّا مِنْهُنَّ، ونستطيعُ أنْ نَسْلُكَهُ، ونحنُ مُطْمَئِنُّونَ، في كُتُبِ الأدبِ المُقَارَنِ، والْحَقُّ أنَّ فوائدَ الكِتابِ فَوْقَ ما تَحْتَمِلُهُ هذهِ الكلمةُ العَجْلَى.

وعَلَى أنَّني أَحْبَبْتُ كُتُبًا ثُمَّ زَهِدْتُ فيها، وأَقْبَلْتُ عَلَى مُؤَلِّفِينَ ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أنْ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ = فإنَّ لِعُمَرَ فَرُّوخ مَكَانةً في العَقْلِ والقَلْبِ والوِجدانِ، عَدَدْتُهُ مُثَقِّفًا - بالْبِنَاء للفاعِلِ - ومُعَلِّمًا، ومُوَجِّهًا، لا أَعْدِلُ بِهِ أَحَدًا مِّنَ المُؤَلِّفِينَ، ولِكُتُبِهِ مَقَامُها لَدَيَّ، أَلْقَى فيها العِلْمَ مَلْفُوفًا بأكرَمِ ما تَكُونُ عليهِ القِيَمُ والمُروءَةُ والأخلاقُ، وحَسْبُ كُتُبِهِ أنْ تُعَلِّمَ العِلْمَ والأَدَبَ والعِزَّةَ والأَنَفَةَ والكَرَامَةَ!

ولِكُلِّ كِتابٍ للعَلَّامةِ الجليلِ قِصَّةٌ تستحِقُّ أنْ تُرْوَى، وقِيمةٌ جديرةٌ بأنْ تُحْكَى، وكُنْتُ، في المُدَّة الَّتي اختلَفْتُ فيها إلى الْجامِعةِ، شَدِيدَ التَّعَلُّقِ بِمَجَلَّةِ **الباحِث** الَّتي شارَكَ مُرِيدَهُ وصَدِيقَهُ عَلِيّ زَيْعُور في تحريرِ مَوادِّها. أَتَرَقَّبُ صُدُورَها، وأُوَاظِبُ عَلَى قِرَاءَتِها، ولا زِلْتُ أَذْكُرُ عَدَدَها ذا الغِلَافِ الأَسْوَدِ؛ ذلك الَّذي أَصْدَرَهُ عَلِيّ زَيْعُور عَقِبَ وفاةِ الأُستاذِ الجليلِ، فلَمَّا أَصْدَرَ الصَّدِيقُ الوَفِيُّ كِتابًا عنْ شَيْخِهِ وإمامِهِ = عَدَدْتُهُ خَيْرَ ما يُقْتَنَى، وأَغْلَى ما يُقْرَأُ.

وأستطِيعُ القولَ: إنَّ مُؤَلَّفاتِ عُمَرَ فَرُّوخ جِمَاعُ شخصيَّتِهِ، وتكادُ تَكُونُ تصويرًا لِحَيَاتِهِ ومُعتقداتِهِ، فإذا نَظَرْتَ فيها، وأَطَلْتَ صُحْبَتَها، عَرَفْتَها وعَرَفْتَهُ، وكأنَّما كانَتْ كُتُبُهُ وَجْهًا مِّنْ وُجُوهِ تَرْجَمَتِهِ الشَّخصيَّةِ، بِنَزَاهَتِهِ الشَّامِخَةِ، ومَوَاقِفِهِ الَّتي لا هَوَادَةَ فيها كُلَّما نالَ امْرُؤٌ مِّنَ الإسلامِ وكِتابِهِ العظيمِ ونَبِيِّهِ الكريمِ – صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ - أوْ تاريخِهِ، وثقافَتِهِ، وحضارَتِهِ، وكان، مَعَ هذهِ الصَّلَابَةِ في الرَّأْيِ والاعتقادِ، سَمْحًا، عالِمًا عارِفًا بالْفِقْهِ الحَنَفِيِّ - والسُّنِّيِّ عامَّةً – والْجَعْفَرِيِّ الاثْنَيْ عَشرِيِّ.

سأَعُودُ إلى كُتُبِهِ الَّتي رُزِقَتِ السَّعادةَ والبَرَكَةَ، ولأنَّ الحديثَ في هذا البابِ طويلٌ، فيَكْفِي أنْ أختارَ مِنْها كِتابَهُ القريبَ الحبيبَ **غُبَارَ السِّنِينَ**(126)!

قَرَأْتُ **غُبَارَ السِّنِينَ** منذُ عَهْدٍ بعيدٍ.. وكُنْتُ، ولا زِلْتُ، أَعُدُّ الكِتابَ مِنْ أَفْخَرِ ما أَنْشَأَهُ العَرَبُ المُحْدَثُونَ في أَدَبِ التَّرجمةِ الشَّخصِيَّةِ، وأَزْكَى ما يَفُوزُ بِهِ القارِئُ.

وما كانَ **غُبَارُ السِّنِينَ** ترجمةً شخصِيَّةً عَلَى معهودِ هذا الفَنِّ، وكُلُّ ما ابتغاهُ عُمَرُ فَرُّوخ مِنْ كِتابِهِ نَلْقَاهُ في عِنْوَانِهِ الشَّارِحِ الدَّالِّ: **لَمَحَاتٌ مِّنْ حَيَاتِي بَيْنَ ١٩١٦ و ١٩٨٢ في مَقَالاتٍ**

قصيرةٍ في الثّقافةِ والاجتماعِ تُورِدُ وَقائِعَ ولا تُبْدِي آراءً!

فإذا أَقْبَلْتَ عَلَى الكِتابِ أَلْفَيْتَه "مَقالاتٍ" قصيرةً، لا يستطيعُ النَّاقِدُ أن يَجِدَ فيها ما يَقْرَأُهُ في كُتُب النَّقْدِ، وكان المُؤَلِّفُ سَمْحًا صادِقًا، فلَمْ يَخْلَعْ عليها وَصْفًا أكثرَ مِمَّا قالَ!

ولَكِنَّ القارِئَ المُدَرَّبَ الَّذي لا يَتَعَبَّدُ لِكُتُبِ النُّقَّادِ = يُحِسُّ أنَّ في **غُبَارِ السِّنِينَ** سِحْرًا لَّا يستطِيعُ لهُ دَفْعًا، ولَعَلَّهُ لا يستطيعُ لهُ تصويرًا، فإذا أرادَ بَيَانًا لِّحالِهِ سَمَّاهُ "صِدْقًا"، ورَجَعَ هذا الصِّدْقَ إلى أنَّهُ إزَاءَ "مَقَالاتٍ" بُثَّتْ فيها حَرَارَةُ الحياةِ، مهما أَمْعَنَتْ هذهِ العِبَارَةُ في "الذَّاتِيَّةِ" وبايَنَتِ "العِلْمَ" أوْ ما نَتَوَهَّمُهُ عِلْمًا، فإذا اسْتَأْنَى في الْحُكْمِ أَدْرَكَ أنَّ عِبَارَةَ "تُورِدُ وَقائِعَ ولا تُبْدِي آراءً" = أَصْلُ السِّحْرِ والصِّدْقِ، وأنَّ المُعَلِّمَ المُؤَلِّفَ كان يَعْرِضُ الْحَدَثَ ولا يَفْرِضُ الْقِيمةَ، كَمَا هي عادَةُ الضَّعَفَةِ مِنَ الوُعَّاظِ!

لِهَذا - أوْ لبعضِ هذا - أَحبَّ القُرَّاءُ **غُبَارَ السِّنِينَ** كَمَا لَمْ يُحِبُّوا سِيرَةً ذاتِيَّةً، ولهذا السَّبَبِ الكامِنِ صارَ هذا الكِتابُ الحبيبُ القريبُ وَسِيلَتِي المُفَضَّلَةَ لإغراءِ الأحبابِ والأصحابِ بِقِرَاءَةِ عَمَلٍ أدبيٍّ يُمْتِعُ ويَنْفَعُ، ويُؤَدِّبُ ويُهَذِّبُ = عَمَلٍ أدبيٍّ لا يُبْقِيكَ عَلَى حالِكَ الَّذي كُنْتَ عليهِ قَبْلَ أنْ تَصْطَفِيَهُ وتَقْرَأَهُ!

كُتُبُ محمَّد عبد المُنْعِم خَفَاجِيّ

-1-

اِعْتَدْتُ أنْ أَزُورَ شَيْخِي وأُستاذِي النَّاقِدَ الكبيرَ عبدَ الله عبد الجبَّار كُلَّ ثلاثاء. وقُلْتُ لَهُ، في مَرَّةٍ مِّنَ المَرَّاتِ، ونحنُ نأخُذُ بأَطرافِ الأحاديثِ: إنَّ كُتُبَ الدُّكتور محمَّد عبد المُنْعِم خفاجِيّ - الَّتي جَاوَزَتِ السِّتَّمِئَةِ كِتابٍ - لَيْسَتْ جَيِّدةً!

فقال لِي شَيْخِي: هَلْ نستطِيعُ أنْ نَصْطَفِيَ مِنَ السِّتِّمِئَةِ سِتِّينَ كِتابًا جَيِّدًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ! وأَكْثَر، قالَ: يَكْفِيهِ ذلك!

-2-

أَقُولُ: غَفَرَ اللهُ لِي؛ لَقَدْ كانَ حُكْمِي عَلَى كُتُبِ الشَّيْخِ الأَزهريِّ الجليلِ محمَّد عبد المُنْعِم خفاجِيّ غيرَ صحيحٍ!

ورَحِمَ اللهُ الأُستاذَيْنِ الجليلَيْنِ وجَزَاهُما خَيْرَ الجَزَاءِ.

فائِدَةُ أنْ تَقْرَأَ للكِبارِ

القِراءَةُ للكِبارِ حقًّا مُتْعَةٌ لِّلرُّوحِ، وصَقْلٌ لِّلعَقْلِ.

شاعَتْ عِبَارةُ "الأُستاذِ الكبيرِ"، و"النَّاقِدِ الكبيرِ"، وصارَتْ تُطلَقُ دُوْنَ حِسَابٍ.

وأنا لا تَعْنِينِي هذهِ الأوصافُ ما لَمْ يَدُلَّ عليها إحسانٌ وَّتجويدٌ وَّإتقانٌ.

وسأَضرِبُ مَثَلًا عَلَى التَّبَحُّرِ في العِلْمِ بِجَمْهَرةٍ كريمةٍ مِّنَ المُحَقِّقِينَ، أَلْقَى في مُقَدِّماتِهِمْ الَّتي يُمَهِّدُونَ بِها للكُتُبِ الَّتي يَنْشُرُونَها = عِلْمًا وفَهْمًا ومعرفةً بِمَضَايِقِ الموضوعِ الَّذي نُدِبُوا إليهِ، يَحْضُرُنِي مِنْهُمْ: محمَّد مُحْيِي الدِّينِ عبد الحميدِ، وعبدُ السَّلامِ هارون، ومحمَّد الدَّالِيُّ، ومحمود الطَّناحِيُّ.

ومَنْ قَرَأَ كِتابَ **أباطِيلَ وأسمارٍ** وبِخاصَّةٍ فُصُولُهُ الأُولَى = يَرُوعُهُ عِلْمُ الشَّيْخِ محمود محمَّد شاكِر، وقُدْرَتُهُ عَلَى ما تَكَلَّفَ البحثَ فيهِ.

وكان إحسان عَبَّاس في شبابِهِ مِثَالًا فَذًّا للباحِثِ المُحِيطِ بموضوعِهِ.. كان باحِثًا كبيرًا ولهُ مِنَ العُمْرِ ثلاثونَ سَنَةً، وكان أُستاذًا ذا شأْنٍ قَبْلَ أن يَبْلُغَ الأربعينَ!

يَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي أساتِذةٌ صَدَّرَتْهُمْ شَبَكاتُ العلاقاتِ العامَّةِ، دُوْنَ وَجْهِ حَقٍّ، يَخُوضُونَ في كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْ عَجَبٍ أنَّهُمْ لا يُحْسِنُونَ ما ادَّعَوْا أنَّهُ أَدْخَلُ في صَنْعَتِهِمْ وفَنِّهِمْ، وإلَّا قُلْ لِي: ما القيمةُ العِلْمِيَّةُ لأُستاذٍ لا يَعْرِفُ مَرَاجِعَ مسألةٍ ادَّعَى أنَّهُ مِنْ آحادِ المُتَخَصِّصِينَ فيها؟!

كَيْفَ أَقْرَأُ؟

والقِراءَةُ الَّتي أَعْنِيها هي القِراءَةُ الحُرَّةُ الَّتي ليس لها غايةٌ إلَّا مَحَبَّةَ القِراءَةِ، والتَّثَقُّفِ، والتَّعَلُّمِ، ولا تَعْنِينِي، هُنا، القِراءَةُ مِنْ أَجْلِ البَحْثِ، فهي شأْنٌ آخَرُ.

- ١ -

يَتَّفِقُ لِي، كثيرًا، أنْ أُقْبِلَ عَلَى كِتابٍ مَّا إقبالَ عَطِشٍ، لا يُهِمُّنِي حَجْمُ الكِتابِ، ولا عَدَدُ أجزائِهِ.

ويَتَّفِقُ لِي، كثيرًا، أنْ أَتَهَيَّبَ كِتابًا، فأَمْضِيَ في قِراءَتِهِ، ثُمَّ أَنْصَرِفَ عنهُ، لا لِعَيْبٍ فِيهِ، ولكنْ لِّنَقْصٍ مَّعْرِفِيٍّ فِيَّ، وأُحِسُّ أنَّني في حاجَةٍ إلى أنْ أستأنِيَ، وأُرْجِئَ قِراءَتَهُ حتَّى حِينٍ.

وقدْ يَترَتَّبُ عَلَى فَهْمِ الكِتابِ استعدادٌ فلسفيٌّ أَفْتَقِرُ إليهِ، أوْ مُصْطَلَحِيٌّ، أوْ معرِفِيٌّ، فتَكُونُ قِراءَتي ضَرْبًا مِّنَ العَبَثِ أوِ المُغامَرَةِ، ورُبَّما أنَّني لسْتُ بِحاجَةٍ لِّكُلِّ ما فيهِ - خاصَّةً في قِراءَةِ التَّعلُّمِ والتَّثقُّفِ - لكنَّني أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى قِراءَتِهِ، فيَتَعَسَّرُ عَلَيَّ الفَهْمُ.

- ٢ -

حَدَثَ ذلك مَرَّاتٍ!

جَرَّبْتُ، مِرَارًا، أنْ أَقْرَأَ **شُرُوحَ التَّلْخِيصِ** فلَمْ يَتَيَسَّرْ لِي إساغةُ ما فيها، وأَدْرَكْتُ أنَّ العِلَّةَ في عَدَمِ الْفَهْمِ نَقْصٌ فِّي الآلةِ؛ فَـ **شُرُوحُ التَّلْخِيصِ** نُصوصٌ مِعْيَارِيَّةٌ، تَقُومُ كُلُّ كَلِمَةٍ فيها مَقَامًا لا تَقُومُ بِهِ كَلِمةٌ أُخْرَى، ثُمَّ إنَّها مِنَ المُتُونِ الَّتي ينبغِي أنْ تُقْرَأَ عَلَى شَيْخٍ أوْ أُستاذٍ، يُذَلِّلُ ما فيها مِنْ صِعَابٍ، وَّيَكْشِفُ ما اعْتَوَرَها مِنْ غُمُوضٍ.

وأَمْرٌ آخَرُ مُهِمٌّ.

أنَّ البلاغةَ المُتأَخِّرةَ لا تُسْلِمُ لكَ قِيَادَها ما لَمْ تَكُنْ عارِفًا مَّعرفةً جَيِّدةً بمبادِئِ المَنْطِقِ!
والمَنْطِقُ صَعْبٌ تَعَلُّمُهُ، لَكِنَّ تلك الشُّرُوحَ لنْ تستقِيمَ لِي مِنْ دُوْنِهِ!

- ٣ -

قَصَصْتُ قِصَّتِي مَعَ المَنْطِقِ في مَقَامٍ آخَرَ، وأَبَنْتُ مُكابَدَتِي مَعَهُ حتَّى تَيَسَّرَ لِي فَهْمُ مَبَادِئِهِ، وحِينئذٍ استبانَ لِي مِنْ **شُرُوحِ التَّلْخِيصِ** ما كانَ غامِضًا، وأَدْرَكْتُ أنَّ مَسَائِلَ العِلْمِ يأْخُذُ بَعْضُها بِرِقَابِ بعضٍ، وَّأنَّ عُلُومَنا القديمةَ كأنَّما هي طَبَقَةٌ فوقَ طَبَقَةٍ، وأنَّهُ لا سبيلَ إلى اجتيازِ هذهِ الطَّبَقَةِ دُوْنَ أنْ تَعْبُرَ بِطَبَقَةٍ تُؤَدِّي إليها.

- ٤ -

عَلَى أنَّني جَرَّبْتُ أنْ أَقْرَأَ مِنَ الكُتُبِ ما يَعنيني، فلَيْسَ شَرْطًا أنْ أَقْرَأَ **مُقَدِّمةَ ابنِ خَلْدُونَ** بِتَمَامِها، ما أَفْهَمُهُ وما ليسَ أَفْهَمُهُ!

يَكْفِي أنْ أَعْرِفَ مَعَالِمَها وقَسَمَاتِها، لكنْ يُهِمُّنِي كلامُ ابْنِ خَلْدُونَ في اللُّغةِ والنَّحْوِ، ورَأْيُهُ في الشِّعْرِ وما اسْتَجَدَّ مِنْهُ، ويَعْنِينِي، كثيرًا، فُصُولُهُ البديعةُ الَّتي كَسَرَها عَلَى التَّربيةِ والتَّعليمِ، وكلامُهُ عنِ الاختلافِ في تعليمِ القُرآنِ الكريمِ بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ...!

قَرَأْتُ تلك الفُصولَ في أَزْمِنَةٍ مُّخْتَلِفَةٍ، وأَدْرَكْتُ أنَّني صِرْتُ أَفْهَمُ مُرَادَ ابْنِ خَلْدُونَ، بَلْ صِرْتُ أَعْرِفُ لُغَةَ العَصْرِ ومُصْطَلَحَاتِهِ، وإذا بِي، بَعْدَ حِينٍ، أُتِمُّ **المُقَدِّمةَ** دُوْنَ أنْ أَتَكَلَّفَ قِراءَتَها فَصْلًا فَصْلًا!

- ٥ -

رَاقَتْنِي هذهِ الطَّريقةُ في القِراءَةِ، واتَّخَذْتُها مَنْهَجًا لِّي أَتَّبِعُهُ وآخُذُ بِهِ دائِمًا، وعادَ عَلَيَّ هذا الأُسْلُوبُ مِنَ القِراءَةِ بالنَّفْعِ، ولَمَسْتُ أَثَرَهُ في عَقْلِي ووِجْدانِي.

يَأْتِيكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبُ!

والمعرِفةُ رِزْقٌ، وكان عُلَماءُ الْحَدِيثِ يُصَوِّرُونَ ظَفَرَهُمْ بالسَّمَاعِ بِعِبَارَةٍ مُعَبِّرَةٍ لَطِيفَةٍ: "ولَكِنَّ السَّمَاعُ رِزْقٌ"!

حَدَثَ مَعِي ذلك وأنا أَقْرَأُ في الْمُجَلَّدِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ **سِيَرِ أَعْلامِ النُّبَلاءِ** = تَرْجَمَةَ المُحَدِّثِ الإمامِ الأميرِ ابْنِ ماكولا صاحِبِ **الإِكْمَالُ في مُخْتَلَفِ النِّسْبَةِ**.

أَشَارَ المُحَقِّقَانِ في الهامِشِ إلى مُقَدِّمةِ العَلَّامةِ عبدِ الرَّحمنِ المُعَلِّمِيِّ اليمانِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ – للكِتابِ، فَلَمَّا أَتْمَمْتُ المِقْدَارَ المُعَيَّنَ مِنْ **سِيَرِ أعلامِ النُّبَلاءِ** بَحَثْتُ في مُحَرِّكِ البَحْثِ "Google" عنْ كِتابِ **الإِكْمَالِ** بتحقيقِ المُعَلِّمِيِّ، وحَرَصْتُ عَلَى نُسْخَةِ "المكتبةِ الشَّامِلَةِ"، وقَضَيْتُ ساعةً مَّاتِعةً في قراءَةِ مُقدِّمةِ العَلَّامةِ الجليلِ المُعَلِّمِيِّ!

أَقَلُّ ما يُقَالُ: إنَّ هذهِ المُقَدِّمةَ الفاخِرةَ تُعَلِّمُ العِلْمَ والتَّواضُعَ والتَّحَرِّي.

كُنْتُ أقرأُ وأَستفِيدُ..

كانَتِ المُقَدِّمةُ دَرْسًا مِنْ أَجَلِّ ما يَرْجُوهُ طالِبُ العِلْمِ.

وفي مُقدِّمةِ العَلَّامةِ الجليلِ كلامٌ جَيِّدٌ يُبِينُ مَقَامَ الشَّيْخِ سُلَيْمانَ الصَّنِيعِ - مُدِيرِ مكتبةِ الحَرَمِ الأَسْبَقِ - في العِلْمِ، وعِنايَتَهُ بالمخطوطاتِ = وفيها، كذلك، كلامٌ طَيِّبٌ عن الأفندي محمَّد نَصِيف، والعَلَّامةِ الشَّيْخِ حمد الجاسِر.

رَحِمَ اللهُ الجميعَ.

التَّفْكِيرُ البَلاغِيُّ عِنْدَ العَرَبِ

أُحِبُّ كِتابَ **التَّفْكِيرِ البَلاغِيِّ عِنْدَ العَرَبِ** للدُّكتور حَمَّادِيّ صَمُّود[127].

كِتابٌ ضَخْمٌ كبيرٌ! لأستاذٍ جامِعيٍّ عَلَّامةٍ في فَنِّهِ.

قَرَأْتُهُ مَرَّتَيْنِ، في طَبْعَتِهِ التُّونُسِيَّةِ القديمةِ وفي طَبْعتِهِ اللُّبنانِيَّةِ الحديثةِ[128]، وبِي رَغْبةٌ في أنْ أَقْرَأَهُ مَرَّةً ثالِثةً.

وكِتابُ حَمَّادِيّ صَمُّود مِنَ النَّمَطِ الصَّعْبِ، لا يَسْتَسْلِمُ لقارِئِهِ طَوَاعِيَةً، ولا بُدَّ أنْ أَحْتَشِدَ لَهُ بِكُلِّي لِفَهْمِ بَعْضِهِ!

والدُّكتور حَمَّادِيّ صَمُّود إمامٌ جليلٌ، (بِعِبَارَةِ أسلافِنا)، والموضوعُ صَعْبٌ ولا يَلِينُ إلَّا لباحِثٍ ذَكِيٍّ، مُثقَّفٍ، مُحِيطٍ، واجْتَمَعَ كُلُّ هذهِ الصِّفاتِ في المُؤَلِّفِ! ومِنَ الصَّعْبِ - ومِنْ غَيْرِ العَدْلِ - أنْ نَسْلُكَ حَمَّادِيّ صَمُّود في النُّقَّادِ "الحَدَاثِيِّينَ" مِنْ أساتذةِ الجامِعةِ، دُوْنَ أنْ نستدرِكَ!

أَعْرِفُ أنَّ كلامي سيُغْضِبُ أساتِذةً، وَّأصحابًا، وَّأحبابًا، وَّأتْباعًا!

ولَكِنْ لا يَسْتَقِيمُ، في مِيزانِ العِلْمِ، أنْ نُساوِيَ بينَ عِلْمِ صلاح فَضْل وعبدِ اللهِ الغَذَّامِيّ وسعيدِ السُّرَيْحِيّ بالبلاغةِ العربيَّةِ = وعِلْمِ حَمَّادِيّ صَمُّود! ولا يَجُوزُ أنْ نَضَعَهُمْ في مَرْتَبَةٍ وَّاحِدةٍ مَعًا، ونَسْتَرِيحَ!

أنا والسَّخَاوِيُّ في القَهْوَةِ!

مِنْ ذِكْرَيَاتِ ما قَبْلَ التَّقَاعُدِ:

قَرَأْتُ - بفضلِ اللهِ - كِتابَ **الضَّوْءِ اللَّامِعِ لأَهْلِ القَرْنِ التَّاسِعِ** للحافِظِ شَمْسِ الدِّينِ السَّخَاوِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - في قَهْوَةٍ!

كُنْتُ أَحْضُرُ إلى قَهْوَةِ الفارُوقِيِّ العريقةِ في الرُّوَيْسِ = والطَّيْرُ في وُكُنَاتِها! وأَنْتَظِرُ العامِلَ، حتَّى إذا فَتَحَ المَحلُّ بابَهُ، اخْتَرْتُ مِقْعَدِي وقَهْوَتِي، وأَمْضَيْتُ وَقْتِي في صُحْبَةِ هذا الكِتابِ العظيمِ، فإذا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ العَمَلِ – أوِ الشُّغْلِ كما أَدْعُوهُ - غادَرْتُهُ!

أَحْمَدُ اللهَ – وأنا اليومَ مُتَقاعِدٌ - أنَّني قَرَأْتُ مُجَلَّداتِهِ كُلَّها، وقَيَّدْتُ فوائدَهُ = في تلك القَهْوَةِ، ولَمْ أُضَيِّعْ وقتي في القِيلِ والْقَالِ!

الوِيكِيبيديا!

لا أَرْجِعُ إلى "الوِيكيبيديا" في التَّوْثِيقِ، مهما كانَتْ مُتَاحَةً، وقريبةً مِّنَ الْيَدِ، وأُفَضِّلُ المُعَانَاةَ عَلَى "الصَّيْدِ" السَّهْلِ الرَّخِيصِ!

أَرَدتُّ، اللَّيْلَةَ، تحديدَ المقصودِ بِـ "ما وَرَاءَ النَّهْرِ"، وكابَدْتُ المَشاقَّ في البَحْثِ والتَّنْقِيبِ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ أنَّ في خِزَانَةِ كُتُبي كِتابًا فريدًا، هو **بُلْدَانُ الخِلافَةِ الشَّرْقِيَّةِ** لِلْمُسْتَشْرِقِ كي لسترنج، وترجمةِ العالِمَيْنِ العِراقِيَّيْنِ الجَلِيلَيْنِ بَشِير فرنسيس وكوركيس عَوَّاد[(129)]، فلَمَّا وَثَّقْتُ ما أُرِيدُ شَعَرْتُ بالرَّاحَةِ الكُبْرَى الَّتي لا تُنَالُ إلَّا عَلَى جِسْرٍ مِّنَ التَّعَبِ!

إنْ لَمْ يَكُنْ نَقْدًا فماذا يَكُونُ؟!

الدِّراساتُ العُلْيا في جامِعاتِنا لا تُخَرِّجُ "نُقَّادًا"، وإنَّما تُخَرِّجُ "باحِثِينَ"!

هذهِ هي "الْحَقيقةُ الغائِبةُ"!

نَعَمْ، يَدْرُسُ الطَّالِبُ النَّقْدَ الأدبيَّ والبلاغةَ والأُسلوبِيَّةَ وما أَعْرِفُهُ وما لا أَعْرِفُهُ! لَكِنَّ النَّقْدَ الأدبيَّ ليس مِهْنَةً يَتَعَلَّمُها الطَّالِبُ فإذا تَخَرَّجَ صارَ "ناقِدًا"؛ كالمُدَرِّسِ، والطَّبيبِ، والمُهَنْدِسِ، والطَّيَّارِ... إلخ.

النَّقْدُ مَوْهَبَةٌ، وَّذَكاءٌ، وَّأَلْمَعِيَّةٌ، وثقافةٌ، وخِبْرَةٌ بالنُّصُوصِ.

نَلْقَى ذلك كُلَّهُ في النَّاقِدِ الكبيرِ الدُّكتور عَلِيّ الرَّاعِي - رَحِمَهُ اللهُ –

وكِتابُهُ **القِصَّةُ القصيرةُ في الأدبِ المُعاصِرِ**(130) يُحَيِّرُ طالِبَ الدِّراساتِ العُلْيا، في الماجستيرِ والدُّكتوراه؛ لأنَّهُ يَخلُو مِنْ كَلِمَاتٍ وعِبَارَاتٍ يَفْرَحُ بِها "الشَّادِي"، ولَوْ كانَ أُستاذًا ذا كُرْسِيٍّ في "النَّقْدِ والنَّظَرِيَّةِ"؛ فلا بِنْيَة، ولا خِطاب، ولا تَبْئِير... إلى آخِرِ الكَلِماتِ الَّتي يستعمِلُها الَّذين يَعْلَمُون والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ!

كِتابُ الدُّكتور الرَّاعِي يُحَيِّرُ الَّذِينَ تَوَهَّمُوا النَّقْدَ الأدبيَّ ساعاتٍ دِراسيَّةً ومَصادِرَ ومَراجِعَ وجُمْلَةَ مُصْطَلَحَاتٍ لها خِلابةٌ، وحَسْبُ! وأَيْسَرُ شيْءٍ يقولُهُ الطَّالِبُ وأُستاذُهُ ذُو الكُرْسِيِّ: عَلِيّ الرَّاعِي ناقِدٌ انطباعِيٌّ - لِلَّذي مَرَّ - ونَقْدُهُ غَيْرُ عِلْمِيٍّ (هكذا يَقُولُ الطَّالِبُ وأُستاذُهُ ذُو الكُرْسِيِّ اللَّذانِ نَدَرَ أن يَظْهَرا عَلَى نَصٍّ قَصَصِيٍّ، وهُما المُختصَّانِ بِهِ!).

النَّقْدُ مَلَكَةٌ لَّا مِهْنَةٌ، وما يَكْتُبُهُ عَلِيّ الرَّاعي، ولويس عوض، وشُكْرِي عَيَّاد، وإحسان عَبَّاس، وجَبْرَا إبراهيم جَبْرَا، وعبدُ القادِرِ القطّ، ومحمَّد مندور، وطه حُسَيْن، والعَقَّادُ، وميخائيل نُعَيْمَه، وعَلِيّ جَوَاد الطَّاهِر، ورَجَاءُ النَّقَّاش، ومنصور الحازِمِيُّ، وعبدُ العزيزِ المُقَالِح، وفاروق

عبدُ القادِر، وسامِي خَشَبَة ... = ما يَكْتُبُونَهُ مِنْ نَّقْدٍ لَّا يستطيعُهُ طالِبُ الدِّراساتِ العُلْيا ولا أُستاذُهُ ذُو الكُرْسِيِّ؛ لِسَبَبٍ يَّسِيرٍ جِدًّا هو افتِقارُهُما إلى المَلَكاتِ الَّتي يَمْلِكُها النَّاقِدُ الحقيقِيُّ!

لَيْلَةٌ في صُحْبةِ ناقِدٍ انطباعِيٍّ!

يُصَنِّفُ الدُّكتور ماهِر شفيق فَريد طريقتَهُ في النَّقْدِ بِـ "الانطباعِيَّةِ"!

و"الانطباعِيَّةُ"، اليومَ، تُهْمَةٌ، ومَنْقَصةٌ إلى آخِرِ ما شِئْتَ مِنْ كلِماتٍ!

وأنا أُريدُكَ أنْ تَعْرِفَ أنَّ الدُّكتورَ ماهِرًا أُستاذَ الأدبِ الإنكليزيِّ وتِلميذَ رَشاد رُشْدِي ومُرِيدَ الشَّيْخِ أمين الخوليّ = مُثَقَّفٌ كبيرٌ، وعَلَّامةٌ في التَّرْجمةِ، وباحِثٌ مُّحِيطٌ، ومُتَذَوِّقٌ للأدبِ خطيرٌ!

ومَعَ ذلك كُلِّهِ يَصِفُ منهجَهُ بِـ "الانطباعِيِّ"!

وأنتَ تَسْمَعُ، اليومَ، مِنْ طالِبِ دِراساتٍ عُليا لَمْ يَسْتَكْمِلْ، بَعْدُ، ثقافتَهُ = دَعْوَى عَرِيضةً في المنهجِ - وهو في عهدٍ قديمٍ بِنْيَوِيٌّ أوْ أُسْلُوبِيٌّ، وفيما يَلِي تفكيكيٌّ، أوْ ما بَعْدَ حَدَاثِيٍّ... ويا بُعْدَ ما بينَهُ وبينَها!

والدُّكتور ماهِرٌ مُتواضِعٌ - في سُلُوكِهِ لا في عِلْمِهِ - يُنكِرُ ذاتَهُ، ويَنْزِلُ بِمَرْتَبَتِهِ متَى تَحَدَّثَ عنِ النَّاقِدِينَ والباحِثِينَ، وكان بِوُسْعِهِ أن يَرْفَعَ نَفسَهُ إلى مدرسةِ "النَّقْدِ الجديدِ"، وهو مِنْ رُوَّادِها - ولتلامِذةِ رشاد رُشْدي تَعَلُّقٌ بِها - ولكنَّهُ يُعْرِضُ عنْ ذلك، لأنَّهُ خَلَّفَ دعاوَى التَّصنيفِ وراءَهُ.

عَلَى أنَّهُ لا ينبغي أنْ تُعْجِلَنا كَلِمةُ "انطباعِيٍّ" عنْ معناها عِنْدَهُ، فنَرْمِيَهُ بِعَدَمِ العِلْمِيَّةِ والمنهجيَّةِ.. لا!

إنَّ "الانطباعِيَّةَ"، عِنْدَهُ وعِنْدَ النَّاقِدِ المُعَلِّمِ الدُّكتور عَلِيِّ الرَّاعِي = أَبْعَدُ مَدًى مِّنَ الكلامِ السَّائِبِ الَّذي يُرَدِّدُهُ أساتذةٌ ومُدَرِّسُونَ في الْجامِعةِ، ليسوا مِنْ نَّقْدِ الأدبِ في شيْءٍ وإنْ هانَ = لأنَّ "الانطباعِيَّةَ" مَرْتَبَةٌ يَّبْلُغُها ناقِدٌ مِّثْلُ عَلِيِّ الرَّاعِي وماهِر شفيق فَريد متَى صارَ الذَّوقُ

المُعَلَّلُ، والخِبْرةُ، والدِّرايةُ، والمَرَانةُ = آلةً لَهُ، ثُمَّ إنَّ هذا الضَّرْبَ النَّادِرَ مِنَ النَّقْدِ يَقْتَضِي صاحِبَهُ عِلْمًا واسِعًا، وتَضَلُّعًا مِّنَ الأدبِ الخالِصِ لا نَلْقَاهُ عِنْدَ ضَعَفَةِ الدَّارِسِينَ؛ أولئك الَّذين يُثَرثِرونَ في "المنهجِ" أَكْثَرَ مِمَّا يُحَدِّثونَكَ عَمَّا في هذا العَمَلِ الأدبيِّ أوْ ذاك مِنْ إبداعٍ!

الصَّفَدِيُّ والمكتبةُ الشَّامِلَةُ!

عُقُولُ أسلافِنا كأنَّها، في سَعَتِها وغَزَارَتِها، حَوَاسِيبُ إلكترونِيَّةٌ!

لا أَرْمِي إلى المُبَالَغَةِ، بَلِ التَّعجُّبِ مِنَ القُدْرَةِ عَلَى الإحاطةِ بالموضوعِ. ولَوْ أنَّ أَحَدَنا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِعُ "المكتبةِ الشَّامِلةِ"، و"إرشيفُ المَجلَّاتِ الأدبيَّةِ والثَّقافِيَّةِ"، وما شِئْنا مِنْ مَّوَاقِعَ = ما استطاعَ أن يَشْرَحَ **لامِيَّةَ العَجَمِ** كَمَا شَرَحَها الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ (ت 764هـ)[131]، وأن يُصَيِّرَ شَرْحَهُ جَمْهَرَةً واسِعةً للثَّقافةِ العربيَّةِ.

الصَّفَدِيُّ مِثَالٌ اقْتَضَاهُ المَقَامُ، وإلَّا فالأسماءُ أَوْسَعُ مِنْ أن يُّحَاطَ بِها!

عُطْلَةٌ صَيْفِيَّةٌ

انتهَى الفَصْلُ الأوَّلُ مِنَ العامِ الجامِعيِّ (١٤٠٦هـ = 1986م)، وخَلَتْ كُلِّيَّةُ الآدابِ مِنَ الأساتذةِ والطَّلَبَةِ أوْ كادَتْ، لَكِنَّ قَلْبِي كان مُعَلَّقًا بالْكُلِّيَّةِ وبِقِسْمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها لا يُطِيقُ فِرَاقَهُما! وكأنَّما أَرَدْتُّ أنْ أَظْفَرَ مِنْهُما بِخَبِيئةٍ لِلْعُطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ.

لَمَحْتُ، مِنْ بَعِيدٍ، أُستاذي الدُّكتور عبدَ الله المَعْطَانِيّ، فأَقْبَلْتُ عَلِيْهِ، وحَيَّيْتُهُ، فهَشَّ في وَجْهِي وبَشَّ، ورَجَوْتُهُ أن يَقْتَرِحَ عَلَيَّ كِتابًا يَكُونُ رَفِيقِي في العُطْلَةِ؛ فأَشَارَ عَلَيَّ، مِنْ فَوْرِهِ، بكِتابِ **المُوَازَنَةِ بَيْنَ الشُّعَرَاءِ** للدُّكتور زكيّ مُبارَك[132]!

اليَوْمَ، وبَعْدَ سَبْعٍ وثلاثِينَ سَنَةً، لا زِلْتُ أَنْتَفِعُ بِبَرَكَةِ نُصْحِ أُستاذِي واقتراحِهِ!

نُقَّادُ الأدبِ لا يَجْلِسُونَ في الْقَهْوَةِ!

كِتابُ **عَلَى مَقْهَى الْحَيَاةِ** للدُّكتور سَمِير سَرْحَان[133] = مِنْ أَجْمَلِ الكُتُبِ الَّتي قَرَأْتُها.

الكِتابُ سِيرَةٌ ذاتيَّةٌ للكاتِبِ، والمَقْهَى المَقْصُودُ هو قَهْوَةُ محمَّد عبد الله في مَيْدَانِ الْجِيزَةِ.

اِلْتَحقَ الشَّابُ الَّذي أَتَّمَّ عامَهُ الخامِسَ عَشَرَ بالنَّدْوَةِ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ الَّتي يَجْتَمِعُ فيها أَكْبَرُ أُدباءِ مِصْرَ ونُقَّادِها، عَلَى رَصِيفِ القَهْوَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ!

تَأَمَّلْ أسماءَ رُوَّادِها: النَّاقِد الدُّكتور عبد القادِر القطّ، والنَّاقِد الدُّكتور لويس عَوَض، والنَّاقِد أَنْوَر المَعَدَّاوِيّ، والشَّاعِر والنَّاقِد صلاح عبد الصَّبُور، والنَّاقِد رَجَاء النَّقَّاش، والكاتِب السَّاخِر محمود السَّعْدَنِيّ!

الأسماءُ تَرُوعُ!

قالَ سَمِير سَرْحان: كانَتْ قَهْوَةُ محمَّد عبد الله أَسَاسًا مِّنْ أُسُسِ النَّهْضَةِ الأدبيَّةِ! وقَدْ، واللهِ، صَدَقَ!

أَمَاتَ العُمْرَانُ قَهْوَةَ محمَّد عبد الله كَمَا أَمَاتَ قَهْوَاتٍ أُخْرَى، وماتَ الأُدباءُ والنُّقَّادُ الكِبارُ الَّذينَ يَجْلِسُونَ، كُلَّ لَيْلَةٍ، عَلَى رَصِيفِ القَهْوَةِ!

أَقُولُ:

وكانَ مَوْتُ تلك القَهْوَاتُ مَوْتًا رَمْزِيًّا للنَّهْضَةِ الأدبيَّةِ والنَّقْدِيَّةِ في مِصْرَ والعالَمِ العربيِّ، وخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ أساتذةُ الأدبِ والنَّقْدِ في الْجامِعاتِ..!

ومَعَ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِـ "النُّقَّادِ"، فَهُمْ لا يَجْلِسُونَ في القَهْوَةِ!

التَّلْخِيصُ في المِرْكاز

أَقْرَأُ، في مِركازِي، **تَلْخِيصَ المِفْتاحِ** للخَطِيبِ القَزْوِينِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وأُفَكِّرُ في المُثَقَّفِينَ الَّذين حَمَلُوا عَلَيْهِ ونالُوا مِنْه، كما حَمَلُوا ونالُوا مِنَ البلاغةِ العربيَّةِ، وكأنَّهُ صارَ سُنَّةً مُتَّبَعَةً أن يَرْمِيَ السَّالِفُ والْخالِفُ، في الْعَصْرِ الحديثِ، **شُرُوحَ التَّلْخِيصِ** بالْجُمُودِ والتَّأَخُّرِ والتَّخَلُّفِ، ولَمْ يَسْلَمْ مِّنْ ذلك العَلَّامةُ العِراقِيُّ الجليلُ الدُّكتور أحمد مَطْلُوب - رَحِمَهُ اللهُ - في أُطْرُوحَتَيْهِ **البلاغة عِنْدَ السَّكَّاكِيِّ**، و**القَزْوِينِيّ وشُرُوح التَّلْخِيص**.

تَلْخِيصُ المِفْتاحِ مَتْنٌ لَّطِيفٌ لِّمَن يَّقْرَأُهُ دُوْنَ أن يُعِيرَ الَّذِينَ اتَّهَمُوهُ بالْجُمُودِ اهتِمامًا = لا يَخْتَلِفُ عنْ أَيِّ مَتْنٍ في العُلُومِ الأُخْرَى، إنَّهُ أَدْنَى إلى "الآلَةِ"، و"القَوَاعِدِ" الَّتي تُظْهِرُ ما في النَّصِّ المدروسِ مِنْ بلاغةٍ، لَكِنَّ هذهِ الآلَةَ أَوْ تلك القَوَاعِدَ = لا تَعْمَلُ وَحْدَها؛ إذِ الْخُطْوَةُ التَّالِيَةُ هي ما رُزِقَهُ النَّاقِدُ أوِ القارِئُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْجَمَالِ.

قِرَاءَةٌ تَشَعُّبِيَّةٌ

أُحِبُّ القِراءَةَ التَّشَعُّبِيَّةَ الَّتي تَنْقُلُني مِنْ كِتابٍ إلى كِتابٍ - أوْ أَكْثَرَ - في جَلْسَةٍ وَّاحِدةٍ، وأُحِسُّ أَثَرَها في عَقْلِي، ويَستهويني هذا الضَّرْبُ مِنَ القِرَاءَةِ متَى قَرَأْتُ كِتابًا مِّنْ كُتُبِ التُّراثِ، وأَلْقَى فيهِ لَذَّةً وَّمَتَاعًا، ولا يُدَاخِلُني شُعُورٌ بالضَّجَرِ ولا الْمَلَلِ إذا أَخَذَتْنِي مسألةٌ مُّجْمَلَةٌ في كِتابٍ إلى تَفْصِيلِها في كِتابٍ آخَرَ، أوْ جُمْلَةِ كُتُبٍ، ويَحْمِلُني عَلَى ذلك التَّعَلُّمُ. وما قَرَأْتُ كِتابًا - وخاصَّةً إذا كان مِنَ الأُمَّهاتِ والأُصُولِ - إلَّا وكان التَّعلُّمُ غايَةً مِّنْ غاياتي، وإنْ سَعَيْتُ إلى القِراءَةِ الحُرَّةِ الَّتي لا أرجو مِنْ وَّرائِها إلَّا الإمتاعَ والمُؤَانَسَةَ.

فَلْنَتَوَاضَعْ ولا نُبَالِغْ!

مَعْرِفَتُنا بالكُتُبِ - في كثيرٍ مِّنَ الأحيانِ - تَكُونُ بـ "الوَسَاطَةِ"، وليسَ في ذلك عَيْبٌ، إلَّا إذا سَكَتَ أَحَدُنا عنِ "الوَسِيطِ"، وادَّعَى قِرَاءَةَ الكِتابِ رَأْسًا!

كَمْ مِّنَ المُتَخَصِّصِينَ في اللُّغةِ العربيَّةِ - بَلْ مِنَ المُتَخَصِّصِينَ في النَّحْوِ العربيِّ - قَرَأَ **الكِتَابَ** لإمامِ النُّحَاةِ سِيبويهِ بِتَمَامِهِ؟

وكَمْ مِّنْ أَهْلِ التَّاريخِ والعُمْرانِ البَشَرِيِّ قَرَأَ **مُقَدِّمةَ ابنِ خَلْدُونَ**؟

وكَمْ مِّنَ المُخْتَصِّينَ في الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ الحديثِ ظَهَرَ عَلَى **دُرُوسٍ في الألْسُنِيَّةِ العامَّةِ** لِـ دُو سُوسير؟ (طَبْعًا نُقَّادُ الْحَداثَةِ، وهُمْ أَكْثَرُ مَنْ صَدَّعُوا أَدْمِغَتَنا بِمُصْطَلَحَاتِ دو سوسير = لا علاقةَ لَهُمْ بالموضوع!).

وكَمْ مِّنْ أَهْلِ اليَسَارِ قَرَأَ **رَأْسَ المالِ** لِـ كارْل مارْكِس؟

وقِسْ عَلَى ذلك المُوْلَعِينَ بِلَوْكِ مُصْطَلَحَاتِ "التَّفْكِيكِ"، و"الاختلافِ"، و"الاختلافِ المُرْجَإِ"... لِـ دِرِيدا = كَمِ الَّذِينَ قَرَأُوا مِنْهُم **في النَّحْوِيَّةِ** - كَمَا - يُرِيدُ مِيجَانُ الرُّوَيْلِيّ - أوِ **في الكِتابَةِ**، أوِ **الغراماتولوجْيا**، كَمَا يُرِيدُ آخَرُونَ؟

أَذْكُرُ أنَّني قَرَأْتُ فَصْلًا للصَّحَفِيِّ الكبيرِ محمَّد حَسنين هيكل أَذَاعَهُ في مَجَلَّةِ **الكُتُب وِجْهَات نَظَر** = قالَ في أثنائِهِ: إنَّ قُرَّاءَ **رَأْسِ المالِ** - منذُ صُدُورِهِ - تَعْدَادُهُمْ في العالَمِ مَحْدُودٌ، وأَسْنَدَ كلامَهُ هذا إلى دِرَاسةٍ عِلْمِيَّةٍ!

حَلَّاقُ القَرْيةِ!

كأنَّما كانَ الدُّكتور لُطْفِيّ عبد البديعِ "فُتُوَّةً"، وهو يُبَشِّرُ بِـ "عِلمِ الأُسْلُوبِ"، أَوَّلَ عَهْدِ الثَّقافةِ العربيَّة بِهِ! فإمَّا كَذَا وإمَّا كَذَا!

كان تصويرُهُ لِمَنْ أَبَى الأَخْذَ بالمَناهِجِ الجديدةِ، ومِنْ بَيْنِها "الأُسْلُوبِيَّةُ" مُزْرِيًا، لا يَلِيقُ بأُستاذٍ جامِعِيٍّ يُجِلُّ تُرَاثَه ويُوَقِّرُهُ.

ويَنْزِلُ التَّصويرُ دَرَكَاتٍ في "الْحِطَّةِ" حِينما يَعُدُّ الرَّافِضِينَ للمناهِجِ الحديثةِ، المُسْتَمْسِكِينَ بِعُلُومِنا = "كمَثَلِ مَن يَتْرُكُ طبيبَ الأسنانِ ويَذْهَبُ إلى حَلَّاقِ الْقَرْيَةِ لِيَخْلَعَ لهُ ضِرْسَهُ مِنْ غيرِ تخديرٍ، وما نَحْسَبُهُمْ يَرْضَوْنَ بذلك ويَتَحَمَّلُونَ آلامَهُ!"[134]!!

أَرَأَيْتُم هذه اللُّغةَ الَّتي تُصَوِّرُ عُلُومَنا بهذا القُبْحِ؟ أيُّ احترامٍ لعُلُومِنا وتُراثِنا سيُلْقِيهِ لُطْفي عبد البديع وأشباهُهُ في عُقُولِ طُلَّابِهِمْ وقُرَّائِهِمْ!

وفي الْحَقِّ إنَّ طريقتَهُ في الاحتفالِ بِعُلُومِ الغَرْبِ الَّتي أَلَمَّ بِها حديثًا، والازدراءَ القبيحَ لثقافتِنا وتُراثِنا = أَقْرَبُ إلى طريقةِ "الفُتُوَّاتِ" مِنْها إلى طريقةِ الأساتذةِ والمُثَقَّفِينَ المُحْتَرَمِينَ!

كَمِ الوقتُ الَّذي استغرَقْناهُ حتَّى نَغْسِلَ مِنْ أَدمِغَتِنا هذا السُّخْفَ والعَبَثَ وقِلَّةَ الذَّوْقِ؟!

دَرْسٌ

كان الدُّكتور كِيَان أحمد حازِم يَحْيَى يَعْرِفُ، قَبْلَ غَيْرِهِ، وُعُورةَ مَسْلَكِهِ وصُعُوبَتَهُ يَوْمَ اختارَ **الاحتمالاتِ اللُّغويّةَ المُخِلّةَ بالقَطْعِ وتَعارُضَهَا عِنْدَ الأُصُولِيِّينَ**(135) = موضوعًا لِأُطروحتِهِ في الدُّكتوراه.

كان يَعْرِفُ أنَّ موضوعَهُ عابِرٌ للتَّخصُّصاتِ، وأنَّ عليهِ أنْ تَكُونَ معرِفَتُهُ بِمَذَاهِبِ اللُّغويِّينَ العربِ القُدَامَى، مُضارِعةً لِمَعْرِفَتِهِ بِمَقَاصِدِ الأُصُوليِّينَ والفُقَهاءِ واستنباطاتِهِمْ = وأن يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ بِعِبَارَاتِ المُحَدِّثِينَ وتعرِيفاتِهِمْ، وأن يَطَّلِعَ عَلَى عِلْمِ اللُّغةِ الحديثِ بِمُخْتَلِفِ مَنَازِعِهِ واتِّجاهاتِهِ.

لَكِنَّهُ - وهو الباحِثُ المُسْلِمُ - كان مُطْمَئِنًّا إلى أنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وتَعَالَى - سيَهْدِيهِ السَّبِيلَ.

قالَ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ [العنكبوت: ٦٩]

تَعَوَّدْتُ الرُّجُوعَ إلى كِتابِ الدُّكتور كِيان، قارِئًا مُتَعَلِّمًا، وكان ما قَرَأْتُهُ، اللَّيْلَةَ، أَبْلَغَ ما تَعَلَّمْتُهُ!

كُتُبٌ أُحِبُّها

إلى الصَّدِيقِ العزيزِ الأُستاذ عادِل صالِح

سألْتَنِي أيُّها الصَّديقُ عنِ الكُتُبِ الَّتي تَأَثَّرْتُ بِها.. فإليكَ هذهِ الكَلِماتِ:

المُشْكِلَةُ أنَّ الاهتماماتِ مُخْتَلِفَةٌ، والعجِيبُ أنَّ الكُتُبَ الَّتي تَأَثَّرْتُ بِها لا يَزَالُ لها أَثَرٌ في نَفْسِي.

لا تَعْرِفُ مِقْدَارَ شُعُورِي الفِطْريِّ السَّاذَجِ البسيطِ، وأنا أَقْرَأُ **الأعمالَ الأدبيَّةَ** الخالِصَةَ لأمين الرَّيْحانِيِّ، أوِ **الأعمالَ الكامِلَةَ** لِميخائيل نُعَيْمَه – في نَحْوِ ٣٠ كِتابًا - أوْ جُبْرَان.

كُنْتُ مبهورًا.. شَعْرَتُ أنَّني صِرْتُ إنسانًا آخَرَ.. أَقْرَأُ وأَنْفَعِلُ بِما أَقْرَأُ!

أَلَا يَكْفِي ذلك لِأَتَعَلَّقَ بأولئكَ المُؤَلِّفِينَ؟

عَلَى أنَّني - يا صديقي - تَأَثَّرْتُ بألوانٍ مُّخْتَلِفةٍ مِّنَ الكُتُبِ أوِ الفُنُون؛ فَفِي النَّقْدِ الأدبيِّ أُحِبُّ أعمالَ مارُون عَبُّود، وإحسان عَبَّاس، ومحمَّد مندور، ولويس عوض، وكمال أبو دِيب، وجابِر عصفور، ووَهْب رُومِيَّة، وأَهِيمُ بمُؤَلَّفاتِ رجاء النَّقَّاش (كَمْ أُحِبُّ كُتُبَهُ!) وفي الشِّعْر عالَمٌ فَسِيحٌ مِّنَ الشُّعَراءِ..

وفي الأدبِ والْفِكْرِ: طه حُسَيْن، والعَقَّاد، وأحمد أمين، ومحمَّد حُسَيْن هيكل، وغازي القُصَيْبِيّ.. لكنَّني مشغُوفٌ كُلَّ الشَّغَفِ بالعَلَّامةِ الجَلِيلِ عُمَرَ فَرُّوخ.

بَلْ إنَّني أُحِبُّ كُتُبَ أنيس منصور، وخاصَّةً كِتابَهُ البديعَ **في صالون العَقَّادِ كانَتْ لَنا أيَّام**، وطالما تأَثَّرْتُ وأنا أَقْرَأ كُتُبَ خالد محمَّد خالد عن النَّبِيِّ الأعظمِ صلَّى الله عليه وسلَّم والصَّحَابَةِ الكِرَامِ – رِضْوَانُ اللهِ عليهم -

ماذا أقولُ يا صديقي؟!

لِي كُلَّ حِينٍ كاتِبٌ أَتَعَلَّقُ بِهِ، وكِتابٌ أُحِبُّهُ!

ذَهَبْتُ بالأمسِ القريبِ إلى مَعْرِضِ الكِتابِ في جُدَّة الَّتي تُحِبُّها، أنتَ يا عادِلُ، كما أُحِبُّها أنا، واشترَيْتُ قَدْرًا كبيرًا مِّنَ الكُتُبِ الَّتي أُفَضِّلُها، ولَكِنَّ أَقْرَبَها إِلَيَّ كِتابُ **شَخْصِيّات عَرَفْتُها** للكاتبِ المُبْدِعِ حُسَيْن أحمد أمين!

ماذا أقول يا صديقي عادل عن الكُتُب التي أحببتُها؟!

هَوَاءٌ جَدِيدٌ

طه حُسَيْن والعَقَّادُ كاتِبانِ كبيرانِ، استفَدْتُّ مِنْهُما كثيرًا، وطالما لُذْتُّ بِهِما، لكنَّني، منذُ مُدَّةٍ، صِرْتُ أَبْحَثُ عنْ هَوَاءٍ آخَرَ، ولاءَمَنِي ما في أدبِ الثَّلاثةِ المُهَاجِرِينَ إلى العالَمِ الجديدِ مِنْ جِدَّةٍ، وَّقُوَّةٍ، وُّعُنْفُوَانٍ، أَعْنِي أمين الرَّيْحَانِيَّ، وجُبْرَان خليل جُبْرَان، وميخائيل نُعَيْمَه!

أَصْدُقُكُمُ القَوْلَ: إنِّي مَلِلْتُ قِراءَاتٍ سابِقَةً لَّا جديدَ فيها: طه حُسَيْن، العَقَّاد، المازنيّ...! وقَدِّمْ وأَخِّرْ في ثلاثةِ الأسماءِ كما تُحِبُّ..!

لَيْتَنا ما خَسِرْنا أُدَباءَ المَهْجَرِ!

أَظُنُّ أنَّ الأدبَ العربيَّ في الْمَهْجَرِ الأمريكيِّ الشَّمَالِيِّ ظَلَمَتْهُ الدَّعَاوَى الَّتي حِيكَتْ حَوْلَهُ، وأَشْهَرُها لِينُ اللُّغةِ وضَعْفُ الثَّقافةِ، وكأنَّ ذلك حقيقةٌ مُقَرَّرَةٌ لا سبيلَ إلى نَقْضِها.

أُدَباءُ الْمَهْجَرِ لَيْسُوا سَوَاءً، عَلَى أنَّ أمين الرَّيْحَانِيَّ، وجُبْرَان خليل جُبْرَان، وميخائيل نُعَيْمَه كانوا مِنْ ذَوِي الثَّقافةِ العظيمةِ، والتَّضَلُّعِ الواسِعِ مِنَ اللُّغةِ والثَّقافةِ.

وأَظُنُّ، كذلك، أنَّ الأدبَ العربيَّ كان يَنْبَغِي لهُ أن يُنْعِشَ رُوحَهُ بِما انْطَوَى عليهِ أدبُ المَهْجَرِيِّينَ مِنْ قُوَّةٍ وَّعُنْفُوَانٍ وَّثَوْرةٍ = ويَجِدَ في أساليبِهِمْ طريقتَهُ.

وسأَقُولُ، وقَدْ فَرَغْتُ لِقِراءَةِ ما أنشأُوهُ: إنَّ في أدبِ المَهْجَرِيِّينَ مِنَ الحياةِ ومِنَ القُوَّةِ ومِنَ العُنْفُوَانِ = فَوْقَ ما لَقِيتُهُ في الأدبِ الَّذي أَنْشَأَهُ الأُدباءُ المِصْرِيُّونَ الَّذينَ أَثْقَلَتْهُمُ التَّقالِيدُ. لكنَّ الأحوالَ عاكَسَتِ الأدبَ الشَّابَّ الفَتِيَّ، وخَسِرَ الأدبُ العربيُّ الحديثُ هذه الجَسارَةَ يَوْمَ أَمَّ نَبْعًا غيرَ نَبْعِ المَهْجَرِيِّينَ!

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ

لَيْسَتِ الكَثْرَةُ هي الغايةَ مِنْ قِراءَةِ كُتُبِ الأدبِ!

واللُّهاثُ للانتهاءِ مِنْ قِراءَةِ كِتابٍ أدبيٍّ رَّفِيعٍ = مُضِرٌّ..

لَوْ أنَّني اقتصرْتُ، في هذا العامِ 1444هـ، عَلَى قِراءَةِ كُتُبِ أمين الرَّيْحَانِيِّ تلك الَّتي كَسَرَها عَلَى الأدبِ الخالِصِ = وجُبْرَان، وميخائيل نُعَيْمَه، وأَدَمْتُ النَّظَرَ فيها، وتَذَوَّقْتُها، وتَدَبَّرْتُ مَعانِيها، وحَدَّثْتُ أصحابي عَنْها = لكانَ في ذلك غَناءٌ عن القِرَاءَةِ الَّتي تُشْبِهُ "جَرْيَ الوُحُوشِ"! وهي، لا شَكَّ، غيرُ نافِعةٍ!

سِيَاحَةٌ هَيْكَلِيَّةٌ!

كانَتِ الرِّحْلَةُ في البَحْثِ عنْ كِتابِ **البَحْثُ عن أُورُوبَّا**[136] شاقَّةً، وما كُنْتُ حريصًا عليهِ إلَّا لثلاثِ مَقالاتٍ فيهِ، قَصَّ فِيهِنَّ محمود أمين العالِم بُدَاءَةَ معرفتِهِ بشيْءٍ اسمُهُ "الْهَيْكَلِيَّةُ" "structuralism"، تلك البِدْعةُ الفِكْرِيَّةُ والنَّقْدِيَّةُ الَّتي سنَعْرِفُها، فيما بَعْدُ، بترجماتٍ مُخْتَلِفةٍ أَشْهَرُهُنَّ اليومَ "البِنْيَوِيَّةُ"!

قِصَّةُ تَعَرُّفِ العالِمِ "الهَيْكَلِيَّةَ" طريفةٌ، يَغْلِبُ عليها عَيْنُ السَّائِحِ لا الباحثِ، عَلَى أنَّ مَقالاتِ العالِمِ عساها لَمْ تَسْتَجْلِبِ النَّظَرَ لَمَّا نَشَرَهُنَّ في مَجَلَّةِ **المُصَوَّر** سنةَ 1386هـ = ١٩٦٦م، بَلْ إنَّهُ مَضَى بعيدًا عنها، ولَعَلَّهُ نَسِيَها، حتَّى عادَ الماركسيُّ اللَّطيفُ، وَسَطَ الضَّجِيجِ الَّذي خَلَّفَتْهُ "البنيويَّةُ" = يُذَكِّرُ المَفْتُونِينَ بأنَّ عَهْدَهُ بِها قديمٌ، وكان واجِبًا عَلَى التَّاريخِ أن يَحْفَظَ للسَّائِحِ الَّذي حَدَّثَ قُرَّاءَهُ عن "الهَيْكَلِيَّةِ" = حَقَّهُ!

عُمَرُ فرُّوخ يَكْتُبُ أَعْذَبَ شِعْرٍ للأطفالِ

كانَ عُمَرُ فَرُّوخ باحِثًا كبيرًا، وكان، كذلك، شاعِرًا مُّجِيدًا، وكان يَنْظِمُ شِعْرًا للأطفالِ آيةً في الرَّوْعَةِ والرِّقَّةِ والْجَمَالِ والبَهَاءِ، ومِنْ ذلك أُنْشُودتُه الْحُلْوَةُ البديعةُ "النَّهْرُ الَّذي أَخَذَ المَرْكَبَ"(137):

النَّهْرُ الَّذِي أَخَذَ المَرْكَبَ [مِنْ مَجْزوءِ الخفيف]

أَيُّهَا النَّهْرُ لَا تَسِرْ

وانْتَظِرْنِي لِأَتْبَعَكْ

أَنَا أَخْبَرْتُ وَالِدِي

أَنَّنِي ذَاهِبٌ مَّعَكْ

فانْتَظِرْنِي لِأَتْبَعَكْ

أَنَا أَحْضَرْتُ مَرْكَبِي

هُوَ يا نَهْرُ مِنْ وَّرَقْ

أدنُ، يا نَهْرُ، إِنَّنِي

لَسْتُ أَخْشَى مِنَ الْغَرَقْ

وانْتَظِرْنِي لِأَتْبَعَكْ

ظَهَرَ النَّهْرُ هادِئًا

ورَأَى الطِّفْلُ أَوَّلَهْ

فَرَمَى المَرْكَبَ الَّذِي

في يَدَيْهِ، وقالَ لَهْ:

اِنْتَظِرْنِي لِأَتْبَعَكْ

فَجَرَى النَّهْرُ مُسْرِعًا

ومَضَى ثُمَّ لَمْ يَعُدْ

صَرَخَ الطِّفْلُ قائِلًا

بَعْدَما الْمَرْكَبُ ابْتَعَدْ:

لَيْتَنِي، لَيْتَنِي، مَعَكْ!

أَكْبَرُ مِنَ القَوَاعِدِ

النَّاقِدُ الأدبيُّ الَّذي يَصْدُرُ في نَقْدِهِ عنِ "القَوَاعِدِ"، والَّذي لا يستطيعُ أن يَخْطُوَ خُطْوَةً دُونَ أن يَسْتَشِيرَها = تَغْلِبُهُ الحَيْرَةُ إذا قَرَأَ كِتابَ **غُبَارِ السِّنِين** للدُّكتور عُمَر فَرُّوخ[138]؛ لأنَّهُ، بِحَسَبِ القَوَاعِدِ، وبإرادةِ الكاتِبِ، مَقالاتٌ قصيرةٌ تَجْلُو نَوَاحِيَ شَتَّى مِنْ حياةِ الكاتِبِ، منذُ صِبَاهُ إلى شَيْخُوخَتِهِ وهِرَمِهِ.

في النَّقْدِ الأدبيِّ شيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ "القَوَاعِدِ والأَقْيِسَةِ"، يُحِسُّهُ القارِئُ لا النَّاقِدُ المُتَسَلِّحُ بِـ "القَوَاعِدِ" = هو وَحْدَهُ الَّذي يُصَنِّفُ الكِتابَ في "أَدَبِ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ"، وهو، وَحْدَهُ، الَّذي يَستطيعُ كَشْفَ المُخَبَّإِ، وبُلُوغَ الْجَمَالِ المُسْتَتِرِ!

في المِركاز

عُدْتُ، قَبْلَ قَلِيلٍ، مِنْ مِّرْكازِي في قَهْوَةٍ مِّنَ القَهْوَاتِ الحديثةِ.

يكادُ آخِرُ كِيْلٍ في طريقِ المَلِكِ عبدِ العزيزِ - قَبْلَ مَيْدَانِ الْجَمَل - أن يَكُونَ شارِعَ القَهْوَاتِ - أوِ الْمَقاهِي إنْ شِئْتَ –

أصبحَتِ القهوةُ الحديثةُ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ الشَّارِعِ السُّعُودِيِّ؛ فحيثما اتَّجَهْتَ قَهْوَةٌ! وحيثما مِلْتَ قَهْوَةٌ، ولَيْلٌ، وَّسَهَرٌ، وسَمَرٌ!

وعادةً مَّا يَكُونُ مِرْكازِي اللَّيْلِيُّ - وأحيانًا النَّهَارِيُّ - في قَهْوَةٍ مِّنْ قَهْوَاتِ مَيْدَانِ الْجَمَلِ.

لا يَهْدَأُ الشَّارِعُ، لَيْلًا ولا نَهَارًا، لَكِنَّ اللَّيلَ أَنْسَبُ وأَجْمَلُ.

أَجْلِسُ في الْقَهْوَةِ وَحِيدًا، وصارَ مَنْظَرِي مَأْلُوفًا: أَلْبَسُ ثَوْبًا، فَوْقَهُ مِعْطَفٌ مِّنَ الصُّوفِ، شِتَاءً وصَيْفًا؛ فبُرُودَةُ المُكَيِّفاتِ تُشْبِهُ بُرُودةَ الثَّلَّاجةِ! وأَحْمِلُ حاسُوبًا، وفي يَدِي كِتابٌ أوْ أَكْثَرُ.

لَسْتُ فُضُولِيًّا، لَكِنَّني أَسْعَدُ كُلَّما تأمَّلْتُ الحياةَ السُّعُودِيَّةَ الْجديدةَ: النِّظَامُ العامُّ هو الَّذي يَحْكُمُ تَصَرُّفاتِ النَّاسِ، لا هيئةُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ، ولا مُحْتَسِبُون يَفْرِضُون إرادتَهم عَلَيْنا، وأَفْرَحُ حِينَ أرى السَّعادَةَ والبِشْرَ عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ؛ كُلِّ النَّاسِ، وأُدرِكُ التَّحَوُّلَ الَّذي أَصَابَ حياتَنا.

أجْلِسُ في رُكْنٍ مَّا، فإذا انصرفْتُ إلى القراءَةِ أوِ الكِتابةِ = سَلَّمْتُهما أمري، إلَّا مِنِ التفاتةٍ طبيعيَّةٍ بريئةٍ.

جَلَسْتُ، اللَّيلةَ، في رُكْنٍ أُحِبُّ الْجُلُوسَ فيهِ، وجَلَسَتْ في الْجِوَارِ شابَّةٌ، يُخَيَّلُ إليَّ أنَّها طالِبةٌ في الجامِعةِ؛ لأنَّها شُغِلَتْ بحاسُوبِها، وامْتَدَّ جُلُوسُها وقتًا طويلًا، ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَيَّ وكَلَّمَتْنِي

بأدبٍ جَمٍّ، ورَجَتْني أنْ أَنْتَبِهَ لِحاسُوبِها حتَّى تَعُودَ مِنْ أمرٍ أَهَمَّها.

كُنْتُ سعيدًا بِطَلَبِها؛ لأنَّ هَيئتي وسِنِّي مَنَحَانِي شَرَفَ ثِقَتِها، وتَرَكْتُ ما كُنْتُ فيهِ، ولَبِثْتُ أُراقِبَ حاسُوبَها، فهو أمانةٌ لَّدَيَّ! فلَمَّا رَجَعَتْ شَكَرَتْني، فعُدْتُّ إلى ما كُنْتُ فيهِ.

الحياةُ الجديدةُ في بِلادِنا مَنَحَتْنا القُوَّةَ في الشَّخصيَّةِ، ومَنَحَتِ الْمَرْأَةَ، وخاصَّةً الشَّابَّةَ، قُوَّةَ شخصيَّةٍ، وثِقَةً مَّا كانَتْ تَحْلُمُ بِها مِنْ قَبْلُ.

لماذا كان نَقْدُ جَبْرَا إبراهيم جَبْرَا مُخْتَلِفًا؟

كَتَبَ جَبْرَا إبراهيم جَبْرَا سَنَةَ 1368هـ = ١٩٤٩م مَقالةً دعاها "الـذِّرْوة في الأدبِ والفَنِّ"، وكانَ، آنَئِذٍ، في الثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

لا سبيلَ إلى تلخيصِ الْمَقَالَةِ؛ فهي مَجْلًى لعبقريَّةِ المُتَرْجِمِ والنَّاقدِ الشَّابِّ، وَقْتَذَاكَ، وأُفَضِّلُ قِراءَتَها في كِتابِهِ البدِيعِ **الحُرِّيَّة والطُّوفَان**[139].

تَستهويني كتابةُ جَبْرا.. إنَّها في دَرَجَةٍ وَّاحِدةٍ مِّنَ الإحسانِ، مهما كَتَبَ في النَّقْدِ الأدبيّ، أوِ الشِّعْرِ، أوِ الرِّوايةِ، أوِ القِصَّةِ القصيرةِ، أوْ فُنُونِ الرَّسْمِ، والنَّحْتِ، والتَّصويرِ، والمُوسِيقا!

يَصِفُ جَبْرَا كلامَهُ عنِ "الـذِّرْوَةِ" بِـ "نَظَرِيَّتي"، بِيَاءِ المُتَكَلِّمِ، ويأخُذُكَ، وأنتَ تُسْلِمُهُ أمرَكَ، في تَطْوَافٍ في كُلِّ الفُنُونِ الَّتي تَضَلَّعَ مِنْها، دُونَ أن يَنزِلَ أَحدُها عنْ مَرْتَبَةِ الآخَرِ.

كُنْتُ دَهِشًا وهو يَطُوفُ بِي في الرِّواياتِ العالَمِيَّةِ، ثُمَّ المُوسِيقا الكلاسِيكِيَّةِ والرُّومنطيقيَّةِ، ولَمْ يَكَدْ ينتهِي عَجَبِي حتَّى قالَ كلامًا بعيدَ الغَوْرِ في الشِّعْرِ والتَّصويرِ والنَّحْتِ = كُلُّ ذلك في مَقَالةٍ واحِدةٍ!

وعِندي أنَّ جَبْرَا إبراهيم جَبْرَا مِثَالٌ صَعْبٌ لِّلنَّاقِدِ الَّذي اِجْتَمَعَتْ فيهِ قُدُراتٌ لا يَرْقَى إلى مَرْتَبَتِها نُقَّادٌ عربٌ ودارِسُونَ نالُوا مِنْ ألوانِ الشُّهْرَةِ، في النَّقْدِ الأدبيِّ، فَوْقَ ما نالَهُ هذا النَّاقِدُ الفَذُّ!

مُشْكِلَةُ جَمْهَرَةٍ وَّاسِعةٍ مِّنَ النُّقَّادِ العربِ ضُمُورُ ثقافتِهِمْ، والظَّنُّ بأنَّهُ يكفي، في نَقْدِ الأدبِ، استِجْلابُ القَوالِبِ المُعَدَّةِ "الْجاهِزةِ"، وكأنَّها تَعْمَلُ وَحْدَها، دُونَ أنْ تُشْفَعَ بِحِسٍّ فنِّيٍّ، وَّثقافةٍ وَّاسِعةٍ، وأَلْمَعِيَّةٍ وَّذكاءٍ.

لذلكَ كان جَبْرَا إبراهيم جَبْرَا ناقِدًا مُخْتَلِفًا، ولذلكَ كانَتْ قِرَاءَتُهُ لَوْنًا مِّنْ ألوانِ الدَّهَشِ والْجَمَالِ!

كَيْفَ صَنَعْتُ بِيئَةً صَّالِحةً للقِرَاءَةِ والكتابةِ؟

مِمَّا ساعَدَنِي - بِفَضْلِ اللهِ - عَلَى أنْ أَتَفَرَّغَ للقِرَاءَةِ في غَيْرِ حَقْلٍ مِّنْ حُقُولِ المعرفةِ، والكتابةِ، والتَّأليفِ = حِرْصِي عَلَى هذهِ القواعِدِ والمَعاني الَّتي أَلْزَمْتُ نَفْسِي بِها:

▪ أُقَدِّمُ القِرَاءَةَ والكتابةَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَّا عَدَا أُسْرَتِي.

▪ إيمانِي بأنَّ القِرَاءَةَ تَعَبٌ وَّمُكَابَدَةٌ، مهما أَصَبْنا فيها مِنْ جَمَالٍ.

▪ القُدْوَة؛ فأنا أقتدِي بِنَمَاذِجَ رفيعةٍ: عُمَر فَرُّوخ، إحسان عَبَّاس، حمد الجاسِر، شوقي ضيف...

▪ أَخْذِي بِمَا أَدْعوهُ "قِرَاءَةَ الْحُقُولِ" لِغَايةِ التَّعَلُّمِ؛ فمنذُ سَنَوَاتِ الْجامِعةِ كُنْتُ أَفْرَغُ لِقِرَاءَةِ مجموعةِ كُتُبٍ في حَقْلٍ وَّاحِدٍ، وعادَ عَلَيَّ هذا اللَّوْنُ مِنَ القِرَاءَةِ بالنَّفْعِ الكبيرِ.

▪ استثمارِي للوقتِ؛ فأنا لا أَعْرِفُ "الدَّوْرِيَّاتِ"، ولا "اللِّقاءَاتِ المُنْتَظِمَةِ"؛ لأنَّها تُضِيعُ وَقْتِي.

▪ أُحِبُّ الْجُلُوسَ في القَهْوَاتِ بِصُحْبَةِ أصدقائي: الكُتُبِ، ودَفْتَرِ الكُنَّاشاتِ، والحاسُوبِ؛ فالْجُلُوسُ المُسْتَمِرُّ في القَهْوَةِ مَعَ الأصحابِ والأحبابِ لَيْسَ حَسَنًا للقارِئِ الْجَادِّ.

▪ اِسْتَغْنَيْتُ عنْ أيِّ مَصْدَرٍ مِّنْ مَّصادِرِ "الطَّاقةِ السَّلْبِيَّةِ"، وابتعدْتُ عنْ أيِّ صديقٍ أوْ زَمِيلٍ لَدَيْهِ مَهَارةٌ في أن يُحْبِطَكَ مِنْ أَوَّلِ دقيقةٍ.

▪ شُعُورِي الدَّائم بالتَّفاؤُلِ - بِفَضْلِ اللهِ - فلا أَلْتَفِتُ إلى "مُثَبِّطٍ" ولا "حاسِدٍ" قدْ يَسْتَخْفِيَانِ في أسمالِ "صديقٍ"، أوْ مَن يدَّعِي أنَّهُ صديقٌ، وتَجِدُني أَسْخَرُ مِنْهُ دائِمًا!

- التَّخفُّف مِنَ عُضْوِيَّاتِ اللِّجَانِ، فهي تُضِيعُ الوقتَ مِنْ دُونِ فائِدةٍ؛ فالْمَجْدُ في القِرَاءَةِ والكتابةِ لا في عُضْوِيَّاتِ اللِّجَانِ.
- التَّشَدُّد في حُضُورِ "النَّدْوَاتِ" و"المُلْتَقَيَاتِ"، واختيار ما أَحْضُرُهُ بِعِنايَةٍ شديدةٍ.

آلة كاتِبة

تَشُقُّ عَلَيَّ الكتابةُ بالقَلَمِ، وحَرَكَةُ يَدِي بِهِ بطيئةٌ جِدًّا، ثُمَّ إنِّي لا أُحْسِنُ مِنْ أنواعِ الخُطُوطِ إلَّا النَّسْخَ، ومِنَ المُؤْسِفِ أنَّني لَمْ أَسْعَ إلى حَلٍّ للمُشْكِلَةِ؛ كأنْ أَنْتَسِبَ إلى معهدٍ لِّتعليمِ الخَطِّ، أوْ أن يُدَرِّبَني خَطَّاطٌ. وأذكرُ أنَّني كُنْتُ أُكَابِدُ صُنُوفًا مِّنَ العَذَابِ = كُلَّما شَرَعْتُ في إنشاءِ فَصْلٍ لِأَنْشُرَهُ في الصَّحيفةِ، ويَبْلُغُ بي الحالُ أنَّني أَلْبَثُ ساعاتٍ وأنا أكْتُبُ وأكتب، وتَتْعَبُ كَفِّي.

فلَمَّا استعنْتُ بالحاسُوبِ قَبْلَ نَحْوٍ مِّنْ رُّبْعِ قَرْنٍ = داخَلَنِي شُعُورٌ بالطُّمَأنينةِ والرَّاحةِ، وجَعَلْتُ أتخلَّصُ، شيئًا فشيئًا، مِّنَ القَلَمِ والإمساكِ بِهِ، حتَّى صِرْتُ لا أَسْتَعْمِلُهُ إلَّا في تقييدِ كُنَّاشاتِي الَّتي لا يَهْتَدِي إلى قِراءَتِها أَحَدٌ سِوَايَ.

وأنا لا أُصَنِّفُ نَفْسِي في خُبَراءِ الحاسُوبِ، واستعانَتِي بِهِ لا تكادُ تتجاوَزُ الكتابةَ، وإنْ كُنْتُ، بفضْلِ اللهِ، أستعينُ بِهِ في التَّأليفِ، وإنشاءِ الفُصُولِ والمَقالاتِ، وما يُلِمُّ بِي مِنْ شُؤونٍ لَّها وَشِيجةٌ بالأدبِ والثَّقافةِ.

وَلأَقُلْ: إنَّ الحاسُوبَ يُوْشِكُ أن يَكُونَ "آلةً كاتِبةً" مُطَوَّرَةً، فإذا استعصَى عَلَيَّ شيْءٌ مِّنْ برامجِهِ استعنْتُ بِـ "صَدِيقٍ"! كما أنَّني، قَبْلَ عَهْدِ الشَّبَكَةِ العَنْكَبُوتِيَّةِ، كُنْتُ أبتاعُ مِنْ مكتبةِ جَرير كُتُبًا تأْخُذُ بِيَدي إلى هذا البرنامجِ أوْ ذاك = فلَمَّا أَظَلَّنا عَصْرُ "الشَّبَكَةِ العالَمِيَّةِ" تَيَسَّرَتِ الأُمُورُ، شيئًا مَّا، وكان صديقي الأُستاذُ حُسَيْن بن منصور الشَّيْخ - حَفِظَهُ اللهُ - يَحُلُّ مُشْكِلاتي، بِرُوحِهِ السَّمْحِ، وشهامَتِهِ وأُخُوَّتِهِ: "اِفْعَلْ كَذَا، وافتحِ البرنامجَ هذا، ثُمَّ أُخْطُ هذهِ الخُطْوَةَ"! عَلَى أنَّني تَقَدَّمْتُ تَقَدُّمًا يُرْضِيني، وكان لتسجيلاتِ (اليوتيوب) يَدٌ في تذليلِ مُعْضِلاتٍ، وهكذا جَرَتِ الأُمُورُ!

عَلَى أنَّ اختلافي إلى الثَّانويَّةِ التِّجاريَّةِ (1402-1404هـ) كان مُفِيدًا! نَعَمْ نَسِيتُ، وهذا مُؤْسِفٌ، دُرُوسَ الرِّياضةِ الماليَّةِ، والمُحاسَبةِ، والسِّكرتاريَّةِ = لكنَّني احتفظْتُ بالأَهَمِّ؛ بإحسانِ الضَّرْبِ عَلَى الآلةِ الكاتِبةِ! فلَمَّا أَلْجَأَتْني الحاجَةُ إلى الحاسُوبِ صارَ الضَّرْبُ - أوِ

الخَبْطُ - عَلَى لَوْحَةِ المفاتيحِ، كالضَّرْبِ عَلَى مفاتيحِ البِيانِ[140]! فإِنْ لَمْ أَكُنْ مُحْتَرِفًا فنِصْفَ مُحْتَرِفٍ، وحَسْبِي أنَّني - وهذا فضلٌ مِّنَ اللهِ - أكتُبُ بالحاسُوبِ في البَيْتِ، وفي القَهْوَةِ، وحيثُ أَكُونُ، فإذا سُئِلْتُ عنْ هذهِ المعرفةِ استعدْتُّ، بِزَهْوٍ، دُرُوسَ الآلَةِ الكاتبةِ (أُولُومْبِيا) أيَّامَ الدِّراسةِ في الثَّانويَّةِ التِّجاريَّةِ!

عَنِ الأُمْنِيَّاتِ

لَمَّا تَوَثَّقتْ صِلَتي بِكُتُبِ التَّرَاجِمِ والسِّيَرِ في تُرَاثِنا الإسلاميِّ = تَمَنَّيْتُ أُمْنِيَّةً: أنْ لَوْ تَهَيَّأَتْ لِي الفُرْصَةُ لِطَلَبِ العِلْمِ في حَلَقَاتِ المَسَاجِدِ، وخاصَّةً الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، أوِ الْجَامِعِ الأزهرِ.

كُنْتُ أَطْرَبُ متَى قَرَأْتُ في ترجمةِ عالِمٍ = أنَّهُ اخْتَلَفَ إلى هذهِ الْحَلْقَةِ أوْ تِلْكَ ودَرَسَ **الآجُرُّومِيَّةَ**، فلَمَّا تَرَقَّى، قليلًا، قَرَأَ عَلَى شَيْخِهِ **قَطْرَ النَّدَى**، ثُمَّ **شُذُورَ الذَّهَبِ**، واسْتَظْهَرَ **الأَلْفِيَّةَ**، وقَرَأَ **ابْنَ عَقِيلٍ**، و**حاشِيَةَ الخُضَرِيِّ عَلَيْهِ**، فَـ **أَوْضَحَ الْمَسَالِكِ**، فَـ **الأَشْمُونِيِّ**.

ولَمَّا تابعْتُ في (اليُوتيوب) دُرُوسَ الشَّيْخِ أحمد الطيِّبِ (شَيْخِ الأَزْهَرِ) في **شَرْحِ المَلَّوِيِّ عَلَى السُّلَّمِ** = تَمَنَّيْتُ أنْ لَوْ كُنْتُ أَزْهَرِيًّا؛ أَقْرَأُ عَلَى شُيُوخِي **شَرْحَ السُّلَّمِ**، و**الشَّمْسِيَّةَ**، و**شَرْحَ الوَرَقَاتِ**، و**مُخْتَصَرَ الْمَعَانِي**!

كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ المُعْجَمِ الوَسِيطِ

المُعْجَمُ الوَسِيطُ مِنْ مَّفَاخِرِ مَجْمَعِ اللُّغَةِ العربيَّةِ بالقاهِرةِ. هو رَفِيقي في الْمَكْتَبِ، والمَكتبةِ، وحيثُ أقرأُ وأَكْتُبُ، أَلُوذُ بِهِ دَوْمًا، وأستشِيرُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وأَجِدُ فيهِ الْخَبَرَ الْيَقِينَ! وفَوَائِدُهُ تَعْدُو اللُّغَةَ ومُفْرَدَاتِها وضَبْطَ الكَلِمَاتِ وتَصْرِيفَها = إلى الأمثالِ، والأقوالِ السَّائِرَةِ، والفلسفةِ، والعُلُومِ، والبُلْدَانِيَّاتِ... وهو، بِحَقٍّ، يُغْنِي عنْ سِوَاهُ، ودليلُ ذلك أنَّني اكتفيْتُ بِهِ وَحْدَهُ، في عَمَلٍ أَتْمَمْتُهُ، واتَّخذتُّهُ بديلًا عنْ كُتُبٍ أُخْرَى لا يَحُدُّها حَصْرٌ، فأَعانَنِي، وأَغْنانِي، وما خَذَلَنِي!

فِقْهُ اللُّغَةِ

أَمَا كانَ أَنْفَعَ لِطَلَبَةِ العُلُومِ اللُّغَوِيَّةِ في الْجامِعةِ أن يَدْرُسُوا كِتابَ **الخَصَائِصِ** لِابْنِ جِنِّي بَدَلَ الكُتُبِ الَّتي أَلَّفَها مُعَاصِرُونَ في فِقْهِ اللُّغَةِ؟ ولَسْتُ أَبْخَسُ الأساتذةَ الأَجِلَّاءَ الَّذِينَ تَلْمَذْنا لِكُتُبِهِمْ (صُبْحِي الصَّالِح، ورمضان عبد التَّوَّاب، وإبراهيم السَّامرَّائيّ، والسَّيِّد يعقوب بَكْر...) = فأنا لَهُمْ مُجِلٌّ، وعَلَيْهِمْ مُتَرَحِّمٌ!

لَكِنَّ الأساتذةَ الأَجِلَّاءَ عَرَضُوا العِلْمَ ولَمْ يَتَوَغَّلُوا فيهِ، كانوا عَلَى ساحِلِهِ، ولَمْ يَبْلُغُوا أعماقَهُ، وتَحَدَّثُوا عن العِلْمِ لا فيهِ، وما هكذا كِتابُ **الخَصَائِصِ**!

كان أبو الفَتْحِ – رَحِمَهُ اللهُ - يَعْرِفُ مُتَّجَهَهُ! إنَّهُ أرادَ لكِتابِهِ أن يَكُونَ "ذاهِبًا في جِهَاتِ النَّظَرِ، إذْ لَيْسَ غَرَضُنا فيهِ الرَّفْعَ، والنَّصْبَ، والْجَرَّ، والْجَزْمَ؛ لأنَّ هذا أمرٌ قدْ فُرِغَ في أكثرِ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ فيهِ مِنْهُ، وإنَّما هذا الكِتابُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِثَارَةِ مَعَادِنِ الْمَعَانِي، وتقريرِ حالِ الأوضاعِ والْمَبَادِي، وكَيْفَ سَرَتْ أحكامُها في الأحناءِ والْحَوَاشِي".

أُرِيدُ أنْ أَقُولَ شيئًا: ما قَرَأْتُ في كِتابِ **الْخَصَائِصِ** - وشَقِيقَيْهِ **الْمُحْتَسَبِ** و**سِرِّ صِنَاعَةِ الإعرابِ** - إلَّا ظَنَنْتُ أنَّني إنَّما أقرأُ في صَمِيمِ النَّقْدِ الأدبيِّ وفَنِّ تَذَوُّقِ النُّصُوصِ، بِمَنْهَجِ ابْنِ جِنِّي ومَنْ إليهِ، وهو المنهجُ الَّذي رآهُ فاشِيًا عِنْدَ أسلافِهِ مِنَ اللُّغويِّينَ الَّذِينَ ذاقُوا حَلَاوَةَ كلامِ العربِ، وتَلَقَّوْهُ مِنْ أفواهِهِمْ = هذا المنهجُ الَّذي طالما كَرَّرَ الحديثَ عنهُ في كِتابِهِ لِيُثَبِّتَهُ في عَقْلِ قارِئِهِ.

حياتي مَعَ الْجُوعِ والحُبِّ والْحَرْبِ

للأديبِ الرَّائدِ عزيز ضِياء (١٣٣٢-١٤١٨هـ) سِيرَةٌ ذاتِيَّة جميلةٌ، يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إليها لِتَعَرُّفِ طبيعةَ الحياةِ في المدينةِ النَّبَوِيَّةِ المُنَوَّرةِ في أثناءِ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولَى وبَعْدَها.

عزيز ضِياء أديبٌ وفنَّانٌ ومُتَرْجِمٌ مُقْتَدِرٌ، ورائدٌ كبيرٌ مِّنْ رُوَّادِ الأدبِ والثَّقافةِ في المملكة العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ. أَذَاعَ سِيرَتَهُ مُنَجَّمَةً في مَجَلَّةِ **اِقْرَأْ**، وتُوُفِّيَ قَبْلَ أن يُتِمَّها، وصَدَرَتْ في ثلاثةِ أجزاءٍ[141].

وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ النَّشْرَ الأُسْبُوعِيَّ اقتضاهُ الغَوْصَ في التَّفاصِيلِ، فأَشْبَهَتْ، في كثيرٍ مِّنْ فُصُولِها "السِّيناريو والْحِوَارَ في الدِّرامَةِ التِّلِفِزْيونيَّةِ"، وأَغْرَقَ كِتابَهُ - وهو الأديبُ البيانِيُّ - في عامِّيَّةٍ خالِصَةٍ مُزْعِجَةٍ ثَقِيلَةٍ، تَكَلَّفَ فيها تصويرَ الكلمةِ كما تُنْطَقُ: (حافِض بَدَل حافِظ، هِيَّهْ بَدَل هِيَ...).

ولَعَلَّ القُرَّاءَ - أوْ بَعْضَ القُرَّاءِ - أَعْجَبَهُمْ، لَمَّا ظَهَرُوا عليها في **اقْرَأْ** = أنْ تُعِيدَهُمُ السِّيرةُ إلى زمنٍ قديمٍ جِدًّا، في عاداتِهِ وتقاليدِهِ وأحوالِ مَعَاشِ النَّاسِ، فاضْطُرَّ الكاتِبُ إلى أن يَخُوضَ في تفاصِيلَ صغيرةٍ، ورَكِبَ العامِّيَّةَ فصارَتْ حاجِزًا بينَ الكِتابِ والقارِئِ - الَّذي يُفْتَرَضُ أن يَكُونَ عامًّا لا فِئَوِيًّا أوْ مُنْتَمِيًا إلى ناحِيَةٍ بِعَيْنِها –

وعِندي أنَّ اصطناعَ العامِّيَّةِ حَدَّ دُونَ ذُيُوعِ الكِتابِ في الدَّاخِلِ، وفي العالَمِ العربيِّ؛ لأنَّهُ يَصْعُبُ عَلَى القارِئِ الَّذي لا يَعْرِفُ المُفْرَدَاتِ الضَّارِبةِ في العامِّيَّةِ = فَهْمُ المقصودِ مِنْها.

رَحِمَ اللهُ الأديبَ الكبيرَ عزيز ضِياء.. كان بِوُسْعِ سِيرَتِهِ أنْ تَكُونَ عَمَلًا أدبيًّا كبيرًا، لَوْلا السَّيْرُ وراءَ العامِّيَّةِ الخالِصَةِ، والوَلَعُ بتفاصِيلَ لَمْ يَكُنْ لَّها قيمةٌ فنِّيَّةٌ!

الهوامش

[1←]

() العَقَّاد، عَبَّاس محمود. **أنا** (القاهرة: دار نَهْضة مِصْر، 2005م)، ص 69.

[2←]

() الجاحظ، **الحيوان**، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون (بيروت: دار الجيل، د.ت)، 1/53.

[3←]

() الجاحظ، المَصْدر السَّابِق، 1/52-53.

[4←]

() الجاحظ، المصدر السَّابِق، 1/ 60.

[5←]

() أمين، حسين أحمد. **في بيت أحمد أمين** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1409هـ = 1989م)، ص 16.

[6←]

() **يوميّات إجناس جولدتسيهر**، ترجمة محمَّد عَوْنِي عبد الرَّؤوف (القاهرة: المركز القوميُّ للتَّرجمة، 2016م)، ص 65.

[7←]

() غادامير، هانز جورج. **التَّلْمَذَةُ الفلسفيَّةُ؛ سِيرة ذاتيَّة**، ترجمة حَسَن ناظِم وعَلِيّ حاكِم صالِح (بيروت: دار الكِتاب الْجديد المُتَّحِدَة، 2013م)، ص ص 80-81.

[8←]

() أَخْبَرَتْني أُخْتِي إحسان أنَّها اعتادَتْ شِرَاءَ قِصَص "المُغامِرِينَ الْخَمْسةِ" مِنْ مكتبة الْخَزْنْدار.

[9←]

() بافقيه، حسين محمَّد. **كُلُّكُمْ يَطْلُبُ صَيْد** (جدَّة: مكتبة كُنُوز المعرفة، 1438هـ = 2017م)، ص ص 155-156.

[10←]

() يُنْظَرُ الكِتابُ البديعُ **الكِتابُ في الحضارةِ الإسلامِيَّة**، لعبدِ الله الحِبْشِيِّ (جُدَّة: دار المِنْهاج، 1444هـ = 2022م)، ص ص 172-173، 245-263.

[11←]

() شارِع طارِق بن زِيَاد في الهِنْداوِيَّة.

[12←]

() فَرُّوخ، عُمَر. **هذا الشِّعْر الحديث...** (بيروت: دار لُبنان للطِّباعة والنَّشْر، د.ت).

[13←]

() المُتَنَبِّي [مِنَ الطَّويل]:

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا

[14←]

() الصَّلِيبِيّ، كمال. **طائر عَلَى سِنْدِيانَة** (عَمَّان: دار الشُّرُوق، 2002م).

[15←]

() أُسْتاذُنا العَلَّامة الدُّكتور عبد الهادي الفَضْلِيّ – رَحِمَهُ الله -.

[16←]

() أبو زُبَيْد الطَّائِيّ [مِنَ الخَفِيف]:

لَيتَ شِعْرِي وأَيْنَ مِنِّيَ لَيتٌ إنَّ لَيتًا وإنَّ لَوًّا عَنَاءُ

[17←]

() الكَتَّانِيّ، محمَّد. **الصِّرَاعُ بين القديم والجديد في الأدب العربيّ الحديث** (الدَّار البيضاء: دار الثَّقافة، 1402-1403هـ =1982م).

[18←]

() ابن مالِك، جَمَال الدِّين محمَّد بن عبد الله الطَّائيّ النَّحْوِيّ. **شَوَاهِد التَّوضيح والتَّصحيح لِمُشْكِلاتِ الْجامِعِ الصَّحِيح**، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي (بيروت: عالَم الكُتُب، 1435هـ = 2014م).

[19←]

() الإشارةُ، هُنا، إلى "النُّسْخَةِ اليُونِينِيَّةِ" مِنَ **الْجامِع الصَّحيح** الَّتي صَحَّحَها الشَّرَفُ اليُونِينِيُّ وابْنُ مالِك النَّحْوِيّ، نَزِيلُ دِمَشْق، بِمَحْضَرِ جَمَاعةٍ مِّنْ فُضَلاءِ المُحَدِّثِينَ والْحُفَّاظ. يُنْظَر: المَنُّونِيّ، محمَّد. **قَبَسٌ مِّنْ عَطَاءِ المخطوطِ المغرِبِيّ** (بيروت:

دار الغَرْب الإسلاميّ، 1999م)، 1/114-116؛ الْحُدَيْثِيّ، خديجة. **مَوْقِفُ النُّحَاةِ مِنَ الاحتجاجِ بالحديثِ الشَّريف** (بغداد: منشورات وزارة الثَّقافة والإعلام – دار الرَّشِيد، 1981م)، ص ص 239-242.

[20←]

() السَّامرَّائيّ، إبراهيم. **فِقْه اللُّغة المُقَارَن** (بيروت: دار العِلْم للملايين، 1983م).

[21←]

() مَكْرَم، عبد العال سالِم. **القُرآن الكريم وأَثَرُهُ في الدِّراساتِ النَّحْوِيَّةِ** (الكويت: مؤسَّسة عَلِيّ جَرَّاح الصَّبَاح، 1398هـ = 1978م).

[22←]

() الوِجَادةُ في اصطلاحِ المُحَدِّثِين: اسْمٌ لِمَا أُخِذَ مِنَ العِلْمِ مِنْ صحيفةٍ، مِنْ غَيْرِ سَمَاعٍ ولا إجَازَةٍ ولا مُنَاوَلَةٍ. **المعجَم الوسيط**: (وجد).

[23←]

() للكِتابَيْنِ عِدَّةُ طَبْعاتٍ.

[24←]

() الحلوانِيّ، محمَّد خير. **المُغْنِي الجديد في عِلْمِ الصَّرْف** (بيروت: دار الشَّرْقِ العربيّ، د. ت).

[25←]

() **مُذَكَّرات قاسِم محمَّد الرَّجَب** (بيروت: الدَّار العربيَّة للموسوعات، 1429هـ = 2009م).

[26←]

() مندور، محمَّد. **في المِيزانِ الجديد** (القاهرة: دار نَهْضة مِصْر، د.ت).

[27←]

() **الأورغانون الجديد** كِتابٌ للفيلسوف فرنسيس بِيكُون، ويُطْلَقُ المُصْطَلَحُ "أورغانون"، في أَصْلِهِ، عَلَى كُتُبِ أرِسطو المَنْطِقِيَّةِ، أَمَّا الدِّلالةُ اللَّفظِيَّةُ فهي "الآلَةُ"، وسُمِّيَ المَنْطِقُ عِنْدَ العربِ "عِلْمَ الآلَةِ". مَجْمَع اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرة. **المُعْجَم الفلسفي** (القاهرة: الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميريَّة، 1403هـ = 1983م)، ص 9.

[28←]

() ابن جُنَيْد، يَحْيَى محمود. **الحياةُ الثَّقافيَّةِ في مكَّةَ المُكرَّمةِ في القرن التَّاسِعَ عَشَرَ الميلاديّ ١٢١٥-١٣١٧هـ** (الرِّياض: مؤسَّسة اليمامة الصَّحَفِيَّة، كِتاب الرِّياض، 1422هـ = 2002م).

[29←]

() صَدَرَتْ جميعُها عنْ شركة الفُرْقانِ للتُّراثِ الإسلامِيِّ بِجُدَّة، 1440هـ = 2019م.

[30←]

() الرَّاشد، سعد عبد العزيز سعد. **دَرْب زُبَيْدة: طريق الْحَجِّ مِنَ الكُوفةِ إلى مكَّة المُكَرَّمة؛ دراسة تاريخيَّة وحضارِيَّة أثَرِيَّة** (الرِّياض: ليان الثَّقافيَّة، 1440هـ = 2018م).

[31←]

() المُنِيف، عبد الله بن محمَّد. **صِناعة المخطوطات في نَجْد ما بين مُنْتَصَفي القرنين العاشِرِ والرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيَّيْن** (عَمَّان: أَرْوِقة للدِّراسات والنَّشْر، 1435هـ = 2014م).

[32←]

() الكُرْدِيّ المَكِّيّ الخَطَّاط، محمَّد طاهر. **تاريخ الْخَطّ العربيّ وآدابِهِ** (القاهرة: مكتبة الهِلال، المطبعة التِّجاريَّة الحديثة بالسَّكاكينيّ، 1358هـ = 1939م).

[33←]

() الضُّبَيْب، أحمد بن محمَّد. **حركة إحياءِ التُّراث في المملكة العربيّة السُّعُوديّة** (الرِّياض: مكتبة العُبَيْكان، 1441هـ = 2020م).

[34←]

() الضُّبَيْب، أحمد بن محمَّد. **مُعْجَم مطبوعات التُّراث في المملكة العربيّة السُّعُوديّة** (الرِّياض: جامِعة الملك سُعُود – كُرْسيّ الدُّكتور عبد العزيز المانِع لدِراسات اللُّغة العربيَّة وآدابِها، 1436هـ = 2015م).

[35←]

() عبد الغَنِيّ، ريم. **حضرموت حضارة لا تموت** (بيروت: دار الفارابِيّ، 2016م).

[36←]

() الحارثِيّ، مشعل عيضه. **الملِك فيصل والمدرسة النَّمُوذَجِيَّة؛ عطاءٌ تاريخيٌّ ونَمَاءٌ تعليميٌّ** (جدَّة: المُؤَلِّف، 1433هـ = 2012م).

[37←]

() الأحمريّ، محمَّد حامِد. **نَبْتُ الأرضِ وابْنُ السَّمَاءِ: الْحُرِّيَّةُ والفَنُّ عِنْدَ عَلِيّ عِزَّتْ بِيغوفيتش** (الرِّياض: مكتبة العُبَيْكان، 1431هـ).

[38←]

() صعيديّ، عدنان. **عَلَى مَوْجة طويلة؛ برامِجُ وشخصيّاتٌ** (جدَّة: المُؤَلِّف، 1436هـ = 2015م).

[39←]

() التَّيْهانيّ، أحمد عبد الله. **الشِّعر في عَسِير 1351-1430هـ** (أبها: النَّادي الأدبيّ، بيروت: مُؤَسَّسة الانتشار العربيّ، 2016م).

[40←]

() آل مُرَيِّع، أحمد بن عَلِيّ. **عَلِيّ الطَّنطاوِيّ، كانَ يَوْمَ كُنْتُ؛ صِناعةُ الفِقْهِ والأدبِ** (الرِّياض: مكتبة العُبَيْكان، 1428هـ = 2007م).

[41←]

() آل مُرَيِّع، أحمد بن عَلِيّ. **خِطَاب الْجُنُون؛ الْحُضُورُ الفيزيائيُّ والغِيَابُ الثَّقافيّ: الاستبعادُ والنَّفْيُ** (الرِّياض: مكتبة العُبَيْكان، 1435هـ = 2014م).

[42←]

() السَّمَّان، محمَّد حَيَّان. **خِطَاب الْجُنُون في الثَّقافةِ العربيّةِ** (لندن: رِياض الرَّيِّس للكُتُب والنَّشْر، 1993م).

[43←]

() الغامديّ، عثمان جمعان. **المعرفة والنَّقد؛ دراسة في نَقْد عبد الفَتَّاح أبو مَدْيَن** (تبوك: النَّادي الأدبيّ، بيروت: مُؤَسَّسة الانتشار، 1437هـ = 2016م).

[44←]

() العُمْرَانِيّ، نُورة. **المرأة في شِعْر محمّد حَسَن فَقي؛ دراسة نقديّة** (تبوك: النَّادي الأدبيّ، بيروت: مُؤَسَّسة الانتشار، 1437هـ = 2016م).

[45←]

() **فِهرِسَة ما رواهُ ابنُ خَيْرِ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ** (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1399هـ = 1979م، عنْ طبعة كوديره وريبيرا طرغوه، مدريد، 1893م).

[46←]

() مِنْ مُقدِّمةِ إحسان عَبَّاس للطَّبعةِ الثَّانيةِ لِكِتابِ **فَصْل المَقَالِ في شَرْحِ كِتابِ الأمثالِ** لأبي عُبَيْدٍ البَكْرِيّ (بيروت: دار الأمانة – مُؤَسَّسة الرِّسالة، 1391هـ = 1971م)، ص ص 10-11.

[47←]

() **فِهرِسَة ما رواهُ ابنُ خَيْرِ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ** (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1399هـ = 1979م، عنْ طبعة كوديره وريبيرا طرغوه، مدريد، 1893م).

[48←]

() قُرِّرَ علينا كُتاب **المَصَادِر الأدبيّة واللُّغويّة في التُّراثِ العربيّ** للدُّكتور عِزِّ الدِّين إسماعيل (القاهرة: دار المعارف، 1980م)، واستعنْتُ، كذلك، بكِتاب **دِراسة في مَصَادِرِ الأدب** للدُّكتور الطَّاهِر أحمد مكِّيّ (القاهرة: دار المعارف، 1980م)، وكِتاب **مَصَادِر التُّراثِ العربيّ في اللُّغةِ والمَعاجِمِ والتَّراجِمِ** للدُّكتور عُمَر الدَّقَّاق (بيروت: دار المَشْرِقِ العربيّ، د.ت).

[49←]

() الكَتَّانِيّ، عبد الْحَيِّ بن عبد الكبير. **فِهْرِس الفَهَارِس والأثبات ومُعْجَم المَعَاجِمِ والْمَشْيَخات والمُسَلْسَلات**، بِاعْتِناء إحسان عَبَّاس (بيروت: دارُ الغَرْبِ الإسلاميّ، 1402هـ = 1982م).

[50←]

() السُّيُوطِيّ، جلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بَكْر. **أَنْشَابُ الكُتُب في أَنسابِ الكُتُب**، تحقيق إبراهيم باجِس عبد المجيد (الرِّياض: مركز الملِك فيصل للبُحُوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّة، 1437هـ = 2016م).

[51←]

() السُّيُوطِيّ، جلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بَكْر. **زادُ المَسِير في الفِهْرِسْتِ الصَّغِير**، تحقيق يوسُف المَرْعَشْلِيّ (بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، 1428هـ = 2007م).

[52←]

() **زاد المَسِير في الفِهْرِسْتِ الصَّغير**، ص 77، هامِش المُحَقِّق، ويُنْظَر، كذلك، هامِش صفحة 20 مِنْ مُقَدِّمة مُحَقِّق **أَنْشاب الكُتُب**.

[53←]

() الكَتَّانِيّ، عبد الْحَيِّ بن عبد الكبير. **فِهْرِس الفَهَارِس والأثبات**، 1/82.

[54←]

() ضيف، شوقي. **مَعِي** (القاهرة: دار المعارف، 1985م).

[55←]

()

[56←]

() صليبا، جورج. **مَعَالِم الأصالة والإبداع في الشُرُوحِ والتَّعَالِيقِ العِلْمِيَّةِ المُتَأَخِّرةِ** (لندن: مُؤَسَّسة الفُرْقان للتُّراثِ الإسلاميِّ، 1436هـ = 2015م).

[57←]

() أوغدِن ورِتشاردز. **مَعْنَى المَعْنَى؛ دِراسة لأثَرِ اللُّغةِ في الفِكْرِ والعِلْمِ والرَّمزيَّةِ**، ترجمة كِيَان أحمد حازم يحيى (بيروت: دار الكِتاب الجديد المُتَّحِدة، 2015م).

[58←]

() يحيى، كِيَان أحمد حازِم. **الاحتمالات اللُّغويّة المُخِلّة بالقَطْعِ وتَعَارُضِها عِنْدَ الأُصُوليِّين** (بيروت: دار المَدَارِ الإسلاميّ، 2013م).

[59←]

() يحيى، كِيَان أحمد حازِم. **اللُّغة بينَ الدِّلالةِ والتَّضليل: دراسة نقديّة عَلَى هامِش "مَعْنَى المَعْنَى"** (بيروت: دار الكِتاب الجديد المُتَّحِدة، 2015م).

[60←]

() جَبَلا مَكَّةَ المعروفان.

[61←]

() الذَّهبيّ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان. **سِيَر أعلام النُّبلاء**، تحقيق عَلِيّ أبو زيد، أَشْرَفَ عَلَى تحقيقِ الكِتاب وخَرَّجَ أحاديثَهُ شُعَيْب الأرنؤوط (دمشق: دار الرِّسالة العالَمِيَّة، 1440هـ = 2019م)، 13/349.

[62←]

() عَبَّاس، إحسان. **تاريخ الأدب الأندلُسِيّ؛ عَصْر سِيَادة قُرْطُبة** (بيروت: دار الثَّقافة، 1996م)، ص 25.

[63←]

() محمود، زكي نجيب. **تجديد الفِكْر العربيّ** (بيروت، القاهرة: دار الشُّرُوق، 1402هـ = 1982م)، ص ص 5-6، ويُطَالِعُنا السَّائِحُ، مَرَّةً أُخْرَى، في مُقَدِّمةِ كِتابِهِ **المعقول واللّا معقول في تُرَاثِنا الفِكْرِيّ** (القاهرة، بيروت: دار الشُّرُوق، 1408هـ = 1987م)، ص ص 10-11.

[64←]

() محمود، زكي نجيب. **تجديد الفِكْر العربيّ**، ص ص 55-56.

[65←]

() الزَّجَّاجِيّ، أبو القاسِم عبد الرَّحمن بن إسحاق. **الإبدال والمُعَاقَبَة والنَّظَائِر**، تحقيق عِزّ الدِّن التَّنُوخِيّ (بيروت: دار صادِر، 1991م).

[66←]

() الزَّجَّاجِيُّ. المَصْدَر السَّابِق، ص 4.

[67←]

() المَصْدر السَّابِق، ص 13.

[68←]

() المَصْدَر السَّابِق، ص 22.

[69←]

() ابن جِنِّي، أبو الفَتْح عثمان. **تَفْسِير أُرْجُوزة أبي نُوَاس في تقريظِ الفَضْلِ بنِ الرَّبيع وزيرِ الرَّشِيدِ والأمينِ**، تحقيق محمَّد بَهجة الأَثَرِيّ (دمشق: مَجْمَع اللُّغة العربيَّة، د.ت).

[70←]

() القِفْطِيّ، جَمَال الدِّين أبو الحَسَن عَلَيّ بن يوسُف. **إِنْبَاهُ الرُّوَاة عَلَى أَنْبَاهِ النُّحَاة**، تحقيق محمَّد أبو الفَضْل إبراهيم (بيروت: المكتبة العَصْرِيَّة، 1424هـ = 2004م)، 2/161.

[71←]

() القَلْقَشَنْدِيّ، أحمد بن عَلِيّ. **صُبْح الأعشى في صِنَاعةِ الإنشا**، شَرَحَهُ وعَلَّقَ عليه وقابَلَ نُصُوصَه محمَّد حسين شمس الدِّين (بيروت: دار الكُتُب العِلْمِيَّة، 1407هـ = 1987م) 1/538.

[72←]

() يَحْيَى ابْنُ مُعْطٍ بن عبد النُّور أبو الحُسَيْن زَيْن الدِّين الزَّوَاوِيُّ المَغْرِبِيُّ النَّحْوِيُّ المُتَوَفَّى سنةَ 628هـ. تُنْظَر ترجمتُهُ في: السُّيُوطِيّ، جلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بَكْر. بُغْيَةُ الوُعَاة في طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة، تحقيق محمَّد أبو الفَضْل إبراهيم (بيروت: المكتبة العَصْرِيَّة، د.ت)، 2/344.

[73←]

() مندور، محمَّد. **في الأدب والنَّقْد** (القاهرة: دار نهضة مِصْر، 1978م)، ص 3.

[74←]

() **نَجم، محمَّد يوسُف**. نظريَّة النَّقد والفُنُون والمَذاهب الأدبيَّة (بيروت: دار صادِر، 1985م)، ص ٥١.

[75←]

() بدوي، أحمد أحمد. **أُسُس النَّقدِ الأدبيّ عند العرب** (القاهرة: دار نَهْضة مِصْر، 1996م).

[76←]

() فَرُّوخ، عُمَر. **هذا الشِّعرُ الحديث.**. (بيروت: دار لُبنان للطِّباعة والنَّشر، د.ت).

[77←]

() شُكْرِي، غالي. **سوسيولوجيا النَّقد العربيّ الحديث** (بيروت: دار الحداثة، 1980م).

[78←]

() فهمي، ماهر حَسَن. **تطوُّرُ الشِّعرِ العربيّ الحديثِ بمنطقةِ الخليج** (بيروت: مُؤَسَّسة الرِّسالة، 1401هـ = 1981م).

[79←]

() سعد الله، أبو القاسِم. **تاريخ الجزائر الثَّقافيّ** (بيروت: دار الغَرْب الإسلاميّ، 1998م).

[80←]

() **دِيوان أبي تَمَّام**، تحقيق محمَّد عبده عَزَّام (القاهرة: دار المعارف، 1983م).

[81←]

() تَعَدَّدَت طبعاتُه.

[82←]

() الطَّاهِر، عَلِيّ جَوَاد. "منذُ نِصْفِ قَرْنٍ تُوُفِّيَ طه أحمد إبراهيم"، و"بَعْد نِصْفِ قَرْنٍ: طه أحمد إبراهيم في الْخَلَف!!!"، في: **أساتِذَتِي ومَقالات أُخْرَى** (بغداد: وزارة الثَّقافة والإعلام – دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامَّة، 1987م)، ص ص 141-158.

[83←]

() الطَّاهِر، عَلَيّ جَوَاد. المرجع السَّابِق، ص 144.

[84←]

() عبد الوَهَّاب، حَسَن حُسْنِي. **كِتابَ العُمُر في المُصَنَّفاتِ والمُؤَلِّفِينَ التُّونسِيِّينَ**، مُرَاجَعَة وإكمال محمَّد العَرُوسِيّ المَطْوِيّ وبشير البَكُّوش (بيروت: دار الغَرْب الإسلاميّ، 1990م).

[85←]

() المُنَجِّد، صلاح الدِّين. **المُنْتَقَى مِنْ دِراسات المُسْتَشْرِقِين** (بيروت: دار الكِتاب الجديد، 1396هـ = 1976م).

[86←]

() **مَقالات ودِراسات مُهْدَاة إلى الدُّكتور صلاح الدِّين المُنَجِّد** (لندن مُؤَسَّسة الفُرقان للتُّراثِ الإسلاميّ، 1423هـ = 2002م).

[87←]

() شيخو، لويس. **تاريخ الآدابِ العربيَّةِ في القرْن التَّاسِعَ عَشَرَ والرُّبْعِ الأَوَّل مِنَ القَرْن العشرينَ** (بيروت: دار المَشْرِق، 2010م).

[88←]

() المرصفِيّ، حسين. **الوَسِيلةِ الأدبيّة إلى العُلومِ العربيّة** (جدَّة: دار المِنهاج، 1440هـ = 2019م).

[89←]

() **مَغلَمَة المَناهِجِ الأزهريّةِ** (جدَّة: دار المِنهاج، 1444هـ = 2023م).

[90←]

() **دِيوان أبي تَمّام**، تقديم مُحْيِي الدِّين صُبْحِي وشَرْحه (بيروت: دار صادِر، 1997م)، ١/١٠، ١٣.

[91←]

() المبخوت، شُكْرِي. **الاستدلال البلاغيّ** (تونُس: دار المعرفة للنَّشر- كُلِّيَّة الآداب والفُنُون والإنسانيَّات بجامِعة مَنُّوبة، 2006م)، وطبعة أُخْرَى أَحْدَث (بيروت: دار الكِتاب الجديد المُتَّحِدة، 2010م).

[92←]

() المبخوت، شُكْرِي. **الاستدلال البلاغيّ**، ص ص ١٤٣، ١٤٥ مِنَ الطَّبْعةِ التُّونسيَّةِ، ص ص ١٠٧-١٠٨ طبعة دارِ الكِتابِ الجديد.

[93←]

() الأخضريّ. **مَتْنُ السُّلَّم وشَرْحُه**، ضِمْنَ **مجموع السُّلَّم المُنَوْرَق**، ضَبَطَهُ وحَقَّقَهُ وشَجَّرَهُ ماهر محمَّد عدنان عثمان (إسطنبول: دار تحقيق الكِتاب، 2020م)، ص 396.

[94←]

() الخطيب القَزْوِينِيّ، جَلال الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن. **تَلْخِيص المِفْتاح**، ضَبَطَهُ وشَرَحَهُ عبد الرَّحمن البرقوقيّ (القاهرة: دار الفِكْر العربيّ، د.ت)، ص ص 235-236.

[95←]

() مطلوب، أحمد. **البلاغة عند السَّكَّاكِيّ** (بغداد: مكتبة النَّهْضة، 1384هـ = 1964م).

[96←]

() مطلوب، أحمد. **القَزْوِينِيُّ وشُرُوحُ التَّلخيص** (بغداد: مكتبة النَّهْضة، 1387هـ = 1967م).

[97←]

() ابن رُشَيْد الفِهْرِيّ السَّبْتِيّ، محمَّد بن عُمَر. **إفادة النَّصِيح بالتَّعريفِ بإسنادِ الْجامِعِ الصَّحِيح**، تحقيق نَظَر محمَّد الفاريابيّ (الرِّياض؟: د.ن، 1444هـ = 2022م)، ص 18.

[98←]

() عِزّ الدِّين، حَسَن البَنَّا. **شِعْرِيَّة الحَرْبِ عِنْدَ العَرَبِ قَبْلَ الإسلام: قصيدة الظَّعَائِن نَمُوذَجًا** (الرِّياض: دار المُفْردات، 1418هـ = 1998م).

[99←]

() رُومِيَّة. وَهْب. **الرِّحْلَةِ في القصيدة الجاهِلِيَّةِ** (بيروت: مُؤَسَّسة الرِّسالة، 1402هـ = 1982م).

[100←]

() بدر، عبد المُحْسِن طه. **دراساتٌ في تطوُّرِ الأدبِ العربيّ الحديثِ** (القاهرة: دار المُسْتَقْبَل العربيّ، 1993م)، ص 41.

[101←]

() الكَلَالَة: النَّسَبُ البَعِيد.

[102←]

() بَكير، عبد الوَهَّاب. **مُعْجَمُ أُمَّهاتِ الأفعال؛ مَعانِيها وأَوْجُهُ استعمالها** (بيروت: دار الغَرْب الإسلاميّ، 1997م).

[103←]

() له نَشراتٌ مختلِفة، ورجَعْتُ، هُنا، إلى طَبْعةِ جامِعة القاهرة، 1973م.

[104←]

() عبد البديع، لُطْفِي. **عبقريّة العربيّة في رُؤْيَةِ الإنسانِ والحيوان والسّماء والكواكِب** (جدَّة: النَّادي الأدبيّ الثَّقافيّ، 1406هـ = 1986م).

[105←]

() الزَّجَّاجِيّ، أبو القاسِم عبد الرَّحمن بن إسحاق. **الإبدال والمُعَاقَبَة والنَّظَائِر**، تحقيق عِزِّ الدِّن التَّنُوخِيّ (بيروت: دار صادِر، 1991م).

[106←]

() الذَّهبيُّ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان. **سِيَر أعلام النُّبَلاء**، تحقيق بَشَّار عَوَّاد معروف ومُحْيي هلال السَّرْحان (دمشق: دار الرِّسالة العالَمِيَّة، 1440هـ = 2019م)، 21/6-7.

[107←]

() الْحَمَوِيّ، شِهَاب الدِّين ياقوت بن عبد الله. **مُعْجَم البُلْدان** (بيروت: دار صادِر، 2010م)، 2/392-393.

[108←]

() المُزَيْنِيّ، حمزة بن قبلان. **مُرَاجَعَات لِسَانِيَّة** (الرِّياض: مُؤَسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة – كِتاب الرِّياض، 1421هـ = 2000م).

[109←]

() تُلَيْمَة، عبد المُنْعِم. **مُقَدِّمة في نَظَرِيَّةِ الأدب** (بيروت: دار التَّنوير، 2013م.

[110←]

() الظَّاهِر، عَلِيّ جَوَاد. **مُعْجَم المطبوعاتِ العربيَّةِ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ** (الرِّياض: دار اليمامة للبَحْثِ والتَّرجمةِ والنَّشر، 1418هـ = 1997م).

[111←]

() الْجَبَرْتِيّ، عبد الرَّحمن. **عَجَايِب الآثار في التَّراجِم والأخبار**، إعداد وتحقيق عبد العزيز جَمَال الدِّين (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997م)، 3/457.

[112←]

() حِجَازِيّ، أحمد عبد المُعْطِي. **أحفاد شوقي** (جدَّة: منشورات الخزندار، 1992م).

[113←]

() جَرَّار، صلاح. **زَمان الوَصْل؛ دراساتٌ في التَّفاعُل الحضاريّ والثَّقافيّ في الأندلس** (بيروت: المُؤَسَّسةُ العربيَّةُ للدِّراساتِ والنَّشر، 2004م).

[114←]

() نَصَّار، حُسَيْن. **التَّحَدُّث بِنِعْمَةِ الله** (القاهرة: دار الكُتُب والوَثائِق القَوْمِيَّة، 2018م).

[115←]

() **رسائل ابن حَزْم**، تحقيق إحسان عَبَّاس (بيروت: المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، 1987م).

[116←]

() گنُّون. عبد الله. **النُّبُوغُ المَغْرِبِيّ** (الدَّار البيضاء: دار الثَّقافة، د.ت).

[117←]

() عَبَّاس، إحسان. **بَدْر شاكِر السَّيَّاب؛ دِراسةٌ في حياتِهِ وشِعْرِهِ** (بيروت: المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، 1992م).

[118←]

() البازِعِيّ، سعد. "نَقد المُستَعْمَر... غِيَابُ النَّظريَّاتِ المُتَمَاسِكة"، صحيفة **الشَّرق الأوسط**، ٤ مِنْ شهر شوَّال ١٤٤٤هـ = ٢٤ مِنْ شهر نيسان (أبريل) ٢٠٢٣م.

[119←]

() طُبِعَ مِرَارًا.

[120←]

() عنانيّ، محمَّد. **المُصْطَلَحاتُ الأدبيّةُ الحديثةُ** (بيروت: مكتبة لُبنان ناشِرون، القاهرة: الشَّرِكة المِصْريَّة العالَمِيَّة للنَّشر، 1996م).

[121←]

() الشَّنْتَرِينِيّ، أبو الحَسَن عَلِيّ بن بَسَّام. **الذَّخِيرة في مَحَاسِنِ أَهْلِ الجَزِيرة**، تحقيق إحسان عَبَّاس (بيروت: دار الغَرْب الإسلاميّ، 2000م).

[122←]

() ناصِف، مصطفَى. **دِراسة الأدب العربيّ** (بيروت: دار الأندلُس، 1983م).

[123←]

() رُسْتُم. أَسَد. **الرُّومُ في سِياسَتِهِم، وحَضَارَتِهِمْ، وصِلَتِهِمْ بالعرب** (القاهرة؟: دار الكنزيّ للنَّشر والتَّوزيع، 2021م).

[124←]

() المَقَّرِيّ، أبو العَبَّاس شِهَاب الدِّين أحمد بن محمَّد التِّلمسانيّ القُرَشِيّ. **نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأندلُسِ الرَّطيب**، تحقيق إحسان عَبَّاس (بيروت: دار صادِر، 1408هـ = 1988م).

[125←]

() الأنبارِيّ، أبو بكر. **المُذَكَّر والمُؤَنَّث**، تحقيق محمَّد عبد الخالِق عُضَيْمَة (القاهرة: وزارة الأوقاف؛ المَجْلِس الأعلَى للشُّؤون الإسلاميَّة، 1401-1419هـ = 1981-1999م).

[126←]

() فَرُّوخ، عُمَر. **غُبَار السِّنِين** (بيروت: دار الأندلُس، 1405هـ = 1985م).

[127←]

() صَمُّود، حَمَّاديّ. **التَّفكير البلاغيّ عند العرب؛ أُسُسُهُ وتَطَوُّرُهُ إلى القَرْنِ السَّادِس** (تونُس: منشورات الجامِعة التُونُسِيَّة، 1981م).

[128←]

() صَمُّود، حَمَّاديّ. **التَّفكير البلاغيّ عند العرب؛ أُسُسُهُ وتَطَوُّرُهُ إلى القَرْنِ السَّادِس** (بيروت: دار الكِتاب الجديد المُتَّحِدة، 2010م).

[129←]

() كي لسترنج. **بُلدَانُ الخِلافَةِ الشَّرقِيَّةِ**، ترجمة بَشِير فرنسيس وكوركيس عَوَّاد (بيروت: مُؤَسَّسة الرِّسالة، 1405هـ = 1985م).

[130←]

() الرَّاعِي، عَلِيّ. **القِصَّة القصيرة في الأدب المُعاصِر** (القاهرة: كِتاب الهِلال، 1420هـ = 1999م).

[131←]

() الصَّفَدِيّ، صلاح الدِّين خليل بن أَيْبَك. **الغَيْثُ المُسجَم في شَرْحِ لامِيَّةِ العَجَم** (بيروت: دار الكُتُب العِلْمِيَّة، 1424هـ = 2003م).

[132←]

() مُبارَك، زكيّ. **المُوَازَنة بين الشُّعراء** (القاهرة؟: د.ن، د.ت).

[133←]

() سرحان، سمير. **عَلَى مَقْهَى الحياة** (القاهرة: الهيئة العامَّة للكِتاب، 1988م).

[134←]

() عبد البديع، لُطفِي. **التَّركِيبُ اللُّغَوِيُّ للأدب؛ بَحْثٌ في فلسفةِ اللُّغة والاستطيقا** (بيروت: مكتبة لُبنان ناشِرون، القاهرة: الشَّرِكة المِصْرِيَّة العالَمِيَّة للنَّشر، 1997م)، ص 3.

[135←]

() يحيى، كِيَان أحمد حازِم. **الاحتمالات اللُّغويّة المُخِلّة بالقَطْعِ وتَعَارُضِها عِندَ الأُصوليِّين** (بيروت: دار المَدَارِ الإسلاميّ، 2013م).

[136←]

() العالِم، محمود أمين. **البَحْث عن أورُبّا** (بيروت: المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشْر، 1975م).

[137←]

() مجلَّة **الباحِث**، العَدَد الرَّابِع، سَنَة ١٩٨٧م (١٤٠٨هـ).

[138←]

() فَرُّوخ. عُمَر. **غُبَار السِّنِين** (بيروت: دار الأندلُس، 1405هـ = 1985م).

[139←]

() جَبْرا، جَبْرا إبراهيم. **الحُرِّيّة والطُّوفان؛ دراسات نَقْدِيّة** (بيروت: المُؤَسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشْر، 1982م)، ص ص 5-15.

[140←]

() الْبِيانُو.

[141←]

() ضياء، عزيز. **حياتي مَعَ الجُوعِ والحُبِّ والحَرْب** (جدَّة: مُؤَسَّسة الشَّرْق الأوسط للإعلان والثَّقافة والنَّشْر، دار البِلاد للطِّباعة والنَّشْر، د.ت).

1. الغلاف
2. حَيَاةٌ واحِدَةٌ لا تَكْفِي
3. الإِهْدَاء
4. لَسْتُ أَهْوَى القِرَاءَةَ لِأَكْتُبَ، و...
5. وقال [محمَّد] بْنُ الْجَهْمِ: إذا استحْسَ...
6. دِيباجَةُ الْكِتابِ
7. أَوَّلُ مكتبةٍ في حَيَاتِي..
8. كَيْفَ أَقْرَأُ؟
9. لا أُضِيعُ وَقْتِي في القِرَاءَةِ لِأَيٍّ أَحَدٍ!
10. ذِكْرَيَاتٌ مُعْجَمِيَّةٌ
11. مَجَلَّاتٌ أَحْبَبْتُها
12. طائِرٌ عَلَى سِنْدِيانَةٍ!
13. تعرف إيْه عَنِ المَنْطِقِ؟!
14. الأُستاذُ.. والْحَقُّ المُرُّ!
15. ذِكْرَى كِتاب
16. ذِكْرَى كِتاب
17. عُلُومُ القُرآنِ
18. ذِكْرَى كِتاب
19. ذِكْرَى كِتاب
20. مُدَرِّسُ نَحْوٍ وصَرْفٍ
21. مُذَكِّراتُ قاسِمِ الرَّجَب
22. أُورغانون محمَّد مندور!
23. التَّارِيخُ الثَّقافِيُّ لِلبَلَدِ الْحَرَامِ
24. مكَّةُ والمدينةُ.. مَدِينتانِ عالِمَتانِ

25. دَرْبُ زُبَيْدَة
26. القَوْلُ الحَصِيف في عبد الله المُنِيف
27. كَلِمةٌ عنِ الخَطِّ في عامِ الخَطِّ
28. أحمد الضُّبَيْب وكِتاب العُمْر
29. نَخْلَةٌ حضرميَّةٌ في غُوطَةِ دِمَشق
30. هلْ تُسْتَعادُ أيَّامُ الثَّغْرِ النَّموذجيَّة؟
31. نَبْتُ الأرضِ وابْنُ السَّماءِ
32. مِنَ الصَّوْتِ إلى الكتابةِ
33. عبدُ الرَّحمن المُعَمَّرُ إمتاعٌ ومُؤَانَسَة
34. صَبْرُ أحمدَ وعِشْقُهُ
35. أحمد آل مُرَيِّع يُعِيدُ الأدبَ إلى شَجَرَةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ
36. أحمد آل مُرَيِّع يُعِيدُ الأدبَ إلى شَجَرَةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ
37. بين عُثْمَانَ وأبو مَدْيَن.. نَقْدٌ أدبيٌّ أَمْ مُداهَنَةٌ؟
38. شجاعةُ نُورة
39. فِهْرِسَةُ ما رَوَاهُ ابنُ خَيْرٍ الإشبيليُّ عنْ شُيُوخِهِ
40. نَصٌّ تَشَعُّبِيٌّ
41. أَنسابُ الكُتُبِ
42. عِلْمُ احتمالاتِ النُّصُوص
43. تَعْلِيقَةٌ عَلَى شَرْحِ الكَفْرَاوِيِّ!
44. الانتصارُ لِـ "الشُّرُوحِ والحَوَاشِي"
45. المَتْنُ والحاشِيَةُ
46. وَكِيلُ كُتُب
47. مَفَاتِيحُ كُتُبِ التَّراجِمِ
48. كَلِمَةٌ عنِ العَلَّامةِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ
49. هَلْ لِنَشْرِ "مُغْنِي اللَّبِيب" في ٧ مُجَلَّدَاتٍ وَجْهٌ؟

50. ساعةٌ في صُحْبَةِ "شَرْحِ أُرْجُوزَةِ أبي نُوَاس"
51. أمين مَدَنيّ.. المُؤَرِّخُ المظلوم!
52. كِتابٌ مَدْرَسِيٌّ... ولكِنْ!
53. كِتابٌ مَدْرَسِيٌّ... ولكِنْ!
54. الكِتابُ الْجامِعيُّ
55. بَيْنَ كِتابٍ ومُذَكِّرة
56. أُسُسُ النَّقْدِ الأدبيِّ عِنْدَ العَرَب
57. مُؤلَّفَاتُ عبدِ العزيزِ عَتِيق
58. مكتبةُ دارِ الوفاء
59. مكتبةٌ دِينيَّة!
60. هذا الشِّعْرُ الحديثُ مَرَّةً أُخرى
61. ذاكِرَةُ النَّقْدِ العربيِّ الحديث
62. ماهِر حَسَن فهمي
63. تاريخُ الجزائرِ الثَّقافيُّ
64. مُقَدِّمةٌ نَفِيسةٌ لِمحمَّد عبده عزَّام
65. طه أحمد إبراهيم.. أيَّ أُستاذٍ كان!
66. ح. ح. عبد الوهَّاب
67. البَحْثُ عنْ كِتابٍ للعَلَّامةِ صلاحِ الدِّينِ المُنَجِّد!
68. حِينَ يُصْبِحُ رَجُلُ الدِّينِ مُؤَرِّخَ أَدَبٍ!
69. الوَسِيلَةُ الأدبيَّةُ في جُدَّة
70. مَعْلَمَةُ المَناهِجِ الأزهريَّةِ
71. في صُحْبةِ أَعْلامِ الزِّرِكْلِيِّ
72. السَّيَّابُ وأعلامُ الزِّرِكْلِيّ
73. تَصْحِيحٌ وَهْمٍ
74. تصحيحُ خَطَإٍ وَقَعَ فيهِ الدُّكتور شُكْرِي المَبْخُوت!

75. أحمد مَطْلُوب
76. أورغانون محمَّد مندورا!
77. يَوْمِيَّاتُ القِرَاءَةِ
78. إفادةُ النَّصِيحِ بالتَّعريفِ بِسَنَدِ الْجامعِ الصَّحِيح
79. تحقيقُ "نَظَر" فيهِ نَظَرا!
80. وَهْمٌ قَبِيحٌ وَقَعَ فيهِ نَظَر الفاريابِيُّ!
81. الأَدَبِيَّةُ لا تُنَافِي العِلْمِيَّةَ
82. وفازَ بِـ "الطَّبْعَةِ" الْجَسُورُا!
83. دِرَاسَةٌ أَمْ تَلْخِيصٌ
84. تَفْسِيرٌ سَطْحِيٌّ لِعَبْقَرِيَّةِ البارودِيِّ
85. عَلَى خُطَى ابْنِ القُوطِيَّةِ
86. ذِكْرَى
87. مِيشَا
88. القِرَاءَةُ خِبْرَةٌ
89. كِتابٌ في فِقْهِ اللُّغةِ
90. فِقْهُ اللُّغَةِ عَلَى أُصُولِهِ
91. مُقَدِّمةُ الْعَلَّامةِ عِزِّ الدِّينِ التَّنُوخِيِّ
92. ضَبْطُ الأسماء
93. مُرَاجَعاتُ حَمْزَةَ المُزَيْنِيِّ
94. كِتابٌ مُمِلٌّ!
95. عَلِيّ جَوَاد الطَّاهِرُ ومُفَكِّرةُ الْجَيْبِ!
96. خَلِّ بالَك مِنَ المُرْتَضَى الزَّبِيدِيِّ!
97. نَقْد حِجَازيّ!
98. التَّغرِيبةُ الأندلُسِيَّةُ
99. هَلِ احْتَفَلَ المُسْلِمونَ بأعيادِ النَّصارَى؟

100. بِيرةٌ ذاتِيَّةٌ.. أَمْ نَمِيمةٌ ثقافِيَّةٌ؟
101. النُّبُوغُ الأَنْدَلُسِيُّ
102. إحسان عَبَّاس والسَّيَّاب
103. الابتلاءُ بالتَّغَرُّبِ لِجَلَال آل أحمد!
104. دُرُوسُ العاسِمِيِّ
105. مُؤَلَّفَاتُ لويس عَوَض
106. ثَبَتُ الشَّيْخِ حَسَن المَشَّاط
107. كِتابُ إحسان عَبَّاس في النَّقْدِ الأدبيِّ
108. المُصْطَلَحاتُ الأدبيَّةُ الْحديثةُ
109. يَوْمٌ في حياتي
110. دِرَاسَةُ الأدبِ العربيِّ
111. أَسَد رُسْتُم وتاريخُ الرُّومان
112. الْحَمْدُ لله قَرَأْتُ النَّفْحَ؟
113. محمَّد عبد الْخالِق عُضَيْمَة يُعِيدُ إِلَيَّ البِشْرَ!
114. لِبَعْضِ هذا أَحْبَبْتُ كُتُبَ عُمَرَ فَرُّوخ!
115. كُتُبُ محمَّد عبد المُنْعِم خَفَاجِيّ
116. فائِدَةُ أنْ تَقْرَأَ للكِبارِ
117. كَيْفَ أَقْرَأُ؟
118. يَأْتِيكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبُ!
119. التَّفْكِيرُ البَلاغِيُّ عِنْدَ العَرَبِ
120. أنا والسَّخَاوِيُّ في القَهْوَةِ!
121. الوِيكِيبيديا!
122. إنْ لَّمْ يَكُنْ نَقْدًا فماذا يَكُونُ؟!
123. لَيْلَةٌ في صُحْبةِ ناقِدٍ انطباعِيٍّ!
124. الصَّفَدِيُّ والمكتبةُ الشَّامِلَةُ!

125. عُطْلَةٌ صَيْفِيَّةٌ
126. نُقَّادُ الأدبِ لا يَجْلِسُونَ في الْقَهْوَةِ!
127. التَّلْخِيصُ في المِرْكاز
128. قِرَاءَةٌ تَشَعُّبِيَّةٌ
129. فَلْنَتَوَاضَعْ ولا نُبَالِغْ!
130. حَلَّاقُ القَرْيةِ!
131. دَرْسٌ
132. كُتُبٌ أُحِبُّها
133. هَوَاءٌ جَدِيدٌ
134. لَيْتَنا ما خَسِرْنا أُدَباءَ المَهْجَرِ!
135. أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ
136. سِيَاحَةٌ هَيْكَلِيَّةٌ!
137. عُمَرُ فرُّوخ يَكْتُبُ أَعْذَبَ شِعْرٍ للأطفالِ
138. أَكْبَرُ مِنَ القَوَاعِدِ
139. في المِركاز
140. لماذا كان نَقْدُ جَبْرَا إبراهيم جَبْرَا مُخْتَلِفًا؟
141. كَيْفَ صَنَعَتْ بِيئَةً صَّالِحةً للقِرَاءَةِ والكتابةِ؟
142. آلة كاتِبة
143. عَنِ الأُمْنِيَّاتِ
144. كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ المُعْجَمِ الوَسِيطِ
145. فِقْهُ اللُّغَةِ
146. حياتي مَعَ الْجُوعِ والحُبِّ والْحَرْبِ
147. الهوامش